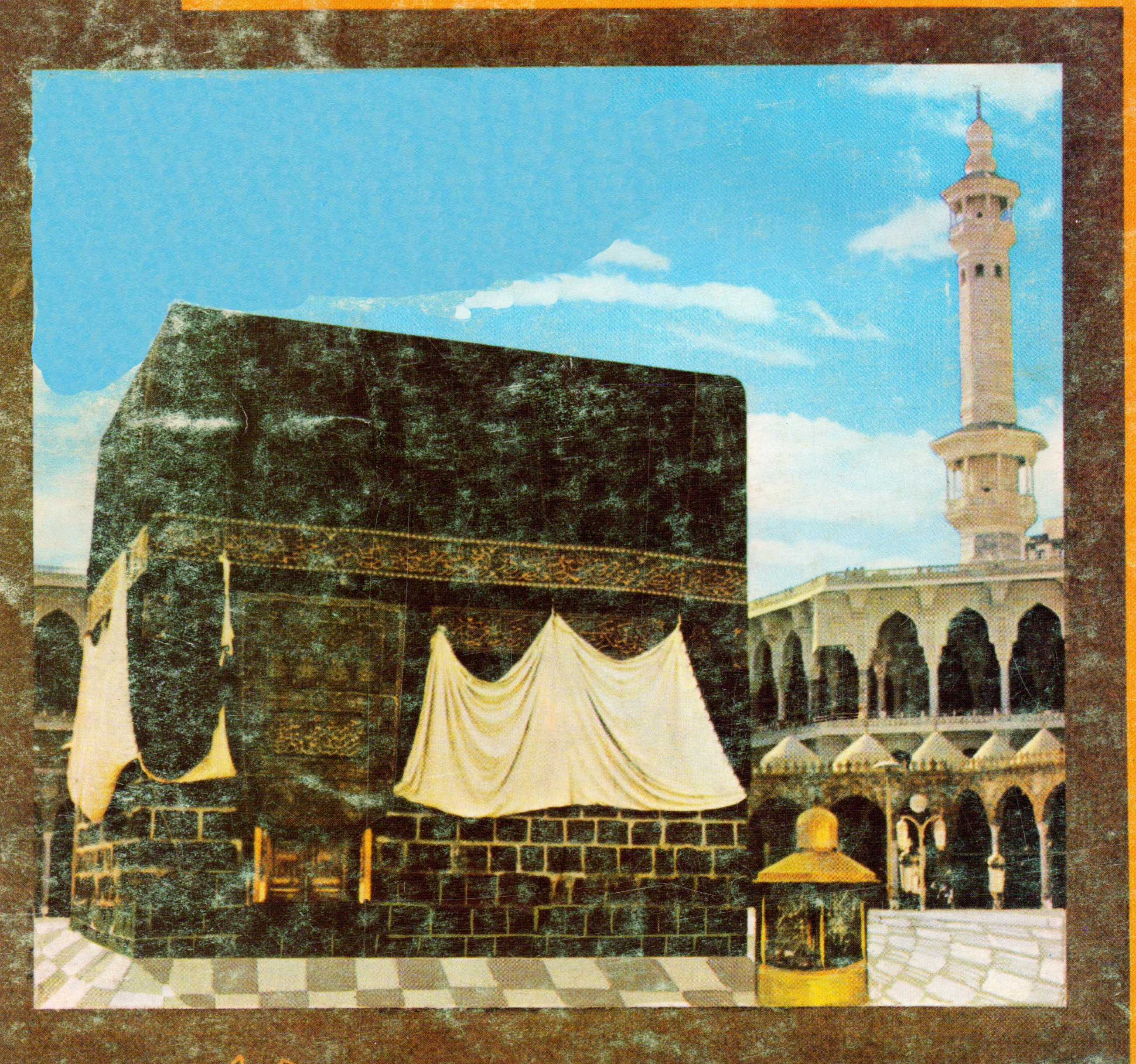
مجلة

الجامعة الإسلامية

وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا



عدد خاص

العدد الأول من السنة الثانية عشرة

محرم / صفر / ربيع أول سنة ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة

الجامعة الإسلامية

المراسلات : ترسل إلى المجلة باسم رئيس التحرير

العنوان : المدينة المنورة .. الجامعة الإسلامية

صمم الغلاف الفنان / حسام عباس خضر


بسم الله الرحمن الرحيم

قبس من كتاب الله

□ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

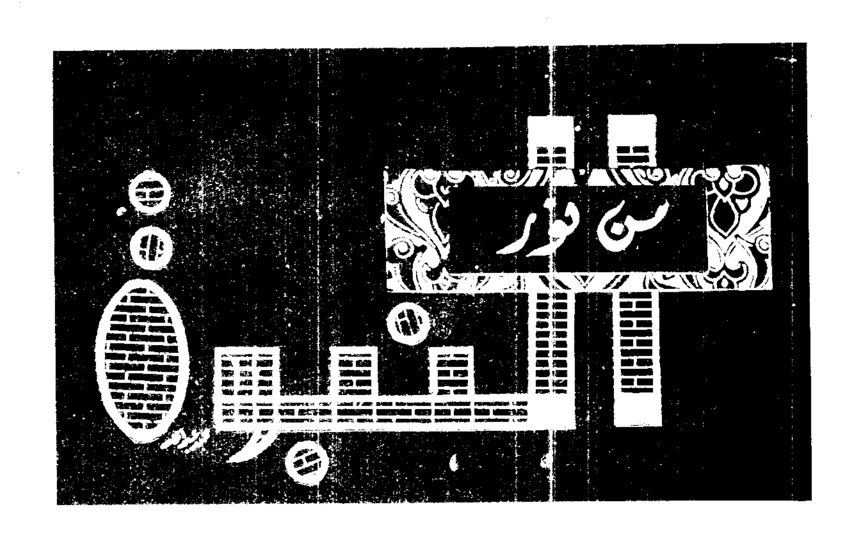
(الحج آية ٢٥ ، ٢٦)

□ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝

(المائدة آية ٣٣ ، ٣٤)

□ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝

(فاطر آية ٨)



قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ستكون هِنَات وهناتٌ ، فمن أراد أن يُفَرِّق أمر هذه الأمة وهى جميعٌ ، فاضربوه بالسيف كائناً من كان » ..

(أخرجه مسلم)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من خرج عن الطاعة ، وفارق الجماعة ، فمات ، مات ميتة جاهلية » ..

(أخرجه البخارى)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » ..

(البخارى)

حكمة العدد

ثلاثة يفسدون الدنيا :

١ ـ نصف طبيب : يفسد الأبدان .
٢ ـ ونصف فقيه : يفسد الأديان .
٣ ـ ونصف نحوى : يفسد اللسان .

(شيخ الإسلام ابن تيمية)

العمل بغير اخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه ..

(ابن القيم)



■ ■ الحمد لله ، وصلاة الله وسلامه وبركاته على رسول الله وعلى آله وصحبه ..

وبعد : فإن حادث المسجد الحرام الذى وقع في أول المحرم عام ١٤٠٠ هـ (أى في مطلع القرن الخامس عشر الهجرى) أمر لا ينبغى أن يمر كما يمر أى حادث من حوادث الدهر الكثيرة ، لأنه فجيعة عالمية فاجأت المسلمين في أقدس مكان حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، وفي الشهر الحرام الذى ظل محل احترام في الجاهلية والإسلام ، واستبيح فيه الدم الحرام من حاضرى المسجد الحرام وغيرهم من ضيوف الرحمن من الحجاج والمعتمرين ، فهو حادث في غاية الغرابة ، فيجب الوقوف أمامه وقفة تأمل وتساؤل : لماذا وقع ؟ وكيف وقع ؟ ..

■ نعم يجب الوقوف أمامه وتقليب أمره لننظر فيه من جميع جوانبه ، لنستخلص منه ما فيه من عبر ، ثم لنراجع صحائف أعمالنا لنرى ما فيها من تقصير أوجب أو سبَّبَ هذه الفتنة العمياء المدهشة ، لنمحو أثر ذلك التقصير بالانابة إلى الله (غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول) ، الذى قدر ولطف فيما جرت به المقادير ؛ وهو اللطيف الخبير ، حيث انتهى الحادث إلى تلك الفرحة التى غمرت القلوب ، قلوب المؤمنين في كل مكان ، وهى فرحة تطهير المسجد الحرام للطائفين والقائمين والركع السجود ، بعد أن دنَّسه أولئك المتهورون العصاة المتمردون ، تلك الفرحة التى بردت قلوب المسلمين المفجوعة التى باتت تنتظر فترة التطهير بفارغ الصبر .

وإن أول آذان بعد الحادث يعتبر إعلاناً بأن الفتنة انتهت بما حملت من أحزان وهموم وكآبة ، وحل محلها الفرح والسرور ، الفرح بنعمة الله ، نعمة التمكين من تطهير المسجد الطاهر مما طرأ عليه من أعمال الجهيمانيين السفهاء .

وهذا أمر له أهميته ، ينبغى التنويه به ، وهو أن أولئك الصبية السفهاء كانوا يطلقون على أنفسهم ـ فيما بلغنى ـ أنهم (سلفيون) ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ـ وإطلاقهم هذا الاسم على أنفسهم لا يخرج من أحد أمرين :

١ ـ إما أنهم لا يعرفون المفهوم الصحيح للسلفية ، فيكون اطلاقهم ذلك الاسم نتيجة جهل قد يكون مركباً .

٢ ـ وإما انهم أرادوا المغالطة والتضليل ، فيكون الإطلاق نتيجة سوء قصد لتشويه هذا الاسم الحبيب الذى يعنى الرعيل الأول في هذه الأمة ومن سلك مسلكهم .

■ فليعلم القارئ الكريم أن الجهيمانيين ليسوا « بسلفيين » ، وليسوا أهلاً للدعوة ولكنهم « متسلفون » ومدعون السلفية ، وزاعمون الدعوة إلى الإسلام ، وهم بعيدون عن الاسلام ذاته فضلاً عن الدعوة إليه .

هذا واذا نظرنا إلى الحادث الأثيم بعين القدر يمكن القول : لعل الله أراد أن يفضح أولئك المتهورين المجرمين على رؤوس الأشهاد ، إذ كان اقتحامهم المسجد الحرام في الوقت الذى يتواجد فيه حجاج بيت الله الحرام بأعداد كثيرة حيث استطاعوا أن ينقلوا أخبارهم وتصرفاتهم الجاهلية إلى أقطار الدنيا عن مشاهدة لا بواسطة مذياع أو صحف .. هذه من ناحية .. ومن ناحية أخرى فإن الشيطان زين لهم أن يقتحموا المسجد الحرام بأعداد هائلة ، وكأن الشيطان وعدهم بالنصر وقال لهم

« إنى جار لكم » ، ولما تورطوا وأحاط بهم جنود الحق وحماة البلد الحرام (الجيش السعودى) ، تبرأ منهم ، وكأنى به وهو يقول لهم : « إنى برئ منكم ، إنى أرى ما لا ترون » كعادته المعروفة ، في تغرير البسطاء ، وتوريطهم ، ثم البراءة منهم في آخر المطاف ـ نعم لعل الله أراد أن يفضحهم ، ثم ينتهى شرهم ، وتنطفئ فتنتهم بتلك الصورة التى تم بها القضاء عليهم ، والله عليم حكيم ، وله الحمد والمنة وحده .

وسوف يتحدث في هذا العدد من « مجلة الجامعة الإسلامية » ـ الذى يصادف صدوره انتهاء الحادث ـ عدد من الكتاب حول الحادث الأليم ، وما انطوى عليه من الأحقاد الكمينة ، حديثاً يتضمن بيان حكم الإسلام في أولئك الصبية السفهاء من أنهم من المفسدين في الأرض ، الذين يجب أن يقتلوا تقتيلا جزاءً وفاقاً ، كما يتناول حديثهم الإشادة بذلك الأسلوب الحكيم الذى وفق الله تعالى اليه حكومة جلالة الملك خالد بن عبد العزيز أثناء القضاء على الفتنة العمياء .

ومجلة الجامعة الإسلامية لتنتهز هذه الفرصة ، فرصة الفرحة الكبرى بيوم التطهير لتهنىء جلالة الملك المعظم الذى شرفه الله بحماية الحرمين الشريفين والذود عنهما بالنفس والنفيس ، أيده الله بنصره .

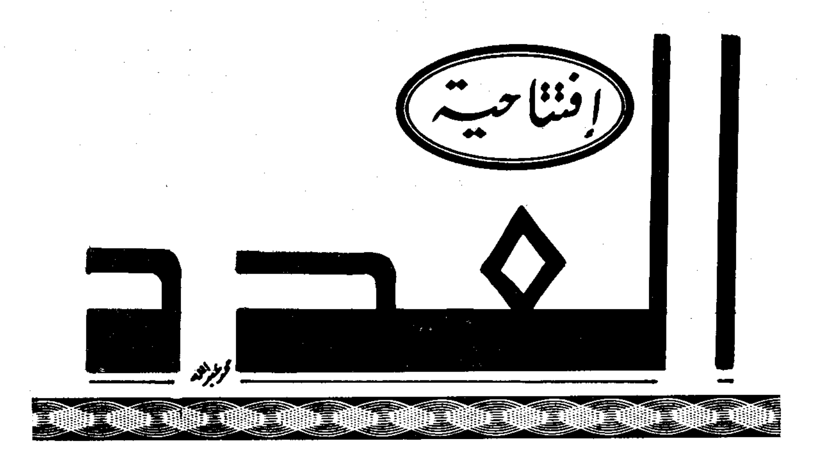
■ كما تهنىء المجلة صاحب السمو الملكى الأمير فهد بن عبد العزيز ولى العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء بهذه النعمة العظيمة ، وصاحب السمو الملكى الأمير عبد الله بن عبد العزيز النائب الثانى لرئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطنى .. وكذلك تهنىء المجلة أولئك الأبطال من رجال الحرس الوطنى الذين ساهموا مساهمة فعالة في تطهير المسجد الحرام .

كما تهنىء المجلة صاحب السمو الملكى الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع ، وصاحب السمو الملكى وزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز ، وجميع الذين اشتركوا في القضاء على تلك الفتنة من أفراد الجيش السعودى الأبطال ، وأفراد الأمن العام البواسل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

رئيس تحرير المجلة

محمد أمان بن على الجامى



فضيلة الدكتور/ عبدالله بن عبدالله الزايد
نائب رئيس الجامعة

■ ان الحمد لله ، نحمده ؛ ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ، ونستفتح بالذى هو خير .

وبعد :

فقد شاء الله عز وجل أن أتولى ادارة الجامعة ، وأسأله جل وعلا أن يمن بالتسديد والعون على ما حملت من هذه المسئولية الضخمة ؛ وأن أكون عند حسن ظن المسئولين وظن الغيورين على العلم وطلابه ؛ لأسير بركب هذه الجامعة الى حيث تطوف أرجاء العالمين ، تاركة في كل بقعة أثراً من هدى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، خَلَفاً لسلفٍ كريم ..

ولئن كان انشاء الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ـ مهبط الوحى ومشرق النور الى جنبات المعمورة ـ مما وفق الله تعالى اليه أولى الأمر فى هذه البلاد الطيبة ، فما ذلك الا لأنهم ـ بحمد الله ـ ورثة الدعوة خلفاً عن سلف ، يقيمون الحكم فى مملكتهم على هدى الشريعة السمحة ويقيمونها بين الناس كذلك أراد الله من الحاكمين بين الناس أن يفعلوا كما قال تعالى « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر » (الحج آية ٤١) ،

وقد كانت الركيزة الأولى التى قامت عليها الدولة السعودية وانبنى عليها حكمهم : عقيدة التوحيد ، فأعزهم الله ، وأفاض عليهم من الخير ، والنعم ، والاستقرار ، والأمن ، ومكن لهم ما لم يمكن لغيرهم من طيب العيش ، وهناءة الحياة .

■ ولقد أحسست منذ اللحظة بثقل العبء ، وجسامة المسئولية ، ذلك بأن الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة انما تغاير الجامعات المنبثة في أنحاء العالم ، فهى فريدة في نهجها ، فريدة في وسائلها ، فريدة في أهدافها :

أما نهجها : فهو انها خصصت خمسة وثمانين في المائة على الأقل من مقاعد طلبة العلم الدارسين بها لأبناء العالم الاسلامى في مختلف أنحاء المعمورة ، ولم تبق للطلاب السعوديين سوى ١٥٪ على الأكثر من مقاعدها ، الأمر الذى وصل به عدد جنسيات من يدرسون بها من خارج المملكة مائة جنسية ، ومن ثم حُق لها ـ وهى بهذه المثابة ـ أن توصف بأنها جامعة العالم الاسلامى بأسره .

وأما وسائلها : فهى انها قد أمَّنت لكل دارس بها وسيلة قدومه من بلده الى مقرها ، كما أمَّنت ـ بعد قدومه ـ لمأواه مسكناً مؤثثاً تطيب به نفسه ، وأمَّنت له كتب العلم المتنوعة التى يحصلها ، والعلاج ، القريب بمستشفى كائن بمقر الجامعة تقوم عليه نخبة من خيار الأطباء ، واضافة الى هذا فقد خصصت الجامعة لطلابها سيارات خاصة تنقلهم يومياً من مهاجعهم بالجامعة الى الحرم النبوى الشريف ثم تعيدهم اليها وفوق ذلك كله فان الجامعة تمنح كل طالب فيها مكافأة شهرية مجزية .

■ وأما أهدافها : فهى انها تسعى الى تخريج علماء يترسمون خطى السلف الصالح ، فينهلون من العلوم الشرعية الصحيحة القائمة على عقيدة التوحيد والتى تدور في فلكها ، بعيدة عن الزيف الذى لبَّس على المسلمين الحق بالباطل ، ثم تعيد هؤلاء الخريجين ـ بعد أن وفقهم الله للفقه في دينه ـ الى بلادهم ليتداركوا المسلمين الذين ذهبت بكثير منهم البدع كل مذهب ، وطوَّحت بهم الخرافات في كل مشرب ، وأصبح كثير منهم إمَّعات كريش تلعب به هبَّات الرياح ؛ تعيدهم إلى بلادهم ليكونوا لها رسل خير ، ودعاة صدق ، وألسنة حق ، فيصححوا ما انحرف من عقائد المسلمين ، وليصدُّوا تلك الموجات العارمة من الزيغ ، وليوقفوا ـ بالحجة والبيان ـ تلك التيارات الجارفة من الالحاد ، التى تُرسل معها الشياطين على الغافلين تؤزهم أزاً ، في محاولات عنيدة لاذابة كيان المسلمين ـ وبخاصة الشباب منهم ـ ومحو واقعه .

إن من أهداف الجامعة تكوين خريجين قادرين على التصدى لأعداء الله الظاهرين لنا والمغيَّبين عنا بالعلم والايمان ، تحقيقاً لقول الله تعالى : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .. (التوبة آية ١٢٢) .

ولقوله جل شأنه : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » .. (الأنفال آية ٦٠) .

لكم سعدت حقاً بأبناء العالم الاسلامى في هذه الجامعة ، فرؤيتهم ـ بل وقضاء معظم الوقت بينهم ـ بديلٌ عن وقت طويل طويلٍ يبلغ سنين عددا كنت أحتاجها كيما أقابل والتحم بهؤلاء الذين يمثلون دولاً اسلامية شتى ؛ اذ كم من الوقت كنت سأقضيه لو اننى أردت أن أطوف بمائة دولة تضم مسلمين يتفاوتون كثرةً وقلةً ، فضلاً عن أن أتحدث ـ على الأقل ـ الى ممثل كل دولة منها ، وأتعرف على مشاكلهم ، وأقوم على حلِّها .

■ وأرجو أن يكون ذلك نعمة من الله يعيننى على شكرها وشكر سائر نعمه .. كما أسأله تعالى أن يوفقنى الى تحقيق ما حمِّلتُ ، لأبلغ بهذه الجامعة ـ بعون الله تعالى وقوته ـ أعظم ما ينفع المسلمين في امور دينهم ودعوتهم وإن أنسى فلن أنسى ـ بحول الله ـ قولة سيد المرسلين ، وإمام الهدى الى العالمين ، صلوات الله وسلامه عليه الى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه حين وجهه الى خيبر لدكّ معاقل الكفر فيها وفتحها : « فو الله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم (أخرجه البخارى ومسلم) .. فأسأل ربى أن يوفقنى الى أن يَهْدى بى مَنْ يشاء ، ان ربى على ما يشاء قدير

■ ولا يفوتنى أن أذكر في مقامى هذا أننى خلال غمرة هذه السعادة وقعت مفاجأة مروعة عكرت صفو النفوس ، وحولت الفرحة حزناً والماً ، ذلك أنه في مطلع شهر المحرم ، قامت فئة من الشباب الغر ، الذين جهلوا أمر دينهم ، وما رجوا لله وقاراً ، وملأ الغرور عليهم أنفسهم فسوّل لهم الشيطان وأملى لهم ، اذ حشدوا مجموعة ضخمة من الأسلحة واقتحموا بها بيت الله الحرام - الذى جعله الله مثابةً للناس وأمناً - وارتكبوا من جرائم قتل النفوس البريئة المعصومة الدم ، ما أفزع الآمنين ، وروّع الطائفين والراكعين الساجدين ، ونشر الذعر في بلد الله الحرام في الشهر الحرام ، وصدَّ الآمِّين المسجد الحرام الذى جعله الله للناس سواء العاكف فيه والباد ، زاعمين أن « المهدى » قد ظهر فيهم ، وأرادوا حمل منْ بالمسجد الحرام قَسْراً تحت إرهاب السلاح - على مبايعة « مهديهم المزعوم » وما جر هذه الفئة الباغية إلى مثل فظائعهم الا أنهم لم يحصلوا من العلم الصحيح المحقق ما يردهم عن مثل ما ارتكبوا من مسلك إجرامى فريد ٠

لكن الله تعالى - جلت قدرته - دائماً بالمرصاد لكل من يريد انتهاك حماه ، وتخطى حدوده بعامة ، واستباحة حمى البيت الحرام بخاصة ، فقال سبحانه « ومن يُرِدْ فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » (الحج آية ٢٥) - وتحقق ذلك فعلاً ؛ اذ كان من فضل الله تبارك وتعالى ، أن وفق أولى الأمر في البلاد فمكنهم من قمع فتنة أولئك المارقين الذين أعماهم الجهل ، وأهلكهم الغرور ، وضربت الغشاوة على قلوبهم وأبصارهم جواً من الظلمة الرهيبة التى عاشوا فيها مع الشيطان الرجيم ٠

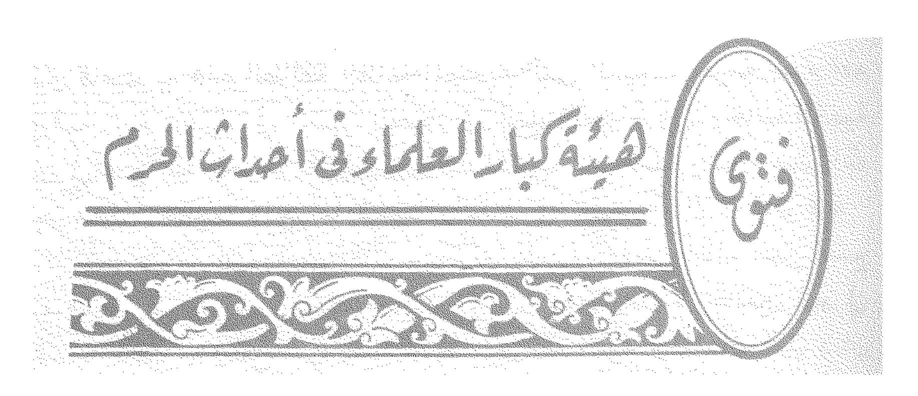
■ لقد كان فضل الله جل وعلا على هذه الأمة عظيماً ، حين أقدر قادتنا وفي مقدمتهم جلالة الملك وولى عهده على سحق أولئك الباغين ، واقامة شرع الله تعالى فيهم ، الذى جعله الشارع الحكيم ردعاً وزجراً ، فمن ينفذ الى قلبه الشيطان أو تميل نفسه الى أن ينهج نهج أولئك العابثين ، يجد حدَّ الله تعالى الذى طُبِّق عليهم أمام عينيه ماثلاً في قوله سبحانه : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم » (المائدة آية ٣٣) ٠

ولقد وفق الله جنود الحق من هذا البلد الأمين ، فاستبسلوا في جهاد تلك الفئة العادية ، حتى أحيط بها ، وسقطت بين قتيل يشيِّعه مقت الناس خاصهم وعامهم ، وبين ذليل مُقرٍّ بما قدمت يداه ، ونال كل من الجزاء ما ناسابه ، ذلك بأن الله أعظم غيرة على دينه ، وبيته ، وحرماته ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ٠

فشكَرَ الله لأولى الأمر جهودهم ، ومن ضرب معهم بسهم جل أو عَظُم ، وجعلهم خير خلف لخير سلف ، ومكَّن لهم في الأرض لينشروا بين العالمين دعوته وأيَّدهم بالحق ، وأيَّد الحق بهم ؛ وجعلهم قوَّامين بالقسط شهداء لله .. ان ربنا جواد كريم ، وبالاجابة جدير ، وهو حسبنا ومولانا ونعم الوكيل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه ٠

دكتور عبد الله بن عبد الله الزايد
نائب رئيس الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة



أصدر أصحاب الفضيلة العلماء في المملكة فتوى شرعية تحدد طبيعة التعامل الشرعى مع الشرزمة التى انتهكت حرمة البيت العتيق وذلك بناء على دعوة من جلالة الملك حفظه الله وبياناً فيما يلى نصهما وأسماء أصحاب الفضيلة العلماء الذين أصدروهما

نص الفتـوى

■ الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وبعد .. ففى يوم الثلاثاء اليوم الأول من شهر المحرم عام اربعمائة وألف من الهجرة دعانا نحن الموقعين أدناه جلالة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود فاجتمعنا لدى جلالته في مكتبه في المعذر وأخبرنا أن جماعة في فجر هذا اليوم بعد صلاة الفجر مباشرة دخلوا المسجد الحرام مسلحين وأغلقوا أبواب الحرم وجعلوا عليها حراساً مسلحين منهم وأعلنوا طلب البيعة لمن سموه المهدى وبدأوا مبايعته ومنعوا الناس من الخروج من الحرم وقاتلوا من مانعهم وأطلقوا النار على أناس داخل المسجد وخارجه وقتلوا بعض رجال الدولة وأصابوا غيرهم وانهم لا يزالون يطلقون النار على الناس خارج المسجد .. واستفتانا في شأنهم وما يعمل معهم فافتيناه بأن الواجب دعوتهم الى الاستسلام ووضع السلاح فان فعلوا قبل منهم وسجنوا حتى ينظر في أمرهم شرعاً ، فان امتنعوا وجب اتخاذ كافة الوسائل للقبض عليهم ولو أدى الى قتالهم وقتل من لم يحصل القبض عليه منهم ويستسلم الا بذلك لقول الله تعالى .. « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين » - ولقول النبى صلى الله عليه وسلم (من أتاكم وأمركم جميع يريد أن يفرق جماعتكم ويشق عصاكم فاضربوا عنقه) رواه مسلم والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ونسأل الله أن يعلى كلمته وينصر دينه وأن يخذل من أراد الاسلام والمسلمين بسوء وأن يشغله بنفسه انه سميع مجيب وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

بيـان

■ الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآله وصحبه ، ونسأل الله أن ينصر دينه ويعلى كلمته على من أراد الاسلام والمسلمين بسوء وأن يعيذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن وأن يكبت من أراد الفساد والالحاد في حرم الله وانتهاك حرمته وسفك دماء المسلمين وبعد ..

■ فان هذا العمل الشنيع الذى قامت به هذه الطائفة الظالمة المعتدية التى انتهكت حرمة حرم الله وأقدس بقعة في أرضه وسفكت فيه الدم الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام وفي رحاب الكعبة المشرفة وروعت المسلمين الآمنين في أمن الله وحرمه .. عمل مخالف لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واجماع الأمة يعتبر منكراً عظيماً واجراماً شنيعاً والحاداً في حرم الله الذى قال فيه (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) .. وقال سبحانه وتعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين لهم في الدنيا خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم) وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (ان الله حرم مكة يوم خلق السموات فهى حرام بحرمة الله الى يوم القيامة وانها لم تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد بعدى وانما حلت لى ساعة من نهار .. وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس .. فليبلغ الشاهد الغائب) متفق عليه ..

وهذه الطائفة تجرأت على مخالفة أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم واجماع الأمة ولذلك سأل ولاة الأمر عن حكم مكافحة شر هؤلاء فصدرت الفتوى الشرعية بأن على ولى الأمر أن يقضى على فتنتهم باتخاذ كافة الوسائل ولو أدى ذلك الى مقاتلتهم ان لم يندفع شرهم الا بذلك .. لقول الله تعالى (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) وهذه الآية وان كانت نازلة في كفار فان حكمها شامل لهم ولغيرهم ممن فعل فعلتهم فاستحل القتال في الحرم باجماع العلماء ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم فاضربوا عنقه كائناً من كان) .. وهذه تعم ما يدعى انه المهدى وغيره وهذه الطائفة أرادت شق عصا امسلمين وتفريق كلمتهم والخروج على امامهم فدخلت في عموم هذا الحديث وغيره من النصوص الشرعية الدالة على معناه .. وولاة الأمر وفقهم الله لكل خير مشكورون على ما قاموا به من جهد لاخماد هذه الفتنة والقضاء عليها فنسأل الله أن يعز بهم الاسلام والمسلمين وأن يوفقهم لما فيه صلاح العباد والبلاد انه سميع مجيب وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

وقد أصدر الفتوى وأقرها كل من :

الشيخ عبد الله بن حميد ، الشيخ عبد العزيز بن باز ، الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن رشيد ، الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل ، الشيخ راشد بن صالح بن خنين ، الشيخ عمر بن عبد العزيز بن مترك ، الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة ، الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن فارس ، الشيخ ناصر بن حمد الراشد ، الشيخ على بن سليمان الرومى ، الشيخ سليمان بن عبد العزيز بن سليمان ، الشيخ محمد بن عبد الله بن الأمير ، الشيخ عبد العزيز بن محمد بن زاحم ، الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن رشيد ، الشيخ محمد بن سليمان البدر ، الشيخ محمد بن ابراهيم بن جبير ، الشيخ صالح بن على بن غصون ، الشيخ غنيم بن مبارك الغنيم ، الشيخ ناصر بن عبد العزيز الشترى ، الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع ، الشيخ عبد العزيز العيسى ، الشيخ ابراهيم بن محمد آل الشيخ ، الشيخ محمد علوى مالكى ، الشيخ صالح بن محمد بن لحيدان ، الشيخ محمد بن سبيل ، الشيخ سليمان بن عبيد ، الشيخ عبد الرحمن حمزة المرزوقى ، الشيخ محمد بن ابراهيم البشر ، الشيخ محمد ابراهيم العيسى .



■ الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه .. أما بعد : فان الحادثة النكراء والجريمة الشنعاء التى قام بها جماعة من المسلحين بعد صلاة الفجر من يوم الثلاثاء الموافق ١ / ١ / ١٤٠٠ هجرية باقتحامهم المسجد الحرام واطلاقهم النار بين الطائفين والقائمين والركع السجود في بيت الله الحرام أقدس بقعة وآمنها قد أقضت مضاجع العالم الاسلامى وألهبت مشاعره وقابلها بالاستنكار الشديد وماذاك إلا لأنها عدوان على البيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا وانتهاك لحرمته وحرمات البلد الأمين والشهر الحرام وترويع للمسلمين واشعال لنار الفتنة وخروج على ولى أمر البلاد بغير حق :.

■ ولا شك أن هذا الاجرام يعتبر من الالحاد في حرم الله الذى قال الله فيه : « ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » ويعتبر ترويعاً للمسلمين وايذاءً لهم وعدواناً وقد قال الله عز وجل « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا » وقال سبحانه « ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيرا » وقال عز وجل « والظالمون مالهم من ولى ولا نصير » يضاف الى ذلك حملهم السلاح واطلاقهم النار على رجال الأمن الذين أرادوا اطفاء فتنتهم وحماية المسلمين من شرهم وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « من حمل علينا السلاح فليس منا » .. ونهى عن حمل السلاح في الحرم وقال عليه الصلاة والسلام « ان هذا البلد حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يسفك فيه دم ولا يعضد فيه شجرة » .. وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام « ان هذا البلد لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولا يحل لأحد بعدى وانما أحل لى ساعة من نهار . وقد عادت حرمته اليوم كحرمته بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب » .. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وقد تعدى شر هذه الفتنة وضررها الى كثير من الحجاج وغيرهم . يضاف الى ذلك اغلاقهم أبواب المسجد الحرام ومنعهم بذلك الداخلين والخارجين . وبذلك تدخل هذه الطائفة تحت قوله عز وجل « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم » وبالجملة فقد حصل بهذه الحادثة الشنيعة ظلم كثير وفساد عظيم وبلاء كبير ولا نعلم أنه مر بالمسجد الحرام مثل هذه الحادثة لا في الجاهلية ولا في الإسلام .

■ أما تبريرهم لظلمهم وعدوانهم وفسادهم الكبير بأنهم أرادوا إعلان البيعة لمن زعموه المهدى فهذا تبرير فاسد وخطأ ظاهر وزعم لا دليل عليه ولا يجوز أن يستحلوا به حرمة المسجد الحرام وحرمة المسلمين الموجودين فيه ، ولا يبيح لهم حمل السلاح وإطلاق النار على رجال الأمن ولا غيرهم ، لأن المهدى المنتظر من الأمور الغيبية التى لا يجوز لأى مسلم أن يجزم بأن فلان بن فلان هو المهدى المنتظر لأن ذلك قول على الله وعلى رسوله بغير علم ، ودعوى لأمر قد استأثر الله به حتى تتوافر العلامات والأمارات التى أوضحها النبى صلى الله عليه وسلم وبين انها وصف المهدى وأهمها وأوضحها أن تستقيم ولايته على الشريعة وأن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً مع توافر

العلامات الأخرى وهى كونه من بيت النبى صلى الله عليه وسلم .. وكونه أجلى الجبهة أقنى الأنف وكون اسمه واسم أبيه يوافق اسم النبى صلى الله عليه وسلم واسم أبيه وبعد توافر هذه الامور كلها يمكن المسلم أن يقول ان من هذه صفته هو المهدى ..

أما اعتماد المنامات في إثبات كون فلان هو المهدى فهو مخالف للأدلة الشرعية ولإجماع أهل العلم ، والإيمان ، لأن المرائى مهما كثرت لا يجوز الاعتماد عليها في خلاف ما ثبت به الشرع المطهر ، لأن الله سبحانه أكمل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولأمته الدين وأتم عليهم النعمة قبل وفاته عليه الصلاة والسلام فلا يجوز لأحد أن يعتمد شيئاً من الأحلام في مخالفة شرعه عليه الصلاة والسلام ، ثم إن المهدى قد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه يحكم بالشرع المطهر ، فكيف يجوز له ولأتباعه انتهاك حرمة المسجد الحرام وحرمة المسلمين وحمل السلاح عليهم بغير حق ؟ وكيف يجوز له الخروج على دولة قائمة قد اجتمعت على رجل واحد وأعطته البيعة الشرعية فيشق عصاها ويفرق جمعها وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما صح عنه « من أتاكم وأمركم جميع يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاضربوا عنقه كائناً من كان » (أخرجه مسلم في صحيحه) .

■ ولما بايع النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بايعهم أن لا ينازعوا الأمر أهله وقال « ألا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان » ، وهذه الدولة بحمد الله لم يصدر منها ما يوجب الخروج عليها ، وانما الذى يستبيح الخروج على الدولة بالمعاصى هم الخوارج الذين يكفرون المسلمين بالذنوب ، ويقاتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الأوثان ، وقد قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم « أنهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية » .. وقال : « أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة » ـ متفق عليه ـ .

والأحاديث في شأنهم كثيرة معلومة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « من رأى من أميره شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة فإن من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية » .. وقال عليه الصلاة والسلام في حديث الحارث الأشعرى « وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن : « الجهاد ، والسمع والطاعة ، والهجرة ، والجماعة ، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه الا أن يراجع » .

■ والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ، وقد صدر من علماء المملكة فتوى في هذه الحادثة والقائمين بها وأنا من جملتهم وقد نشرت في الصحف المحلية وأذيعت بواسطة الإذاعة المرئية والمسموعة وفيها الكفاية ان شاء الله والإقناع لطالب الحق ، وإنما أردت بكلمتى هذه مزيد الإيضاح والبيان لخطأ هذه الطائفة وظلمها وعدوانها فيما فعلت وغلطها فيمن زعمت أنه المهدى ، أما إنكار المهدى المنتظر

بالكلية كما زعم ذلك بعض المتأخرين فهو قول باطل لأن أحاديث خروجه في آخر الزمان وأنه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً قد تواترت تواتراً معنوياً ، وكثرت جداً واستفاضت ، كما صرح بذلك جماعة من العلماء بينهم أبو الحسن الآجرى السجستانى من علماء القرن الرابع ، والعلامة السفارينى ، والعلامة الشوكانى ، وغيرهم ، وهو كالإجماع من أهل العلم ، ولكن لا يجوز الجزم بأن فلاناً هو المهدى إلا بعد توافر العلامات التى بينها النبى (صلى الله عليه وسلم) في الأحاديث الثابتة وأعظمها وأوضحها كونه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً كما سبق بيان ذلك .. ونسأله سبحانه أن يصلح أحوال المسلمين ويمنحهم الفقه في الدين ، وأن يوفق ولاة أمرهم للحكم بشريعته والتحاكم اليها ، والحذر من كل ما خالفها ، وأن يحسن العاقبة للمسلمين إنه جواد كريم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم

١ لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون « رواه مسلم »

٢ جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم « صحيح رواه البخاري »

٣ من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . « رواه البخاري »

٤ من أرضى الناس بسخط الله وكله الله الى الناس « حسن رواه الترمذي »

٥ من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار (الند: المثيل). رواه البخاري .

٦ من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار « صحيح رواه أحمد »



لفضيلة الشيخ / محمد المجذوب
المدرس بكلية الدعوة

■ قضت الحكمة الإلهية أن تكون حياة الإنسان على هذه الأرض سلسلة متصلة الحلقات من المعارك ، مع الشيطان وذريته من جانب ، ومع غرائزه وشهواته من جانب آخر ، ثم مع حاجاته المتجددة أبداً إلى الضرب في أكناف الأرض . وهو في كل ذلك معرَّض لأصناف المحن والفتن التى تسلبه الطمأنينة ، فلا ينفك فريسة للقلق والروع حتى يجد منفذاً يقربه من السلامة ولو عن طريق الوهم .

ونظرة واعية إلى واقع البشر في هذه الأيام تؤكد لنا هذه الحقيقة ، إذ ترينا البسيطة على امتدادها مسرحاً لألوان الأهوال ، لايكاد يسلم من لذعها كائن ولو عاذ بالقمم أو غاص في الخضم .. وليس أسعد للإنسان في مثل هذا الجو الرهيب من أن يعثر على منطقة أمان تهب له فرصة التخلص من قلقه ولو بعد حين .

■ وعلى ضوء هذا الواقع المشهود ندرك قيمة الهبة العظمى التى خص الله بها هذه البقعة من الأرض ، حين أقام فيها بيته العتيق ، وجعلها مثابة للناس وأمنا .

ولقد شاء الله جلت حكمته أن يستأثر عرب الجزيرة بهذه النعمة منذ قيام هذا البيت المطهر دون سائر أرجاء العالم ، فكان لهم كالواحة الخضراء في جديب الصحارى ، يأوون إليه كلما أحاط بهم الروع ، وضاق عليهم الرحب ، فيستروحون في ظله نفحات الأمن الذى عز توافره في غيره . حتى ليلقى الرجل في كنفه قاتل أبيه أو أخيه أو ولده ، فلا يفكر في النيل منه ، توقيراً لبيت ربه وذكرى أبويه وبانييه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .. بل إن الجانى ليحصِّن نفسه من عدوان غرمائه بمجرد اتخاذه قلادة من لحاء الحرم ، يطوِّق بها عنقه فلا تمتد إليه يد بما يكره مادام يحمل أثرا من ذلك الشعار ، شعار السلام .. ومن هنا كان الخروج عن هذا المألوف شذوذا عن قيم الفطرة في أوساط أولئك الجاهليين ، حتى ليعتبرون مجرد الإقدام عليه ضرباً من الفجور المجمع على إنكاره . وهكذا يكون العدوان على حرمة البيت العتيق في عرف أهل الجاهلية ، عدوانا على الحياة نفسها لا على الإنسان وحده .

■ وقد حاول مشركو قريش أن يسوّغوا إحجامهم عن قبول الدعوة الإسلامية بالخوف من انقلاب العرب عليهم ، ظنا منهم أن تقديس العرب لذلك البيت إنما مرده إلى تقديس قريش لآلهتهم المنصوبة عليه (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) فجاء الرد الإلهى على ذلك الزعم تذكيراً بأن الفضل لله وحده في توفير كل هذا الخير لجيران بيته (أو لم نمكن لهم حرما امنا يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ..) ٢٨ ـ ٥٧ .

وما أجل وأروع تلك الصورة التى يتملاها العقل المؤمن في قوله تعالى لهؤلاء المجادلين بالباطل في سورة العنكبوت (أو لم يروا أنا جعلنا حرما امنا ويتخطف الناس من حوله ! ..) .

إنه لمشهد التباين الهائل بين واقع الأرض التى اجتاحتها أعاصير الفتنة حتى لا يفى برسمها إلا صورة الناس كل الناس يتخطفون خلالها ، إلى جانب الواحة المحروسة بحدود الله ، وقد جعل لكل داخل إليها الحق كل الحق في أن يكون آمنا ..

هذه النعمة الكبرى ، نعمة الأمن ، التى استأثر بها عرب الجاهلية وفقدتها سائر شعوب العالم من قبل ، قد أصبحت بعد فجر الإسلام حقا مشاعا لكل بنى آدم ، تهوي أفئدتهم إلى البيت وتنطلق زحوفهم نحوه من كل حدب وصوب ، ليتعارفوا في ظله فيأتلفوا ، وليذكروا اسم الله في أيام معدودات ومعلومات على ما رزقهم من أصناف الخيرات ، ثم يرجعوا إلى ديارهم كيوم ولدتهم أمهاتهم ، فرحين مبتهجين بما أكرمهم ربهم من زيارة بيته ، وبما وفقوا إليه من أداء الشعائر ، وبذل المبرات ، والتطهر من الآثام ، فهم-كما وصفهم النبى أشعيا - (مفديّو الرب يرجعون بترنم ، وفرح أبدي على رؤوسهم ، ابتهاج وفرح يدركانهم ، ويهرب الحزن والتنهد (١) .

■ هذا الحرم المطهر الذى جعله الله مثابة للناس ، يئوبون إليه بين الحين والآخر ، ليستمتعوا في ظله بدفء العافية والهدوء ، في معزل عن الشقاق والشحناء ، اللذين يزحمان مسالك الأرض ، وأتم نعمته عليه بأن ألزم وارديه ومجاوريه موجبات الأمن التى تجدد ما رثّ من وشائج الأخوة الإنسانية ..

هذا الحرم الامن ... أليس من غرائب المفارقات أن يعدو بعض الناس على حرمته ، فيعكروا صفوه ، ويخرِّبوا أمنه ، فيجنوا بذلك على أنفسهم أول ما يجنون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟! ..

أجل .. لقد وجد الشيطان خلال التاريخ غير واحد من جنود الباطل يرتضون أن يمتطيهم للإساءة إلى بيت الله ، الذى أقامه الله لاستقبال الوافدين إليه من عباده المتقين ، فيردهم إلى ما فقدوه من حقيقتهم ، ويتجلى عليهم بالنفحات القدسيات التى تفئ عليهم بما سلبوه من هناءتهم ! .

ولم يقتصر ذلك على ظلمات الجاهلية ، بل تجاوزها إلى تاريخ الإسلام أيضا ..

لقد بدأ أول عدوان في الجاهلية على كرامة هذا البيت بيد (عمرو بن لُحَىّ) ، يوم رفع فوقه صنمه الذى استورده من بلاد الروم ، وما زال حتى أغرى الناس بالاستشفاع به إلى الله ... فكان ذلك مبدأ الزيغ عن ملة إبراهيم ، إذ ما لبث الطواغيت المتتابعون على طريقه أن ملئوا شرفات البيت المطهر بهذه الأرجاس ، إلى أن شاء الله أن ينكسها فيكنسها بيد خاتم رسل الله محيى ملة إبراهيم محمد صلى الله عليه وسلم ..

■ ثم تلا ذلك زحف أبرهة ، الذى ركبه الغرور فآلى ليهدمنَّ أول بيت وضعه الله لعباده في مكة مباركا ، كى يصرف عنه العرب إلى فليسه التى أقامها هو لهم في دار ملكه . فإذا هو وفيله وكتائبه المغرورة كعصف مأكول ..

وتشرق الأرض بنور الإسلام ، ويسترد البيت مكانته الإبراهيمية حنيفاً خالصاً لله وحده ، وكان من حقه أن يستمر على هذا الخط الربانى مادام للإسلام سلطان يحكم مجرى الأحداث وتهفو إليه القلوب .. قلوب أهل الحق .. إلا أن الشيطان الذى أخزاه الله على أيدى الثلة الأولى من تلاميذ النبوة ، لم يلبث إن وجد الثغرات في بناء الأجيال التالية ، فعشش وباض وفرخ ، ثم زين لمبير ثقيف أن يسلط على بيت الله مجانيقه التى صدعت البنية المكرمة ، وقد ألقى على لسانه حجته الإبليسية الداحضة ، التى تقول بأن هدمه للبيت كان خدمة للإسلام، كى يتمكن من إعادته إلى حجمه الذى عهده الناس أيام رسول الله والراشدين من بعده ! وما أحسبه إلا قد علم يقيناً أن الصحابى الجليل سليل الصحابة الأجلة ، عبد الله بن الزبير ، لم يتجاوز رغبة نبى الله صلى الله عليه وسلم بتوسعة البيت حتى يشمل حجر إسماعيل عليه السلام، ولكنها الدنيا التى أعماه حبها فلم يفرق بين مرضاة الله وغضبه .. فكان ذلك من الطاغية أول خرق في حرمات البيت يشهده تاريخ الإسلام .

وما هى إلا حقبة قصيرة حتى تلا تلك الهجمة العاتية طغيان صنائع المجوسية من القرامطة ، الذين اقتحموا ساحة المسجد عام ٣١٧ هـ بقيادة شيطانهم الأكبر سليمان الجنابى - أبو طاهر - ففتكوا بالآلاف من عمّاره ، ما بين طائف وراكع وساجد ، وقتلوا الآلاف من أبناء مكة ، وسبوا الآلاف من نسائهم وذراريهم ، ثم عادوا بالحجر الأسود ، الذى انتزعوه من الركن الذى أنزله فيه رسول الله ، ليجعلوه في بناء مزور دعوا سفهاءهم للطواف به على طريقة أبرهة من قبل(٢) ..

■ وغير بعيد من ذلك العهد جاء العدوان الثالث - عام ٤١٤ - على يد مصرى غُتَلّ من ملاحدة اليهودى بن كلس مؤله الحاكم المجنون .. وبينما الناس في غمرة من الخشوع لجلال الله حول بيته ، إذا هو يستل دبوسا من الحديد فيهوى به على الحجر الأسود .. وكانت مؤامرة أريد بها استكمال ما بدأه اللعين أبو طاهر من قبل ، ولكن الله سلم ، فأحيط بالمجرم ومن معه من الفرسان فقتلوا عن آخرهم(٣) .

واليوم .. على مقربة من خاتمة القرن الرابع عشر يروّع عالم الإسلام بالفاجعة ، التى كادت تعفّي على سابقاتها الفواجع .

لقد حدثت الفظائع الأولى في عهود المواصلات البطيئة ، فانحصر أثر كلّ منها في نطاق البيئة المتقاربة ، ثم لم تتسرب أنباؤها إلى الأبعاد إلا بعد فوات المناسبة ، وعقيب برود الجراح حيث مضت إلى الجماهير عن طريق المسافرين والمؤرخين ، ليعيدوا الفكر في ظروفها ودوافعها ، ويستخلصوا من دروسها العبر التى لا تنسى .

أما قارعة اليوم فقد اقتحمت قلوب الناس وأسماعهم منذ انفجارها عن طريق البرق والعواكس الفضائية ، فكانت كالزلزال الضخم ما كاد ينطلق من مركزه حتى انتشرت رواجعه على امتداد الساحة المتصلة به ، تلك الساحة التى تشمل أرجاء العالم الإسلامى كله دون استثناء .. ويا لهول ما غمر ذلك العالم من ذهول وهو يتلقى أنباء الحدث العظيم ! ..

ولعمر الله ما كان شئ من ذلك الذهول الرهيب بعجيب .. فكيف .. ولم ؟ .. والنازلة إنما تحل في أقدس أقداس هذا العالم .. في أول بيت وضع للناس ، في البقعة التى حرمها الله ، فجعلها مأمن الخائف ، وأنس الشريد ، وملاذ الطريد .. في القبلة التى تشدّ المسلمين بروابط الوحدة والإخوة صباح مساء .. في المثابة التى يفيئون إليها كلما أدهمت الأحداث ، وتعرضت وشائج الأرحام لبوادر الجفاف .

وقد ضاعف من وقع النكبة في البيت العتيق ذكريات لم تبرد جذوتها بعد عن مصير أخيه المسجد الأقصى ، ومحاولات العدوانى لم تتوقف قط منذ أسبوع العار، لإزالة معالم الإسلام من حوله ومن تحته ،ولا سيما أن روائح محاريبه وقبابه المحترقة بنيران الغدر اليهودى ما تزال تملأ صدور المسلمين ، فتجدد شعورهم بهول المأساة التى لا تزداد على الأيام إلا تضخما وتفجرا .. وشتان بين جريمة يقترفها بحق المسجد الأقصى أحفاد القرود من سلالات قريظة والنضير وقينقاع ، فلا يستغرب صدورها عن قتلة الأنبياء وسدنة الفساد العالمى ، وأخرى تحمل كبرها طائفة تزعم أنها وقفت نفسها للدعوة إلى الله ، وللذياد عن ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ومن هنا جاء حجم الجريمة مضاعفا أضعافا كثيرة ، إذ كانت حتى الساعة بمثابة القمة بالنسبة إلى سائر أشكال العدوان التى تعرض لها البيت الحرام في الجاهلية وبعد الإسلام .. فوا أسفاه ، ووا حسرتاه ، ووا حزن أمتاه ! ..

* * *

■ وبعد .. فمن هم هؤلاء الأشقياء الذين بلغت بهم القحة والتهور والاستهتار بكرامة كل المسلمين ، في مشارق الأرض ومغاربها .. إلى حد الإقدام على كل هذه الفجائع ، التى تعجز عن ممارستها أمة من الشياطين ؟! ..

أسفهاء طمس الجهل بصائرهم ، فلم يفرقوا بين حلال وحرام ، ونور وظلام ؟! ..

أم هم حملة علم ضل بهم الطريق ، فانزلقوا في هاوية (بلعام) الذى آتاه الله آياته ، فعجز عن الارتفاع بها إلى الملأ الأعلى ، فأخلد إلى الأرض واتبع هواه ! .

إن فيهم لملامح من هؤلاء وأولئك، إلا أنهم سبقوا الفريقين في كبر جنايتهم على أنفسهم بعد جنايتهم على أمن المؤمنين.

أما أنهم السفهاء الذين عميت قلوبهم ، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم .. فذلك ما لا يتطلب برهاناً ولا دليلا ، لأن السفه أبرز معالمهم ... بل أن مجرد تسللهم بالسلاح إلى بيت الله ، واغلاقهم أبوابه بوجوه الوافدين عليه من المصلّين والقارئين والمعتمرين ، إنما هو دليل على أنهم لا يعدون أن يكونوا من المجانين أو المنتحرين .. وكفى بهذا اية تؤكد براءة العلم من تصرفاتهم التى لا يقرها عقل ولا دين ..

أجل .. إن قادة هؤلاء السفهة قد مارسوا القراءة من قبل ، وحفظوا غير قليل من الكتاب والسنة ، وكتبوا بعض رسائل أودعوها خلاصة ما استقر في قلوبهم من الأفكار التى كشفت شذوذهم ، وانحرافهم عن سواء السبيل ، فإذا أبرز سماتهم العناد والغرور ، الذى غشى على بصائرهم ، فأراهم كل فهم انتهى إليه كبار علماء العصر خطأ بل ضلالا لا يستحق بنظرهم سوى الرد والرفض ، تماما كما فعل قتلة ذى النورين رضى الله عنه الذين غسل المضللون أدمغتهم ، من كل أثر للوعى الإسلامى السليم ، وشحنوا قلوبهم بالكراهية للخليفة المظلوم ، حتى باتوا كما وصفهم هو بقوله (أراهمنى الباطل شيطانا) .. فقد نسوا كل سابقة لصاحب رسول الله ، وانقلب بنظرهم بإيحاء موجهيهم محض شيطان والعياذ بالله ! .

اجل لقد مضى هؤلاء وأولئك من الدهماء وراء مضلّليهم ، مسلوبى الإرادة والتفكير ، أشبه بالضرير الذى أسلم قياده إلى شيطان يتلعب به كما يشاء ، فأعادوا بذلك دور أسلافهم من أتباع الفتنة ، الذين بلغ بهم الضياع

حد استباحة حرم المسلمين وإهدار دمائهم ، فإذا وقع في أيديهم أحد من أهل الكتاب لم يمسوه بسوء ، بل اكتفوا بإسماعه القران ثم أبلغوه مأمنه ! .. ذلك بأنهم لم يفقهوا من الإسلام إلا ما دسه في أذهانهم طواغيتهم ، فهم من أكثر المسلمين ملازمة لكلام الله وحديث رسوله .. ، إلا أنهم من أبعد الناس عن نور العلم الحق ، الذى يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ..

■ أنا لا أريد التعرض لدواخلهم ، فأحكم على عقائدهم بالسداد أو الفساد ، فالمغيّب لله وحده ، وليس لنا سوى المشاهد من الأعمال .. وهو هنا كاف لإدانتهم بالجريمة ، دون أى اعتبار لما وراءه من ألوان النوايا ..

وما أرى حاجة لمحاكمة أفكارهم بشأن المهدى ، بعد أن أشبعها علما وًنا بحثا وتدقيقا ، فنحن مع أهل العلم في إثبات ظهوره ذات يوم ، على الوجه الذى حدده الخبر النبوى الصحيح ، وهو تحديد بالغ الوضوح بحيث لا يحتمل أى شبهة إلا عند أدعياء المعرفة ممن لا ينظـرون أبعد من أنوفهم .. وقد أثبت هؤلاء المغرورون أنهم هم الأدعياء حقا ، وإلا فكيف يفسرون دخولهم بالسلاح إلى البيت العتيق ؟! وكيف يؤولون إغلاقهم أبوابه دون الناس ، وهم يقرؤون في كتابه الخالد (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها !!) وبأى تعليل يسوَغون تجمعهم على تلك الصورة القتالية ، بعد أن فضحوا أنفسهم من خلال خطبهم المسجلة ، وهم يوزعون الأوامر على أعوانهم من حملة السلاح ليتخذوا مواقعهم هنا وهناك وهنالك على المآذن ، وفوق السطوح ، وفي زوايا المسجد ... مما يقطع بأنهم قد خططوا للصدام منذ اللحظة الأولى ، على الرغم من إعلان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أن الله قد أباح له مكة ساعة من نهار ، ولن تباح لغيره بعد ذلك إلى الأبد ... ويستحيل على معـنًى ، بخبر المهدى ، إلى الحد الذى أوضحوه في رسائلهم ، أن يفوته الإطلاع على هذا الحديث المشهور(٤) وما يحمله من إنذار خطير لكل من تسول له نفسه العبث بأمن البيت ، بل بأمن مكة المكرمة كلها .. فكيف إذا ذكرنا وعيد العزيز الحكيم في شأن بيته الكريم (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ، ٢٢ ـ ٢٥) وقد فهم أولو العلم من ذلك أن مجرد الهمّ بسوء في بيت الله كاف لاستيجاب العذاب الموعود .

● ● ●

■ ثم إنى لا أدرى لماذا تقفز إلى ذهنى ، وأنا أفكر في حركة هؤلاء المرورين ، صور أسلافهم من الخوارج الذين حبسوا بصائرهم في نطاق الأخطاء التى شاهدوها أو توهموها ، فلم يجدوا سبيلا للإصلاح إلا في القضاء على القادة الثلاثة في عواصم الإسلام الثلاث ! ... وسرعان ما تتابعوا في هذا المنحدر يفتعلون الأحداث ، ويحدثون الفتوق ، ويعطلون الطاقات الإسلامية عن مواصلة الجهاد لنشر دين الله وإقامة شريعة الله ... وهم مصرون على غرورهم بأنهم وحدهم حماة الإسلام ، وكل من عداهم فأعداء لله ورسوله ...

وما أكاد أفرغ من هذه المشاهد الموجعة حتى أجدنى تلقاء صور متلاحقة من وقائع الرعب المعاصرة التى توشك أن تعم الدول كلها ، فتطغى أنباؤها على سائر الحوادث العالمية الأخرى .. إن ثمة جيلا من الشذاذ ، تباعدت مصادر هوياتهم من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ولكنهم تلاقوا على أمر واحد ، هو الكراهية لأوضاع المجتمعات التى يعايشونها ، ثم التعبير عن ذلك بالتجرد للعنف ، فهم اليوم مصدر بلاء غير محدود على شعوبهم ، التى سلبت نعمة الإطمئنان ، فهى تتخبط من تصرفاتهم في ظلمات من القتل والخطف والإرهاب ، تستثير الشفقة من كل إنسان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

ومن حق هذه المشاهد على تباعد أزمنتها ، وتباين أغراضها ، أن تتداعى في خيال المفكر ، لما يربط بينها من وحدة في الخلفيات غير المنظورة . ذلك أن النقمة من الواقع كانت هى الشرارة التى فجرت في أعماق الجميع رغبة التغيير ، ثم اختلفت بهم السبل ، فسلك كل فريق منهم الاتجاه الأقرب إلى طبيعته ونشأته ، مع بقاء الكل أسارى نظرتهم السوداء ، إذ لم يستطيعوا الارتفاع عن تصورهم المحدود ، الذى لا يؤمن بأن في الحياة وسيلة للاصلاح خارج نطاق العنف والكراهية !.

إنه الغلو والغرور ، الغلو في التشاؤم ، الذى يضخم به الشيطان حجم السيئات حتى تحجب عن عيني المتشائم طيف كل حسنة .

ثم الغرور الذى أفسد مقاييس أصحابه ، فضيق عليهم مجال الرؤية ، فلا يبصرون شيئاً وراء منظورهم الكالح الكريه .

وإذا كان لإرهابيى أوروبة وأمريكة واليابان والصين وما إليها بعض العذر في جنوحهم للجريمة ، بسبب فقدانهم أنوار الوحى ، وتخبط أممهم في أوحال الفجور والطغيان ، فأى عذر للمسلم في سلوك متاهات هؤلاء الكافرين ، وبين يديه الصراط الذى لا يضل سالكه، وأمامه الدليل الذى لا يبرح يذكره بمسئوليته نحو أولئك الجانحين ، وبرسالته التى هى الرحمة المهداة للعالمين ! ... بلى ... إنه الغلو والغرور .

وقديماً أخرج الغلو أمماً من عبادة الله إلى عبادة الحجارة ، نحتوها تماثيل لصالحيهم لتذكرهم بفضائلهم كيلا يفارقوها ، ثم زين لهم الشيطان اتخاذها آلهة من دون الله ... كما زين للمخدوعين من المتأخرين اتخاذ شيوخهم آلهة ، لا يعصون لهم أمراً ولا يخالفون لهم نهياً !

وقبل ذلك كان للغرور سلطانه على نزيل الملائكة ، فأخرجه من رحمة الله إلى غضبه ، وأخرج به قروناً بعد ذلك كثيراً من جنة الطاعة إلى جحيم المعصية ، التى أحالت الحياة البشرية مسرحاً لصراع لا نهاية له مادام هناك إنسان وشيطان .

• • •

ولعمر الحق إن لفحة من هذا الغرور وذلك الغلو قد أصابت بلوثتها بعض ذوى الغيرة من أصحاب (القلوب الطيبة) فراحوا ـ عقيب الفتنة ـ يثيرونها شعواء على الجامعات الإسلامية ، والسلفية ، والملتزمين بالسنة النبوية ، حتى سمحوا لأنفسهم بتحميلهم مسئولية الانحراف ، الذى زين لأصحابه ذلك العدوان الأثيم على حرم الله ... ولو هم رجعوا إلى عقولهم ، دون عصبيتهم ، لردوا كل اتهام من ذلك النوع الذميم ، ولرددوا مع سلفهم الكريم قول ربهم العليم الحكيم : (سبحانك ... هذا بهتان عظيم) ..

• • •

وبعد ... فإن في كارثة الحرم ، التى زلزلت ضمائر المسلمين في كل مكان ، لدروساً كبيرة ، جديرة بأن تثير في صدورنا العميق من التأملات ، والكثير من التطلعات ... ولعل في رؤوس هذه الدروس تعميق الوعى بحقائق الإسلام ، ومزيدا من توثيق الصلة بين المجتمع وهذه الحقائق ، حتى تزول كل فجوة بين الدين والواقع ... وسيكون من نتائج ذلك صيانة الطابع الإسلامى للمجتمع من كل منافس دخيل سواء في نطاق الأفكار ، أو التعليم ، أو الإعلام على اختلاف وسائله .

وشئ آخر هام هو أن نشجع الحوار حول كل مشكلة تواجه الفكر الإسلامى ، على أساس من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن ، وبذلك نفسح المجال أمام الشباب المتحمس للتنفيس عن مكنوناته ، والاستماع إلى الفهم الآخر ، وبهذا وذاك ننقذه من العزلة الفكرية ، التى تعرضه وتعرض أمته للكثير من المآسى ، التى خبرناها خلال التاريخ .

والله وحده المسؤول أن يجنبنا مزالق الغلو والغرور ، ويجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنه الهادى إلى كل خير والقادر عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

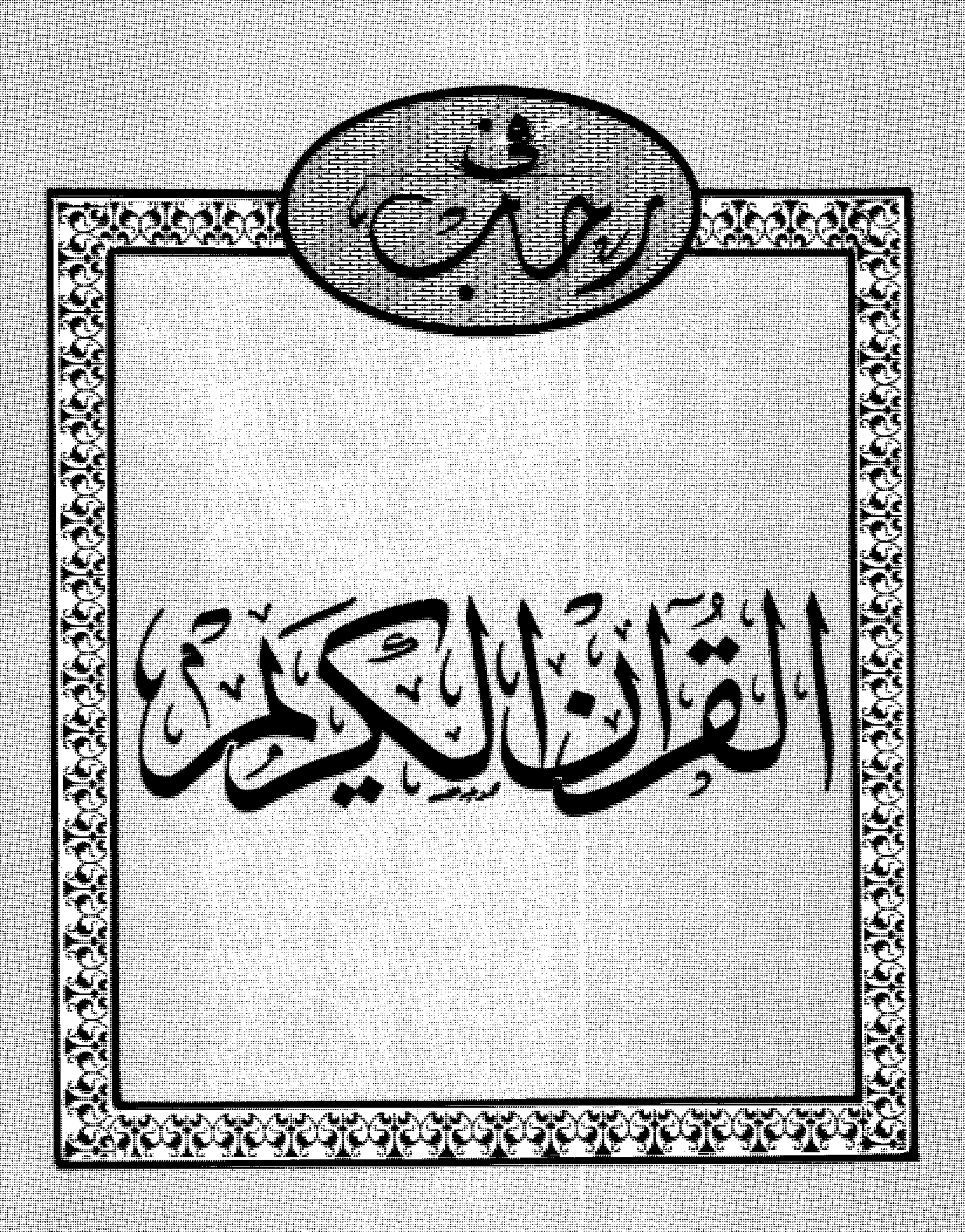
ـ المحرم ١٤٠٠ ـ

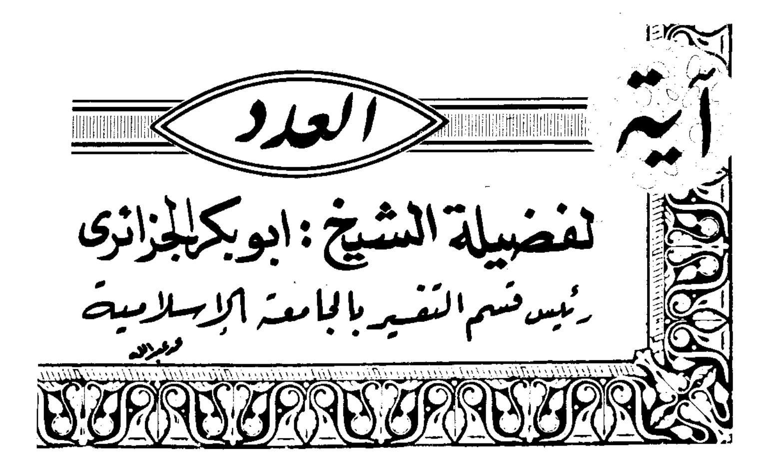
---

(١) كتاب اشعيا صح ٣٥ .

(٢ . ٣) أنظر تاريخ الكعبة المعظمة لحسين عبد الله باسلامة ص ١٥٣ . ١٥٦ . ١٥٧ ط ٢ .

(٤) أنظر سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤١٥ ط ٢ ـ مصطفى البابى الحلبى ـ وقد ساق ابن كثير الحديث رواية عن البخارى ـ أنظر البداية والنهاية جـ ٤ ص ٣٠٥ ط ١ مكتبة المعارف والنصر .


في رحاب
القرآن الكريم



« سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ؛ لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير »

معلومات أولية :

هذه الآية الكريمة هى أول آية من سورة الإسراء ، ومجموع آى هذه السورة الكريمة مائة وإحدى عشرة آية .. وكما تسمى هذه السورة بالإسراء تسمى أيضاً بسورة سبحان ، وسورة بنى اسرائيل لذكر كل من الكلمات الثلاث فيها .. وهى مكية إلا بعض آيات منها ، وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول فيها وفي سورة الكهف ومريم إنهن من العتاق الأدل ومن تلادى .. يعنى أنهن مما نزل في مكة وأنهن من محفوظاته ..

والآية لغة العلامة وجمعها آى ، أو آيات .. قال الشاعر العربى :

بادت وغيرّ آيهن(١) مع البلى ... إلا رواكد جمرهن هباء
ومشجج أما سوا قذاله ... فبدا وغيّب ساره المعزاء

شرح الكلمات في الاية :

سبحان : أسم مصدر من سبح المضعف نقل الى العلمية فأصبح علما على تسبيح الله تعالى أى تقديسه وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله . وهو أى سبحان اسم جامد لا يتصرف ملازم للبناء على الفتح لا يفارقه أبدا .

ومعناه : تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من سائر النقائص والعيوب . وهو هنا مفيد مع التنزيه التعجيب من عظيم قدرة الله تعالى ، وشرف النبى صلى الله عليه وسلم ، القدرة الالهية التى أسرت بعبد الله في دقائق من الليل من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى والمسافة بينهما مسيرة شهر للراكب ، ثم الى الملكوت الأعلى ، وعادت به وان فراشه ما زال دافئا لم يبرد . والشرف النبوى الذى تم في هذا الإسراء والمعراج حيث رفع الله عبده ورسوله الى أن بلغ به مستوى وقف دونه جبريل عليه السلام وقال معتذرا حيث تخلى عن صحبة محمد صلى الله عليه وسلم وتركه ليرتفع وحده :

وما منا إلا له مقام معلوم .. وارتفع رسول الله حتى انتهى الى مقام سمع فيه صرير الأقلام وشرفه ربه بالمناجاة والكلام .

---

(١) الشاهد في قوله غير آيهن يريد ان الزمان ومروره غير علامات الدار ولم يبق منها الا رواكد أى أثافى صار الجمر الذى كان بينهن غباراً .. ووتد قد بدا أعلاه وأما سائره فقد غاب في الأرض . اذا المشجج الوتد المضروب على رأسه فشج لذلك . وسواء فذاله يريد أعلاه . وساره هو سائره والمعزاء الأرض الصلبة ذات الحصى .

أسرى : أسرى فعل ماض وفاعله الله عز وجل ومعناه : السير ليلا ومثله تسرى وهما بمعنى . واحد ، وان الإسراء يكون أول الليل ، والسرى بالضم ما كان اخره . وقد جمع الفعلين الشاعر في قوله :

حى النظيرة ربت الخدر ... أسرت الى ولم تكن تسرى

وأسرى به ، كسرى به اى سار به ليلا . والأول مصدره الإسراء ، والثانى السرى والسريان بالتحريك .

بعبده : الباء للمصاحبة ، والعبد لغة المملوك الذى عبّدته الطاعة لسيده وذللته وهو هنا النبى محمد صلى الله عليه وسلم . والضمير عائد على فاعل الإسراء وهو الحق تبارك وتعالى . واختير لقب العبودية هنا عن لقب النبوة والرسالة .. وهما شرفان ؛ لأمرين أحدهما حتى لا تضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم به كما ضلت النصارى بعيسى بن مريم بسبب الغلو في الرفعة والكمال حتى يؤله غير الله تعالى ولذا قال صلى الله عليه وسلم : (لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، وأنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا : عبد الله ورسوله .. وثانيهما ان لقب العبودية الخاصة أشرف من لقب النبوة والرسالة وذلك ان اتخاذ الرب المرء عبدا له خاصا به يتشرف بطاعته والقرب منه وبمناجاته وموالانه ومحبته أفضل من أنباء الرب للإنسان بأخبار ، أو ارساله برسالة ، وقد لاحظ هذا المعنى الشاعر العربى الذى نزل القران بلغته في قوله :

يا قوم قلبى عند زهراء ... يعرفه السامع والرائى
لا تدعنى إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائى

ليلا : الليل معروف وهو من غروب الشمس الى طلوع الفجر وضده النهار وهو من طلوع الفجر الى غروب الشمس .. وذكره مع الاسراء من باب التوكيد كقول من قال جئت أمس نهارا أو اتيت البارحة ليلا ، لأن الإسراء والسريان لا يكون إلا ليلا ، وتنكيره لتقليل الفترة الزمانية التى كانت فيه ، اذ اخبرت أم هانى بنت أبى طالب ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم نائما في بيتها ليلة الإسراء ، أخبرت ان النبى صلى الله عليه وسلم فارق فراشه وعاد اليه وهو دافئ لم يبرد بعد ..

من المسجد الحرام : من ابتدائية إذ بداية السُرى كانت من المسجد الحرام ، وذلك ان الملك لما أخذه من بيت أم هانى ذهب به الى المسجد الحرام فأجرى له عملية شق الصدر وغسله بماء زمزم ، ثم حشو صدره بالإيمان والحكمة أعداداً له للرحلة الى الملكوت الأعلى .

والمسجد الحرام هو المكان الذى كان حول الكعبة الشريفة كالمطاف اليوم . اذ لم يكن المسجد الحرام مبنياً كما هو عليه اليوم . وسمى بالمسجد لسجود المصلين به .. ووصف بالحرام لأنه بالحرم ، وكل ما كان داخل الحرم وصف بلفظ الحرام كقولهم المشعر الحرام ، والبيت الحرام ، والبلد الحرام .

وهو أقدم المساجد على الأطلاق ودونه المسجد الأقصى ، والصلاة فيه بمائة ألف صلاة وما حرمت مكة ولا شرفت إلا به ، فهو كالبدر ومكة كالهالة له ، والبدر أشرف من هالته .

إلى المسجد الأقصى : الى غائية اذ انتهاء الإسراء كان الى المسجد الأقصى ، ومن ثم ابتدئ المعراج الى الملكوت الأعلى .

والمسجد الأقصى هو مسجد بيت المقدس ووصف بلفظ الأقصى بمعنى الأبعد لبعده عن المسجد الحرام . واسم التفضيل (الأقصى) مشعر بوجود مفضّل عنه وهو القصّى . فما هو المسجد القصى بمعنى البعيد ؟ .. انه المسجد النبوى الشريف غير انه عند حدوث هذا الحادث الجلل ونزول هذه الآية الكريمة لم يكن موجوداً اذ لم يبن إلا أيام هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، غير أنه في علم الله تعالى حاصل وموجود فلذا أومأ اليه بلفظ الأقصى إشارة إلى وجود مسجد قصى دونه ، ومن هنا ذكرت المساجد المفضلة الثلاثة في هذه الآية المكية الأول والأخير بالنص والثانى الوسط بالايماء والإشارة وفي الحديث الصحيح : « لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد .. المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » .

الذى باركنا حوله : المباركة في الشئ إكثار الخير فيه وإدامته له .. وفاعل هذا هو الله تبارك وتعالى وحول الشئ ما أحاط به من الأماكن القريبة منه والبعيدة .. والمراد به هنا أرض فلسطين والشام ، إذ بارك الله تعالى في تلك البلاد ديناً ودنيا ، إذ هى مجتمع الأنبياء ، ومحشر الناس .. وأرض الزروع والثمار والأنهار زادها الله بركة وطهرها من عداة اوليائه وكفرة نعمه .

• • •

لنريه من آياتنا : اللام لام التعليل ؛ إذ علة الإسراء وغايته أن يطلع الله رسوله على الملكوت الأعلى وما فيه من عجائب الخلق ، ومظاهر العلم والقدرة الإلهية .

ومن تبعيضه اذ الذى ، رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من آيات الله بعض ما له تعالى من الايات فقط وليس كل الآيات ، وهذا معلوم بالضرورة .

والآيات جمع آية وهى العلامة الدالة على وجود الشئ أو عدمه ، وهى هنا مظاهر القدرة والعلم الإلهية المتجلية في خلق الله العظيم وصنعه البديع الحكيم من السموات والملائكة والأنبياء ، والجنة والنار وما في الأولى من النعيم المقيم ، والثانية من العذاب والجحيم ، اذ كل ذلك رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة التاريخية الفذة التى لم يسبق لها نظير .

والتى من حكمها : ان الله تبارك وتعالى قد أطلع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة الى الملكوت الأعلى على كل غيب كان أخبره به وحياً في القرآن الكريم ، فارتقى به من علم اليقين الى عين اليقين ؛ اذ ما كان غيباً له آمن به ودعا الى الإيمان به اصبح شهادة له حيث رآه وأبصره وأحس به وباشره بجسمه . فرأى آدم أبا البشر ورأى أخوانه الأنبياء وجرى له معهم أحاديث ، وتمت له معهم مقابلات عامة وخاصة ورأى الجنة حيث بلغ الى سدرة المنتهى والتى عندها جنة المأوى ، ورأى الملائكة وشاهد نعيم الجنان من حور وقصور وعيون ، وفوق ذلك كله وأعظمه وأجله مناجاة الله له وكلامه إياه وادناؤه منه وتقريبه اليه .. الله أكبر ! .. ماذا وهب الله رسول الله !!

وصدق الله العظيم إذ يقول .. والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى .. ما كذب الفؤاد ما رأى ، افتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عند هاجنه المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى .

وقوله تعالى في هذه الآيات : ما كذب الفؤاد ما رأى الى آخرها كله في المعراج المحمدى ومن هنا كان هذه اللفظة تقريراً لمعجزة المعراج ، والتى أشير اليها في آية سبحان إشارة فقط بكلمة لنريه من آياتنا ؛ اذ الآية نصاً صريحاً في الإسراء وليس كذلك في المعراج ولكن ما في آية سبحان من إشارة قررتها وأوضحتها آيات النجم ، اذ فيها أنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل مرتين مرة بأجياد من مكة والثانية كانت بالملكوت الأعلى عند سدرة المنتهى في جنة المأوى ، حيث أراه ربه تعالى من آياته الكبرى ما شرف به على أهل الأرض والسماء ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ..

إنه هو السميع البصير : في هذه الجملة التفات من التكلم الى الغيبة .. ونكتته البلاغية تربية المهابة في نفس السامع .

ومعنى هذه الجملة : اثبات صفتى السمع والبصر لله تعالى . وهما صفتان ذاتيتان أزليتان . بهما يسمع كل صوت ، ويبصر كل ذات وصفة الحصر الناجمة عن ضمير الفصل ، وتعريف المسند بالألف واللام دالة على أن صفات الخالق عز وجل الذاتية أو الفعلية صفات تخصه لا يشاركه فيها غيره ، ولا يشبهه فيها أحد . وبيان ذلك أن

صفات المخلوق كالسمع والبصر والعلم والارادة والحياة مثلاً ليست ذاتية له بل هى موهوبة ككل حياته من خالقه عز وجل ، فالانسان حى بالله وبه يرى ويسمع ويبصر ، ولولا ما وهبه الله من ذلك ما كان شيئاً ولا كان له شئ ؛ اذ خلقه من قبل ولم يك شيئاً ..

وهذا سر حصر هذه الجملة السمع والبصر في الله ونفيها لهما ضمناً عما سواه .. والغرض الذى سيقت له هذه الجملة الكريمة هو تقرير حادثة الإسراء والمعراج ، وانها تمت على سمع وبصر من الله تعالى على حد قوله : إننى معكما أسمع وأرى ، وفي ذلك من تشريف النبى صلى الله عليه وسلم والإعلاء من شأنه ما لا يقادر قدره ، ولا يدرك مداه .

معنى الآية العام :

والمعنى العام لهذه الآية التى شرحنا كلماتها للقارئ الكريم ليتأتى له استيعاب معناها كاملاً وتفهمه له ، على وجه ينتفع به :

هو أن الله تعالى اخبر عن تنزيه نفسه من كل ما لا يليق به ، ويتنافي مع جلاله وكماله من سائر العيوب والنقائص . معجباً عباده من قدرته العجيبة حيث أسرى بعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، وعرج به الى الملكوت الأعلى ، وأراه من آياته الكبرى في ذلك الملكوت الأعلى

الأمر الذى لم يحصل لغيره ولم يتم لأحد سواه .

منوهاً بفضل المسجدين الشريفين : الحرام ، والأقصى ..

معللا لهذه المعجزة الكبرى والآية العظمى ـ الإسراء والمعراج ـ مبيناً الغرض منها وهو أن يرى رسوله وحبيبه من عظائم صنعه ، وعجائب خلقه ، وأن يقف به على تلك الغيوب التى أعلمه بها وحيا ، أوحاه اليه ، وعرفه عليها بإخباره بها فأصبح الإيمان بها يقيناً ، واليقين فيها عين اليقين اذ ليس الخبر كالعيان ، ولا الإنباء كالمشاهدة .

فقرر تعالى بهذه الاية الكريمة ، مبادئ الإيمان وحقائقه وهى تفرده تعالى بالربوبية ، والألوهية والكمال .

وإثبات نبوة محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بأعظم دليل وأقوى برهان وتقرير مبدأ المعاد والجزاء في الدار الآخرة بالوقوف برسوله على عالمى الجزاء من دار السعادة ودار الشقاء .

قال رجل لعبد الله بن مسعود : علمنى كلمات جوامع نوافع . فقال : اعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وزل مع القرآن حيث زال . ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً ، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً .

« ابن مسعود »



لفضيلة الدكتور/ عبد الفتاح ابراهيم سلامة
الأستاذ المساعد بكلية الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية

● أحمد الله العلى العظيم ؛ هو أهل التقوى ؛ وأهل المغفرة .. وصلاة وسلاماً على إمام المرسلين ، وخاتم النبيين ، وسيد ولد آدم أجمعين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الكرام الصادقين أما قبل :

فمن مأثور القول : ما قاله إمام دار الهجرة : مالك بن أنس رضى الله عنه : « إذا أخطأ العالِمُ « لا أدرى » فقد أصيبت مقاتله » ..

تذكرت هذه المأثورة الأثيرة الى نفسى ، وأنا أقدم هذه الصحائف للنشر حول موضوع « الوحى » ـ فالموضوع ذو جلال عظيم ، وأنَّى لمثلى أن يتصدى .. وتحسست مقاتلى .. واتخذت من التسويف مطية .. وتعللت بالغد ..

ومضت سنوات وهذه الصحائف حبيسة القمطر ، وتذكرت كراماً حسنوا لى نشرها ، واستيقنت أن التسويف أمنية القاعدين ، وأن « الغد » يوم العاجزين .

وإذا كان القصور ضريبة بشرية ، فليس لى عن قدرى من مفر .. ولا يزال المرء على مدرجة الطريق ، حتى يبلغ حاجة في صدره .. « وكان أمر الله قدراً مقدورا » ٣٨ : الأحزاب ..

وإذا كنت قد تجاوزت قدرى ، فعذرى أن لى انتسابا وأن الأخذ بالأسباب : ينفع يوم لا تنفع الأنساب ، والله من وراء القصد ، وهو المستعان ، وعليه التكلان ..

الوحى في لسان العـرب

نجوس معك خلال أمهات كتب اللغة ؛ نستخرج ما في بطونها من دلالات كلمة « الوحى » واستعمالاتها في لغة العرب .

(١) يقول ابن منظور في لسان العرب(١) : الوحى : الإشارة ؛ والكتابة ؛ والرسالة ؛ والإلهام ؛ والكلام الخفى ؛ وكل ما ألقيته الى غيرك ؛ يقال : وَحيْــتَ إليه الكلام وأوحيتُ ؛ ووَحى وَحْياً ؛ وأوحى أيضاً أى : كتب قال العجاج :

حتى نحـاهم جَدُنـا والنـاحى　　　لقـدرٍ كان وحـاه الواحـى

(وحاه الواحى : أى كتبه الكاتب)

والوحى : المكتوبُ ؛ والكتاب أيضاً وعلى ذلك جمعوا فقالوا : وُحى مثل حَلْى وحُلِىّ ، قال لبيد : كما ضمن الوحى سلامُها (والسلام : الحجارة ؛ أراد : كما تَضْمَنُ الحجارةُ وتحفظ ما يكتب عليها) .

وفي حديث الحارث الأعور ، قال علقمة : قرأت القرآن في سنتين ، فقال الحارث : القرآن هيِّنٌ ، الوحى أشد منه ، أراد بالقرآن : القراءة ؛ وبالوحى : الكتابة والخط ، يقال وحيتُ الكتاب وحياً فأنا واحٍ (أى كاتب) ..

---

(١) أنظر ج ٢٠ ص ٢٥٧ وما بعدها الطبعة المصورة لدار التأليف . وما بين الأقواس المعقوفة هو من عبارتنا .

وأوحى اليه : بعثه ، وأوحى إليه : ألهمه ، وفي التنزيل العزيز « وأوحى ربك إلى النحل » ٦٨ : النحل ، وفيه « بأن ربك أوحى لها » ٥ : الزلزلة ، ومعنى هذا أمرها ووحى لها ؛ وفي هذا المعنى قال العجاج :

وحى لها القـرارَ فاستقرت وشدَّها بالراسياتِ الثبَت

● (أى أمر الله الأرض بالقرار ، وشدها بالجبال الراسيات) وقيل : أراد أوحى ، إلا أن من لغة هذا الراجز إسقاط الهمزة مع الحرف ؛ ويروى أوْحَى ، ووحى إليه وأوحى : كلّمهَ بكلام يُخفيه من غيره ، ووحى إليه وأوحى : أومأ ، وفي التنزيل العزيز « فأوحى إليهم أن سبحوا بكرةً وعشيا » ١١ : مريم .. ، وقال الشاعر: « فأوحت إلينا والأنامل رُسْلُها .. وقال الفراء في قوله تعالى : « فأوحى إليهم » ١١ : مريم أى : أشار اليهم ، قال : والعرب تقول : أوحى ووحى ، وأوعى ووعى ، بمعنى واحد ، ووحى يَحى ووعى يعى ..

وأوحى الله إلى أنبيائه :: قال ابن الأعرابى : أوحى : إذ ا بعث برسولٍ ثقة الى عبدٍ .. واستوحيته : إذا استفهمته ، والوحى ما يوحيه الله الى أنبيائه ، قال ابن الأنبارى في قولهم : « أنا مؤمن بوحى الله » .. سمى وحياً لأن الملك أسره عن الخلق ، وخص به النبى صلى الله عليه وسلم المبعوث إليه .. وقال أبو اسحق : أصل الوحى في اللغة كلها إعلام في خفاء ، والوَحَى (بفتح الحاء ممدودة) النار ، والملك ، والسيد من الرجال ، والوَحى والوحَىَ مثل الوغى : الصوت يكون في الناس .. والوحَا الوحَا ، والوَحاء الوحَاء ، البدار البدارَ ، الإسراع الإسراع .. ومَوْتٌ وحِيٌّ سريعٌ ، الإيحاء البكاء يوحى أباه : يبكيه ، والنائحة توحى الميت : تنوح عليه ، ومن أمثالهم « من لا يعرف الوحى أحمق » يقال للذى يتواحى دونه بالشىء ، أو لتعبير من لا يعرف الوحى ، ومن أمثالهم « وحى في حجر » يضرب مثلاً لمن يكتم سره ، وللشئ الظاهر البين .. » هـ .

هذا ما ذكره ابن منظور(١) وقد أسهب في القول وأسهبنا في النقل عنه ومع ذلك فلم ننقل كل ما قاله ، وأنت تجد رحما جامعة بين استعمالات الكلمة المختلفة رغم تباين الدلالات أحياناً .

(٢) القاموس المحيط :

● أما مجد الدين الفيروز آبادى فيوجز ما أطنب فيه صاحب اللسان إذ يقول :(٢) « الوحى : الإشارة ؛ والكتابة ؛ والمكتوب ؛ والرسالة ؛ والإلهام والكلام الخفى ؛ وكل ما القيته الى غيرك ؛ والصوت يكون في الناس وغيرهم ؛ كالوحى ، والوحَاة والجمع وُحِيٌّ ، وأوحى إليه بعثه وألهمه ونفسه وقع فيها خوف .. وأستوحاه : حرَّكه ودعاه ليرسله واستفهمه ووحَّاه تَوْحية عجَّله » ا هـ .

(٣) المصباح المنير :

● ويقرب مما سبق ما ذكره(٣) أحمد المقرى الفيومى صاحب المصباح وهو « الوحى : الإشارة ؛ والرسالة ؛ والكتابة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه وَحْىٌ كيف كان ، قاله ابن فارس .. ثم غلب استعمال الوَحْى فيما يُلقى الى الأنبياء من عند الله تعالى ، ولغة القرآن الفاشيةُ أوحى بالألف .. ووحيت الذبيحة أَحِيها ذبحتها ذبحاً وَحِيًا .. واستوحيتُ فلاناً استصرخته » ا هـ

(١) انظر اللسان جـ ٢٠ من ص ٢٥٧ ـ ٢٦٠ .

(٢) انظر القاموس المحيط جـ ٤ ص ٤٠١ ط : الحلبى

(٣) المصباح المنير ص ١٠١٠ ط : الاميرية

(٤) مختار الصحاح :

ويقول (١) محمد بن أبى بكر الرازى صاحب المختار « الوحى الكتاب وجمعه وَحِىٌّ مثل حَلْى وحلى ، وهو أيضاً ـ الإشارة ؛ والكتابة ؛ والرسالة ؛ والإلهام ؛ والكلام .. الـخ » .

(٥) أساس البلاغة :

والزمخشرى وهو المعنى بالتفرقة بين الحقيقة والمجاز في استعمالات الألفاظ لم يضف جديداً إلى ما سبق أن ذكرناه حيث يقول (٢) « وأوحى إليه وَوَحى بمعنى ، وَوَحَيْتُ إليه وأوحيت إذا كَلَّمْته بما تخفيه عن غيره ، وأوحى الله إلى أنبيائه .. الـخ » .

(٦) مفردات الراغب :

وقال الراغب الأصفهانى (٣) « أصل الوحى : الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل : « أمرٌ وَحِىٌّ » ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوتٍ مجردٍ من التركيب وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة .. ومن وحى الايماء بالجوارح قول الشاعر :

فأوحى إليها الطرف أنى أحبها فأثّر ذاك الوحى في وجناتها

هذا بعض ما ورد عن استعمالات كلمة الوحى في كتب اللغة .

● والذى نخلص إليه أن كل هذه الدلالات المختلفة لكلمة « الوحى » ذات وشائج دانية تنتهى إلى رحم واحدة هو : الإعلام دون تقييد لهذه الكلمة بوصف معين ؛ فالإشارة ؛ والكتابة ؛ والرسالة ؛ والإلهام ؛ والكلام في سرعة وخفاء .. كلها وسائل اعلام أو هى : إعلام .

كلمة الوحى
واستعمالها في القرآن الكريم

● وردت كلمة الوحى واشتقاقاتها في تسعة وسبعين موضعاً في القرآن الكريم..
ومن أجمع الآيات الكريمة الواردة حول أنواع الوحى الشرعى قول الله سبحانه « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىٌّ حكيم » ٥١ : الشوْرى .
وسنعرض لهذه الآية الكريمة بالدرس بعد قليل ؛ ولكننا الآن بصدد ما نحن فيه على النحو التالى :

---

(١) مختار الصحاح ص ٧٣٠ ط : الأميرية

(٢) أساس البلاغة ص ١٠١٠ ط : الشعب

(٣) أنظر المفردات في غريب القرآن الكريم لأبى القاسم الحسين بن محمد الشهير بالأصفهانى . ص ٥١٥ . ٥١٦ ؛ ط الحلبى بالقاهرة . وقد أوعب الراغب وأوجزنا .

(١) الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

● تحدثت آيات القرآن الكريم كثيراً عن الوحى إلى رسول الله من ذلك قوله سبحانه « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ١٦٣ : النساء ، وقوله سبحانه « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » ٣ : يوسف ، وقوله سبحانه « كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أممٌ لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن » ٣ : الرعد ، وقوله سبحانه « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا » ١٢٣ : النحل ، وقوله عز من قائل « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره » ٧٣ : الإسراء ، وقوله جل جلاله « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك » ٨٦ : الإسراء ، وقوله جل جلاله « والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه » ٣١ : فاطر ، وقوله عز من قائل « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها » ٧ : الشورى ، وقوله « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك » ١٣ : الشورى ، وقوله سبحانه « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » ٥٢ : الشورى .. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة مما سنعرض له بالدرس التفصيلى في مواضعه .

(٢) الوحى إلى النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين :

تحدث القرآن الكريم عن الوحى إلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وذلك لأن قضية الوحى واحدةٌ ، ودين الله واحد في أصله وغاياته ، ورسل الله جميعاً أخوة ، تتابعوا على طريق ذللوا صعابه ، ورفعوا منائر الحق على جنباته ، ونهض كل منهم بقيادة جند الله في مواجهة فلول الشيطان في مرحلة من مراحل معركة الحق الدائمة ، يقول الله سبحانه في بيان هذه الوحدة الجامعة « إنا اوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين

منْ بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما » ١٦٣ ـ ١٦٥ النساء ؛

● فهذه الآيات الكريمة تحدثت عن وحدة الوحى ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بدْعاً في الوحى إليه ، ولا فيما أوحى إليه ، وذَكَرَتْ عدداً من الرسل الأكرمين من أول نوح باعتباره أبا البشر الثانى بعد آدم ، وأول أولى العزم من المرسلين ، وأول نبى أوحى إليه برسالة من النبيين ، وقد كان آدم عليه السلام نبياً مكلما ـ وبينت الآيات الغاية من الوحى : « لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل » ١٦٥ : النساء .. ويؤكد القرآن الكريم معنى هذه الوحدة الرسالية في قوله سبحانه « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ولدارُ الآخرة خيرٌ للذين اتقوا أفلا تعقلون » ١٠٩ : يوسف ، وقوله سبحانه : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر ، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » ٤٣ ، ٤٤ : النحل ، فالله سبحانه يقطع المعذرة وسبيلها على الممترين في أمر الوحى من مشركى قريش وغيرهم ، ويسوق لهم الدليل بما سبق من الرسالات ، ويأمرهم بسؤال أهل العلم من أهل الكتاب الذين لم يزغ الشيطان قلوبهم ، ويتبع الحديث عن إرسال المرسلين ـ صلوات الله عليهم ـ بالبينات والزبر بذكر بينة القرآن وإنزال الذكر بياناً للناس كافةً ، ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ٧ : الأنبياء .

وليستقر في أذهان البشر ويرسخ في أعماقهم أن توحيد الله عز وجل هو ركن الوحى الركين وأساسه المتين ، يقول تعالى : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت لَيَحْبَطَنّ عملُك ولتكونَنّ من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » ٦٥ ، ٦٦ : الزمر .

(٣) الوحى الإشارى :

● وتأتى كلمة الوحى بمعنى الإشارة لغة كما تقدم ومثال ذلك ما ورد في قوله سبحانه عن زكريا عليه السلام : « قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » ١٠ ، ١١ : مريم ، فهو عليه السلام خرج من المحراب لا يكلم أحداً وهو سَوِى من كل آفة تمنعه من الكلام ، فأومأ إليهم آمراً إياهم بتسبيح الله وقيل كتب لهم(١) وذلك كما ورد في قوله تعالى « قال رب اجعل لى آيةً قال آيتك ألا تكلم الناسَ ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار » ٤١ : آل عمران ، وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول البيضاوى(٢) « أى لا تقدر على تكليم الناس ثلاثا ؛ وإنما حبس لسانُه عن مكالمتهم خاصة ليخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاء لحق النعمة ، وكأنه قال آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر ، وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال » .

(٤) الوحى إلى بعض الأنبياء قبل النبوة :

● وذلك لأن الله تبارك وتعالى يُعِدُّ أنبيائه لرسالته ، فيحفظ لهم فطرتهم حتى يحين الوقت الذى يفيض فيه أنوار وحيه على قلوبهم ، فهو سبحانه يرعاهم من حيث لا يشعرون أو من حيث يشعرون حتى يتم رسالته ويبلغ الكتاب أجله .

من ذلك ما كان من لطفه سبحانه بيوسف وقد اجتمعت عليه صبياً المحنُ ، وتظاهرت عليه الخطوب فهو ممتحن بأخوة تسعرت نيرانُ الأحقاد في قلوبهم وطغت على جوارحهم فكادوا له كيداً لئيما وكان أمرهم معه كما قال القائل :

وظلم ذوى القُربَى أشد مضاضةً ‌ ‌ ‌ ‌ على النفس من وقع الحسامِ المهندِ

ووضعته المؤامرة في غياهب الجب ، وأبدلته من حنان الأخوة وزلفى المودة ، غدر الأولياء ، وإنفصام الإخاء ، وتركوه بين مخافات مهلكةٍ ، وفزع بئيس ، وهنا يهبط الفيض وتتنزل السكينة : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » ١٥ : يوسف ، فلقد كان هذا الوحى قبلَ نبوته بيقين كما في قوله تعالى بعد ذلك « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » ٢٢ : يوسف ، ولقد نص غير واحد من المفسرين على أن هذا الوحى كان في طفولته ، وكادت أن تتفق عبارة ثلاثةٍ منهم على ذلك وهم : الزمخشرى ، وأبو السعود ، والبيضاوى ، أو قل إن دور الأخيرين دور الناقل قال أبو السعود (٣) : « وأوحينا إليه عند ذلك تبشيرا له بما يؤول إليه أمره ؛ وإزالة لوحشته ، وإيناسا له ، قيل كان ذلك قبل إدراكه ؛ كما أوحى إلى يحيى وعيسى ؛ وقيل كان إذ ذاك مدركا ؛ قال الحسن رضى الله عنه : كان له سبع عشرة سنة (٤) . وذهب البيضاوى (٥) الى أن وسيلة الوحى كان جبريل عليه السلام ، ونحن لا نقطع كيف كان الوحى إليه في هذه الضائقة ، ونقف عند نص القرآن الكريم ، وكذلك عيسى عليه السلام أوحى إليه وكلم الناس في المهد صبيا ؛ وكان ذلك قبل أن يؤمر بالنهوض بأعباء الرسالة تكليفاً وتشريفاً . كما ورد في قوله تعالى : « ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين » ٤٦ : آل عمران ، وقوله سبحانه : « فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال إنى عبد الله أتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » ٢٩ : ٣٣ مريم .

---

(١) انظر تفسير البيضاوى ص ٢٩٩ وغيره ط . البهية المصرية .

(٢) أنظر ص ٦٨

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبى السعود) . جـ ٣ ص ٥٧ ط صبيح . الكشاف ج ٢ ص ١٢٦ ط الحلبى .

(٤) وهذا التحديد إن صحت نسبته للحسن لا دليل عليه .. (٥) أنظر البيضاوى ص ٢٣٤ .

وكذلك بالنسبة ليحيى عليه السلام فقد ورد في قوله تعالى « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا » ١٢ : مريم ؛ أى خذ التوراة بجد « وآتيناه الحكم صبيا » قال الزمخشرى (١) الحكم الحكمة ٠ وهو الفهم للتوراة ، وقيل العقل ، وقيل النبوة لأن الله أحكم عقله في صباه وأوحى إليه » ، وقال البيضاوى (٢) وقيل النبوة : أحكم الله عقله في صباه واستنبأه » واختار الجلال المحلى (٣) تفسير « الحكم بالنبوة » وقال صبيا : ابن ثلاث سنين وقول الجلال هذا الأخير لا دليل عليه ، ولم يشر ابن كثير (٤) الى معنى النبوة في تفسير الآية ٠

وعلى هذا فيحتمل أن يكون أوحى إليه قبل النبوة صغيراً ، وأوحىَ إليه بالنبوة ذاتها صبيا ، والذى نرجحه أن : الحكم غير النبوة لقوله سبحانه : « أولئك الذين آتيناهم الكتابَ والحكم والنبوة » ١٨٩ : الأنعام ، وكذلك في ٧٩ : آل عمران ، ١٦ : الجاثية ٠

(٥) الوحى الى أمهات بعض الأنبياء :

● وقد أوحى الله تبارك وتعالى إلى أمهات بعض أنبيائه لأمور تتعلق بولادة هؤلاء الأنبياء ؛ أو بالحفاظ على حياتهم ، وسكناً وربطا على قلوب الأمهات ، إقرأ معى قول الله تبارك وتعالى : « واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ٠ فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ٠ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ٠ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا » ١٦ ـ ١٩ : مريم ، وأقرأ قوله تعالى « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » ٤٥ : آل عمران ٠٠ فهذه آيات كريمة صريحة في الوحى إل مريم عليه السلام وفي رسالة جبريل عليه السلام إليها وبشارة الملائكة لها ٠

أما أم موسى عليه السلام :

● فاقرأ معى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » ٧ : القصص ؛ فهذه الآية الكريمة التى جمعت لأم موسى أمرين : « أرضعيه ، ألقيه » ونهيين : « ولا تخافي ، ولا تحزنى » وخبرين وبشارتين : « إنا رادوه إليك ؛ وجاعلوه من المرسلين » وبعيدٌ أن يكون هذا كله بغير وحى قولى ، وإن مال لهذا البعيد بعض المفسرين يقول ابن كثير (٥) « فلما ضاقت به ذرعاً ألهمت في سرها ؛ وألقى في خلدها ؛ ونفث في روعها ٠٠ » ويقول أبو السعود (٦) عند قوله تعالى « وأوحينا الى أم موسى » : بالهام أو رؤيا » ٠٠

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٥ ٠

(٢) أنظر تفسيره ص ٢٩٩ . ومعنى استنبأه ؛ جعله نبيا ٠

(٣) أنظر تفسير الجلالين ص ٢٨١ ٠

(٤) أنظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١١٣ ٠

(٥) أنظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٨٠ ٠

(٦) أنظر تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ١٤٧ ٠

أما الزمخشرى(١) فيقول : « وأومئت بالوحى إليها ، ووعدت ما يسليها ويملأها غبطة وسرورا .. فلما ألح فرعون في طلب الولدان أوحى الله إليها فألقته في اليم .. » وعبارة البيضاوى(٢) هى نفس عبارة أبى السعود وتقرب منها عبارة الجلال المحلى(٣) حيث يقول « وحى إلهام أو منام » .

أما القرطبى(٤) فيفصل الأقوال في المسألة حيث يقول « واختلف في هذا الوحى الى أم موسى فقالت فرقة : كان قولا في منامها ، وقال قتادة : كان إلهاماً ، وقالت فرقة : كان الملك يمثل لها . قال مقاتل : أتاها جبريل بذلك ، فعلى هذا هو وحى إعلام لا إلهام ، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية » واحتج القرطبى بروايات صحيحة عن تكليم الملائكة لبعض الناس من غير نبوة ..

ونقل ابن منظور في لسان العرب(٥) من الأقوال ما هو جدير بأن يذكر » قال الأزهرى : « وقول الله عز وجل « وأوحينا الى أم موسى » .. الوحى ها هنا إلقاء الله في قلبها ، قال : وما بعد هذا يدل والله أعلم على أنه وحى من الله على جهة الإعلام للضمان لها « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » وقيل إن معنى الوحى ها هنا الإلهام،وجائز ان يلقى الله في قلبها أنه مردود إليها وأنه يكون مرسلا ولكن الإعلام أبين في معنى الوحى ها هنا » ويرجح أنه وحى إعلام قوله سبحانه « وإذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم » .. ٣٨ ، ٣٩ : طه .

والذى نميل إليه ونرجحه ويعين سياق الآية ومنطوقها عليه : أن الوحى إلى أم موسى كان وحى إعلام لا وحى إلهام .

وإنه لمن الجلى المسفر أن الوحى إلى السيدة مريم عليها السلام ، وإلى أم موسى عليه السلام ، لم يكن إلا من جميل عناية الله وعظيم رعايته بولديهما الكريمين ، ثم بهما بالتبعية وليس العكس صحيحاً . وقد سكت القرآن الكريم عن ذكر اسم السيدة الفاضلة أم موسى(٦) عليه السلام ، وهذا من مناهج القرآن الموضوعية .

(٦) الوحى إلى الملائكة :

● أما وحى الله إلى الملأ الأعلى من الملائكة فأمر بين بديهى ، فأمين وحى السماء إلى الأرض هو جبريل عليه السلام ، قال تعالى : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » أى فأوحى الله سبحانه إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحاه جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم (٧) .

---

(١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٤٦٦

(٢) انظر ص ٣٧٥

(٣) انظر الجلالين ص ٣٥٨

(٤) انظر « الجامع لأحكام القرآن » ج ١٣ ص ٢٥٠

(٥) انظر اللسان جـ ٢٠ ص ٢٥٨ وانظر القرطبى جـ ١٣ ص ٢٥٠

((٦) وقيل : إن اسمها هو أيارخا أو أيارخت . وقيل يوخابز أو يوخابيل . وقيل غير

(٧) قيل بغير هذا في تفسير هذه الآية فمراجعة في مواضعه من كتب التفسير إن شئت .

ويقول ربنا سبحانه « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أنْ انذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » ٢ : النحل ، فالآية الكريمة تذكر أن الله سبحانه ينزل الملائكة بالروح وهى الوحى ، أو بعبارة الزمخشرى (١) : « بما يحيى القلوب الميتة بالجهل من وحيه » .. وقال الجلال السيوطى (٢) « الملائكة أى جبريل والروح أى الوحى » .

ويقول سبحانه عن القرآن الكريم ووحيه « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » ١٠٢ : النحل .

ويقول سبحانه : « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » ١٩٢ ـ ١٩٥ : الشعراء ، وجبريل لا ينزل بالوحى إلا إذا كان موحى إليه به من عند الله سبحانه بداهة وقطعا .

ويقول سبحانه عن وحيه إلى الملائكة في بدر : « إذْ يوحى ربك إلى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » ١٢ : الأنفال .

(٧) معنى الوحى إلى الحواريين :

● يقول ربنا سبحانه « وإذْ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون » ١١١:المائدة ، فليس الوحى وحياً مباشراً إلى الحواريين وإنما هو وحىٌ اليهم عن طريق رسولهم عيسى عليه السلام ، والمعنى أمرتهم فيما أوحيت إلى عبدى عيسى عليه السلام أن يؤمنوا ويصدقوا بأن عيسى رسولٌ من عندى ، وفي عبارة الزمخشرى : « أمرتهم على ألسنة الرسل » (٣) وقد نقلها عن الزمخشرى المتابعون له .

إلا أن ابن كثير (٤) المفسر السلفى يذكر غير ما رجحناه ثم يذكر ما رجحناه قال : « قيل إن المراد بهذا الوحى وحى إلهام كما قال تعالى « وأوحينا إلى أم موسى » وهو وحى إلهام بلا خلاف (٥) إلى أن قال : وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية « وإذ أوحيت إلى الحواريين » أى ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا ..» وقال السدى (٦) قذف في قلوبهم ذلك ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم الى الإيمان بالله وبرسوله فاستجابوا لك وانقادوا ، وتابعوك فقالوا « آمنا واشهدْ بأننا مسلمون » ١١١ : المائدة .

وهذا الذى ذكره ابن كثير مؤخراً وجعله احتمالاً هو ما رجحناه .. والله أعلم ..

● ● ●

(١) أنظر الكشاف جـ ٢ ص ١٩٧ .. وقوله « الميتة بالجهل » أى التى أهلكها الجهل في ليل الجاهلية

(٢) أنظر الجلالين ص ٢٤٣ وانظر كذلك البيضاوى ص ٢٦٢

(٣) أنظر الكشاف جـ ١ ص ٤٩٠ . والبيضاوى ص ١٣٦ وغيرها

(٤) أنظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ ص ١١٤

(٥) بل في كون الوحى إلى أم موسى وحى إلهام خلاف . ذكرنا منذ قليل تفصيله ورجحنا أنه وحى إعلام .

(٦) يقول المتحدثون : سلسلة الخزف : هى الكلبى عن السدى عن ابن عباس .

(٨) الوحى الإلهامى التسخيرى إلى الكائنات الحية :

● يقول ربنا سبحانه : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمر فاسلكى سبل ربك ذللا » ٦٨ ، ٦٩ : النحل ، فوحى الله سبحانه للنحل هو ما أودعه في فطرة النحل من غرائز ومواهب وملكات سواها وأبدعها الذى أبدع كل شئ ، وهو كذلك تسخير النحل لهذا النشاط النافع والسعى الدائب والنظام الرائع ؛ ليكون من ذلك إنعام على الناس ومنافع للناس ، وآية من آيات الله للناس ، يقول ابن كثير(١) في تفسير الآية الكريمة : « المراد بالوحى هنا : الإلهام والهداية ، والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوى إليها ومن الشجر » ويقول الزمخشرى (٢) : « الايحاء إلى النحل إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه وإلا فنيقتها(٣) في صنعها ولطفها في تدبير أمرها ، واصابتها فيما يُصْلحها:دلائل بينة شاهدة على أن الله أودعها علماً بذلك ، وفطنها كما أُولى أولى العقول عقولهم » .

وإذا كان النص القرآنى الكريم ورد بالوحى إلى النحل فليس ذلك فيما نرى قاصراً على النحل بل إن الله تبارك وتعالى قد ألهم كل مخلوقاته ما تستقيم به حيواتها ، أو يتم للإنسان به تسخيرها وبسط هذه الفكرة يحتاج الى كتاب قائم برأسه في علوم الأحياء والكائنات ، كما قيل :

وفي كل شئ له آيةٌ　　　　تدل على أنه الواحد

(٩) الوحى التسخيرى للجمادات :

● وهذا نوع آخر في الاستعمال القرآنى لكلمة الوحى جاء به القرآن يقول العزيز الحكيم : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها » ١١ ، ١٢ : فصلت ، يقول البيضاوى (٤) عند قوله سبحانه : « وأوحى في كل سماء أمرها» : شأنها وما يتأتى منها بأن حملها عليه اختياراً أو طبعاً ، وقيل : أوحى إلى أهلها بأوامره ونواهيه » ١ هـ . والذى نميل إليه هو الأول وهو أن الله سبحانه سخر السماوات بنظام قدره وأبدعها على النحو الذى أراده ، وللغاية التى يريدها ويعلمها أى أمر لكل سماء بما قدره فكان كما أراده وقدره من أجرامٍ وكواكب ، وبما فيهن من خلقٍ كريم كالملائكة ، وما الله به أعلم .

● ● ●

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ ص ٥٧٥

(٢) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٢٠٩

(٣) نيقتها : النيقة : بالكسر الاسم من تَنَيق في مطعمه وملبسه إذا تجود وبالغ فيه كتنوق . ورجل نيّق ككيس وانتاق وانتقى والنيق بالكسر : أرفع موضع في الجبل .. وانظر : القاموس المحيط جـ ٣ ص ٢٩٧ .

(٤) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى ص ٤٥٨ . وانظر كذلك الكشاف جـ ٣ ص ٦٧ .

زولها كانت عبارة البيضاوى في هذا الموضع أو في وأسهب فقد قدمناها في النقل وعرضناها للفحص .

ويقول سبحانه عن حالة الأرض يوم البعث : « يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها » ٤ ، ٥ : الزلزلة ، فالمتبادر من المعنى أنها تحدث أخبارها لأن الله « أوحى لها » أى أمرها وأذن لها بأن تحدث ، ويفصل الزمخشرى(١) القول فيقول : « معناه تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها ، وأمره إياها بالتحديث ، ويجوز أن يكون المعنى يومئذ تحدث بتحديث أن ربك أوحى بها ، على أن تحديثها : « بأن ربك أوحى لها » تحديث بأخبارها ، ويجوز بأن يكون « بأن ربك » بدلاً من أخبارها وكأنه قيل : تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها لأنك تقول حدثته كذا بكذا ، أوحى لها : بمعنى إليها ؛ وهو مجاز كقوله سبحانه « أن نقول له كن فيكون » ٨٢ : يس ، وقوله : مجاز قضية لسنا بمجال الخوض(٢) فيها الآن ، وللزمخشرى وجهته ، ولكل وجهته .. بيد أن الحمل على الحقيقة هنا هو الذى تجدد دلائله ناصعة .

(١٠) وحى الشيطان إلى أوليائهم :

● ويقول ربنا جل ذكره « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين(٣) الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون » ١١٢ : الأنعام ، وغنى عن القول أن وحى الشياطين هذا إلى اوليائهم ليس إلا وسوسة شياطين الجن لبعضهم ولشياطين الإنس ، فكل يمنى الآخر ويخدع نفسه وغيره ، ويعولون جميعاً على باطل منهار ، وهذه الوسوسة المخادعة المخاتلة ، وهذا الوحى الشيطانى لا صلة لهما بوحى الله إلا صلة الظلام الحالك بالنور الأسنى .. ويزداد هذا المعنى ايضاحاً بتدبر قوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن اطعتموهم إنكم لمشركون » « ١٢١ : الأنعام ، وهذا الوحى الشيطانى وسيلة إلى « الاستكثار » و « الاستمتاع » المشار إليهما في قوله عز من قائل « ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أَجَّلْتَ لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاءالله إن ربك حكيم عليم . وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » ١٢٨ ، ١٢٩ : الأنعام .

ثم أن حقيقة هذا الوحى هى الشقاء التعيس كما قال سبحانه : « ألم تر أنَّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا . فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا » ٨٣ ، ٨٤ : مريم ، وقانا الله سبيلهم ، وألزمنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها .

الوحـــى
في الاصطـلاح الشرعـى

● المعنى الاصطلاحى : قد يكون تخصيصاً للمعنى اللغوى ؛ أو قصراً له على واحد من أفراده أو نقلاً له إلى معنى جديد تربطه بالمعنى اللغوى رابطةٌ معينةٌ ، وقد لا توجد هذه الرابطة أو تكون واهية .

---

(١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٥٣ .

(٢) يقول كاتب هذا البحث : توسع ابن جنى فجعل اللغة كلها مجازاً أو اكثرها . ووصف ابن القيم وفي الصواعق المرسلة جـ٢ من ص ٢ ـ ١٠٦ وما بعدها في المجاز بأنه طاغوت .. ولقد اتخذت فرق وطوائف المجاز مطية لأبطال الحق . والتلبيس بالباطل . وهذا من سوء القصد وضلال الصنيع ومع هذا ففى قضية المجاز مباحث وسيعة لمن حسن قصده . واتسع فهمه . وسلك السبيل القاصدة

(٣) الشيطان هو كل عاقٍ متمرد من جن أو انس أو دابة . والحيَّة يقال لها شيطان كذلك وانظر القاموس ص ٤ ص ٢٤٠ .

(٤) الأزيز : صوت غليان القدر والمرجل ؛ أزَّه : حركة بشدة بمعنى هزه وإلا أنها أبلغ . وقال الراغب في مفرداته ص ١٦ « ترجعهم ارجاع القدر اذا أزت أى اشتد غليانها .

وخير تعريف للوحى الشرعى هو أنه :

● « إعلام الله تعالى لأنبيائه ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بما يريد بلاغه لهم من شرع أو كتابٍ بالكيفية التى يريدها سبحانه(١) .

اعتراض الشيخ محمد عبده على هذا التعريف :

● وقد اعترض الشيخ عبده في رسالة التوحيد على هذا التعريف فقال(٢) .. وقد عرفوه شرعاً « بأنه إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه » أما نحن فنعرفه على رأينا « أنه عرفانٌ يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول يكون بصوت يتمثل لسمعه(٣) أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الإلهام ، بأن الإلهام تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعورٍ منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » ١ هـ .

الموافقون للشيخ محمد عبده :

● وقد تابعه الشيخ رشيد ونقل هذا الرأى دون تعقيب عليه في كتابه« الوحى المحمدى »(٤) وتناقل هذا التعريف نقلا عن « الوحى المحمدى » علماء آخرون معاصرون فذكروه في مؤلفاتهم(٥) .

المعارضون لهذا التعريف :

● ولقد نقل الاستاذ مالك بن نبى المفكر الجزائرى في كتابه « الظاهرة القرآنية » هذا التعريف للوحى عن كتاب « الوحى المحمدى » وتعقبه بقوله(٦) .. ولقد بقى في هذا التعريف الذى أسهب الأستاذ الامام في تحديده بعض الغموض فيما يتصل بتفسير اليقين عند النبى : والواقع أننا في الحالة التى لا يكون الوحى فيها منتقلاً بطريقة محسة ـ مسموعة أو مرئية ـ سنقع في تعريف الوحى تعريفا ذاتياً محضاً ، إذ أن النبى في التحليل الأخير لا يدرى بصفة موضوعية كيف جاءته المعرفة وهو يجدها في نفسه مع تيقنه بأنها من عند الله ، إن في ذلك تناقضاً

---

(١) صغنا هذا التعريف بالصياغة التى وجدناها أنسب من غيرها وانظر في هذا « الوحى المحمدى » للشيخ رشيد رضا ص ٣٥ . ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٤٨ . ١٤٩ ط : الهلال . والظاهرة القرآنية للاستاذ مالك بن نبى ص ١١٩ . ١٢٠ والمدخل لدراسة القرآن الكريم للشيخ أبى شهبه ص ٧٤ .

(٢) ص ١٤٨ . ١٤٩ من رسالة التوحيد .

(٣) وتفسير ذلك كما ورد بهامش رسالة التوحيد « كصلصلة الجرس أو كلام الملك كما ورد في الحديث الثانى من صحيح البخارى » ١ هـ من نسخة المؤلف .

(٤) انظر ص ٣٥ من الوحى المحمدى .

(٥) انظر مثلا المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ٧٤ للشيخ أبى شهبة : فعند تعريفه للمعنى .

(٦) الحاصل بالمصدر من الوحى الشرعى نقل بعض هذا التعريف .. انظر الظاهرة القرآنية لمالك بن نبى ترجمة دكتور عبد الصبور شاهين ص ١٢٠ .

واضحاً يخلع على ظاهرة الوحى كل خصائص المكاشفة(١) ولكن هذه (أى المكاشفة) كما يجب أن نكرر ـ لا تنتج يقيناً مؤسساً على إدراك ، ذلك الذى يبدو أنه اليقين المقصود في الآيات التى ورد فيها ذكر الوحى ، والتى تتصل بخاصة بإعداد « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشخصى لفهم طبيعة الظاهرة القرآنية » ١ هـ .

وكذلك فعل صاحب (٢) « مباحث في علوم القرآن » حين قال : لذلك لا نتفق مع الإمام محمد عبده حين جعل الإلهام وجدانا تستيقنه النفس » .

موقفنا من الفريقين :

● ونحن نؤثر التعريف الذى ذكرناه في مقدمة هذا الفصل ونأخذ على تعريف الشيخ محمد عبده ما أخذه عليه غيرنا ونضيف بأن الشيخ :

١ ـ ساق تعريفاً غير موضوعى باسم الموضوعية .

٢ ـ ساق تعريفاً لا تشهد له نصوص القرآن والسنة ولا وقائع الوحى .

٣ ـ فرق كبير بين « إعلام الله لنبى من أنبيائه » وبين أن يكون الوحى .. عرفاناً يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله ، ففى هذا التعريف الأخير إيهام وغموض وفقدان للاتساق بين أوله وآخره .

٤ ـ استعمال كلمة « الشخص » في غير موضعها ، لأن النبى ليس كأى شخص .

٥ ـ وصفه الإلهام بأنه وجدان تستيقنه النفس ، ولا يقين في الإلهام وقد يلتبس على الإنسان الإلهام بوساوس الشياطين .

٦ ـ شبه وجدان الإلهام بغرائز الجوع والعطش والحزن والسرور ، وشتان بين الإلهام والغرائز .

إطلاقات الوحى الشرعى :

● ويطلق الوحى في الشرع ويراد به المعنى المصدرى ، والمعنى الحاصل بالمصدر ، أى على المصدر ، وعلى متعلقه : وهو ما وقع به الوحى أى أسم المفعول(٣) ، وبعبارة أخرى فإن اللفظ يطلق على : عملية نزول الوحى ، وعلى الموحى به ، فتطلق كلمة الوحى ويراد بها : جبريل ، وما ينزل به جبريل .. والقرآن وحى : موحى به ، والسنة وحى كذلك ؛ وهناك الفروق بين الوحيين .

أنواع الوحـــى

● يقول الله تبارك وتعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىٌ حكيم » ٥١ : الشورى .

---

(١) كذلك فإن كلمة « المكاشفة » هذه اصطلاح لا وجود له ولا لمؤداه في الكتاب والسنة .

(٢) انظر « مباحث في علوم القرآن » للدكتور صبحى الصالح ص ٢٦

(٣) انظر « المدخل لدراسة القرآن » ص ٧٤ . « والوحى المحمدى » ص ٣٥ .

ذكر المفسرون عند تفسير هذه الآية(١) سبب نزولها وهو أن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً ، كما كلمه موسى ونظر إليه ؛ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن موسى عليه السلام لم ينظر إلى الله فنزلت في ذلك الآية ..

والمعنى : « ما كان لبشر » : ما ينبغى لبشر ، وما صح لإنسان ..

« أن يكلمه الله » : بحالة من الأحوال ، ووجه من الوجوه .. « إلا وحيا » : إلا أن يكون الكلام وحيا ، بأن ينفث في قلبه ، ويلقى في روعه .. وقيل « إلا وحيا » رؤيا يراها في منامه وهو بعيد . « أو من وراء حجاب » : أو يكلمه من وراء حجاب كما كلم الله موسى عليه السلام›وحين سأل الله الرؤيا بعد التكليم لم يؤت سؤله « أو يرسل رسولا » : أو يكلمه بإرسال رسول إليه من الملائكة وهو جبريل عليه السلام « فيوحى » : الملك بإذن الله « ما يشاء » الله إبلاغه لرسوله من البشر .

وقيل(٢) إلا وحيا بإرسال جبريل ، أو من وراء حجاب كما كلم موسى « أو يرسل رسولا » من البشر إلى الناس كافة،وقيل(٣):قوله تعالى« وحيا .. أو يرسل » مصدران واقعان موقع الحال ، وقوله تعالى « أو من وراء حجاب » ظرف واقع موقعهما ، والتقدير : وما صح أن يكلم الله أحداً إلا : موحياً أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلاً رسولا ..وقرئ (٤) أو يرسل رسولا فيوحى برفع الفعلين على الاستئناف قرأ بذلك الزهرى ، وشيبة ؛ ونافع ، أى وهو يرسل على إضمار المبتدأ ، وقرأ الباقون بالنصب « إنه على »(٥) متعال عن صفات المخلوقين لا يتأتى الكلام بينه سبحانه وبينهم إلا بواحد من الوجوه المذكورة .

« حكيم » يجرى أفعاله على سنن الحكمة فيكلم تارة بواسطة ، وأخرى بدونها ..

تفصيل أنواع الوحى

● كل حالة من هذه الحالات الثلاث السابقة تتشعب إلى حالات هى فروع من أصولها ؛ على النحو التالى :

أولاً : حالة الوحى القلبى :

وهى المذكورة في قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا » ٥١ : الشورى تكون هذه الحالة على صورتين هما :ـ

الأولى : النفث في الروع :

● والروع (٦) بضم الراء هو القلب ، ومعنى النفث في الروع : إلقاء المعنى المراد في القلب ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٦) « إن روح القدس نفث في روعى : أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم » .

(١) أنظر « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى جـ ١٦ ص ٥٣ . « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير جـ ٤ ص ١٣١ . ١٣٢ . و « الكشاف عن حقائق التنزيل » للزمخشرى جـ ٣ ص ٨٧ . ٨٨ . و « إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم » لأبى السعود جـ ٥ ص ٣٨ . ٣٩ .

(٢) انظر « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى جـ ١٦ ص ٥٣ .

(٣) تفسير ابن السعود جـ ٥ ص ٣٨ وغيره .

(٤) أنظر القرطبى وتفسير ابى السعود في تفسير الآية كما سبق آنفاً

(٥) قاله أبو السعود في الآية ص ٥ ـ ٣٨ .

(٦) قال الرازى في مختار الصحاح ص ٢٨٢ : الروع بالفتح الفزع . والروعة ، الفزعة والروع بالضم القلب والعقل . يقال وقع ذلك في رُوعى أى في خلدى وبالى .

(٧) صحيح ابن حبان . وانظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٣١ .

وهذا الإلقاء في القلب يكون من الله عز وجل ؛ أو من جبريل عليه السلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ مع اليقين القاطع بأن هذا من لدن الله سبحانه .

الثانية : الرؤيا الصادقة :

● عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى : الرؤيا الصالحة في النوم ، « وفي رواية مسلم « الصادقة » فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء » (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) : الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » .

وذهب بعض العلماء في تعليل هذه النسبة(٣)مذهبا يحسن ذكره وهو : أن فترة الرؤيا الصادقة التى بدئ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ستة أشهر ، كان الوحى فيها بالرؤية الصالحة ، وأن مدة المرحلتين المكية والمدنية هى ثلاثة وعشرون عاما ، فتكون نسبة الأشهر الستة إليها أو منها هى نسبة جزء من ستة وأربعين جزءا .

وبعد هذه الفترة الأولى من الوحى أوحى إلى الرسول بمجئ الملك جبريل عليه السلام ، وبالرؤى الصادقة(٤) أيضا وذكر هذه الرؤى يضيق عنه هذا المجال ، ولكننا نكتفى بذكر رؤيا صادقة مبشرة من رؤاه صلوات الله عليه وسلامه وهى رؤيا دخول المسجد الحرام التى ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا » ٢٧ : الفتح .

وكذلك رؤيا ابراهيم عليه السلام بذبح(٥)ولده اسماعيل عليه السلام ؛ هى من وحى الله سبحانه إليه ، وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله سبحانه : « وقال إنى ذاهبٌ إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السَّعْى قال يا بنى إنى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلَّهُ للجبين وناديناه أن ياابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين » ٩٩ ـ ١٠٥ : الصافات .

فهذه الرؤى الصادقة جميعاً التى وقعت للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم : هى شعبة من شعب الوحى .

ثانياً ـ الوحى التكليمى :

● وهو المذكور في قوله سبحانه : « أو من وراء حجـــاب » والكلام يفترض أن يكون على صورتين :

الأولى : الكلام كفاحا : أى جهرة من غير حجاب ؛ وهو لم يقع لأحد في هذه الدنيا على الراجح ، ولقد سأله موسى عليه السلام ولم يجب اليه قال تعالى ذاكراً لنا ذلك في محكم كتابه : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربُّه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ، ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ؛ فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ، قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » ١٤٣ ، ١٤٤ : الأعراف .

---

(١) البخارى جـ ١ ص ٣ ط : الشعب . مسلم في صحيحه .

(٢) البخارى : كتاب التعبير : باب الرؤى الصالحة .

(٣) نسبة الجزء إلى ستة وأربعين جزءاً .

(٤) فلا تنافى بين مجيئ جبريل عليه السلام وبين الرؤى الصادقة .

(٥) سقنا هذه الحادثة كدليل على أن رؤى الأنبياء صلوات الله عليهم من الوحى .

وقد ذهب فريق من السلف والخلف مستدلين بفهم في نص إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة المعراج ، وعلى هذا يكون كلام الله لنبيه قد تم جهرة ؛ وفي الرؤية وكيفيتها ووقوعها (١) خلافٌ لسنا بصدد الخوض فيه ، لأنه خارج نطاق هذا البحث ، ويقول ابن قيم الجوزية (٢) « وهى مسألة خلاف بين السلف والخلف ، وإن كان جمهور الصحابة بل كلهم مع عائشة رضى الله عنها كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمى إجماعاً للصحابة » ونقول ما كان لابن القيم وهو العالم المحقق أن يتابع الدارمى على هذه الدعوى بل هى كما ذكر : مسألة خلافية ندور فيها مع الدليل أينما دار .

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجابر بن عبد الله رضى الله عنهما « ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحا » وكان أبوه قد قتل يوم أحد ، ولا صلة لهذا الحديث بمباحث الوحى ؛ لأنه كما يقول ابن كثير (٣) : « في عالم البرزخ والآية « ما كان لبشر » .. إنما هى في الدار الدنيا » .
والتحقيق كما ذكرنا أن الكلام كفاحاً لم يردّ به نص قاطع يقول بوقوعه لأحد في الدنيا .

(٢) الكلام من وراء حجاب :

● وقد كلم الله موسى عليه السلام كما قال سبحانه : « قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » ١٤٤ : الأعراف ، وكما قال سبحانه : « وكلّم الله موسى تكليما » ١٦٤ : النساء ، وورد النص أكثر عموماً في قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفَع بعضهم درجات » ٢٥٣ : البقرة .

وقد كلم الله سبحانه رسوله ليلة الإسراء ، وفرض عليه وعلى أمته الصلاة وهذا متفق على صحته (٤) ، بل هو مما لا يعذر أحد بجهله ، ونجتزئ هنا بالعبارة الأخيرة من الحديث الذى رواه مالك بن صَعْصَعة عن النبى صلوات الله وسلامه عليه من أحاديث الاسراء وهى (٥) : « فنودى أنى قد أمضيتُ فريضتى ، وخففت عن عبادى ، وأجْزى عن الحسنة عشرا » .

ثالثاً : إرسال الملك :

وهو المذكور في قوله سبحانه « .. أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » ٥١ : الشورى ويكون على ثلاث صور :

(١) مجئ الملك في صورة بشرية :

● كما كان جبريل عليه السلام يأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة رجل من العرب هو « دحية الكلبى » فيعلم الرسول صلى الله عليه وسلم يقينا أنه جبريل ، ويراه الصحابة الحاضرون مجلس الرسول ويسمعون قوله ولا يعرفون حقيقته ، كما في حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبى عن الإيمان والإسلام

---

(١) التنازع حول تفسير قوله تعالى « ما كذب الفؤاد ما رأى » ١١ - ١٤ . النجم وحديث ابن عباس أنه رآه بعينه وهو موقوف وضعيف الإسناد وانظر النووى على مسلم جـ ٣ و « الشفاء » للقاضى عياض . وشرح الطحاوية ص ٢١٣ .
(٢) زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم جـ ١ ص ٣٤ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٢٢ .
(٤) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان . البخارى ومسلم جـ ١ ص ٣٩ ، ٤٢ وقل أن يخلو كتاب من كتب السنة والتفسير من أحاديث الإسراء .
(٥) متفق عليه واخرجه البخارى كتاب « بدئ الخلق » باب « ذكر الملائكة » وأنظر اللؤلؤ جـ ١ ص ٤٢ .

والإحسان وعن الساعة (١) ، وقد وصف عمر رضى الله عنه هيئة جبريل التى جاء إلى الرسول عليها فقال (٢) : « بينما نحن عند رسول الله ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ : شديد بياض الثوب : شديد سواد الشعر : لا يرى عليه أثر السفر : ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه .. وفي آخر الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعُمَر أتدرى من السائل ؟ قال : الله ورسوله أعلم .. قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحالة الإنسية للملك حين سأله الحارث بن هشام رضى الله عنه « كيف يأتيك الوحى يا رسول الله ، فقال :(٣) « وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول »

وقد ذكر لنا القرآن الكريم في قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أن الملائكة كانت تتمثل لهم في صور البشر : فإبراهيم عليه السلام يظن أنَّ ضيفه من الملائكة بشر : ويقدم لهم طعاماً : ويتوجس منهم خوفاً حين لم يقربوا الطعام ، كما قال سبحانه : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قومٌ منكرون . فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين.فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم » ٢٤ ــ ٢٨ : الذاريات .

ولوط عليه السلام لا يعرف الملائكة المرسلين إليه : لأنهم على صورة بشر لا يعرفهم كما قال سبحانه : « ولما جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يومٌ عصيب » ٧٧ : هود .. وفي ختام هذا المشهد يقول القرآن الكريم على لسان الملائكة يعرفون لوطا برسالتهم وما وكل إليهم في شأنه ومَنْ يكونون : « قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب » ٨١ : هود

وأما السيدة مريم عليها السلام فيقول سبحانه في شأن إرسال جبريل إليها « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا .. » ١١٧ : مريم ، وقوله سبحانه : « بشراً سويا » هو أقطع دليل بعد ما تقدم على ما ندلل عليه : ونستشهد له .

(٢) مجئ الملك على صورته الملائكية الحقيقية :

● وفي هذه الحالة يأتى الملك وهو جبريل عليه السلام على صورته الأصلية ، وهيئته الحقيقية الملائكية التى برأه الله عليها ، ولم يأت جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الحالة إلا مرتين هما المشار اليهما على الأرجح(٤)قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى » ١٣ ــ ١٥ : النجم ، وقالت فيها السيدة (٥) عائشة رضى الله عنها : « ولكنه رأى « أى رسول الله صلى الله عليه وسلم » جبريل عليه السلام في صورته مرتين » وكانت المرة الأولى في بداية الوحى بعد حراء وقد حدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : (٦) : بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالساً على كرسى بين السماء والأرض ، فزعبت منه » وفي رواية مسلم فجُئثْت منه فرقا حتى هويت إلى الأرض »

(١) انظر « البخارى » ج ١ ص ١٩ ، ٢٠ كتاب « الإيمان » وانظر « اللؤلؤ والمرجان » جـ ذ ص ٢ .

(٢) انظر « صحيح مسلم » بشرح النووى جـ ١ ص ١٥٧ ، ١٦٠ وقد نقلنا من الحديث مواضع الاستشهاد فقط .

(٣) انظر « صحيح البخارى » ص ٣ جـ ١ .

(٤) وقلنا على الأرجح إعراضا عن خلاف كثير لا غناء لنا فيه .

(٥) أنظر صحيح البخارى جـ ٦ ص ١٧٦ .

(٦) أنظر صحيح البخارى جـ ١ ص ٤ ، وأنظر صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٢ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ نقلنا عن النووى بعد شرحه للحديث .

وفي رواية أخرى لمسلم :« فأخذتنى رجفة شديدة » قال علماء اللغة : « جُئث الرجل إذا اشتد فزعه فهو مجؤوث ومجئوث أى مذعور » ثم قال صلى الله عليه وسلم : « فرجعت إلى خديجة فقلت : زملونى فأنزل الله تعالى : « يأيها المدثر .. فقوله صلى الله عليه وسلم « فرعبت منه يفيد أنه رآه على صورته الحقيقية ، وهى صورة لفرط عظمتها تبعث على الرَّوع . وكانت الرؤية الثانية ليلة الاسراء ، ويَرْوى عنها عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأى جبريل له ستمائة جناح » (١) وعن مسروق قال (٢) : كنت متكئاً عند عائشة ، فقالت : يا أبا عائشة : ثلاثٌ : من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ، قالت : من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت يا أم المومنين أنظرينى ، ولا تعجلينى ، ألم يقل الله عز وجل « ولقد رآه بالأفق المبين » ٢٣ : التكوير ، ولقد رآه نزلة أخرى » ١٣ : النجم ، فقالت أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء سادا عظمُ خلقه ما بين السماء إلى الأرض .. » وفي رواية أخرى للسيدة عائشة رضى الله عنها قالت (٣) : « إنما ذاك جبريل عليه السلام كان يأتيه في صورة الرجال ، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التى هى صورته ، فسد أُفقَ السماء .

بقى سؤالٌ عن الكيفية التى جاء بها الملك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في حراء فقد يفهم من قوله صلى الله عليه وسلم : فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه » قد يفهم البعض من هذه العبارة أنه جاء بحراء على صورته الملائكية ، وإلا فكيف عرفه حين رآه جالسا ؟ .

ويجاب على هذا : بأنه لو رآه جالسا على نفس الصورة التى رآه بها في الغار ؛ لما اعتراه الرعب حين رآه مرة أخرى ؛ فإن معاودة الرؤية على حالة واحدة تورث الألفة . وإنما عرف أنه الملك بملابسات الأحوال وقرائنها المحيطة به صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة .

(٣) مجئ الملك على حالة غير مرئية تصحبها أماراتٌ دالة :

● ومن صفات الملائكة أو من اسمائهم أنهم جنةٌ ؛ وكلمة الجن كلمة دالة على ستر وخفاء (٤) قال الله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » ١٥٨ : الصافات ، فالجنة في الآية الكريمة هم الملائكة ، والمعنى أن المشركين جعلوا بين الله سبحانه وبين الملائكة نسباً بزعمهم أن الملائكة بنات الله ، والملائكة تعلم أن هؤلاء المشركين محضرون في العذاب (٥) .

ولقد كان جبريل عليه السلام يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً بحالته هذه المستترة فلا يراه أحد وتسمع له صلصلة ولمجيئه دوىٌ ، وقد وصف رسول الله (٦) صلى الله عليه وسلم هذه الحالة حين سأله الحارث بن هشام رضى الله عنه : كيف يأتيك الوحىُ ؟ فقال صلى الله عليهوسلم : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو

---

(١) انظر البخارى ج ٦ ص ١٧٦ . وقد وصفت بعض الروايات هذه الأجنحه بما لا نر أنا في حاجة اليه وانظر ابن كثير جـ ٤ ص ٠٨

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٣ ص ٨

(٣) نفسه ص ١١٠

(٤) كلمة جن ومشتقاتها كثيرة تدل على هذا المعنى وانظر (معاجم من اللغة) للشيخ محمد رضا في هذه المادة .

(٥) انظر في تفسير الآية تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٢٧٨ والبيضاوى ص ٤٣٤ .

(٦) أنظر صحيح البخارى جـ ١ ص ٢ . ٣ .

أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال » .. وقد وصفت السيدة عائشة هذه الحالة بقولها (١): « ولقد رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » .. وسيأتيك مزيد من البيان لهذه الحالة في الفصل الاتى عن كيفية الوحى القرآنى .

على أى صورة
كان الوحى القـــرآنى

● والان بعد طول التطواف نصل إلى إنسان عين البحث متساءلين : كيف كان الوحى بالقرآن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

(١) ـ (أ) هل كان نفثا في الروع ؛ وإلقاء للمعنى في النفس ، وسلْكاً للفكرة في الفؤاد ، كما هو الشأن في الوحى ببعض أقسام السنة (٢) ؟

(ب) أم هل كان الوحى رؤى صادقة يرى فيها ما يرى فيصدق ـ حين يعبر ـ منه القولُ ، ويصير واقعا محققا كل ما دار بخلده مناما ؟ وهذه وسابقتها هما معا الحالة الأولى (٣) من حالات الوحى في اية الشورى كما أسلفنا القول

(٢) أم كان الوحى القرانى كلاماً من رب القوى والقدر إلى صفوة خلق الله وخيرة رسل الله صلى الله عليه وسلم كفاحا ؛ أو من وراء حجاب ؟

وهذه الحالة الثانية من حالات الوحى في اية الشورى.

(٣) أم وقع بالحالة الثالثة وهى الحالة الملائكية ؛ وعلى أى صورها وقع ؟.. أبمجئ الملك متمثلاً في صورة البشر ؟ أم على صورته الملائكية الحقيقية التى رآه بها خاتم النبيين مرتين : نزْلةً في أوائل الفترة المكية ، وأخرى في أخرياتها ليلة المعراج ؟

أم تنزل عليه النور من آيات ربه بوسيلة الملك على صورة هى لجلالها أصبحت من أبهى صور الجلال ، ولروعتها كان سيد البشر ينسلخ بها عن دنيا البشر ؟

والحقيقة التى تغبط راسيات الجبال ثباتها ، وتنسخ آية سناها الشمس وضحاها : أنه ما من آية في القرآن تلقاها الرسول مناما ، أو نفث في روعه معناها ـ . ولا حاجة بنا أن نضرب في بيداء تيهاء وأمامنا سوى الصراط عليه الصوى ، وعلى جنباته المنائر فوق الذرى ، يقول ربنا له الكبرياء في السموات والأرض وهو أصدق القائلين : « إنْ هو إلا وحىٌ يوحى . علمه شديد القوى » ٤ ، ٥ : النجم ، فمعلم الوحى هو جبريل شديد القوى عليه السلام ، ويقول جل ذكره : « إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين » ١٩ : ٢٧ : التكوير .. فالله سبحانه يصف جبريل فيما نحن بين يديه من آيات بأنه رسول كريم ذو قوة ومكانة عند ربه مطاع بين ملائكته ، وينفى عن خاتم انبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم افتراءات المشركين وضلالة إفكهم ،

---

(١) أنظر صحيح البخارى جـ ١ ص ٢ ، ٣ .

(٢) كما يعبر عن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « ان روح القدس ، نفث في رُوعى » الحديث .

(٣) أى أن النفث في الروع والرؤية الصادقة صورتان يفسر بهما قوله تعالى « .. إلا وحيا » ٥١ : الشورى . وهما معاً الحالة الأولى .

ويبين صلوات الله عليه ليس ظنينا ولا متهما فيما يبلغ من أخبار الغيوب ، وليس ضنيناً على البشر في تبليغها وتعليمها ..

ويقول تبارك وتعالى : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » ١٠٢ : النحل ، .. ويقول سبحانه : « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين وإنه لفى زبر الأولين » ١٩٢ ـ ١٩٦ : الشعراء .

فكل هذه آيات بينات ، وحجج قاطعات : وبراهين واضحاتٌ في نسبة شرع البلاغ : وعز وأمانة التبليغ إلى الروح الأمين عليه السلام .

وإذ قد بلغنا هذه المرحلة من الطريق : وعلمنا أنه لم يكن وحى بالقرآن إلا وكان جبريل واسطة له وأمينا عليه فلننتقل الى مرحلة أخرى نسائل فيها أنفسنا كيف كان يأتيه جبريل عليه السلام ؟

الكيفية التى جاء عليها الملك :

● ولن نتجشم كبير عناء في هذه المرحلة فقد عَبَّد لنا فيها الطريق الحارث بن هشام رضى الله عنه حين سأل (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يارسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس : وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول ، قالت عائشة رضى الله عنها ولقد رأيته ينزل ، عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصمك عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا » .

فهذا الحديث الكريم يحدثنا بحالتين للوحى : يأتيه فلا يراه من حوله وإنما يسمعون لمجيئه دوياً وصلصلة أو يتمثل له الملك بشرا سوياً فيحدثه فيعى عنه كل ما قال » .

حالة الرسول صلى الله عليه وسلم
وقت إشرافات الوحـى

● وهى حالة صورتها الإشارة ولم تستطع التعبير عن كنهها وإبراز صورتها للبشر صورة ولا عبارة ، فصاصلة حول الوجه الكريم ، وليس ثمة أجراس ، ولا أجرام نواقيس ، ودوى كدوى النحل وسعادة البنحل بتشبيه هو منه ببعيد .. وتأتى العبارات تصف وتعبر فقد رأت الآثار ، ولكن سنا الأنوار يأخذ بالأبصار ، وليس من نفحته الأنوار (٢) كمن هو غارق في لجج الأنوار (٣) . تقول أقرب الناس إلى من تنزل عليه الوحى : عائشة رضى الله عنها « كان يأتيه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا » وتاتى عبارة الحديث الاخر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة . » (٤) .

ويعبر العلماء كل بما أفاء الله عليه عن فهمه لهذه المعانى .. يقول الشيخ (٤) عبد الرحمن بن خلدون : « توجد لهم ـ أى للأنبياء عليهم السلام ـ في حال الوحى غيبةٌ عن الحاضرين معهم ، مع غطيط (٥) كأنها غشى أو

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ١ ص ٢ . ٣ وقد سبق لنا منذ قليل ذكر طرفٍ من هذا الحديث وكررناه هنا لأعتبار آخر .

(٢) المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون ص ٧٣ : التقدم .

(٣) قوله « كلية » يحتاج الى احتراز . فلأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين « بشر » وإن كانوا صفوة البشر . وهداة البشر .

(٤) أنظر النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٦٣ .

إغماء في رأى العين ، وليست منها في شئ (٦) ؛ وإنما هى في الحقيقة استغراق في لقاء المللك الروحانى : بادراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشرية بالكلية (٧) .

أما العلامة الدكتور دراز رحمه الله فيقول (٨) بعد نظرة فيما صح من الآثار « وكلنا نعرف تلك الظاهرة العجيبة ؛ التى كانت تبدو على وجهه الكريم ؛ في كل مرة حين ينزل عليه القرآن ، وكان أمرها لا يخفى على أحد مما ينظر إليه فكانوا يرونه قد أحمر وجهه فجأة ، وأخذته البرحاء حتى يتفصد جبينه عرقاً ، وثقل جسمه حتى كاد يرض فخذه فخذ الجالس (٩) إلى جانبه ، وحتى لو كان راكباً لبركت به راحلته ، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتاً مختلفة تشبه دوى النحل .. ثم لا يلبث أن تسرى عنه تلك الشدة ؛ فإذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكراً محدثاً » .. ثم يتحدث عن سر هذه الظاهرة قائلا (١٠) « وكذلك فليؤمنوا بأن نور هذا القمر النبوى إنما كان شعاعاً منعكساً على ضوء تلك الشمس (١١) التى يرون آثارها وإن كانوا لا يرونها . نعم إنهم لم يروها بأعينهم طالعة في رابعة النهار(١٢) ، ولم يسمعوا صوتها بآذانهم جرسا(١٣) مفهوماً وكلاماً يفقهه الناس ، ولكنهم كانوا يرون قبساً(١٤) منها في الجبين ، وكانوا يسمعون حسيسها(١٥) حول الوجه الكريم ، وإن في ذلك لهدى للمهتدين » .

هذه عبارات بعض العالمين من البشر وهى على جهدها وإخلاصها رنت إلى سماء لا يطار لها على جحناح ولا يسعى على قدم .
فقلنعد إذاً الى طلب مزيد من علم حول « ظاهرة الوحى » متأدبين بأدب الملائكة مع رب العالمين ، قائلين : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » ٣٢ : البقرة متسائلين : ما سر ما اصطلح العلماء على تسميته « ببرحاء الوحى » ؟ ولماذا الدوى والأجراس ؟ ولماذا المعاناة والشدة الموصوفة على لسانه صلى الله عليه وسلم ؟ ! .. السر يكمن في قوله جل ذكره : « إنا سنلقى عليك قوما ثقيلا » ٥ : المزمل ، وتأمل مليا : فهو ثقيل في كل موازين الحق والعدل ، والخير ، والبر ؛ والعزة والأمن ، ثقيل في موازين العقول الراشدة ، والقلوب المستنيرة ، ثقيل بأسمى معانى الكلمة ، ثقيل في غير عنت ولا إكراه .. ثقيل وهو ملء قلوب المؤمنين ، وبيان ألسنة الموحدين ؛ ونور عقول المتدبرين ، وصدق رب العالمين : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا » ٣١ : الرعد ، أى لو أن قرآناً كانت له هذه الصفات لكان هذا القرآن لعظمته الخالدة وإعجازه الذى بلغ المنتهى .

شوق الرسول وحرصه على انطباع الوحى في فؤاده :

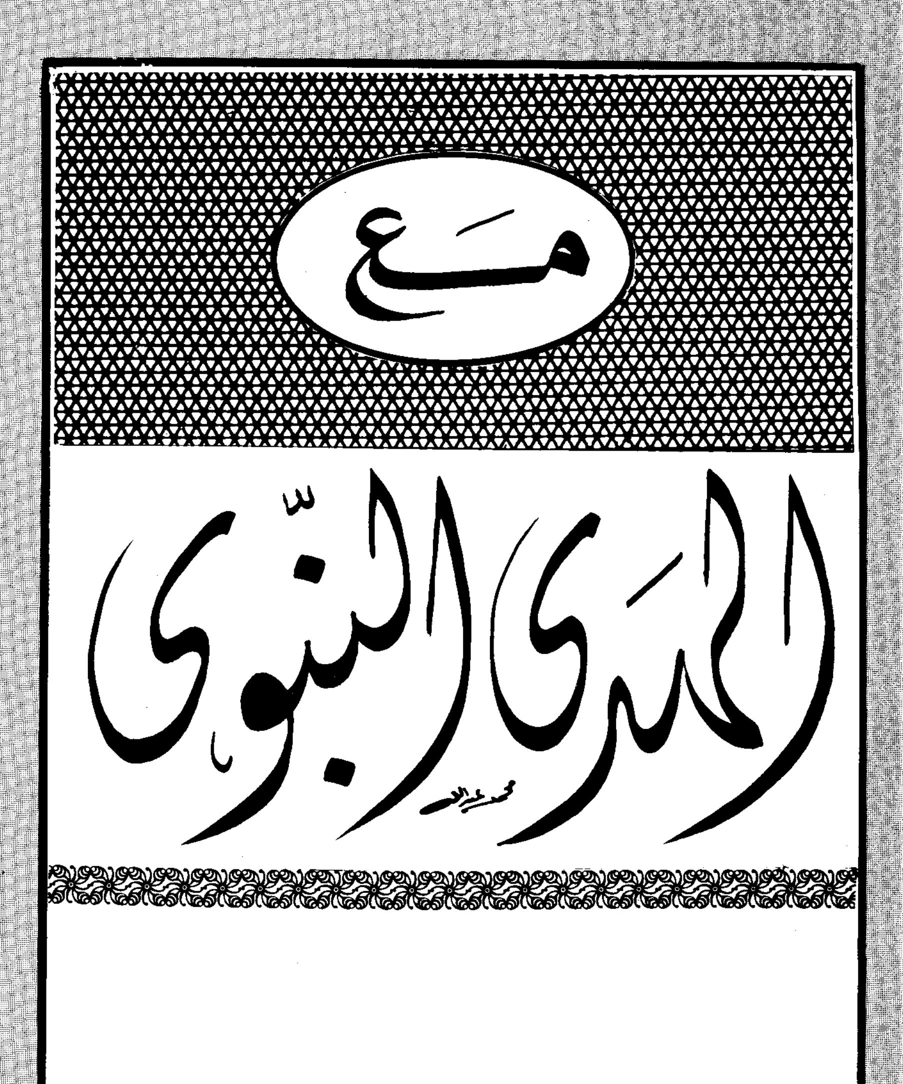
● فأما الدلائل البينة على هذا الشوق الجارف فهى كثيرة وسنذكر بعضها إن شاء الله في بحث أخر عن « النزول وقضاياه » ، ونذكر هنا من محكم الذكر الكريم ما يدل على كريم حرصه صلى الله عليه وسلم على أن يصبح قلبه الذكى كأنه صورة من صحائف اللوح المحفوظ ، يقول ربنا جل ذكره : « ولا تعجل بالقرآن من قبلا أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما » ١١٤ : طه ، ويقول سبحانه : « لا تحرك بين لسانك لتعجل به إنا علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إنا علينا بيانه » ١٦ - ١٩ : القيامة ، وقد أنزل الله على فؤاده الكريم سكينة الذكر ، وأمنه من مخافة النسيان ؛ فأوحى إليه جل ذكره : « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى » ٦ ، ٧ : الأعلى .

والذى نخلص إليه من كل ما سبق : أنه من تكريم الله لكتابه بكل صنوف التكريم ؛ وحفظه له بمختلف أنواع الحفظ ؛ أن كان الوحى القرآنى بهذه الصورة المشرقة الناصعة فلم يكن شئٌ من القرآن قط إلا وتلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشافهة من جبريل عليه السلام في حالة كان فؤاده الكريم يتلألأ يقظة ويشرق وعياً ، أو قل كاد طبيعته البشرية حالة الوحى أن تأخذ صورة ملائكية ، وكيف لا ونفسه الشريفة في الذروة العليا بين خلق الله جميعاً .

---

(٤) سبق ذكر أسانيد بعض هذه الأحاديث وهى في الصحيحين وأبى داود والترمذى .

(٥) ص ٦٥ من النبأ العظيم .


مع
الهدى النبوى



علم الجرح والتعديل :

■ من المعلوم لدى المسلمين جميعاً أن السنة المشرفة هي مصدر دينهم بعد كتاب ربهم وهي مناط عزهم ولولاها ماراح مسلم ولا جاء .

وقد تكفلت ببيان القرآن وابراز محتواه الى الناس لأن الذى تحدث بها هو الذى جاء بالقرآن من عند الله وهو أدرى به . وعليه فالسنة هي الأصل الثانى للشريعة والقرآن هو الأصل الأول كما تقدم . ومنكر الأصل الثانى منكر للأصل الأول لأنه أمر بالأخذ بالثانى وبانكاره يكون قد خلع ربقة الاسلام من عنقه .

ولما كانت السنة بهذه الأهمية أمر النبى صلى الله عليه وسلم بحفظها وتبليغها على وجهها كما سمعت ونهى عن الكذب في الأخبار عنه وتوعد فاعله مقعداً في النار ولأن نسبة الخبر الى النبى صلى الله عليه وسلم شرع يعمل به وكذب عليه ليس ككذب على غيره . ومن هنا قام جماعة من الأئمة بحفظها في الصدور وتدوينها في السطور وقطعوا في سبيل ذلك الفيافى والقفار وواصلوا الليل بالنهار واعتبروا ذلك من أوجب الواجبات عليهم . وعلى قاعدة الحفظ والتبليغ مع الأمانة والصدق والبعد عن الكذب المشار اليها حرص العلماء على الوقوف على أحوال الرواه بالبحث عن مواليدهم واسمائهم وكناهم وألقابهم وبلدانهم ورحلاتهم وأمانتهم وثقتهم وعدالتهم وضبطهم وغير ذلك من كذب أو غفلة أو علة أو نسيان وما الى ذلك ووضعوا كل واحد منهم مادام قد تصدى للرواية في سجل يجمع كل هذا حتى يعرف من كان من أهل الشأن من غيره .

ومن هنا نشأ علم الجرح والتعديل أو علم فحص الرجال أو علم ميزان أو معيار الرواة .. وقام جماعة من الأئمة بهذه المهمة الجليلة التى سنها لهم النبى صلى الله عليه وسلم ومشى عليها الصحابة عليهم الرضوان ، وعلم الجرح والتعديل علم جليل القدر من أجل العلوم التى نشأت بنشأة حفظ السنة وتدوينها بعيدة عن الخلل والزيف ، وهو علم لا نعرف له نظير ، في تاريخ الأمم الأخرى . واستطاع العلماء بهذا العلم الوقوف على أحوال الرواة وميزوا بين الصحيح وغيره من الأخبار ، فجندوا أنفسهم لاختبار من يعاصرونهم من الرواة ولم يكتفوا بذلك بل ويسألونهم عن السابقين ممن لم يعاصروهم ويعلنوا رأيهم فيهم دون تحرج ومأثم اذ كان ذلك ذبا عن دين الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد قيل لأبى عبد الله البخارى أن بعض الناس ينقمون عليك التاريخ يقولون فيه اغتياب الناس فقال « انما روينا ذلك رواية ولم نقله من عند أنفسنا وقد قال صلى الله عليه وسلم : بئس أخو العشيرة .

تعريف علم الجرح والتعديل :

■ الجرح بفتح الجيم مصدر جرح كمنع وهو في اللغة التأثير في الجسم بالسيف ونحوه ، وأكثر ما يستعمل بالفتح في المعانى والأعراض باللسان .
وأما الجرح بالضم فهو الاسم وأكثر استعماله بالضم في الأبدان بالحديد ونحوه وهما في اللغة بمعنى واحد يقال فلان جرح فلانا أى سبه وشتمه وجرح الحاكم الشاهد أسقط عدالته وذلك مجاز ويقال : جرح الرجل ، أصابته جراحه يقول مجد الدين بن الأثير : ومنه حديث بعض التابعين « كثرت هذه الأحاديث واستجرحت » أى فسدت وقل صلاحها وهو استفعل ، من جرح الشاهد اذا طعن فيه ورد قوله ، أراد أن الأحاديث كثرت حتى أحوجت أهل العلم بها الى جرح بعض رواتها ورد روايته .. وجرح بتشديد الراء تجريحا أكثر ذلك فيه .
والجرح في الاصطلاح : ـ رد الحافظ المتقن رواية الراوى لعلة قادحة فيه أو في روايته من فسق أو تدليس أو كذب أو شذوذ أو نحوها .
ويلاحظ في التعريف انه اشترط فيمن يرد رواية الراوى أن يكون حافظاً متقناً وهنا يرد به على البعض الذين يقحمون أنفسهم في غير مجالهم وتخصصهم ويطعنون في بعض الرواه والروايات واليك تحديد الحافظ الذى يملك حق الرد والجرح ، قال جمال الدين المزى : ـ حينما سئل عن حد الحفظ الذى اذا انتهى اليه الرجل جاز أن يطلق عليه الحافظ قال : أقل ما يكون أن يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم وبلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب .. وقال الشيخ فتح الدين بن سيد الناس : ـ وأما المحدث في عصرنا فهو من اشتغل بالحديث رواية ودراية وجمع رواة واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره وتميز في ذلك حتى عرف فيه خطه واشتهر فيه ضبطه ، فان توسع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيوخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفهم من كل طبقة أكثر مما يجهله منها فهذا هو الحافظ .
وما يحكى عن بعض المتقدمين من قولهم : كنا لا نعد صاحب حديث من لم يكتب عشرين ألف حديث في الاملاء .

معنى الحفظ : ـ

■ للعلماء اصطلاحات وألفاظ في معنى الحفظ .. قال عبد الرحمن بن مهدى : الحفظ الاتقان .. وقال أبو زرعه : ـ الاتقان أكثر من حفظ السرد ، وقال غيره الحفظ المعرفة .

قدر الحافظ : ـ

■ عين أئمة الشأن قدرا من الأحاديث اذا حفظها الراوى صار حافظاً ومما روى في قدر حفظ الحافظ قول أحمد بن حنبل : ـ انتقيت المسند من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألف حديث وقال أبو زرعه الرازى كان أحمد ابن حنبل يحفظ ألف ألف حديث قيل له وما يدريك قال ذاكرته فأخذت عليه الأبواب .. ويقول يحى بن معين : كتبت بيدى ألف ألف حديث ، ويقول البخارى : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتى ألف حديث غير صحيح .. ويقول مسلم بن الحجاج : صنفت هذا المسند الصحيح من ثلثمائة ألف حديث مسموعة ويقول أبو داوود السجستانى : كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ما ضمنته كتاب السنن أربعة الاف وثمانمائة حديث وقال أبو زرعه : أحفظ مائة ألف حديث كما يحفظ الانسان سورة قل هو الله أحد ، وفي المذاكرة ثلثمائة ألف حديث .. وعن الشعبى قال : ما كتبت سوداء في بيضاء الى يومى هذا ولا حدثنى رجل بحديث قط الا حفظته .. ويقول اسحق بن راهوية : أعرف مكان مائة ألف حديث كأنى أنظر اليها ، وأحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر قلب وقال يزيد بن هارون : أحفظ خمسة وعشرين ألف حديث باسناده ولا فخر وأحفظ للشاميين عشرين ألف حديث .

وهناك الكثير من الحفاظ غير ما ذكرت ممن يحفظون الكثير وبمثل هذا الحفظ يستطيع الراوى أن يعرف الأسانيد سواء كانت للشاميين أو للمصريين أو للبصريين أو المدنيين أو الخراسانيين وما الى ذلك مهما اختلفت ، ويميز طريق كل حديث عن غيره وتصبح الروايات والرواة مهما تباعدت البلدان في حفظه وبين يديه ويفرق بين الصحيح والسقيم منها ولا يستطيع دخيل أن يندس بين رواة الحديث لانه يعرف الرواة بأعيانهم وأحوالهم ولا تخفى علة عليه . وعمل البخارى مع ... الذين أتوا بمائة حديث مع عشرة أشخاص مقلوبة السند والمتن ليختبروه فلما سمعها على الحالة المذكورة رد كل حديث الى سنده وكل سند الى حديثه وما ذلك الا لحفظه وتمكنه ومعرفته بتركيب الأسانيد والمتون ، أما ما يفعله البعض من الجهلة والزنادقة من التطاول على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتعدى على المصنفات الحديثية المعتمدة ونقدها من غير حفظ ولا اطلاع على فن الحديث وعلومه ففعلهم مرض في قلوبهم وحقد على مصدر الاسلام وبعد عن الدين واتباع للشيطان حيث قام على غير أساس ، ولو سألت الواحد منهم كم يحفظ من الأحاديث بأسانيدها لأجابك بالنفى وفاقد الشئ لا يعطيه .

والسبب في رد الحافظ المتقن رواية الراوى وهو ما كان فيه من علة قادحة فيه أو في روايته كما جاء في التعريف ، والعلة عبارة عن سبب غامض خفى قادح في الحديث مع أن ظاهره السلامة منه أى السبب الغامض وبتعريف اخر نقول الحديث المعلل ما اطلع فيه الحافظ الخبير بالفن على علة تقدح في صحته مع ظهور السلامة عليه وتكون العلة في الاسناد الجامع شروط الصحة ظاهرا مع خفائها فيه أما علامتها وكيفية معرفتها : فتعرف العلة بتفرد الراوى وبمخالفة غيره له مع قرائن تضاف الى ذلك تنبه العارف بهذا الشأن الذى أدمن الاطلاع فيه وسبر أهله على وهم وقع بارسال في الموصول أو وقف في المرفوع أو دخول حديث في حديث أو غير ذلك بحيث يغلب على ظنه فيحكم بعدم صحة الحديث أو يتردد فيتوقف في قبوله .. قال على بن المدينى : الباب اذا لم تجمع طرقه لم يتبين خطؤه .. وبقية قيود التعريف سنذكرها انشاء الله بعد تعريف التعديل .

التعديل جاء من عدل الحكم أقامه ، وعدل الرجل زكاه ، والميزان سواه ، وعليه فالتعديل التقويم والتسوية والتزكية ، والعادل من الناس من يقضى بالحق والعدل من الأشياء ما قام في النفوس انه مستقيم والمقبول والمرضى ، قوله وحكمه ، وجائز الشهادة ، وتقول امرأة عدل ونسوة عدل وقد يجرى مجرى الوصف الذى ليس بمصدر فتقول امرأة عدلة .

والتعديل في الاصطلاح :ـ وصف الراوى بما يقتضى قبول روايته ..

زيادة أيضاح :ـ

■ وأستطيع أن أعرفه بتعريف اخر مجمل فأقول :ـ هو علم يبحث فيه عن جرح الرواه وتعديلهم بألفاظ مخصوصة .. ومراتب تلك الألفاظ ..

وهذا العلم من فروع علم الرجال الحديث ولم تكثر الكتابة فيه مع أنه علم عظيم لأنه ميزان رجال الحديث ومعيار الحكم عليهم وهو الحارس للسنة من كل زيف ودخيل ..

والكلام في الرجال جرحا وتعديلا ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عن كثير من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وجوز ذلك تورعا وصونا للشريعة لا طعن في الناس وكما جاز الجرح في الشهود جاز في الرواة والتثبت في أمر الدين أولى من التثبت في الحقوق والأموال .. فلهذا افترضوا على أنفسهم الكلام في ذلك وسيأتى بيان أول من عنى بذلك من الأئمة .

الجرح وأحكامه ..

الجرح اجيز في الرواة باتفاق أئمة الشأن صيانة للشريعة الاسلامية من أن يدخل فيها ما ليس منها ونصيحة لله ورسوله عليه السلام والمسلمين ولا يقف على معرفة ذلك الا المحدث الصادق المشهور بطلب الحديث

التقى الورع .. روى الخطيب البغدادى في كفايته بسنده عن أحمد بن محمد البغدادى قال : ـ سمعت يحى بن معين يقول آلة الحديث الصدق والشهرة بطلبه وترك البدع واجتناب الكبائر .

البيان : ـ

■ لما كانت السنة هى الصادرة عن النبى صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال والتقريرات وكانت البيان لكتاب الله والتشريع للناس في كل زمان ومكان كان لابد فيها من أن تكون واردة عن النبى صلى الله عليه وسلم بطريق ثابت ومنسوبة اليه نسبة حقيقية ، وقد أمر عليه السلام بتبليغها عنه ونهى عن الكذب فيها ونقل الصحابة عنه ذلك ومشوا عليه ..

روى الخطيب أيضا بسنده عن الأعمش عن خيثمة عن سويد قال : قال على بن أبى طالب « اذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فو الله لأن أخر من السماء أحب الى من أن أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. واذا حدثتكم فيما بيننا فان الحرب خدعة » .. ومن هنا احتاط الصحابة في الرواية والبعض منهم لم يكثر منها خوف أن يدخل في الحديث شئ لم يرد .. روى الخطيب بسنده عن جامع بن شداد قال سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير يحدث عن أبيه قال قلت لأبى الزبير مالى لا أراك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدث فلان وفلان وابن مسعود .. قال والله يا بنى ما فارقته منذ أسلمت ولكنى سمعته يقول من كذب على فليتبوأ مقعده في النار .. ومعنى هذا والله ما قال متعمدا وأنتم تقولون متعمدا .. ومعنى هذا انه لابد من الصدق في الرواية ويحرم الكذب فيها عمدا وغير عمد ولا يعذر غير اليقظ فيها .. قال الخطيب : ومن سلم من الكذب وأتى شيئا من الكبائر فهو فاسق يجب رد خبره ومن أتى صغيرة فليس بفاسق ومن تتابعت منه الصغائر وكثرت رد خبره .. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيان الكبائر عدة أحاديث اجتنبوا السبع الموبقات والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من الكذب على غيره .. والفسق به أظهر والوزر به أكبر .. وروى ابن أبى حاتم في كتاب الجرح والتعديل في تثبيت السنن بنقل الرواة لها من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره بنقل الأخبار عنه ، روى بسنده قال أخبرنى ابى نا الأوزاعى حدثنى حسان بن عطية قال حدثنى أبو كبشه السلولى قال : سمعت عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بلغوا عنى ولو اية وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعدا من النار وروى بسنده عن عبد الله بن عمرو قال خرج الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ونحن سكوت لا نتحدث فقال ما يمنعكم من الحديث قلنا سمعناك تقول من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار فخشينا أن نزيد أو ننقص فقال حدثوا عنى ولا حرج .. وروى بسنده عن عبايه بن رافع بن خديج عن رافع قال مر بنا يوما رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتحدث فقال ما تتحدثون قلنا نتحدث عنك يا رسول الله قال تحدثوا ، وليتبوأ من كذب علىَ مقعده من جهنم وروى بسنده عن الحارث بن عمرو قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى أو بعرفات ثم قال أيها الناس أى يوم هذا وأى شهر هذا قال فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم وشهركم وبلدكم اللهم هل بلغت فليبلغ الشاهد الغائب ..

بيان النبى صلى الله عليه وسلم أن سنته ستنقل وتقبل : ـ

■ وردت أخبار مفادها أن السنة ستنقل عن طريقة التحمل والأداة برواية العدول فقد روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن ثابت بن قيس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم .. وروى بسنده أيضا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم ورواه عنه بثلاث طرق مثله وهذا أخبار من النبى صلى الله عليه وسلم أن سنته ستشيع بين الناس وتنقل من انسان لانسان .

العدالة وأحكامها :-

■ أنشأ العلماء من سلف الأمة ومن تبعهم أمورا أو شروطا تعرف بها منها ما رواه الخطيب البغدادى في كفايته بسنده عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن عبد الله بن عتبه بن مسعود قال سمعت عمر بن الخطاب يقول ان أناسا كانوا يأخذون بالوحى في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الوحى قد انقطع وانما اخذكم الان بما ظهر من أعمالكم فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شئ الله يحاسبه في سريرته ومن أظهر لنا سوءا لم نأمنه ولم نصدقه وان قال ان سريرته حسنة .. وروى أيضا بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن الحسين بن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته وحرمت غيبته .

حـد العدل :-

■ حدد العدل في المسلمين من لم يظهر به ريبة ، أو للعدل بين المسلمين أو العدل في الشهادة الذى لم تظهر منه ريبة وسئل عبد الله بن المبارك عن العدل فقال من كان فيه خمس خصال : يشهد الجماعة ، ولا يشرب هذا الشراب ، ولا تكون في دينه خربه ، ولا يكذب ، ولا يكون في عقله شئ .

المقدار في تحقق العدالة :-

■ روى الخطيب بسنده عن مالك بن أنس يقول سمعت الزهرى يقول سمعت سعيد بن المسيب يقول ليس من شريف ولا عالم ولا ذى سلطان إلا وفيه عيب لابد ولكن من الناس من لا تذكر عيوبه من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله ، وروى بسنده عن البويطى يقول قال الشافعى : لا أعلم أحدا أعطى طاعة لله حتى لم يخلطها بمعصية الا يحى بن زكريا عليه السلام ولا عصى الله فلم يخلط بطاعته ، فاذا كان الأغلب الطاعة فهو المعدل واذا كان الأغلب المعصية فهو المجرح .

ومعنى اخر يحدد العدالة ويبين العدل :- قال الخطيب حدثنى أبو الفضل محمد بن عبيد الله المالكى انه قرأ على القاضى أبى بكر محمد بن الطيب قال : والعدالة المطلوبة في صفة الشاهد والمخبر هى العدالة الراجعة الى استقامة دينه وسلامة مذهبه وسلامته من الفسق وما يجرى مجراه مما اتفق على أنه مبطل للعدالة من أفعال الجوارح والقلوب المنهى عنها والواجب أن يقال في جميع صفات العدالة انها اتباع أوامر الله تعالى والانتهاء عن ارتكاب ما نهى عنه مما يسقط العدالة » .. وقد علم من ذلك انه لا يكاد يسلم المكلف من البشر من كل ذنب ومن ترك بعض ما أمر به حتى يخرج لله من كل ما وجب عليه وان ذلك يتعذر فيجب لذلك أن يقال أن العدل هو من عرف بأداء فرائضه ولزوم ما أمر به وتوقى ما نهى عنه وتجنب الفواحش المسقطة وتحرى الحق والواجب في أفعاله ومعاملته والتوقى في لفظه مما يثلم الدين والمروءة فمن كانت هذه حاله فهو الموصوف بأنه عدل في دينه ومعروف بالصدق في حديثه ، وليس يكفيه في ذلك اجتناب كبائر الذنوب التى يسمى فاعلها فاسقا وزادوا على هذا بعض الذنوب التى ليست من الكبائر ، إما لأنها متهمة لصاحبها ومسقطة له ومانعة من ثقته وأمانته أو لغير ذلك فان العادة موضوعة على أن من احتملت أمانته سرقة بصله وتطفيف حبة احتملت الكذب ، وأخذ الرشاوى على الشهادة ووضع الكذب في الحديث والاكتساب به فيجب أن تكون هذه الذنوب في اسقاطها للخبر والشهادة بمثابة ما اتفق على أنه فسق يستحق به العقاب .. الى أن قال فهذه سبيله في أنه يجب كون الشاهد والمخبر سليما منه .. قال الخطيب :- والواجب عندنا أن لايرد الخبر والشهادة الا بعصيان قد اتفق على رد الخبر والشهادة به وما يغلب به ظن الحاكم والعلم ان مقترفه غير عدل ولا مأمون عليه الكذب في الشهادة والخبر ولو عمل العلماء والحكام على أن لا يقبلوا خبرا ولا شهادة الا من مسلم برئ من كل كذب قل أو كثر لم يمكن قبول شهادة أحد ولا خبره لأن الله قد أخبر بوقوع الذنوب من كثير ولو لم يرد خبر صاحب ، ذلك شهادته بحال لوجب أن يقبل خبر الكافر والفاسق وشهادتهما وذلك خلاف الاجماع فوجب القول في جميع صفة العدل بما ذكر .

زيادة ايضاح :ـ

■ وفسر العدل أيضا بأن يكون مسلما بالغا عاقلا فلا يقبل كافر ومجنون مطبق بالاجماع ومن تقطع جنونه وأثر في زمن افاقته وان لم يؤثر قبل ولا صغير على الأصح وقيل يقبل المميز ان لم يجرب عليه الكذب وأن يكون سليما من أسباب الفسق وخوارم المروءة والمروءة بضم الميم والراء على وزن سهولة وهى اداب نفسانية تحمل مراعاتها على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات ومعرفتها ترجع الى العرف .

ما يستوى فيه المحدث والشاهد من الصفات وما يفترقان فيه جاء عن أبى بكر محمد بن الطيب قال لا خلاف في وجوب قبول خبر من اجتمع فيه جميع الصفات الشاهد في الحقوق من الاسلام والبلوغ والعقل والضبط والصدق والأمانة والعدالة الى ما شاكل ذلك ولا خلاف أيضا في وجوب اتفاق المخبر والشاهد في العقل والتيقظ فأما ما يفترقان فيه فوجوب كون الشاهد حراً وغير والد ولا مولود ولا قريب قرابة تؤدى الى ظنه وغير صديق ملاطف وكونه رجلا اذا كان في بعض الشهادات وأن يكون اثنين في بعض الشهادات وأربعة في بعضها وكل ذلك غير معتبر في المخبر لأننا نقبل خبر العبد والمرأة والصديق وغيره ، واجمالاً : الرواية والشهادة كلاهما خبر غير أن الرواية خبر عام قصد به تعريف دليل شرعى وأما الشهادة فهى خبر خاص قصد به ترتيب فصل القضاء عليه ويشترط عدم العداوة بين الشاهد والمشهود عليه .

تنبيه :ـ

■ قال الخطيب البغدادى :ـ فأما الحديث الذى أخبرناه القاضى أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمى بسنده عن صالح بن حسان عن محمد بن كعب القرظى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تكتبوا العلم الا عمن تجوز شهادته .. فان صالح بن حسان تفرد بروايته وهو ممن اجتمع نقاد الحديث على ترك الاحتجاج به لسوء حفظه وقلة ضبطه وكان يروى الحديث عن محمد بن كعب تارة متصلا وأخرى مرسلا ويرفعه تارة ويوقفه أخرى .. وساق كل طرقه ، ثم قال على ان هذا الحديث لو ثبت اسناده وصح رفعه لكان محمولا على أن المراد به جواز الأمانة في الخبر بدليل الاجماع على أن خبر العبد العدل مقبول .

روى ابن حبان بسنده عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيف من منى فقال نضر الله عبدا سمع مقالتى فوعاها ثم أداها الى من لم يسمعها فرب حامل فقه لا فقه له « وفي رواية » غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يضل عليهن قلب المؤمن : اخلاص العمل والنصيحة لأولى الأمر ولزوم الجماعة فان دعوتهم تكون من ورائهم (١) .. قال أبو حاتم : الواجب على كل من ركب فيها الة العلم. أن يرعى أوقاته على حفظ السنن رجاء اللحوق بمن دعا لهم النبى صلى الله عليه وسلم اذ الله جل وعلا أمر عباده باتباع سنته وعند التنازع الرجوع الى ملته حيث قال « فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول » (٢) ثم نفى الايمان عمن لم يحكمه فيما شجر بينهم فقال « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٣) ولم يقل حتى يحكموا فلانا وفلانا فيما شجر بينهم ولا قال حرجا مما قضى فلان وفلان فالحكم بين الله عز وجل وبين خلقه رسوله صلى الله عليه وسلم فقط ، فلا نحب لمن أشعر الايمان قلبه أن يقصر في حفظ السنن بما قدر عليه حتى يكون رجوعه عند التنازع الى قول من لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى صلى الله عليه وسلم وقد تقدم حديث بلغوا عنى ولو آية .. والأحاديث الواردة في تغليظ الكذب عليه صلى الله عليه وسلم كثيرة كما مر أيضا .

---

١ ـ الجرح والتعديل لابن حاتم . قسم ١ ص ١٠ وأخرجه د . ت . ق وهو حسن

٢ ـ سورة النساء آية (٥٩)   ٣ ـ سورة النساء آية (٦٥) .

ثبوت السنة وترغيب النبى في طلبها من حامليها ووصيته بالمرنحلين فيها :

■ لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم له السبق في دفع الناس الى طلب العلم والتعلم والترغيب فيه روى عبد الرحمن بن أبى حاتم بسنده عن أبى صلح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقا الى الجنة .. وروى بسنده عن كثير بن قيس قال كنت جالسا مع أبى الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجل فقال يا أبى الدرداء جئتك من المدينة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لحديث بلغنى انك تحدثه عن رسول الله قال ولا' جئت لحاجة قال لا ، قال ولا جئت لتجارة ؟ قال لا ، قال ولا جئت الا لهذا الحديث قال نعم ، قال فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله عز وجل به طريقا من طرق الجنة وان الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالبى العلم .. وروى أيضا بسنده عن ابى سعيد الخدرى قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الناس لكم تبع قال فكان اذا أتوه قال مرحبا بوصية رسول الله قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سيأتيكم أناس من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فاذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا .. قال عبد الرحمن بن أبى حاتم .. وقد روى عن عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبى سعيد الخدرى وعبد الله بن عمرو وجابر بن عبد الله وعقبة بن عامر وقيس بن عباده وخلق من التابعين وأتباعهم يطول ذكرهم في رحلة بعضهم في طلب العلم الاثار وترغيب بعضهم فيها ، أمسكنا عن ذلك اكتفاء بما جاء فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم .. ولما أوصى النبى بطالبى الاثار والمرتحلين فيها ونبه عن فضيلتهم علم أن في ذلك ثبوت الاثار بنقل الطالبين الناقلين لها ولو لم تثبت الأخبار بنقل الرواه لها لما كان في ترغيب النبى صلى الله عليه وسلم معنى .. قال بن أبى حاتم مستدلا على ما تقدم بما جاء في أول كتابه بدأنا في ذكر ثبوت السنن بنقل الرواة لها بما حضرنا من الدلائل الواضحة من كتاب الله عز وجل وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم اذ كان قوم من أهل الزيغ والبدع زعموا أن الأخبار لا تصح بنقل الرواة لها وأن طريق صحتها اجماع العامة عليها فأتينا في ذلك وفي ابطال دعواهم ودحض حجتهم بما رأيناه كافيا .

الجرح والتعديل وبيان أحوال الرواة ونفى تهمة الكذب عن الصحابة في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :-

■ كل حديث اتصل اسناده بين من رواه والنبى صلى الله عليه وسلم لم يلزم العمل به الا بعد ثبوت عدالة رجاله ، ويجب النظر في أحوالهم سوى الصحابى الذى رفعه الى النبى لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وأخباره عن طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن فمن ذلك قوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ... (١) وقوله « كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا (٢) وهذا اللفظ وان كان عاماً فالمراد به الخاص وقيل هو وارد في الصحابة دون غيرهم وقوله سبحانه وتعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا (٣) وقوله « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه » (٤) وقوله « يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » .. وقوله تعالى « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٥) في ايات كثيرة يكثر ايرادها ويطول

---

١ - سورة آل عمران آية (١١٠) ٢ - سورة البقرة : آية (١٣٤)

(٣) الفتح : (١٨) .. (٤) التوبة : (١٠٠) (٥) الحشر : (٨ . ٩) ..

تعدادها ، ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة مثل ذلك وأطنب في تعظيمهم وأحسن الثناء عليهم ، فمن الأخبار المستفيضة عنه في هذا المعنى ما رواه مسلم بسنده عن عبيدة السلماني عن عبد الله بن مسعود قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير أمتى القرن الذين يلونى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجئ قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته » وروى بسنده عن عبيدة عن عبد الله قال : قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس خير قال : قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجئ قوم تبدر شهادة أحدهم يمينه وتبدر يمينه شهادته .. وروى أيضاً عن عبيدة عن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم فلا أدرى في الثالثة أو في الرابعة قال ثم يتخلف من بعدهم خلف تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته » وروى كذلك عن أبى هريرة وعمران بن حصين بعدة روايات وفيها والله أعلم أذكر الثالث أم لا ..

ولكن رواية عائشة رضى الله عنها خلت من الشك في العدد قالت سأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم أى الناس خير قال القرن الذى أنا فيه ثم الثانى والثالث (١) وقد حفظه كذلك عبد الله بن مسعود وعمران بن حصين وبه رواه الخطيب البغدادى (٢) قال النووى بعد ذكر اختلاف العلماء في تحديد مدة القرن والصحيح أن قرنه صلى الله عليه وسلم الصحابة والثانى التابعون والثالث تابعوهم ..

قال ابن القيم : فقد اتفقت الأحاديث على قرنين بعد قرنه صلى الله عليه وسلم الا حديث أبى هريرة فانه شك فيه ، وأما ذكر القرن الرابع فلم يذكر الا في رواية في حديث عمران بن حصين لكن في الصحيحين له شاهد من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم « قال يأتى على الناس زمان فيغزوا فئام من الناس فيقال لهم هل فيكم من رأى رسول الله فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يغزوا فئام من الناس فيقال لهم هل فيكم من رأى من صحب رسول الله فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يغزوا فئام من الناس فيقال لهم هل فيكم من رأى من صحب صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون نعم فيفتح لهم فهذا فيه ذكر قرنين بعده كما في الأحاديث المتقدمة ورواه مسلم .. فذكر فيه ثلاثة بعده ولفظة يأتى على الناس زمان يبعث منهم البعث فيقولون أنظر هل تجدون فيكم أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيوجد الرجل فيفتح لهم به ثم يبعث البعث الثانى فيقولون هل فيكم من رأى أصحاب رسول الله فيفتح لهم ثم يبعث البعث الثالث فيقال أنظروا هل ترون فيهم من رأى أصحاب أصحاب رسول الله فيفتح لهم ثم يكون البعث الرابع فيقال أنظروا هل ترون فيهم أحدا رأى من رأى أحدا رأى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيوجد الرجل فيفتح له(١) .

تحريم سب الصحابة

■ سب الصحابة رضى الله عنهم من فواحش المحرمات سواء من لابس الفتن منهم وغيره لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون فكانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويب أنفسها عليها وكلهم عدول ولم يخرج شئ من ذلك أحداً منهم عن العدالة لأنهم مجتهدون كما قلنا اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد كما اختلف المجتهدون بعدهم في مسائل من الدماء وغيرها ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم ، يقول النووى : وأعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف وأن مخالفه باغ فوجب عليهم نصرته وقتال الباغى عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة امام العدل في قتال البغاة في اعتقاده ، وقسم عكس هؤلاء ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر فوجب عليهم مساعدته وقتال الباغى عليه ، وقسم ثالث اشتبهت عليهم القضية وتحيروا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ص ٨٣ . ٨٩

(٢) الكفاية للخطيب (ص ٩٤) .

فيها ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم لأنه لا يحل الاقدام على قتال مسلم حتى يظهر انه مستحق لذلك ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين وان الحق معه لما جاز لهم التأخر عن نصرته في قتال البغاه عليه فكلهم معذورون رضى الله عنهم ..

ولهذا اتفق أهل الحق ومن يعتد به في الاجماع على قبول شهاداتهم ورواياتهم وكمال عدالتهم رضى الله عنهم أجمعين وعن تحريم سبهم روى مسلم بسنده عن أبى صالح عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا أصحابى ، لا تسبوا أصحابى فو الذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه .. وروى بسنده عن أبى صالح عن أبى سعيد قال كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شئ فسبه خالد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أحداً من أصحابى فان أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ احدهم ولا نصيفه .. قال النووى قال القاضى عياض « وسب الصحابة من المعاصى الكبائر ومذهبنا ومذهب الجمهور انه يعزر ولا يقتل وقال المالكية يقتل (٢) قال الخطابى النصيف بمعنى النصف كما قالوا الثمين بمعنى الثمن والمعنى أن جهد المقل منهم واليسير من النفقة الذى أنفقوه في سبيل الله مع شدة العيش والضيق الذى كانوا فيه أوفى عند الله وأزكى من الكثير الذى ينفقه من بعدهم . (١)

قال القاضى عياض ويؤيد هذا ما جاء عن الجمهور من تفضيل الصحابة كلهم على جميع من بعدهم وسبب تفضيلهم نفقتهم انها كانت في وقت الضرورة وضيق الحال بخلاف غيرهم ولأن انفاقهم كان في نصرته صلى الله عليه وسلم وحمايته وذلك معدوم بعده وكذلك جهادهم وسائر طاعاتهم وقد قال الله تعالى « لا يستوى منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا .. الآية (٢) هذا كله مع ما كان في أنفسهم من الشفقة والتودد والخشوع والتواضع والايثار والجهاد في الله حق جهاده وفضيلة الصحابة ولو لحظة لا يوازيها عمل ولا تنال درجتها بشئ والفضائل لا تؤخذ بقياس ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وروى الخطيب بسنده عن أبى زرعه يقول اذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق .. وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حق والقرآن حق وانما أدى الينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة (٤) .

لماذا لا نجرح الصحابة !

■ لأنهم الذين شهدوا الوحى والتنزيل ، وعرفوا التفسير والتأويل ، وهم الذين اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصرته ، واقامة دينه واظهار حقه فرضيهم له صحابة .

وجعلهم لنا أعلاماً وقدوة . فحفظوا عنه ما بلغهم عن الله عز وجل ، وما سن وما شرع وحكم وقضى ، وندب وأمر ونهى وحظر وأدب .

فالصحابة رضى الله عنهم هم الناس بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظروا قضاءه وحكمه فيما اختلف الناس فيه ، وشهدوا أخلاقه وآدابه ، وأحواله ، وتصرفه في السلم والحرب ، والمعاهدات ، وامور الدنيا والآخرة ، واستقى كل منهم بقدر استعداده من ينبوع الفيض الربانى .

---

١ - صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦ ص ٨٤ وتهذيب السنن لابن القيم جـ ٧ حديث ٤٤٩١   ٢ - صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦ ص ٩٢

١ - مختصر المنذرى مع معالم السنن جـ ٧ حديث ٤٤٩٣ ص ٣٤   ٢ - الحديد آية ٨

٣ - نفس المرجع رقم « ١ »   ٤ - الكفاية للخطيب البغدادى ص ٩٧

وقد اشار النبى صلى الله عليه وسلم الى ذلك فيما رواه البخارى بسنده عن ابن شهاب قال : قال حميد بن عبد الرحمن ، سمعت معاوية خطيباً يقول : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وانما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله .. وتسابق الصحابة في أخذ ما يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم ووعوه وأتقنوه ففقهوا في الدين وعلموا أمر الله ونهيه ومراده - بمعاينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشاهدتهم منه تفسير الكتاب وتلقفهم منه واستنباطهم عنه .

فشرفهم الله بما منَ عليهم وأكرمهم به من وضعه اياهم موضع القدوة فنفى عنهم الشك والكذب والغلط والريبة والغمز ، وسماهم عدول الأمة ، فقال عز وجل في كتابه (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) ففسر النبى صلى الله عليه وسلم عن الله عز ذكره قوله (وسطا) قال : عدلا .. فكانوا عدول الأمة ، وأئمة الهدى وحجج الدين ونقلة الكتاب والسنة وسندهم عال فليس بينهم وبين الله الا واسطتان النبى وجبريل عليهما السلام .

فان قال قائل : فكيف جرحتم من بعد الصحابة ؟ كما ظهر ذلك من عناية أئمة الحديث بحفظ السنن على المسلمين وذب الكذب عن رسول رب العالمين ، ولو لاهم لتغيرت الأحكام عن سنتها حتى لا يعرف أحد صحيحها من سقيمها والملزق بالنبى صلى الله عليه وسلم والموضوع عليه مما روى عنه الثقات والأئمة في الدين ، فان قال قائل كيف جرحتم من الصحابة وأبيتم ذلك في الصحابة والسهو قد يقع منهم كما وجد فيمن بعدهم من المحدثين ؟ يقال له : ان الله نزه أقدار ااصحاب رسول الله صلى الله علسه وسلم عن ثلب قادح ، وصان أقدارهم عن وقيعة متنقص ، وجعلهم كالنجوم يقتدى بهم .

وقد قال الله (أن أوْلى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) ثم قال (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه) فمن أخبر الله أنه لا يخزيه يوم القيامة فقد شهد له باتباعه ملة ابراهيم حنيفا لا يجوز أن يجرح بالكذب ، لأنه يستحيل أن يقول الله (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه) ثم يقول النبى صلى الله عليه وسلم (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) فيطلق النبى صلى الله عليه وسلم الجاب النار لمن أخبر الله أنه لا يخزيه يوم القيامة ، بل الخطاب وقع على من بعد الصحابة .
وأما من شهد التنزيل ، وصحب الرسول صلى الله عليه وسلم فالثلب لهم غير حلال ، والقدح فيهم ضد الايمان والتنقيص لأحدهم نفس النفاق ، لأنهم خير الناس قرنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكم من لا ينطق عن الهوى إن هو الا وحى يوحى صلى الله عليه وسلم .

وأن من تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ايداعهم ما ولاه الله بيانه للناس لا يجرح ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يودع أصحابه الرسالة وأمرهم أن يبلغ الشاهد الغائب إلا وهم عنده صادقون جائزوا الشهادة ، ولو لم يكونوا كذلك لم يأمرهم بتبليغ من بعدهم ما شهدوا منه ، لأنه لو كان كذلك لكان فيه قدحاً في الرسالة ، وكفى بمن عد له رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفاً ، وأن من بعد الصحابة ليسوا في مرتبهم .
والصحابة ندب الله عز وجل الى التمسك بهديهم والجرى على منهاجهم ، والسلوك لسبيلهم والاقتداء بهم فقال (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولّى) (١) .
وثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حض على التبليغ عنه في أخبار كثيرة ووجدناه يخاطب أصحابه فيها ، منها أن دعا لهم فقال : نضر الله امرء أسمع مقالتى فحفظها ووعاها حتى يبلغها غيره »
وفي رواية زيد بن ثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (نضر الله امرءا سمع منّا حديثاً فحفظه وبلغه غيره ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، وفي رواية ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لايضل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم الجماعة فان دعوتهم تحيط من ورائهم ، وغير ذلك .

١ - سورة النساء : آية ١١٥

وقال صلى الله عليه وسلم في خطبته : فليبلغ الشاهد منكم الغائب فانه لعله أن يبلغه من هو أوعى له وقال بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عنى ولا حرج .

وهذا وغيره مما أمر به الصحابة أولاً ، ثم أمروا الى نقله الى من بعدهم مع المحافظة على المنقول من الزيادة وطلب الوعى والضبط .

منع الرواية عن الضعفاء .. والتثبت في تحملها

■ يقصد بهذا العنوان تأكيد ما سبق ووضع قاعدة لمن تؤخذ عنهم الرواية ومن تطرح روايتهم أو يتوقف فيها حتى يبين أمرهم .. روى عبد الرحمن بن أبى حاتم بسنده عن أبى عثمان مسلم بن يسار عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : (سيكون في آخر الزمان ناس من أمتى يحدثونكم بما لم تسمعوا به أنتم ولا آباؤكم فاياكم واياهم .. وروى أيضاً بسنده عن شراحيل بن يزيد يقول : حدثنى مسلم بن يسار انه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فاياكم واياهم لايضلوكم ولا يفتنوكم ..

قال عبد الرحمن لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذابين يكونون في آخر الزمان يكذبون عليه علم ان الأول وهم الصحابة خارجون من هذه الجملة وزائل عنهم التهمة (١) ورواه مسلم بسنده عن أبى عثمان مسلم بن يسار عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال سيكون في آخر الزمان أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فاياكم واياهم ، وروى بسنده أيضاً عن مسلم بن يسار أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يكون في الزمان دجالون كذابون به وروى مسلم أيضاً بسنده عن مجاهد قال بشير العدوى الى ابن عباس فجعل يحدث ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر اليه فقال يا ابن عباس مالى لا أراك تسمع لحديثى أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع .. فقال ابن عباس : انا كنا مرة اذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا وأصغينا اليه بآذاننا فلما ركب الناس الصعب (٣) والذلول لم نأخذ من الناس الا مانعرف . الى غير هذه الروايات وهى كثيرة ، وحاصلها انه لا يقبل رواية المجهول وانه يجب الاحتياط في أخذ الحديث ، فلا يقبل الا من أهله وانه لا ينبغى أن يروى عن الضعفاء ، وسيأتى المراد بالضعف الذى تطرح الرواية بسببه .

بيان أن الاخبار من الدين والتحرز والتوقى فيها ..

■ هنا بيان أن الاسناد من الدين وأن الرواية لا تكون الا عن الثقات ، وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب ، وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرمة ، وسيأتى زيادة في هذا .. روى عبد الرحمن بن أبى حاتم عن ابن سيرين قال : انما هذه الأحاديث دين فأنظروا عمن تأخذونه .

وروى أيضاً بسنده عن محمد بن سيرين قال : ان هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذونه ومرة يروى بلفظ أن هذا العلم دين به .. ويروى أيضاً عن ابن سيرين بلفظ : أنظروا عمن تأخذون هذا الحديث فانما هو دينكم .. وروى بسنده .. قال ابن شهاب اذا حدث لى بالاسناد ويقول : لا يصلح أن يرقى السطح الا بدرجة .

---

١ ـ مقدمة كتاب الجرح والتعديل ص ١٤

٢ ـ الدجالون جمع دجال قال ثعلب : كل كذاب فهو دجال ويقال : الدجال المموه ودجل فلان اذا موه . ودجل الحق بباطله اذا غطاه .

٣ ـ أصل الصعب . والذلول في الابل . فالصعب العسر المرغوب عنه . والذلول السهل الطيب المحبوب المرغوب فيه . فالمعنى سلك الناس كل مسلك مما يحمد ويذم . لا يأذن أى لا يستمع ولا يصغى ومنه سميت الاذن .

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن بهز بن أسد يقول اذ ذكر له الاسناد الصحيح هذه شهادات العدول المرضيين بعضهم على بعض ، وأذا ذكر له الاسناد فيه قال : هذا فيه عهدة ، ويقول : لو أن لرجل على رجل عشرة دراهم ثم جحده لم يستطع أخذها منه الا بشاهدين عدلين ، فدين الله عز وجل أحق أن يؤخذ فيه بالعدول · (١) وروى مسلم بسنده عن عاصم الأحول عن ابن سيرين قال لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم ، فينظر الى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم ·

بيان المبتدع الذى ترد روايته من غيره ..

■ قال مسلم رحمه الله في مقدمة كتابه أعلم أن الواجب على أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها ، وثقات الناقلين لها من المتهمين أن لا يروى منها الا ما عرف صحة مخارجه والستارة في ناقليه ، وأن يتقى منها ما كان من أهل التهم والمعاندين من أهل البدع ·

قال النووى : قال العلماء من المحدثين والفقهاء وأصحاب الاصول : المبتدع الذى يكفر ببدعته لا تقبل روايته بالاتفاق ، وأما الذى لا يكفر بها فاختلفوا في روايته : فمنهم من ردها مطلقاً لفسقه ولا ينفعه التأويل ، ومنهم من قبلها مطلقاً ، اذا لم يكن ممن يستحل الكذب في نصرة مذهبه أو لأهل مذهبه سواء كان داعية الى بدعته أو غير داعية وهذا محكى عن الامام الشافعى لقوله أهل شهادة أهل الأهواء الا الخطابية من الرافضة لكونهم يرون الشهادة بالزور لموافقيهم ومنهم من قال : تقبل اذا لم داعية لبدعته ولا تقبل اذا كان داعية وهذا مذهب كثيرين أو الأكثر من العلماء وهو الأعدل الصحيح وقال بعض أصحاب الشافعى : اختلف أصحاب الشافعى في غير الداعية واتفقوا على عدم قبول الداعية .. وقال أبو حاتم بن حبان ـ بكسر الحاء ـ لا يجوز الاحتجاج بالداعية عند ائمتنا قاطبة لا خلاف بينهم في ذلك ·

وأما المذهب الأول فضعيف جداً ففى الصحيحين وغيرهما من أصحاب السنن وأئمة الحديث الاحتجاج بكثير من المبتدعة غير الدعاة ، ولم يزل السلف والخلف على قبول الرواية منهم والاحتجاج بها والسماع منهم واسماعهم من غير انكار منهم (٢) وروى مسلم بسنده في كون الاسناد من الدين عن سليمان بن موسى قال : قلت لطاوس أن فلاناً حدثنى بكذا وكذا ، قال : ان كان صاحبك مليا فخذ عنه ·

(ملياً) : يعنى ثقة ضابطاً متقناً يوثق بدينه ومعرفته ويعتمد عليه كما يعتمد على معاملة الملى بالمال ثقة بذمته .. وروى مسلم بسنده أيضاً عن أبى الزناد عن أبيه قال أدركت بالمدينة مائة كلهم مامون ما يؤخذ عنهم الحديث يقال ليس من أهله ·

وروى بسنده عن مسعر قال سمعت سعد بن ابراهيم يقول لا يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا الثقات .. وروى بسنده عن عبد الله بن المبارك يقول الاسناد من الدين ولو لا الاسناد لقال من شاء ما شاء ·
ويقول أيضاً : بيننا وبين القوم القوائم .. ومعنى هذا الكلام أن جاء باسناد صحيح قبلنا حديثه والا تركناه فجعل الحديث كالحيوان لا يقوم بغير اسناد كما لا يقوم الحيوان بغير قوائم ..

زيادة ايضاح :

■ سبق لنا أن أشرنا الى رأى بعض الأئمة في حكم رواية المبتدع وبقى هنا أن نزيد هذه المسألة ايضاحا جمع الخطيب البغدادى رحمه الله مذاهب العلماء عما جاء في الأخذ عن أهل البدع والأهواء والاحتجاج برواياتهم ·
فقال : اختلف أهل العلم في السماع من أهل البدع والأهواء ، كالقدريه والخوارج والرافضين وفي الاحتجاج بما

يروونه ، فمنعت طائفة من السلف صحة ذلك ؛ لعلة أنهم كفار ـ عند من ذهب الى اكفار المتأولين ، وفساق عند من لم يحكم بكفر متأول ٠

وقال من ذهب الى هذا المذهب : أن الكافر والفاسق بالتأويل بمثابة الكافر المعاند ، والفاسق العامد فيجب ألا يقبل خبرهما ولا تثبت روايتهما ٠

● ● ●

■ وذهبت طائفة من أهل العلم الى قبور أخبار أهل الأهواء الذين لا يعرف منهم استحلال الكذب والشهادة لمن وافقهم بما ليس عندهم فيه شهادة ٠

وممن قال بهذا القول من الفقهاء : أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى فانه قال : (وتقبل شهادة أهل الأهواء الا الخطابية من الرافضة ، لأنهم يرون الشهادة بالزور لموافقيهم ، ويحكى أن هذا مذهب ابن أبى ليلى وسفيان الثورى ٠

يقول الشيخ السبكى في طبقاته عند كلامه على شهادة المبتدع وقد تزايد الحال بالخطابية وهم المجسمة في زماننا هذا فصاروا يرون الكذب على مخالفيهم في العقيدة لا سيما القائم عليهم بكل ما يسوءه في نفسه وماله ٠٠ وبلغنى أن كبيرهم استفتى في شافعى أيشهد عليه بالكذب فقال : ألست تعتقد أن دمه حلال ؟ قال : نعم ٠٠ قال : فما دون ذلك دون دمه ، فاشهدوا دفع فساده عن المسلمين فهذه عقيدتهم ويرون انهم المسلمون وأنهم أهل السنة الخ) ٠٠

قال الخطيب : وقال كثير من العلماء : تقبل أخبار غير الدعاه من أهل الأهواء ، فأما الدعاة فلا يَحتج بأخبارهم ، وممن ذهب الى ذلك أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ٠

وقال جماعة من أهل النقل والمتكلمين : أخبار أهل الأهواء كلها مقبولة وان كانوا كفارا وفساقا بالتأويل فمن ذهب الى منع قبول أخبارهم احتج بما قدمنا ذكره ٠

وساق الخطيب السند عن أبى سكينة مجاشع بن قطبه قال : سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو في مسجد الكوفة يقول : أنظروا عمن تأخذون هذا العلم فانما هو الدين وأورد الروايات السابقة عن ابن سيرين وغيره في كون السند من الدين ٠٠ ومنها ما رواه الخطيب أيضا بسنده عن عاصم ٠٠ قال سمعت ابن سيرين يقول : كانوا لا يسألون عن الاسناد ، حتى كان باخره ، فكانوا يسألون عن الاسناد ، لينظروا من كان صاحب سنة كتبوا عنه ، ومن لم يكن صاحب سنة لم يكتبوا عنه ٠

■ وجاء عنه ما رواه بسنده عن على بن حرب قال : من قدر ألا يكتب الحديث الا عن صاحب سنة ، فانهم يكذبون كل صاحب هوى يكذب ولا يبالى ٠٠ وروى أيضا بسنده عن ابن لهيعه يذكر انه سمع رجلا من أهل البدع رجع عن بدعته ، فجعل يقول : أنظروا هذا الحديث عمن تأخذونه فانا كنا اذا رأينا رأيا جعلناه حديثا ٠٠ وسيأتى مزيد بيان في هذا ٠

وأما عن أدلة ما تقدم فقد ذكر الخطيب بعض المنقول عن أئمة أصحاب الحديث في جواز الرواية عن أهل الأهواء والبدع ٠٠ وأشار الى ما قاله الشافعى في جواز قبول شهادة أهل الأهواء غير صنف من الرافضة خاصة ٠٠

وروى بسنده عن على بن الجعد يقول سمعت أبا يوسف يقول : أجيز شهادة أهل الأهواء ـ أهل الصدق منهم ـ الا الخطابية ، والقدرية ، الذين يقولون ان الله لا يعلم الشىء ٠

وروى بسنده أيضا عن ابن المبارك يقول : سأل ابو عصمة أبا حنيفة ممن تأمرنى أن اسمع الاثار ؟ قال : من كل عدل في هواء ، الا الشيعة فان أصل عقدهم تضليل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أتى السلطان طائعا ، أما انى لا أقول انهم يكذبونهم ، أويأمرونهم بما لا ينبغى . ولكن وطؤا لهم حتى انقادت العامة بهم فهذان لا ينبغى لن يكونا من أئمة المسلمين .

وأما من ترك الدعاة من أهل البدع أن يروى عنهم ، وروى عمن لم يكن داعية أو أفتى بذلك .

يقول الخطيب : فأخبرنا أبوبكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمى بسنده عن عبد الرحمن بن مهدى يقول : من رأى رأيا ولم يدع اليه احتمل ، ومن رأى رأيا ودعى اليه فقد استحق الترك . وروى ابن معين ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل وجماعة انهم كانوا يروون عن غير الداعية ويتركون الرواية عن الداعية فعل ابن المبارك فقد تحدث عن هشام الدستوائى ، وترك عمرو بن عبيد ولما سئل قال : ان عمرو يدعو (١) وذكر من مثل هذه العبارات الكثير كلها يوضح مذهب كل من العلماء فيما ذهب اليه من الرد والقبول .

الخبر الدال على طلب معرفة الضعفاء والوقوف على أحوالهم .

وردت عدة أخبار تشير الى الحث على معرفة الضعفاء حتى يقف الباحث على أمرهم .

روى ابن حبان والمنذرى : عن عبد الرحمن بن عمرو السلمى وحجر بن حجر الكلاعى قالا (أتينا العرباض بن سارية . وهو ممن نزل فيه (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما حملكم عليه) فسلمنا وقلنا : أتيناك زائرين ، وعائدين ومقتبسين ، فقال العرباض : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يارسول الله ، كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد الينا ؟ فقال (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وأن عبد حبشى ، فانه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الامور ، فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة .. قال المنذرى : وأخرجه الترمذى وابن ماجه وليس في حديثهما ذكر حجر بن حجر ، غير أن الترمذى أشار اليه تعليقاً وقال الترمذى حسن صحيح

والخلفاء : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى .. وقال صلى الله عليه وسلم (اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر .. فخص اثنين .. فاذا قال أحدهما قولا وخالفه فيه أحد من الصحابة كان المصير الى قوله أولى .. ويقول الخطابى في معالم السنن أيضاً (والنواجذ) آخر الأضراس .. واحدها ناجذ .. وانما أراد الجد في لزوم السنة ، فعل من أمسك الشيئ بين أضراسه ، وعض عليه ، منعاً له أن ينتزع ، وذلك أشد ما يكون من التمسك بالشيئ ، اذا كان ما يمسكه بمقاديم فمه أقرب تناولا وأسهل انتزاعاً .

وقد يكون معناه أيضاً : الأمر بالصبر على ما يصيبه من المضض في ذات الله ، كما يفعله المتألم بالوجع يصيبه .. وقوله (كل محدثة بدعة) فان هذا خاص في بعض الامور دون بعض ، وكل شئ على غير أصل من أصول الدين ، وعلى غير عياره وقياسه .. وأما ماكان مبنياً على قواعد الاصول ومردود اليها فليس ببدعة ولا ضلالة . (٤)..

وقال ابن حبان قال أبو حاتم : في قوله صلى الله عليه وسلم (فانه من يعش منكم فسيرى اختلافاً فعليكم بسنتى) .. دليل صحيح على أنه صلى الله عليه وسلم أمر أمته بمعرفة الضعفاء من الثقات لأنه لايتهيأ لزوم السنة مع ما خالطها من الكذب والأباطيل الا بمعرفة الضعفاء من الثقات وقد علم النبى عليه الصلاة والسلام بما يكون من ذلك في أمته اذ قال : (من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) .. (١)..

٣ ـ أنظر مختصر سنن أبى داود لمنذرى جـ ٧ ص ١١ / ١٢ . ك السنة / باب في لزوم السنة حد

٤ ـ نفس المرجع السابق .

الأمر بجرح الضعفاء ونشوء هذا العلم ..

■ تحت هذا الموضوع سنبين الأدلة المجوزة في جرح الضعفاء وأنه من الدين ، وبيان الفرق بين الجرح والغيبة المنهى عنها ..

روى محمد بن حبان بسنده عن سعيد بن المسيب قال : مر عمر بن الخطاب بحسان بن ثابت وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ اليه فقال حسان : قد كنت أنشد فيه مع من هو خير منك ، ثم التفت الى ابى هريرة فقال :

أنشدك الله هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا حسان أجب عنى .. اللهم أيده بروح القدس ؟ قال : نعم (١) ورواه مسلم في صحيحه (٣) قال أبو حاتم : في هذا ... كالدليل على الأمر بجرح الضعفاء ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لحسان بن ثابت أجب عنى ، وانما أمر أن يذب عنه ما كان يقول عليه المشركون فاذا كان في تقول المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أن يذب عنه ، وأن لم يضر كذبهم المسلمين ، ولا أحلوا به الحرام ، ولا حرموا به الحلال ، كان من كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين الذى يحل الحرام ويحرم الحلال بروايتهم أحرى أن يؤمر بذب ذلك الكذب عنه صلى الله عليه وسلم .

وعقب أبو حاتم على حديث أبى هريرة (يتقارب الزمان وينقص وتظهر الفتن ويكثر الهرج) .

قال : ان العلم ينقص عند تقارب الزمان ، وفيه دليل على أن ضد العلم يزيد ، وكل شئ زاد مما لم يكن مرجعه الى الكتاب والسنة فهو ضد العلم ، ولست أعلم العلوم كلها الا في زيادة الا هذا الجنس الواحد من العلم ، وهو الذى لا يكون للاسلام قوام الا به ، اذ الله جل وعلا أمر باتباع رسوله عليه الصلاة والسلام ، وعند التنازع الرجوع الى ملته وعند الحوادث حيث قال (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .. (٣) ثم نفى الايمان عمن لم يحكم رسوله صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم فقال (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (٤) فمن لم يحفظ سنن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يحسن تمييز صحيحها من سقيمها ولا عرف الثقات من المحدثين ولا الضعفاء والمتروكين ومن يجب قبول انفراد خبره ممن لا يجب قبول زيادة الألفاظ في روايته ، ولم يحسن معانى الأخبار والجمع بين تضادها في الظواهر ولا الناسخ من المنسوخ ، ولا اللفظ الخاص الذى يراد به العام ، ولا اللفظ العام الذى يراد به الخاص .. ولا الأمر الذى هو فريضة وايجاب ، ولا الأمر الذى هو فضيلة وارشاد ولا النهى الذى هو حتم لا يجوز ارتكابه من النهى الذى هو ندب يباح استعماله ، مع سائر فصول السنن ، وأنواع أسباب الأخبار كيف يستحل أن يفتى ، أو كيف يسوغ لنفسه تحريم الحلال ، أو تحليل الحرام تقليد امنه لمن يخطئ ويصيب رافضا قول من لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى صلى الله عليه وسلم .

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن كيفية نقص العلم الذى ذكره في خبر أبى هريرة ، وأن ذلك ليس برفع العلم نفسه ، بل موت العلماء الذين يحسنون ذلك .

---

١ - أنظر المجروحين لابن حبان جـ ١ / ص ١٠ / ط ١ .

٢ - المجروحين لابن حبان ص ١١ / جـ ١ .

٣ - صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦ / فضائل حسان ص ٤٥ / ط ٢ .

٤ - الحشر / ٧ .

٥ - النساء / ٦٥ .

وهم وقع فيه البعض ..

■ بعض الناس وقعوا في وهم سببه انهم لم يستطيعوا أن يفرقوا بين وصف الشخص بما يجرحه نصيحة ومصلحة للشريعة الغراء وبين الغيبة التى يقصد بها القدح والانتقاص بدون مصلحة تتعلق بالدين .
وقد عقد الخطيب البغدادى بابا في وجوب تعريف المزكى ما عنده من حال المسئول عنه .. ومهد له بما رواه بسنده عن عطاء عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سئل علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) ..

وقد أنكر قوم لم يتبحروا في العلوم قول الحافظ من أئمتنا ، وأولى المعرفة من أسلافنا الراوى ضعيف ، وفلانا غير ثقة ، وما أشبه هذا من الكلام ورأوا في ذلك غيبة لمن قيل فيه ، ان كان الأمر على ما ذكره القائل ، وان كان الأمر على خلافه فهو بهتان .. واحتجوا بالحديث الذى رواه الخطيب بسنده عن العلاءبن عبد الرحمن عن أبيبه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل ما الغيبة فقال (ذكرك أخاك بما يكره قال أفرأيت ان كان في أخى ما أقول ؟ قال ان كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) ..

وروى محمد بن حبان بسنده عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (ما الغيبة ؟ الحديث .. قال أبو حاتم : احتج بهذا ممن ليس الحديث صناعتهم ، وزعموا أن قول أئمتنا فلان ليس بشيئ ، وفلان ضعيف ، وما يشبه هذا من المقال غيبة ان كان فيهم ما قيل والا فهو بهتان عظيم (١) ثم قال : ان هذا ليس بالغيبة المنهى عنها وذلك أن المسلمين قاطبة ليس بينهم خلاف ان الخبر لا يجب أن يسمع عند الاحتجاج الا من الصدوق العاقل ، فكان في اجماعهم هذا دليل على اباحة جرح من لم يكن

يصدق في الرواية عن أن السنة تصرح عن المصطفى صلى الله عليه وسلم بضد ما انتحل مخالفونا فيه .. و[illegible] ابن حبان الخبر الدال على صحة ما ذهب اليه .. قال حدثنا الحسن بن سفيان الشيبانى قال أنبأنا روح بن القاسم عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة قالت (أقبل رجل فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم فقال بئس أخو العشيرة ، أو قال ابن العشيرة .. فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم كلمه وانبسط اليه فلما ولى قالت عائشة يا رسول الله لما رايته قلت .. ولما جاء كلمته وانبسطت اليه فقال يا عائشة ان شر أمتى عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه قال أبو حاتم : وفي هذا الخبر دليل على اخبار الرجل بما في الرجل على جنس الابانه أو الديانة ليس بغيبه اذ النبى صلى الله عليه وسلم قال : (بئس أخو العشيرة ، أو ابن العشيرة ؛ ولو كان هذا غيبة لم يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما أراد بقوله هذا أن يفتدى ترك الفحش ، الا أنه أراد ثلبه وانما الغيبة ما يريد القائل القدح في المقول فيه ، وأئمتنا رحمة الله عليهم انما بينوا هذه الأشياء وأطلقوا الجرح في غير العدول لئلا يحتج بأخبارهم لا أنهم أرادوا ثلبهم والوقيعة فيهم .

■ والأخبار عن الشيئ لا يكون غيبه اذا أراد القائل به الثلب (٢) وجاء في مختصر سنن أبى داوود للمنذرى (٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال ذكرك أخاك بما يكره قيل أفرأيت ان كان في أخى ما أقول قال : ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته .
ومعنى هذا : أى قلت فيه البهتان وهو الباطل وقيل واجهته بما لم يفعل .
وقيل قلتُ فيه من الباطل ما حيرته به .. يقال بهتَ الرَجلُ بفتح الباء وكسر الهاء اذا تحير وبهت بضم الهاء ـ مثله .. وأفصح منها بهت ـ بضم الباء وكسر الهاء ـ

---

١ ـ كتاب المجروحين لابن حبان البستى جـ ١ / ص ١٧ . ٢ ـ المرجع السابق .

٣ ـ ابن حبان جـ ١ / ص ١٩ . ٤ ـ مختصر المنذرى للسنن جـ ٧ / ص ١١٢ . باب في

قال الله تعالى (فبهت الذى كفر) .. (١)

وقال بعضهم : الاغتياب حرام والغيبة ذكر الانسان بما يكره في غيبته ـ والبهت وجهه وكلاهما مذموم . كان بحق أو بباطل ، الا أن يكون بوجه شرعى ..

فيقول ذلك في وجهه على طريق الوعظ والنصيحة وله التعريض دون التصريح والحديث رواه مسلم بسنده عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة به .

قال النووى : باب تحريم الغيبة وفيه يقال بهته بفتح الهاء مخففة قلت فيه البهتان وهو الباطل والغيبة : ذكر الانسان في غيبته بما يكره وأصل البهت أن يقال له الباطل في وجهه وهما حرامان لكن تباح لغرض شرعى ، وذلك لستة أسباب :

(١) التظلم فيجوز للمظلوم أن يتظلم لدى السلطان والقاضى وغيرهما ممن له ولاية ، أو قدرة على انصافه من ظالمه ، فيقول ظلمنى فلان أو فعل بى كذا ..

(٢) الاستغاثة على تغيير المنكر ورد العاصى الى الصواب ، فيقول لمن يرجو قدرته فلان يعمل كذا فأزجره عنى ونحو ذلك ..

(٣) الاستفتاء : بأن يقول للمفتى ظلمنى فلان أو أبى أو أخى أو زوجى بكذا فهل له ذلك وما طريقى في الخلاص منه ورفع ظلمه عنى ونحو ذلك فهذا جائز ، والأجود أن يقول في رجل أو زوج أو والد وولد كان من أمره كذا ومع ذلك فالتعيين جائز لحديث هند وقولها : ان أبا سفيان رجل شحيح .

(٤) تحذير المسلمين من الشر وذلك من وجوه جرح المجروحين من الرواة والشهود والمصنفين ، وذلك جائز بالاجماع ، بل واجب صونا للشريعة .

ومنها الاخبار بعيبه عند المشاورة في مصاهرته ومنها اذا رأيت من يشترى شيئا معيباً أو عبداً سارقا أو زانيا أو شاربا أو نحو ذلك تذكره للمشترى اذا لم يلعمه نصيحة لا بقصد الايذاء والافساد ومنها اذا رأيت متفقها يتردد الى فاسق أو مبتدع يأخذ عنه علما وخفت عليه ضرره فعليك نصيحته ببيان حاله قاصداً النصيحة .

ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها لعدم أهليته أو لفسقه فيذكره لمن له عليه ولاية ليستدل بها على حاله فلا يغتر به ويلزم الاستقامة .

(٥) أن يكون مجاهرا بفسقه أو بدعته كالخمر ومصادرة الناس وجباية المكوس وتولى الامور الباطلة فيجوز بغيره الا بسبب اخر .

(٦) التعريف : فاذا كان معروفا بلقب كالأعمش والأعرج والأزرق والقصير والأعمى والأقطع والأحول والضال ونحوها جاز تعريفه به ويحرم ذكره به تنقصا .. ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى .

■ أما عن حديث عائشة السابق في الرجل الذى تكلم فيه النبى صلى الله عليه واله وسلم فقد ذكره المنذرى في مختصر السنن عن عروة وهو ابن الزبير رضى الله عنهما عن عائشة رضى الله عنها قالت (استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال بئس ابن العشيرة ـ أو بئس رجل العشيرة ـ ثم قال أئذنوا له .

فلما دخل الان له القول ، فقالت عائشة : يا رسول الله ألنت له القول وقد قلت ما قلت ؟ قال : ان شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من ودعه الناس ـ أو تركه ـ الناس اتقاء فحشه) .

وهذا الحديث أخرجه البخارى ومسلم والترمذى .

قال المنذرى : وهذا الرجل هو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى .

وقيل هو مخرمة بن نوفل الزهرى والد المسور بن مخرمة .

وعن أبى سلمة وهو ابن عبد الرحمن بن عوف عن عائشة رضى الله عنها (أن رجلا استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بئس أخو العشيرة .. فلما دخل انبسط اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه ، فلما خرج قلت يا رسول الله لما استأذن قلت بئس أخو العشيرة فلما دخل انسطت له ؟

---

١ ـ البقرة : ٢٥٨ .

فقال : يا عائشة ان الله لا يحب الفاحش المتفحش (١) ..
قال الشيخ الخطابى : أصل الفحش زيادة الشيئ على مقداره ومن هذا قول الفقهاء (يصلى في الثوب الذى أصابه الدم اذا لم يكن فاحشا) أى كثير مجاوزا للقدر الذى يتعافاه الناس فيما بينهم .
يقول صلى الله عليه وسلم :
ان استقبال المرء صاحبه بعيوبه أفحاش والله لا يحب الفحش ، ولكن الواجب أن يتأنى له ، ويرفق به ويكنى في القول ، ويورى به ولا يصرح .

وفيه أن النبى صلى الله عليه واله وسلم قد ذكره بالعيب الذى عرفه به قبل أن يدخل .. وهذا من النبى صلى الله عليه واله وسلم لايجرى مجرى الغيبة ، وانما فيه تعريف الناس أمره ، وزجرهم عن مثل مذهبه ، ولعله تجاهر بسوء فعاله ومذهبه ، ولا غيبة لمجاهر . (٢)

من ليست له غيبة :

■ عن أبى عبد الله الجشمى عن جندب ـ وهو ابن عبد الله البجلى رضى الله عنه ـ قال : (جاء اعرابى فأناخ راحلته ثم عقلها ثم دخل المسجد فصلى خلف رسول الله صلى الله عليه واله وسلم ، فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى راحلته فأطلقها .. ثم ركب ثم نادى اللهم أرحمنى ومحمدا ولا تشرك في رحمتنا أحدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتقولون هو أضل أم بعيره ؟ ألم تسمعوا الى ما قال ؟ .. قالوا : بلى)
أبو عبد الله ـ هذا هو عباس الجشمى ،
ذكره النسائى في كتاب الكنى وقد أخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه نحوا من حديث أبى وليس فيه الفصل الأخير ..
وأخرجه البخارى ومسلم من حديث أنس بن مالك .
قال الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى :
وادخال أبى داود هذا الحديث هنا يريد به أن ذكر الرجل بما فيه في موضع الحاجة ليس بغيبه مثل هذا ، ونظيره ما تقدم من حديث عائشة المتفق عليه (أئذنوا له ، فبئس أخو العشيرة) بوب عليه البخارى .
(باب أهل الفساد والريب) وذكر في الباب عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما أظن فلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئا) .
وفي الباب حديث فاطمة بنت قيس لما خطبها معاوية وأبو جهم .
فقال النبى صلى الله عليه واله وسلم (أما معاوية : فصعلوك ، وأما أبو جهم : فلا يضع العصا عن عاتقه) .
وقالت هند للنبى صلى الله عليه واله وسلم (ان أبا سفيان رجل شحيح) .
وقال الاشعث بن قيس للنبى صلى الله عليه وسلم في خصمه (انه امرؤ فاجر) .
وقال الحضرمى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خصمه : (انه رجل فاجر لا يبالى ما حلف عليه ، وليس يتورع من شئ) . .. رواه مسلم (٣) .
رأى الخطيب البغدادى في الأمر بجرح غير الثقات من الرواة .. روى بسنده عن محمد بن الفضل بن العباس يقول كنا عند عبد الرحمن بن أبى حاتم وهو اذن يقرأ علينا كتاب (الجرح والتعديل) فدخل عليه يوسف بن الحسين الرازى فقال له : يا أبا محمد ماهذا الذى تقرؤه على الناس ؟

---

١ ـ مختصر المنذرى على سنن أبى داود جـ ٧ / ص ١٦٩ ـ ١٧٠ . ك الأدب حديث / ٤٦٢٤ .
٢ نفس المرجع : ص ١٧١ .

٣ ـ مختصر المنذرى جـ ٧ / ص : ٢١٧ / حديث ٤٧١٧ .

قال كتاب صنفته في الجرح والتعديل ، قال وما الجرح والتعديل ؟ قال أظهر أحوال أهل العلم من كان منهم ثقة أو غير ثقة .. فقال له يوسف بن الحسين : استحييت لك يا أبا محمد ، كم من هؤلاء القوم قد حطوا رواحلهم في الجنة منذ مائة ومائتى سنة وأنت تذكرهم وتغتابهم على أديم الأرض ،

فبكى عبد الرحمن وقال (يا أبا يعقوب لو سمعت هذه الكلمة قبل تصنيفى هذا الكتاب لما صنعته) .

قال الخطيب : وليس الأمر على ما ذهبوا اليه لأن أهل العلم أجمعوا على أن الخبر لا يجب قبوله الا من العاقل الصدوق المأمون على ما يخبر به .

وفي ذلك دليل على جواز الجرح ان لم يكن صدوقاً في روايته مع أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وردت مصرحة بتصديق ما ذكرنا .. وبضد قول من خالفنا .

وروى حديث عروة بن الزبير عن عائشة : ائذنوا له فبئس أخو العشيرة .

قال : ففى قول النبى صلى الله عليه وسلم للرجل : بئس رجل العشيرة ، دليل أن اخبار المخبر بما يكون في الرجل من العيب على ما يوجب العلم من النصيحة للسائل ليس بغيبه .

لما أطلقه النبى صلى الله عليه وسلم ، وانما أراد عليه الصلاة والسلام بما ذكر فيه ـ والله أعلم ـ أن بئس للناس الحالة المذمومة منه ، وهى الفحش فيجتنبوها ، لا انه أراد الطعن عليه والثلب له .

قال الخطيب : وكذلك أئمتنا في العلم بهذه الصناعة ، انما أطلقوا الجرح فيمن ليس بعدل ، لئلا يتغطى أمره على من لا يخبره فيظنه من أهل العدالة فيحتج بخبره ، والاخبار عن حقيقة الأمر اذا كان على الوجه الذى ذكرنا ، لا يكون غيبة .

يقول أيضاً : ومما يؤيد ذلك حديث فاطمة بنت قيس الذى أخبرناه عبد الرحمن بن عبيد الله الحرفى بسنده عن مالك بن أنس عن عبد الله بن يزيد مولى الأسود بن سفيان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة وهو غائب بالشام فأرسل اليها وكيله بشعير فتسخطته فقال والله مالك علينا من شيئ فجاءت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له .

فقال : ليس لك عليه نفقة ، وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ثم قال : انها امرأة يغشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن أم مكتوم فانه رجل أعمى تضعين ثيابك ، فاذا حللت فاذنينى ،

قالت : فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبى سفيان وأبا جهم خطبانى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وأما معاوية فصعلوك لا مال له انكحى اسامة بن زيد ، قالت فكرهته ثم قال : أنكحى أسامة بن زيد فنكحته فجعل الله فيه خيراً كثيراً واغتبطت به .

في هذا الخبر دلالة على أن اجازة الجرح للضعفاء من جهة النصيحة لتجنب الرواية عنهم وليعدل عن الاحتجاج بأخبارهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر في أبى جهم انه لا يضع عصاه عن عاتقه ،

وأخبر عن معاوية انه صعلوك لا مال له ، عند مشورة استشير فيها لا تتعدى المستشير كان ذكر العيوب الكامنة في بعض نقلة السنن التى يؤدى السكوت عن اظهارها عنهم ، وكشفهم عليهم الى تحريم الحلال وتحليل الحرام .. والى الفساد في شريعة الاسلام أولى بالجواز وأحق بالاظهار .

وأما الغيبة التى نهى الله عنها بقوله عز وجل (ولا يغتب بعضكم بعضا) (١)

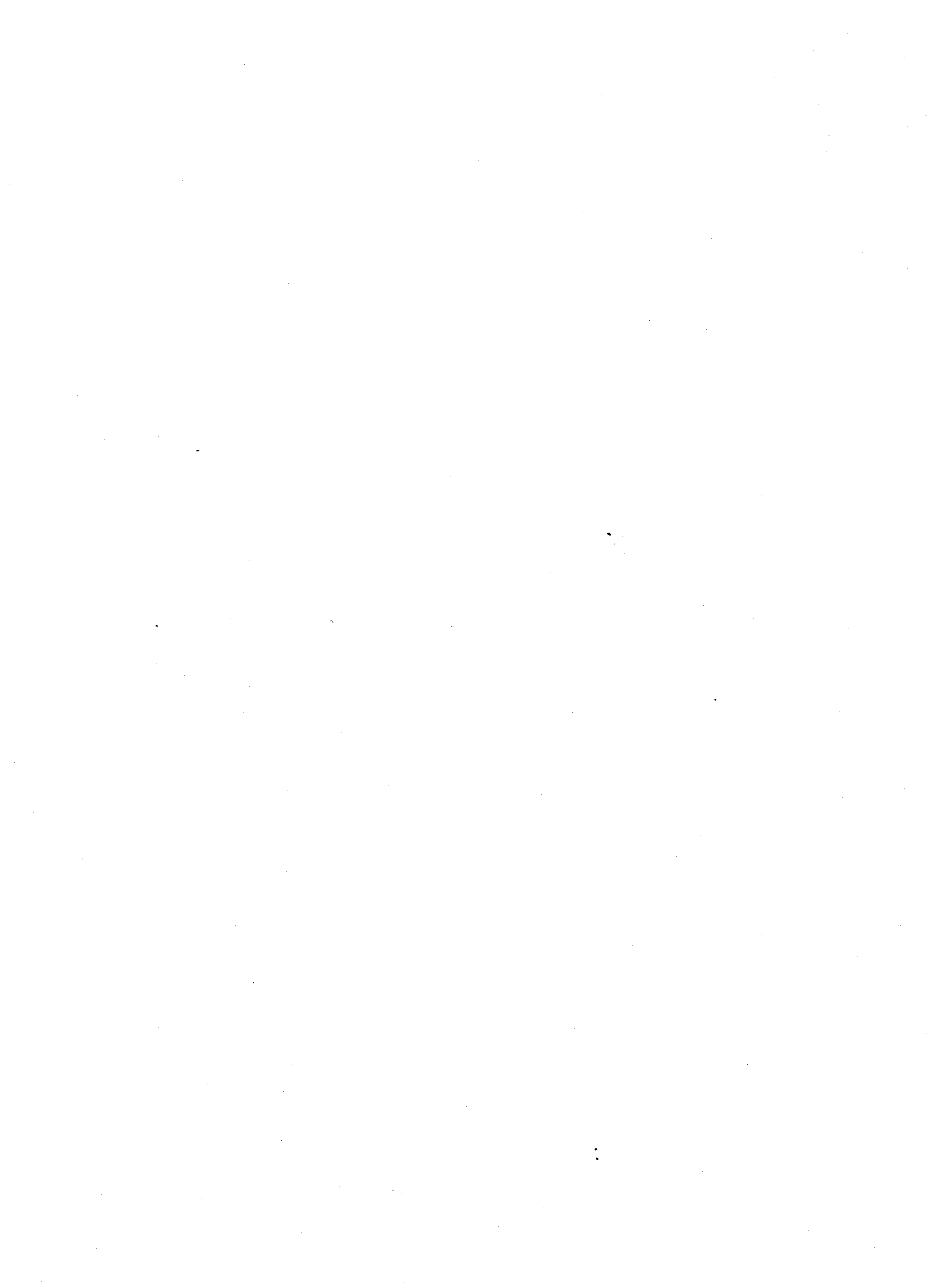
وزجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها قوله (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم) .

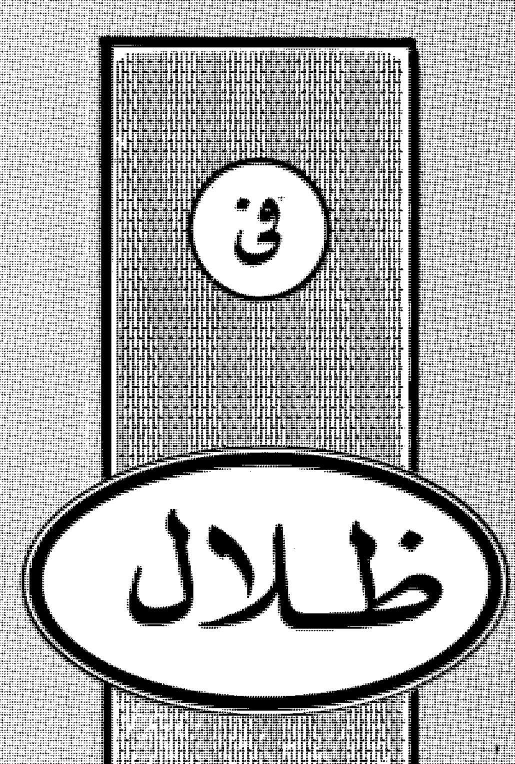
فنهى ذكر الرجل عيوب أخيه يقصد بها الوضع منه والتنقيص له والازدراء به ، فيما لا يعود الى حكم النصيحة ،

وايجاب الديانة من التحذير عن ائتمان الخائن وقبول خبر الفاسق ، واستماع شهادة الكاذب ، وقد تكون الكلمة الواحدة لها معنيان مختلفان على حسب اختلاف حال قائلها ، في بعض الأحوال يأثم قائلها وفي حالة أخرى لا يأثم) ..

---

١ ـ الحجرات : ١٢ .




في
ظلال

العقيدة



■ أسلفت القول في أننى أهتم أعظم الاهتمام بقضايا العقيدة الإسلامية . وهكذا ينبغى أن يكون شأن كل مسلم - ذلك بأن العقيدة هى الركيزة التى يقوم عليها ديننا الإسلام ، فمن أفسدها ، أو جحدها ، أو كفر بها ، بطل عمله ، مهما أكثر منه وحسبه صالحا ، وحتى لو كان قد أقر قبل بالشهادتين ، فان إقراره يعتبر منقوضا بما ارتكب مما ينافى مقتضاهما مثله كمثل المتوضىء الذى يحدث ثم يصلى ، فان صلاته تكون - لنقضه وضوءه - بلا ريب باطلة شاء أم أبى . فكذلك مفسد العقيدة ، أو الجاحد لها ، أو الكافر بها - بمسلكه الشركى أو الكفرى - أعماله باطلة شاء أم أبى « ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون » (الأنعام اية ٨٨) ، « ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله » (المائدة - اية ٥) .

ان العقيدة بمثابة الروح للبدن ، وهل تجد نبضة من حياة في بدن فاضت منه روحه ؟

● ● ●

إننا إذا جلنا جولات خاطفة متبصرة في المجتمعات الإسلامية ، لألفيناها - إلا من رحم الله وحمى منها - أبداناً وهياكل لا روح فيها ، لا تقيم للعقيدة الصحيحة وزنا ؛ ولا تتبين معانى التوحيد والشرك ، والسنة والبدعة ، والحق والباطل ، إذ اضطربت في أذهان أفرادها معالم الشريعة ، ففقدوا بذلك الفرقان الذى يميز الخبيث من الطيب ، ومن ثم لم يعنوا بالتعرف على الله ؛ والتجرد له ، واستهانوا بمراقبته وتقواه ، وهل يوجد الفرقان في قلب المؤمن إلا بتقوى الله ؟ « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » (الأنفال آية ٢٩) . وبهذا اختلت الموازين لدى من ينتسبون إلى الإسلام ، فلم يميزوا بين مايضرهم وبين ماينفعهم ، ولا بين عدوهم وبين حبيبهم ، ولا بين من يقدم لهم طعاماً وبين من يجعلهم له طعاماً ، وبين من يمد إليهم يده مصافحاً ، وبين من يمد ها إليهم طاعناً ، وأخذوا يسمعون لكل ناعق ، .. ويجرون وراء كل داع ، فعميت عليهم الأنباء ، وأصبحوا في أمر مريج - ، .. وانتهى مطافهم إلى أن دبّ الخلاف فيما بينهم ، وانكبوا على الدنيا وشهواتها يتنافسون ، .. فهزلت شخصياتهم ، .. وبهتت
أنّ دبَّ الخلاف فيما بينهم ، وانكبوا على الدنيا وشهواتها يتنافسونها ، فهزلت شخصياتهم ، وبهتت

ألوانهم ، وخفتت أصوات الحق فيهم - إلا من رحم الله ووفق - ، ونظر إليهم أعداؤهم - أعداء الله - فوجدوهم هكذا غثاءً كغثاء السيل ، رغم بلوغ عددهم ما يقارب ألفا من الملايين ، فما خشوا بأسهم ، واستهانوا بهم ، وأخذوا يخططون لضرب وحدتهم أولاً ، فلما فرقوهم سهل عليهم التهامهم أمةً تلو أمةٍ ثانياً ، ثم أخذ أعداء الله الدنيا بقوة ، وأصلحوا فيها أمرهم ، فبلغوا من التقدم ما حطّوا به على سطح القمر وغيره من الكواكب - وصار ميزان العالم كفتين : كفةً يشغلها ملاحدة شيوعيون ، تقابلها كفة أخرى يشغلها صهاينة جشعون ، يعاونهم صليبيون حاقدون . وكل من القوتين الباغيتين لا تحب الإسلام ولا ترضى عن المسلمين طالما أنهم مسلمون ، وقد قرر الله تعالى هذه الحقيقة في قوله : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » (البقرة آية ١٢٠) ، ثم بين سبحانه طريق الحق وحذَّر من اتباع أهواء هؤلاء المتخبطين فقال : « قل إن هدى الله الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولا نصير » (البقرة آية ١٢٠) - والملاحدة الشيوعيون أولى أن لا يرضوا عن المسلمين حتى ينسلخوا من دينهم ويتبعوا إلحادهم - ولا ينبغى أن نغمض أعيننا عن واقع المسلمين ، ونهيم في ملذات الحياة الدينا غافلين ، إنما يجب علينا أن نرفع غشاوة أعيننا ، ونشحذ آذاننا ، ونفتح مغاليق قلوبنا ، ثم نتدبر ، ونفكر كيف نسير لصدّ هذا الموج الإجرامى العنيف . لنلق نظرةً على إخواننا المسلمين في الفلبين ، وبورما ، وتايلاند ، وأفغانستان ، وفلسطين المحتلة ، واريتريا ، والصومال - لنرى ما يمارسه العتاة المجرمون أعداء الله مع المسلمين في تلك الأمم من حرب الإبادة ابتغاء طمس معالم الإسلام فيها ، ومحاولة تحويلها - لا قدر الله - الى بلاد كفر والحاد .

ألا تتقطع نياط القلوب المؤمنة حين تترامى تلك الأنباء المفجعة بمحاولات وغدر أولئك الباغين الذين قتَّلوا وشرَّدوا إخوتنا في الله بغير ذنب إلا أن يقولوا ربنا الله ؟

ألا تتمزق الصدور التى شرحها الله بالإسلام حين تحمل إذاعات العالم بيان ضارى المعارك التى يستميت فيها أبناء الإسلام المستضعفين في محاولة لحماية حماه ؟إن الدول الإسلامية مهما اختلفت مواقعها واتجاهاتها الخاصة انما هى بحكم الله أمة واحدة فلماذا ندعها تتمزق وتتقطع أواصرها ؟

■ أليس الله تعالى يقول : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (الأنبياء آية ٩٢) - فأين تطبيق هذا بين المسلمين ؟ ، وأين تطبيق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » (البخارى) ؟ وأين تطبيق قول الله تعالى : « يأأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون » (الصف آية ١١) وأين الجهاد في سبيل الله لإنقاذ المسلمين الذين أحيط بهم ؟ وسامهم المجرمون الغادرون ألوان العذاب ؟ لا بالنفس نرى جهاداً ولا بالمال - إلا من رحم الله - نجد بذء ؟ فلماذا ؟ « يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلْتمْ إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شئ قدير » - (التوبة آية ٢٨ ، ٢٩)- « يا قوم : ألم يعدْكمْ ربكم وعداً حسناً ؟ أفطال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم » ؟ (طه - آية ٨٦) - هل هذا التخاذل عن الجهاد بالنفس خشية القتل ؟

أليس الله تعالى يقول ؟ « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ؟ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا إنا معكم متربصون » ؟ (التوبة آية ٥١ ، ٥٢) . فنتيجة الجهاد بالنفس : إما نصر يحمل الخير ويرفع كلمة الله ، وإما استشهاد لا موت معه بل حياة به عند الله .

وهل هذا التخاذل من الأكثرين عن الجهاد بالمال خشية نفاذه ؟ أليس الله تعالى قد ضمن الرزق لكل من خلق . وأنت ممن خلق . فطمأنك وأكد لك وقال لك : « وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » (الذاريات آية ٢٢ ، ٢٣) . ثم زاد طمأنتك فبين أن ماالديه غير قابل للنفاذ إطلاقا فقال سبحانه (إن هذا لرزقنا ماله من نفاذ » . (ص آية ٥٤) .

أين عدة المسلمين الموحدة التى أمرهم الله تعالى بإعدادها لدحر أعداء الاسلام بأى اسم كانوا وعلى أى أرض وجدوا ؟ أين تنفيذ أمره تعالى : « وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوَ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (الأنفال آية ٦٠)

■ لم هذا التباطؤ ، والانكباب على هذه الحياة المترفة التى حولت أغلب لبنات الأمم الإسلامية . إلا من رحم الله . إلى لبنات هشَّة ناعمةً لا تقوى على مجابهات أعداء الله ، وصدّ شراساتهم في تحركات غادرة بغية محو كيان المجتمع الإسلامى من خارطة العالم ، وإذا في مجتمعاتهم الصارخة بالإلحاد والكفر . . إن كل مؤمن يملأ قلبه أمل عريض ، وضراعة إلى الله صادقة ، أن يجمع شتات الأمم الإسلامية ، ويوحد فرقتها ، ويبدد الخلافات بينها ، ويجعلها أمة واحدة ، معبودها ربّ واحد ، وقدوتها أمام واحد ، ونهجها كتابٌ واحد ، ووجهتها قبلةٌ واحدة ، وغايتها . بإعلاء كلمة الله . واحدة .

إنه مما لا شك فيه أن اجتماع الأمم الإسلامية . وخاصة اذا دعمها الإيمان . يرهب أعداء الله ، ويملأ قلوبهم رعباً وفزعاً ؛ ثم إن يد الله دائما على الجماعة المؤمنة ، وهذا يستتبع نصرهُ لها « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (غافر آية ٥١) . لم ينْصرف أكثر المسلمين عن هدى الله ؟ ويصبحون إمّعات ؟ إنْ أحسن الناس أحسنوا تقليداً غير بصير على نهجهم ؟ وان أساءوا أساءوا تقليدا غير بصير كذلك على دربهم ؟

■ إننى أتصور أن الذى صرف أكثر هؤلاء المسلمين عن الله إنما هو جهلهم بالله ، ومن جهل الله جهل ما قال ، وكما يقال (من جهل شيئا عاداه) . ومن ثم لما جهلوا الله عادوْهُ ، ولجأوا إلى غيره ، فأشركوا ، فحبطت أعمالهم ، ولما جهلوا قول الله تعالى عادوْهُ كذلك ، ولجأوا إلى قول غيره ، فضلوا وتخبطوا ، واستشرى فسادهم ، وعم شقاؤهم . وصدق الله جل وعلا حين قال « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » (طه آية ١٢٤) .

فلابد إذن للمسلم أن يتعرف على الله تعالى حتى يعبد إلها يعرفه ، فتسلم له عباداته . وقد ذكر بعض العلماء فوائد معرفة صفات الله ، وأسمائه ، وأفعاله ، وتقديسه عن النقائص ، ونجمل هذه الفوائد . لعظيم أهميتها . فيما يلى : . ١ . أن معرفة الله تعالى هى من أشرف العلوم وأجلها على

الإطلاق ، إذ الاشتغال بفهمها والبحث التام عنها هو اشتغال بأعلى المطالب ، وحصوله للعبد هو من أشرف المواهب ٠

٢ ـ أن معرفة الله تعالى تدعو الى محبته ، وخشيته ، وخوفه ، ورجائه ، وإخلاص العمل له ، وهذا هو عين سعادة العبد ٠ ولا يمكن معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته وفهم معانيها ؛ وقد اشتمل القرآن الكريم من تفصيلها ، وبيان تعرف الله بها إلى عباده ، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه ، ما لم يشتمل عليه غيره من بيان ٠

٣ ـ أن معرفة الله تعالى هى أحد أركان الإيمان ، بل أفضلها ، وأصلها ، وليس الإيمان مجرد قوله (آمنت بالله)) من غير معرفته بربه ، بل إن حقيقة الإيمان أن يعرف الرب الذى يؤمن به ، بل ويجب عليه أن يبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين ، وبحسب معرفة العبد بربه تكون درجة إيمانه ، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه ، وكلما نقصت معرفته نقص إيمانه ، وأقرب طريق يوصل إلى معرفة الله تعالى تدبر أسمائه وصفاته من نصوص القرآن والسنة ، فإذا مرَّ به اسم من أسماء الله تعالى أثبت له معناه ، وما يتضمنه من صفات كمال مطلقة ، ومع ذلك ينزهه سبحانه عما يضاد كماله ٠

٤ ـ أن الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه ، فيقول تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (الذاريات آية ٥٦) ، ولا يمكن أن يعبدوه دون أن يعرفوه ، فلابد من معرفتهم له سبحانه ليحققوا الغاية المطلوبة منهم والحكمة من خلقهم ، والإشتغال بمعرفته سبحانه هو اشتغال العبد بما خلق له ، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له ، وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة ، وفضله عليه عظيم متوالٍ من كل وجه ، أن يكون جاهلا بربه ، معرضا عن معرفته ٠

٥ ـ أن معرفة الله تعالى هى أصل الأشياء كلها ، حتى أن العارف به سبحانه حق المعرفة يستدل بما عرف من صفاته ، وأفعاله ، على ما يفعله ، وعلى ما يشرعه من الأحكام ، لأنه سبحانه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته ، فأفعاله دائرة بين العدل ، والفضل ، والحكمة ، وكذلك لا يشرع ما يشرعه من أحكام إلا حسب ما يقتضيه حمده ، وحكمته ، وفضله ، وعدله ٠ فأخباره كلها حق وصدق ، وأوامره ونواهيه كلها عدل وحكمة (١) ٠

مما سلف يبين أن معرفة الله تعالى لها من الأهمية العظمى للعبد ما لا يتصور استغناؤه عنه ، لأنها الركيزة التى يقوم عليها حكمة إيجاده وهى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ٠

■ لهذا بدأت في محاولة لتنبيه من غفل من المسلمين إلى أهمية العقيدة الإسلامية ـ أساس هذا الدين ـ ليجعلوا منطلق أعمالهم منها ، حتى تصح لهم بالبناء عليها جميع الأعمال ، وعلى الله بعد ذلك في قبولها تنعقد الآمال ٠

ولقد تَبَلْوَرَ في فهمى ما أردت بيانه في بابين : ـ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن الجزء الأول ص ١٠ ، ١١ ـ بتصرف ـ

الباب الأول : باب (التعرف على الله تعالى) : ـ

■ وهذا الباب يشمل بدوره قضيتين : إحداهما : (مفهوم الربوبية) ـ وقد أسلفت بيانها تحت عنوان : (مفهوم الربوبية) في أربع حلقات مَضَيْنَ .
وثانيهما : (مفهوم الأسماء والصفات) وهى موضوع حلقاتى التى تبدأ بحلقتنا هذه ، وأسأل الله أن يرينى الحق حقا ويرزقنى اتباعه ، وحسن بيانه للناس .

وهذا الباب يشمل بدوره قضيتين كذلك : إحداهما : (مفهوم الإلهية) .
وثانيتهما : (مفهوم التشريع) وذلك انطلاقا من قوله جل وعلا : « إن الحكم إلا لله ، أمر أن لا تعبدوا إلا أياه ، ذلك الدين القيِّم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (يوسف آية ٤٠) ـ حقا إن أكثر الناس لا يعلمون أن الحكم لله وحده ، وأن العبادة كذلك لله وحده سبحانه .
وإلى هذا المقام ، أجدنى قد اقتربت من مدخل الموضوع الذى أريد أن أعالجه ، وهو القضية الثانية من باب (التعرف على الله تعالى) وهى : ـ

(مفهوم الأسماء والصفات)

■ نقسم هذا الموضوع إلى مبحثين : ـ

المبحث الأول ـ أسماء الله تعالى ـ
المبحث الثانى ـ صفات الله تعالى ـ

أولا أسماء الله تعالى
(الأسماء الحسنى)

■ معنى الأسماء : أسماء جمع اسم .

والاسم :معناه لغة هو ما يعرف به الشىء ويستدل عليه .
وعند النحاة : هو ما دل على معنى في نفسه غير مقترن بزمن .

والإسم الأعظم : هو الإسم الجامع لمعانى صفات الله عز وجل .

واسم الجلالة : أو لفظ الجلالة : هو الله ، وهو اسمه سبحانه وتعالى .

واصطلاحاً : اذا قيل : أسماء الله تعالى ، أو أسماء الله تعالى وصفلته أو الأسماء والصفات ، كان معنى الأسماء أسماء الله تعالى الحسنى التى تسمى بها سبحانه ، واستأثر بها لنفسه جل وعلا

لم سميت أسماء الله تعالى بالأسماء الحسنى ؟

■ وردت تسمية الأسماء الحسنى في قول الله تعالى « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (الأعراف آية ١٨٠) ـ وفي قوله « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » (طه آية ٨) · وسميت الأسماء الحسنى ، لأنها حسن في الأسماع ، والقلوب ، وتدل على توحيده ، وكرمه ، وجوده ، ورحمته ، وأفضاله (١) ـ كما أنها تدل على أحسن مسمى ، وأشرف مدلول ·

وكل اسم يدل على صفة كمال عظيمة ، وبذلك كانت أسماء الله تعالى جميعاً حسنى ، فهى ليست أعلاماً محضة ، اذ لو كانت كذلك ولم تتضمن صفات الكمال لم تكن حسنى ، وكذلك لو دلت على صفات ليست بصفات كمال : كصفات نقص ، أو صفات منقسمة الى المدح .. والقدح لم تكن حسنى (٢) ·

فكل اسم من أسمائه تعالى دال على جميع الصفة التى اشتق منها لجميع معناها ، وذلك نحو اسم « العليم » الدال على أن له علما محيطاً عاماً لجميع الأشياء ، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ·

واسم « الرحيم » الدال على أن له رحمة عظمية واسعةً لكل شىء ·

واسم « القدير » الدال على أن له قدرة عامة لا يعجزها شىء ـ ونحو ذلك ·

ومن تمام كونها حسنى أنه لا يدعى إلا بها ، ولذلك قال تعالى : « فادعوه بها » (الأعراف آية ١٨٠) (٣) ..

ما سبب نزول آية « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » ؟

قال مقاتل وغيره من المفسرين : نزلت هذه الآية في رجل من المسلمين كان يقول في صلاته : يا رحمن يا رحيم ، فقال رجل من مشركى مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربا واحدا ، فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ فأنزل الله تعالى الآية (٤) ·

هل حصرت الأسماء الحسنى بعدد معين ؟

■ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعا وتسعين اسما مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه في الصحيحين ، و البخارى ، وأخرجه الترمذى عن شعيب فذكره بسنده مثله ، وزاد بعد قوله : « يحب الوتر » : « هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز . المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جزء ٧ ص ٣٢٥ ·

(٢) الاسم الذى يدل على صفة تنقسم الى مدح وقدح (أى ذم) مثل الماكر . والخادع . والكايد ـ لهذا لم يسم الله تعالى نفسه بمثل هذه الأسماء . ولم يجعلها وأمثالها من أسمائه الحسنى سبحانه وتعالى ·

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدى جزء ٣ ص ٥٩ . ٦٠ ·

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جزء ٧ ص ٣٢٥ ·

الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدىء ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الولى المتعال ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب ، وقد روى من غير وجه أبى هريرة ، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث ، ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق صفوان به(١) ٠

ومعنى إحصاء الأسماء الحسنى المشار إليه في الحديث عند قوله صلى الله عليه سولم : « من أحصاها دخل الجنة » : هو : عدّها ، وحفظها ، وفهم معانيها ، ودعاء الله بها دعاء عبادة ودعاء مسألة ٠

والأسماء الحسنى ليست محصورة بعدد معين ، ودليل ذلك : ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أصاب أحداً قط همٌ ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك ، وابن أَمَتِكَ ، ناصيتى بِيَدِكَ ، ماضٍ فِىَّ حكمك ، عَدْلٌ فِىَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميتَ به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمتَهُ أحداً من خَلْقِكَ ، أو استأثرت به في علم الغيب عندكَ ، أن تجعلَ القرآن العظيمَ رَبيعَ قلبى ، ونُورَ صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهابَ همى ، إلاَّ أذهبَ الله حزنَهُ وهَمَّهُ ، وأبدلَ مكانَهُ فرجاً » فقيل : يا رسول الله ، أفلا نتعلمها ؟ فقال : « بلى ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها » (٢) ٠ فقوله صلى الله عليه وسلم : « أو استأثرت به في علم الغيب عندك » دليل على أن الله تعالى سمى نفسه بأسماء لم ينزلها في كتابه ، ولم يعلمها أحدا من خلقه ، وإنما استأثر بها في علم الغيب عنده سبحانه ، ومن ثم كان هذا دليلا على أن أسماء الله جل وعلا لم تحصر بعدد معين ٠

هل يجب الإقتصار على أسماء الله تعالى الواردة ؟

■ لا شك أن أسماء الله تعالى توقيفية ، بمعنى أنه ينبغى علينا أن نقف في تسمية الله تعالى على ما ورد في الكتاب والسنة ، لأننا لا نستطيع البتة أن نعرف الأسماء التى سمى الله بها نفسه بآرائنا ، وباجتهاد من عند أنفسنا ، لأن أسماءه تبارك وتعالى من الغيب الذى لا مجال لنا في بلوغه إلا أن يصلنا عن طريق الوحى الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

بأى الأسماء ندعو الله تعالى ؟

ذكرت آنفاً أن الله تعالى يقول : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (الأعراف آية ١٨٠) ويقول : « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » (طه آية ٨) ٠

( ) تيسير العلى القدير المجلد الثانى ص ١٥١ . ١٥٢

(وأقول في استطرادة مفيدة ان شاء الله : بهذه المناسبة ألفتُ إخوتى المسلمين الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم الرؤوف الرحيم بأمته حين سئل عن تعلم هذه التضرعات في دعاء إذهاب الحزن والهم : « بلى ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها » . فما أكثر ما يصيب الانسان في حياته بين حين وآخر من الهم والحزن ما يملك عليه نفسه ويتمنى عجلاً أن يُزَال ويُبْدَلَ فَرَجا . فما أحوجنا جميعاً الى تعلم هذا الدعاء العظيم ودعاء الله تعالى به في ضراعة واخلاص ليفرج الله عنا ما يلمُّ بنا من أحزان وهموم) ٠٠

فلمّا تسمى الله جل شأنه بأسماء كلها حسنى ، أمرنا جل وعلا أن ندعوه بها لأنه هو وحده سبحانه الذى يعلم ما يستحق أن يسمى به من الأسماء التى تليق بجلاله وعظمته ، وبما ينبغى أن يدعى به سبحانه .

ولدقة هذا الأمر ذكر كثير من أهل العلم أن الداعى ينبغى عليه أن يدعو الله بالاسم الذى يناسب مسألته : فيقول مثلا : يارحمن ارحمنى ، ياغفار اغفرلى ، ياتواب تب علىَّ ، يارزاق ارزقنى ، ياحفيظ احفظنى ، ياكريم اكرمنى ـ وهكذا ـ ولا يصح أن يدعو باسم لا يناسب مسألته كأن ياغفار ارزقنى ، أو يارزاق اغفر لى ، أو ياحفيظ تب على ، وهكذا .
بل ذكر البعض أنه لا ينبغى أن ندعو الله سبحانه بالأسماء التى تبدو في ظاهرها أنها تحمل معنى الإضرار فقط بالعبد مثل : المانع ، والضار ، والمذل ، والقابض ، والخافض ، والمميت . وذلك حتى لا يتصور متصور ـ بإفراد هذه الأسماء ـ أن أسماء الله تعالى من شأنها : أنها تحمل الضرر فحسب . ومن ثم ينبغى اذا ذكرت هذه الأسماء أن تُذكر مع الأسماء المقابلة لها ، مثل أن يقال : المعطى المانع ، النافع الضار ، المعز المذل ، الباسط القابض ، الرافع الخافض ، المحيى المميت ـ وهكذا . ويسمى العلماء هذه الأسماء « بالأسماء المزدوجة » . لأنه يذكر مع كل اسم منها مايقابله في معناه مما يجعلهما زوجاً .

الأسماء الحسنى تتضمن صفات الكمال العليا لله تعالى :

إن كل اسم من أسماء الله تعالى يتضمن صفة تناسبه بما يليق بجلال الله سبحانه وعظيم شأنه . مثال ذلك : اسم « الرحمن » يتضمن ثبوت صفة الرحمة الذاتية لله سبحانه ، واسم « الرحيم » يتضمن ثبوت صفة الرحمة الفعلية لله سبحانه ، واسم « السميع » يتضمن ثبوت صفة السمع لله سبحانه ، واسم « البصير » يتضمن ثبوت صفة البصر لله سبحانه ، واسم « الرزاق » يتضمن ثبوت صفة الرِّزق لله سبحانه . وهكذا نجد أن كل الأسماء الحسنى تتضمن صفات الكمال العليا لله جل وعلا .

ليست كل صفة من صفات الله تعالى تشتق منها أسماء له سبحانه :

من الأمور الخطيرة التى يجب أن نتنبه إليها أنه : ليست كل صفة لله تعالى يمكن أن نشتق منها اسما له سبحانه ، ذلك لأن أسماء الله تعالى ـ كما سبق أن أسلفت ـ توقيفية يجب أن نقف عندما ورد بها النص في الكتاب والسنة ، ولا نزيد عليهما باجتهاداتنا ، لأن ذلك أمرٌ من الغيب الذى لا مدخل لنا إليه .
وبيان ذلك أن الله تعالى يقول : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » (النساء آية ١٤٢) ويقول : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (آل عمران آية ٥٤) .
ويقول : « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (الأنفال اية ٣٠) .
ويقول : « واذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكراً » (يونس آية ٢١) .
ويقول : « ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون » (النمل آية ٥٠) .
ويقول : « كذلك كدنا ليوسف » (يوسف آية ٧٦) ـ ويقول : « إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيداً » (الطارق آية ١٥ ، ١٦) .

ويقول : « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون » (البقرة آية ١٤ ، ١٥) .

ويقول : « فهل عسيتم إنْ توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » (محمد آية ٢٢ ، ٢٤) .

ويقول : « إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله » (البقرة آية ١٥٩) . ويقول : « ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » (النساء آية ٤٦) ، ويقول : « ياأيها الذين أوتو الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا » (النساء آية ٤٧) ، ويقول : « أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » (النساء آية ٥٢) .

ويقول : « ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم » (المجادلة آية ١٤) .

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم » (الممتحنة آية ١٣)

ويقول : « ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا » (النساء آية ٣٠) .

ويقول : « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا » (النساء آية ٥٦) .

ويقول : « إن يشأ يذهبكم ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء » (الأنعام آية ١٣٣)

ويقول : « ويستخلف ربى قوما غيركم » (هود آية ٥٧) .

ويقول : « وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا » (الأعراف آية ٦٤) . ويقول : « ثم أغرقنا الآخرين » (الشعراء آية ٦٦ والصافات آية ٨٢) .

ويقول : « فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » (التوبة آية ٧٩) .

ويقول : « لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم » (المائدة آية ٨٠) .

ويقول : « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » (الأعراف آية ٥١) .

ويقول : « نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون » (التوبة آية ٦٧)

ويقول : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم » (السجدة آية ١٤) .

ويقول : « وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا » (الجاثية آية ٣٤)

ويقول : « ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون » (الأعراف آية ١٣٧) .

ويقول : « ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» (الإسراء آية ١٦) .

ويقول : « ثم دمرنا الآخرين » (الشعراء آية ١٧٢) ، ويقول : « فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين » (النمل آية ٥١) ، ويقول : « دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها » (محمد آية ١٠)

■ ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا الى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ » (متفق عليه) .

ويقول : « لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل بأرض فلاة دوية مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فنزل عنها فنام -وراحلته عند رأسه ، فاستيقظ وقد ذهبت ، فذهب في طلبها فلم يقدر عليها حتى أدركه الموت من العطش ، فقال : والله لأرجعنَّ فلأموتنَّ حيث كان

رحلى ، فرجع فنام ، فاستيقظ ، فإذا راحلته عند رأسه فقال : اللهمَّ أنت عبدى وأناربك ، أخطأ من شدة الفرح» (رواه البخارى) .

ويقول : « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة » (متفق عليه) .
فى الآيات والأحاديث التى أوردتها ، نجد أفعالا لربنا سبحانه وتعالى وهى : على حسب

ترتيب الأحاديث كما يلى : -

أفعال : الخداع ، المكر ، الكيد ، الاستهزاء ، الإصمام ، والإعماء ، اللعن ، الغضب ، الإصلاء ، الاستخلاف ، الإغراق ، السخرية ، السخط ، النسيان ، التدمير ، النزول ، الفرح ، الضحك . فهل يمكن أن نشتق من هذه الأفعال - وأمثالها - أسماء لله تعالى فنسميه جل وعلا بالأسماء الآتية ؟ :

الخادع أو المخادع ، الماكر ، الكايد ، المستهزىء ، المصم ، المعمى ، اللاعن ، الغاضب ، المُصْلِى ، المستخلف ، المُغرِق ، الساخر ، الساخط ، الناسى ، المُدمِّر ، النازل الفرِح ، الضاحك ؟ لا ينبغى أن نسمى الله بهذه الأسماء ، ونقرنها بالأسماء الحسنى كالرحمن ، والرحيم ، والغفور ، والودود ، واللطيف ، والعلى ، والكبير ، والسميع ، والبصير ، ونحو ذلك مما سمى الله تعالى به نفسه من أسمى وأجل وأعظم الأسماء .

والسبب في أنه لا ينبغى ولا يشرع لنا أن نسمى الله سبحانه بمثل تلك الأسماء كالخادع وما ماثل ذلك أمران : -

الأمر الأول : أنه لم يرد بها النص في الكتاب أو السنة .

الأمر الثانى : أن من هذه الأسماء (كالخادع أو المخادع ، والماكر ، والكايد ، والمستهزىء ، والغاضب ، والناسى ، والمدمِّر وما ماثلها) ليست ممدوحة على إطلاقها ، بل تمدح في مواضع ، وتذم في مواضع أخرى(١) ، ومن ثم لا يجوز أن تطلق أفعالها على الله مطلقا ، فلا ينبغى أن يقال بإطلاق : إن الله تعالى يخادع أو يستهزئ ، أو يغضب ، أو ينسى ، أو يدمِّر ، كما لاينبغى أن يشتق منها أسماء يسمى بها سبحانه ، وذلك لأن الله جل وعلا لم يصف نفسه بالخداع ، والمكر ، والكيد ، والاستهزاء ، والغضب ، والنسيان ، والتدمير ، وما ماثل ذلك ، إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق ، أو استحق أن يجازى به بحق على فعله - والجزاء ! إنما يكون من جنس العمل ، فمن خدع يستحق أن يخدع ، ومن مكر يستحق أن يُمكر به ، ومن نسى الله يستحق أن ينساه الله ، ومن فسق استحق أن يدمر ، وهكذا لا يجازى الله جل وعلا إلا من يستحق المجازاة بالحق والعدل .

إن المخادع حين يخادع بباطل وظلم ، أو الماكر حين يمكر بباطل وظلم ، أو الكايد حين يكيد بباطل وظلم ، أو المستهزىء حين يستهزىء بباطل وظلم ، والناسى حين ينسى بباطل وظلم ، والفاسق حين يرتكب فسقه بباطل وظلم ، يكون أكمل الحكمة من الله تعالى حين يخادعه ، أو يمكر به ، أو يكيده ، أو يستهزىء به ، أو ينساه ، أو يدمره بالحق والعدل .ومن ثم فلا يشرع أن يوصف الله تعالى بتلك الأفعال المذكورة ولا أن يسمى بأسماء تشتق منها على وجه الاطلاق ، لأن الله

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة للإمام ابن القيم الجزء الثانى ص ٣٢ وما بعدها .

تعالى لم يصف بمثل أفعال الخداع ، والمكر ، والكيد ، والاستهزاء ، والنسيان ، والتدمير ، وما ماثل ذلك مطلقاً ، ولا أدخل ذلك في اسمائه الحسنى . « ومن ظن من الجهال المصنفين في شرح الأسماء الحسنى أن من أسمائه الماكر ، المخادع ، المستهزىء ، الكائد ، فقد فاه بأمر عظيم تقشعر منه الجلود ، وتكاد الأسماع تصم عند سماعه . وغرَّ هذا الجاهل أنه سبحانه وتعالى أطلق على نفسه هذه الأفعال ، فاشتق له منها أسماء ، وأسماؤه كلها حسنى ، فأدخلها في الأسماء الحسنى ، وأدخلها وقرنها بالرحيم ، الودود ، الحكيم ، الكريم ـ وهذا جهل عظيم ـ فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقاً ، بل تمدح في موضع وتذم في موضع ، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله مطلقا، فلا يقال إنه تعالى يمكر ، ويخادع

• • •

ويستهزىء ، ويكيد ، ، فكذلك بطريق الأولى لا يشتق له منها أسماء يسمى بها ، بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنى المريد ، ولا المتكلم ، ولا الفاعل ، ولا الصانع ، لأن مسمياتها تنقسم الى ممدوح ومذموم ، وإنما يوصف بالأنواع المحمودة منها كالحليم ، والحكيم ، والعزيز ، والفعَّال لما يريد ، فكيف يكون منها الماكر ، المخادع ، المستهزىء ؟ ثم يلزم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الحسنى : الداعى ، والآتى ، والجائى ، والذاهب ، والقادم ، والرائد ، والناسى ، والقاسم ، والساخط ، والغضبان ، واللاعن ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من الأسماء التى أطلقت على نفسه أفعالها في القرآن ـ وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل . والمقصود أن الله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد ، والمكر ، والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق ، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق ، فكيف من الخالق سبحانه ؟ » (١) وإنى لأستحسن أن أسوق هنا المثل الذى ذكره الامام ابن القيم في بيان كيف كاد الله تعالى ليوسف عليه السلام مجازاة لاخوته على ما فعلوه ، وذلك في عباراته الآتية : ـ « إن جزاء المسىء بمثل إساءته جائز في جميع الملل ، مستحسن في جميع العقول ، ، لهذا كاد سبحانه ليوسف (عليه السلام) حين أظهر لإخوته ما أبطن خلافه جزاء لهم على كيدهم له مع أبيه ، حيث أظهروا له أمراً وأبطنوا خلافه ، فكان هذا من أعدل الكيد (الذى قال فيه تعالى : كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله (يوسف آية ٧٦) فإن اخوته فعلوا به مثل ذلك حتى فرقوا بينه وبين أبيه ، وادعوا أن الذئب أكله ، ففرق بينهم وبين أخيهم باظهار أنه سرق الصواع ، ولم يكن ظالما لهم بذلك الكيد حسث كان مقابلة ومجازاة

ولم يكن أيضا ظالماً لأخيه الذى لم يكده ... بل كان إحساناً إليه وإكراما له في الباطن ، وإن كان طريقة ذلك مستهجنة ، لكن لما ظهر بالآخرة براءته ونزاهته مما قذفه به ، وكان ذلك سبباً الى اتصاله بيوسف واختصاصه به ، لم يكن في ذلك ضرر عليه ، يبقى أن يقال : وقد تضمن هذا الكيد إيذاء أبيه وتعريضه لألم الحزن على حزنه السابق ، فأى مصلحة كانت ليعقوب (عليه السلام) في ذلك ؟ فيقال : هذا من امتحان الله تعالى له ، ويوسف انما فعل ذلك بالوحى ، والله تعالى لمَّا أراد كرامته ، كمل له مرتبة المحنة والبلوى ليصبر فينال الدرجة التى لا يصل إليها إلا على حسب الابتلاء ، ولو لم يكن في ذلك إلا تكميل فرحه وسروره باجتماع شمله بحبيبه بعد الفراق ، وهذا من كمال إحسان الرب تعالى ، أن يذيق عبده مرارة الكسر قبل حلاوة

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة الجزء الثانى ص ٣٤ .

الجبر ، ويعرفه قدر نعمته عليه بأن يبتليه بضدها(١) » ثم قال : « فعلم أنه لا يجوز ذم هذه الأفعال على الإطلاق ، كما لا تمدح على الإطلاق ، والمكر ، والكيد ، والخداع لا يذم من جهة العلم ، ولا من جهة القدرة ، فإن العلم ، والقدرة من صفات الكمال ، وإنما يذم من جهة سوء القصد ، وفساد الإرادة ، وهو أن الماكر ، المخادع يجور ، ويظلم بفعل ماليس له فعله ، أو ترك ما يجب عليه فعله(٣) » .

■ وقال في موضع آخر : « والصواب أن معانيها ـ (أى معانى هذه الألفاظ) تنقسم الى محمود ومذموم ، فالمذموم ، منها : يرجع الى الظلم ، والكذب ، فما يذم منها ، إنما يذم لكونه متضمنا للكذب ، أو الظلم ، أوْلَهُماَ جميعاً . وهذا هو الذى ذمه الله تعالى كما في قوله سبحانه : « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم » (البقرة آية ٩) ، فإنه ذكر هذا عقيب قوله : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » (البقرة آية ٨) . فكان هذا القول منهم كذبا وظلما في حق التوحيد والإيمان بالرسول واتباعه ، وكذلك قوله : « أفأمن الذين مكروا السئيات أن يخسف الله بهم الأرض » (النمل آية ٤٥) ، وقوله : « ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله » (فاطر آية ٤٣) ، وقوله : « ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم » (النمل آية ٥٠ ، ٥١) .

ثم قال على هذه الألفاظ « أنها منقسمة الى محمود ومذموم ، فما كان منها متضمنا للكذب والظلم فهو مذموم ، وما كان منهابحق وعدل ومجازاة على القبيح فهو حسن محمود » (٣) .

بيان الأسماء الحسنى التى وردت النصوص بها في الكتاب والسنة :
أولا : ما ورد في القرآن الكريم بحسب ترتيب السور (٤) :

سورة الفاتحة

وردت فيها الأسماء الآتية : الله ـ الرب ـ الرحمن ـ الرحيم ـ المالك .

الله :

الله هو اسم الجلالة . وهو علم على الرب أى اسم للرب تبارك وتعالى ـ ويقال إنه الاسم الأعظم ، لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق ، البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) (الحشر آية ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) . (٥) .

(١) المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٣١ ، ٣٢ .

(٤) تفسير أسماء الله الحسنى لأبى اسحاق الزجاج ص ١٠ وما بعدها ـ بتصرف .

(٥) التيسير السابق ذكره المجلد الأول ص ١٢ .

وقد ورد ذكر اسم (الله) في القرآن الكريم في مواضع متفرقة ثمانين وتسعمائة مرة ـ (٢) . وهذا التكرار العديد لهذا الاسم يدل على مدى عظمته وأهميته .

واختلف في : هل هو مشتق ؟ أو غير مشتق ؟ (أى جامد) ؟ : فقال البعض : إنه جامد لم يشتق من غيره ، ذلك لأن اسمه تعالى أزلى ، والأزلى في سبقه لم يؤخذ من غيره ، ومن ثم فهو اسم علم مَحْض كسائر الأعلام المَحْضَة التى لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها .

وقال البعض : إنه مشتق : واختلفوا في اشتقاقه : فقال فريق : إنه مشتق من أله (الذى مضارعها : يَألَه ، ومصدرها : الآهَةً ، وألُوهَةً ، وألُوهِيَّةً) ومعنى ألَهَ: عَبَدَ . وهذا الرأى هو الراجح .

وقال فريق آخر : إنه مشتق من ألِهَ (الذى مضارعها : يَألَه ، ومصدرها : ألَهاً) ومعنى ألِهَ: تَحيرّ . وهذا الرأى مرجوح .

وقال القرطبى في تفسيره الجزء الأول ص ١٠٢ : روى سيبويه عن الخليل أن أصله (إِلَاه) مثل فعَال ، فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مثل الناس أصله : أناس . وقيل أصل الكلمة (لاه) وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم ، وهذا اختيار سيبويه(٣) .

وقال الشوكانى في تفسيره الجزء الأول ص ١٨ : أصل اسم (الله) إله : حذفت الهمزة وعوضت عنها أداة التعريف فلزمت .

■ ومعنى اسم الجـلالة (الله) :

أنه المعبود وحده ، الذى لا يستحق العبادة بجميع أنواعها سواه ، ولهذا كانت الحكمة في خلقه للثقلين أن يحققوا هذه العبادة مجردة له وحده سبحانه ، وهذا ما أشار إليه في قوله جل وعلا « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (الذاريات آية ٥٦) .

هل يشرع ذكر الله باسم الجلالة (الله) مفردا ؟

■ وأجد من المناسب وأنا أتكلم عن اسم الجلالة ، أن أشير إلى ما يلجأ إليه بعض الجاهلين من المسلمين من ذكر الله باسم الجلالة مفردا ـ ذلك أننا نرى البعض منهم يجعل له وردا يردد فيه اسم الجلالة (الله) مرات عديدة كألف مرة ، أو ألفين أو أكثر أو أقل ؛ بل وقد تجتمع مجموعة من الناس يرددون اسم الجلالة (الله) رافعين أصواتهم ، ويبدأون بقولهم : الله ، الله الله ، الله الله ، وهم جالسون مغمضى أعينهم ، أو هم واقفون يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار ، ويقفزون بين الحين والآخر إلى أعلى ، يتوسطهم قائد ، يصفق بيديه ، وبجواره أحيانا امرأة تتمايل كذلك تنشدهم أناشيد كفرية ماجنة ، تدق على طبل بيدها ، يلاصقها خليع يتمايل وهو يؤدى نغمات مزمار هى صفير يتسق مع الطبل والتصفيق ، حتى يصير جو هذا الجمع كأنه ماخور حَفَّتْهُ الشياطين من كل جانب ، يتصاعد منه لهيب الإثم كأنما فتح على أبواب جهنم والعياذ بالله ، ثم يدعى أولئك المخبولون أنهم بهذا الراقص الداعر ، وهذه الوقاحة المُتَرَدِّيَة التى لا يليق صدورها من عاقل ، وهذه الأصوات المنكرة التى لا تميز منها سوى (أه ، أه ، أه) ـ (حع ، حع ، حع) أو (هو ، هو ، هو)أنهم يذكرون الله .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقى .

فمن قال إن الله قد شرع أن يذكر باسمه مفردا ؟
ومن قال إن من أسماء الله : أه .. ؟ أو حع .. ؟ أو هو .. ؟
ومن قال إن الاختلاط بين الرجال والنساء الأجنبيات ـ فضلا عن التصاقهم بهن في تمايلهم الفاجر ـ قد شرعه الله ؟
ومن قال إن الذكر جماعة له سند من الشرع الحنيف ؟
ومن قال إن الذكر بهذه الأصوات المنكرة المزعجة قد جاءت به النصوص ؟
ومن ثم فإننى أوجز بيان الحق في هذا الموضوع كما جاءت به الأدلة الصحيحة فيما يلى :ـ

أولا :ـ أنه لم يشرع أن يذكر الله باسمه مفردا : فما ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم قط ربه باسمه مفردا ، إذ لم يرد نص واحد يدل على أنه ذكر باسم (الله) أو (حي) أو (هو) أو (لطيف) أو (قدوس) ، بل إن كل ذكره صلى الله عليه وسلم كان جملا تفيد معانى كاملة ، ومما ثبت عنه قوله (خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) ـ بل ويعلمنا صلى الله عليه وسلم الذكر المشروع في مثل ما يأتى :ـ

١ ـ قوله : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير في يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشْر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمس ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء إلا رجل عمل أكثر منه) أخرجه البخارى ومسلم .

٢ ـ ووله : (من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة ، حطَّت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) أخرجه البخارى ومسلم .

٣ ـ وقوله : (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) أخرجه الصحيحان .

٤ ـ وقوله (لأن أقول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكـبر ، أحبُ إلى مما طلعت عليه الشمس) أخرجه مسلم .

٥ ـ وقوله (أحب الكلام إلى الله تعالى أربع ، لا يضرك بأيَهن بدأت ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر) أخرجه مسلم .

٦ ـ وقوله : (من قال حين يصبح وحين يمسى : سبحان الله وبحمده ، مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال ، أو زاد عليه) أخرجه مسلم .

٧ ـ وقوله : (سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فأغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها حين يمسى فمات من ليلته ، دخل الجنة ، ومن قالها حين يصبح فمات من يومه ، دخل الجنة) أخرجه البخارى .

٨ ـ وقوله : (ما من عبد يقول في صباح كل يوم ، ومساء كل ليلة ، بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ، ثلاث ، لم يضره شىء) قال التزمذى حديث حسن صحيح .

٩ ـ وقوله : (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضجع على شقك الأيمن ، وقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت . فإن مُتَّ من ليلتك مُتَّ على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تقول) متفق عليه .

١٠ ـ وقوله : (دعوة ذى النون إذ دعا بها في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ـ لم يدع بها رجل مسلم في شىء قط إلا استجاب الله له) أخرجه الترمذى ٠

هذه أمثلة الذكر المشروع الذى أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكله جمل مفيدة ، وليس هناك حديث واحد صحيح يفيد الذكر بالاسم المفرد ٠ وان لم يقبل الضائعون هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليأتونى بأثاره من علم ـ تؤيد زعمهم ـ إن كانوا صادقين ٠

ثانيــا :

■ أما أن يكون هناك أسماء لله تعالى هى (أه) أو (حع) أو (هُو) ، فذلك ما لا يعقل ، فضلا عن أنه لم يرد بمثل هذا أى نص ، ولا يقر إنسان في رأسه ذرة من عقل أن هذه أسماء لله تعالى ، ذلك بأن أسماءه كلها حسنى ، ليس منها اسم قبيح أو نابٍ في لفظه أو في معناه ٠ والله تعالى يقول « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » ـ (الأعراف آية ١٨٠) ٠

ثالثـا :

■ وأما الاختلاط بين الرجال والنساء الأجنبيات ، فذلك ما لم يشرعه ديننا الإسلام ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول (ما خلا رجل وأمرأة إلا كان الشيطان ثالثهما) ـ فضلا عن أنّ ما ينتج من الاختلاط المحرم من التصاق ، وتمايل ، وخلاعة ، ومجون ، وطبل ، وزمر ، ورقص ، باسم ذكر الله ، كلها من المنكرات الفاحشة التى حرمها الإسلام ، واعتبرها وسائل مؤدية إلى الزنا ، وهو قد سدَّ كل ذريعة توصل الى المحرم ، فقال تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » ـ فعبر القرآن الكريم بقوله « ولا تقربوا الزنا » ولم يقل « ولا تزنوا » ٠ وذلك لأن التعبير الأول يحرم الاقتراب من كل ذريعة تؤدى إلى الزنا من : نظر ، واختلاط والتصاق ، ومجالسة ، وكل يفضى إلى الزنا ، وجعل كل ذريعة تفضى الى المحرم محرمة ٠

رابعـا :

■ وأما الذكر جماعة ، فلم يرد نص اطلاقا على مشروعيته ، ولذلك فإن الذكر بصورة جماعية إنما هو بدعة غير مشروعة ، لم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا صحابته الكرام رضوان الله عليهم ، وما لم يشرعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يكون بعده مشروعا ، لذلك وضع لنا الأساس في ذلك في قوله (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وفي قوله من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) ٠

خامسـا :

■ وأما رفع الصوت بالذكر ، فلم ترد بها النصوص ، بل إنها وردت بخلافه ، فقد قال تعالى : « ادعوا ربَّكم تَضَرُّعاً وخُفْيَةً إنه لا يحب المعتدين » (الأعراف آية ٥٥) ، وقال : « واذكر ربك في

نفسك تضرعا وخِيفَةً ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ، ولا تكن من الغافلين » (الأعراف آية ٢٠٥).

ولما رفع بعض الصحابة أصواتهم بالذكر - ولا شك أنهم ما عرفوا سوى الذكر المشروع - وسمعهم الرسول صلى الله عليه وسلم قال لهم : (أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا بصيرا ، قريبا ، إن الذى تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته) - متفق عليه - ومن ثم فإن ما تعارف عليه أولئك الجاهلون من الذكر المفرد ، والجماعى ؛ والجهرى ، إنما هو وحى الشيطان الذى أوقعهم به في شركه ، بل وألقى هذا الرجيم في روع أوليائه أن الذكر بالألفاظ الأعجمية مثل : آهيا ، شراهيا ، أصباؤت آل شداى ، آج أهوج ، جلجلوت ، إنما هو ذكر شرعى كذلك بزعم أن هذه الألفاظ هى أسماء الله تعالى باللغة العبرانية أو السوريانية (١) .

أليس في القرآن الكريم والسنة المشرفة وما ضَمَّاهُ من أسماء الله الحسنى وبيان الذكر المشروع بها غُنْيَةٌ عما سواهما لأولئك الدجالين فيما يأفكون ؟

ألا قُتِلَ الخراصون ، الذين هم في غمرة ساهون ، والذين يلحدون في أسماء الله تعالى ، إنهم سيجزون ما كانوا يعملون .

احتجاج الجاهلين بقوله تعالى « قل الله » على الذكر المفرد :

■ وقد يحتج بعض الجاهلين بقول الله تعالى « قل الله » في الآية رقم ٩١ من سورة الأنعام على مشروعية الذكر المفرد .

وردا على هذا الاحتجاج أحيلُ أولئك الجاهلين على هذه الآية ليقرأوها كاملة ، حتى يعلموا أن المراد بهذا الأمر من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ليس أمرا بالذكر (بالإسم المفرد) كما يزعمون ، وإنما هو جواب لمن أنكر أن الله لم ينزل وحيا على بشر . ولا أتركهم يبحثون عن الآية المذكورة ، فلعلهم لا يهتدون إلى مكانها في المصحف فأضعها أمام ناظرهم ، ومن كان منهم يحمل في رأسه عقلا ، فإنه سوف يدرك الحق فيها إن كان منصفا . أما الآية فهى قوله جل وعلا : « وما قدروا الله حق قدره ، اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قُلْ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدًى للناس ؟ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ، وعُلِّمْتُمْ ما لم تَعْلَمُوا أنتم ولا آباؤكم ؟ قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » (الأنعام) (الأنعام آية ٩١) .

ويبين لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن الآية يوجز معناها فيما يلى :-

أن اليهود والمشركين نفوا الرسالة ، وزعموا أن الله ما أنزل على بشر من شىء ، أى من الرسالة ، فمن قال هذا فما قدر الله حق قدره ، ولا عظمه حق عظمته ، إذ هذا قدح في حكمته ، وزعم أنه يترك عباده هملا لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ونفى لأعظم منة امْتن الله بها على عباده وهى الرسالة التى لا طريق للعباد الى نيل السعادة والكرامة والفلاح إلا بها ، ولما بين الله حال هؤلاء المنكرين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم كلمتين : الأولى سؤال : وهى : (قل : من أنزل

(١) صيحة الحق للشيخ أبى الوفا محمد درويش - الطبعة السادسة ص ٢٨٦ . ٢٨٧ بتصرف .

الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدًى للناس ؟ » والثانية : جواب : وهى (قل : الله) أى أن الله جلت حكمته هو الذى أنزل الكتاب على موسى عليه السلام ؛ ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يترك أولئك المكذبين يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون (١) ٠

فأين إذن هذا الذكر بالاسم المفرد ؟ الذى يزعمه أولئك الذين أغرقهم أئمة الضلال ، وباعدوا بينهم وبين الحق كما تَبَاعدَ المشرقُ عن المغرب ، حتى صار هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟

الرب :

■ هو اسم من أسماء الله تعالى ، التى تضمنتها نصوص القرآن الكريم ٠ ولا يقال في غيره إلا بالاضافة ٠ وقد قالوه في الجاهلية للملك ٠ وقال في الكشاف : الرب المالك ٠ ومنه قول صفوان لأبى سفيان : لأن يربنى رجل من قريش أحب الىّ من أن يربنى رجل من هوازن

وقال القرطبى في تفسيره : والرب السيد ومنه قوله تعالى (اذكرنى عند ربك) ـ وفي الحديث (أن تلد الأمة ربتها) ٠٠والرب : المصـلح ، والمدبر ، والجابر ، والقائم ٠ قال : والرب المعبود ـ ومنه قول الشاعر :

أربٌ يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب (٢) ٠

وقد ذكر ابن كثير : أن الرب : هو المالك المتصرف ٠ ولا يقال (الرب) معرفا بالألف واللام إلا لله تعالى ، ولا يجوز استعمال كلمة الرب لغير الله إلا بالإضافة فنقول : رب الدار ، ورب السيف ٠ وأما الربَ ٠ فلا يقال إلا لله عز وجل (٣) ٠

ومعنى كلمة الربّ لغةً : هو السيد المربى ـ واصطلاحا : هو المالك ، الخالق ، البارىء ، المصور ، المعطى المانع ، النافع الضار ، الرافع الخافض ، الباسط القابض ، المحيى المميت ، المدبر لأمر هذا الكون ٠ (وهذا على ما فصلت القول فيه في حلقات (مفهوم الربوبية) بهذه المجلة في سنتها الحادية عشرة) (٤) فليرجع إليها من شاء ٠

والرب هو المربى لجميع العالمين ، وهم من سوى الله : بخلقه لهم ، وتسخير ما يصلح لحياتهم ، وانعامه عليهم بالنعم العظيمة التى لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء ٠ فما بهم من نعمة فمنه تعالى ٠ وتربيته سبحانه لخلقه نوعان : عامة وخاصة ٠

فالعامة : هى خلقه للمخلوقين ، ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التى فيها بقاؤهم في الدنيا ٠ والخاصة : تربيته لأوليائه ، فيربيهم بالإيمان ، ويوفقهم له ، ويكملهم ، ويدفع عنهم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن الجزء الثانى ص ٢٠١ ـ بتصرف ٠

(١) فتح القدير للشوكانى الجزء الأول ص ٢١ ٠

(٣) تيسير العلى القدير المذكور المجلد الأول ص ١٣ ٠

(٤) مجلة الجامعة الإسلامية السنة الحادية عشرة العدد الأول (حلقات مفهوم الربوبية لكاتبها : سعد ندا) ٠

الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه : وحقيقتها : تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة من كل شر ، ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الربّ (١) ، فإن مطالبهم كلها تحت ربوبيته الخاصة (٢) .

وقد ورد ذكر هذا الاسم بصيغ مختلفة في القرآن الكريم تسعمائة مرة على النحو التالى :-
ربْ : ذكرت أربعا وثمانين مرة · ربا : ذكرت مرة واحدة · ربّك : ذكرت أربعين ومائتى مرة · ربّكم : ذكرت ثمانى عشرة ومائة مرة · ربّكما : ذكرت ثلاثا وثلاثين مرة · ربّنا : ذكرت إحدى عشرة ومائة مرة ربّه : ذكرت ستا وسبعين مرة · ربّها : ذكرت تسع مرات · ربّهم : ذكرت خمسا وعشرين ومائة مرة · ربّهما : ذكرت ثلاث مرات · ربّى : ذكرت مائة مرة (٣) ·
وتكرار هذا الاسم على هذا النحو المتعدد بصيغ مختلفة يدل على مدى عظمه وأهميته ·

الرحمــن :

■ هو اسم لله تعالى مشتق من الرحمة على وجه المبالغة ، وهو على وزن فَعْلان ، (وفَعْلان تفيد الامتلاء) · والرحمن أشد مبالغةً من الرحيم · والرحمن مشتق بخلاف من قال وزعم أنه غير مشتق ؛ ودليل ذلك ما أخرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (قال الله تعالى : أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته) · قال : هذا نص في الاشتقاق ، فلا معنى للمخالفة والشقاق (٤) ·

وهذا الاسم (الرحمن) يختص بالله سبحانه وتعالى ، ولا يجوز اطلاقه على غيره · وقال بعض أهل التفسير : الرحمن الذى رحم كافة خلقه ، بأن خلقهم وأوسع عليهم في رزقهم (٥) ·
واسم (الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه ، فهو دال على أن الرحمة صفة ذات له سبحانه (٦) ·

---

(١) مجلة الجامعة المذكورة العدد الثانى ·

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدى الجزء الأول ص ١٤ . ١٥ ·

(٣) المعجم المفهرس السابق ذكره ·

(٤) تيسير العلى القدير المذكور المجلد الأول ص ١٣ ·

(٥) مرجع الزجاج السابق ذكره ص ٢٨ ·

(٦) بدائع الفوائد لابن القيم الجزء الأول ص ٢٤ ·

وروى ابن جرير بسنده عن العزرمى يقول (الرحمن الرحيم) قال (الرحمن) لجميع الخلق ، و (الرحيم) قال بالمؤمنين . قالوا : ولهذا قال : « ثم استوى على العرش الرحمن » (الفرقان آية ٥٩) ، وقال (الرحمن على العرش استوى) (طه آية ٥) ، فذكر الاستواء باسمه (الرحمن) ليعم جميع خلقه برحمته . وقال « وكان بالمؤمنين رحيما » (الأحزاب آية ٤٣) فخصهم باسمه (الرحيم) . قالوا : فدل على أن (الرحمن) أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين (١) .

وقد ذكر البعض : أن (الرحمن) يرحم أهل الدنيا والآخرة ، و (الرحيم) خاص بالمؤمنين يوم القيامة ، إذ أن الله يرحم المؤمنين والكافرين في الدنيا على السواء وذلك من نواحى أمورهم المعيشية ، وأسباب حياتهم ، وما يكفل لهم حياتهم الدنيا ، فرحمته هنا (أى رحمة الرحمن) عامة ، واذا لم تكن الرحمة هذه عامة ، لا تتكامل أسباب التكليف من الإنعام عليهم بنعمة العقل الذى بواسطته يعرفون الحق من الباطل ، ونعمة تسخير ما في الكون ليستفيد منها أهل الأرض من الإنس والجن « هو الذى خلق لكم ما في الأرض جميعا » . فتكامل أسباب التكليف في الدنيا سيكون عليه في الآخرة مدار الحساب .

وأما ما جاء في الدعاء المأثور (يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها) فقوله (رحيمها) محمول على معنى أنه يرحم المؤمنين في الدنيا فيما أطاعوه من الإيمان به ، وتنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه ، وتسهيل سبل ذلك لهم ؛ ويرحمهم في الآخرة بإدخالهم الجنة جزاء ما أسلفوا من إيمان وطاعة ، فطاعتهم له في الدنيا رحمة منه تعالى ، وجزاؤهم بالجنة رحمة منه تعالى ، وهذا معنى قوله - ورحيمها - والله أعلم) (٢) .

واسم (الرحمن) يختص به الله جل جلاله وحده ، ولا ينبغى أن يتسمى به واحد من خلقه - شأن كل اسمائه الحسنى جميعاً - كما سبق أن أسلفنا ، ولكن شخصا كان قد تسمى بالرحمن هو : مسيلمة بن حبيب الحنفى الكذاب أبو ثمامة ، من أهل اليمامة ، لذا عرف برحمن اليمامة وكان قد قوى أمره في اليمامة وظهر جدا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقارعه خالد بن الوليد في خلافة أبى بكر الصديق وانتصر عليه .

وقد زعم لقومه أنه أشرك في الأمر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يَسْجَعُ لهم الأساجيع ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : (لقد أنعمَ الله على الحُبْلَى ، أخرج منها نَسمَةً تسْعى ، منْ بين صفاق وحشَا) وأحل لهم الخمر ، والزنى ووضع عنهم الصلاة . واجتمعت معه حنيفة على ذلك .

وقد كتب إلى رسول الله كتابا يقول فيه : (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ، أما بعد فانى قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصفَ الأرض ، ولقريش نصفَ الأرض ، ولكن قريشاً قوم يعتدون وحمل رسولان هذا الكتاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما : « فما تقولان أنتما » قالا : (نقول كما قال) : فقال « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » ثم كتب إلى مسيلمة « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة

(١) تيسير العلى القدير السابق ذكره المجلد الأول ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق - المجلد الأول هامش ص ١٣ .

الكذاب السلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . وكان ذلك في آخر سنة عشر من الهجرة (١) .

وقد بين الله جهل العرب لاسم الرحمن في قوله تعالى : « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا » (الفرقان آية ٦٠) ـ وقال المفسرون : انهم قالوا : ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ؛ يعنون مسيلمة (٢) .

وقد ذكر مقاتل وغيره من المفسرين أن رجلا من المسلمين كان يقول في صلاته : (يا رحمن يا رحيم) فقال له رجل من المشركين : (أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربا واحدا ، فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟) فأنزل الله تعالى « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (الأعراف آية ١٨٠) .

حكى ذلك القرطبى (٣) وقد ذكر اسم (الرحمن) في القرآن الكريم في مواضع مختلفة سبعا وخمسين مرة (٤) .

الرحيـم :

■ هو اسم لله مشتق من الرحمة كذلك ، وهو على وزن فَعِيل وهو من صيغ المبالغة . وقد سبق أن ذكرنا أن اسم (الرحمن) لما يتضمنه من صفة الرحمة التى تعم كافة خلقه بأن خلقهم وأوسع عليهم في أرزاقهم ، فانه أشد مبالغة من اسم (الرحيم) الذى يتضمن صفة الرحمة التى تعم عباده المؤمنين فحسب بأن هداهم الى الإيمان في الدنيا ، وهو يثيبهم في الآخرة الثواب الدائم الذى لا ينقطع ، إذ يقول سبحانه : « وكان بالمؤمنين رحيما » (الأحزاب آية ٤٣).

وقد قال الإمام ابن القيم : (وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ، ففيه معنى بديع ، وهو أن (الرحمن) دال على الصفة القائمة به سبحانه ، و (الرحيم) دال على تعلقها بالمرحوم ، فكان الأول للوصف ، والثانى للفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفة (أى : صفة ذات له سبحانه ، والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته (أى : صفة فعل له سبحانه) وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى « وكان بالمؤمنين رحيما » (الأحزاب آية ٤٣) ، « إنه بهم رؤوف رحيم » (التوبةآية ١١٧) ، ولم يجئ قط رحمة بهم ، فعلم أن (رحمن) هو الموصوف بالرحمة ، و (رحيم) هو الراحم برحمته (٥) .

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام طبعة ثالثة ص ٦٧ ، ٣٥١ ، ٣٧١ . ومرجع الزجاج ص ٢٩ .

(٢) فتح القدير الجزء الرابع ص ٨٤ .

(٣) المرجع السابق الجزء الثانى ص ٢٦٨ .

(٤) المعجم المفهرس السابق ذكره .

(٥) مرجع الزجاج ص ٢٨ ـ وبدائع الفوائد لابن القيم الجزء الأول ص ٢٤ .

وقد نسب القرطبى إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قوله : (الرحمن الرحيم اسمان رقيقان وأحدهما أرق من الآخر) . وقد استشكل الخطابى هذا القول ، ونقله عنه القرطبى في الجزء الأول ص ١٠٦ ، إذ قال الخطابى في استشكاله المذكور (وهذا مشكل ، لأن الرقة لا مدخل لها في شىء من صفات الله سبحانه) .

وقال الحسين بن الفضل البجلى: (هذا وهم من الراوى لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى في شىء ، وانما : هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر ، والرفق من صفات الله عز وجل . قال النبى صلى الله عليه وسلم (إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف»(١) .

والحقيقة أننى أعجبت كثيرا بهذا الاستشكال ، ولذلك ألفت إخوانى المؤمنين إليه .

وأما قرن الرحمن بالرحيم مع أن كلا منهما مشتق من الرحمة ، فإنه يجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد ، كما يقال : جاد ومجد (٢) .

وقال القرطبى : (وصف نفسه تعالى بعد : رب العالمين بأنه : الرحمن الرحيم ، لأنه لما كان في اتصافه : برب العالمين ترهيب ، قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ، ليجمع في صفاته بين : الرهبة منه ، والرغبة إليه ، فيكون أعون على طاعته وأمنع ، كما قال تعالى : (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » (الحجر آية ٤٩ ، ٥٠) ، وقال : « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » (غافر آية ٣) . وفي صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد) (٣) .

أسماء الله تعالى وصفاته منطلق لتوحيد ألهيته :

■ وبمناسبة كلامى على اقتران (الرحمن الرحيم) يهمنى أن ألفت إخوانى المؤمنين الى أن الله تعالى جعل أسماءه الحسنى وصفته العليا دليلاً على توحيد إلاهيته ، بمعنى أنه يجعل أسماءه وصفاته منطلقا إلى توحيد إلاهيته ، وذلك على نحو ما ذكرنا في توحيد الربوبية الذى يجعله سبيلاً الى توحيد الإلهية (٤) .

مثال ذلك :

■ قوله جل وعلا : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » (البقرة آية ١٦٣) فجعل

---

(١) مرجع الزجاج ص ٢٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣) تيسير العلى القدير المجلد الأول ص ١٤ . وفتح القدير الجزء الأول ص ٢١ .

(٤) راجع حلقات (مفهوم الربوبية) في أعداد هذه المجلة لسنتها الحادية عشرة ـ لكاتبها سعد ندا .

اسميه الرحمن والرحيم - اللذين يتضمنان صفة الرحمة العامة والخاصة - دليلا على أنه الإله الواحد الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده ، فالعبادة لا ينبغى أن تجرد إلا لمن كان كاملا على الإطلاق في أسمائه وصفاته ، ومنزها عن كل نقص أو عيب .

ومثال ذلك أيضا : قوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » (آل عمران آية ٢) . فالاسمان : الحى ، والقيوم ، تضمنا صفتين لله تعالى : الأولى صفة الحياة ، وهى تشمل جميع صفات كماله الذاتية ، والثانية صفة القيومية وهى تشمل جميع صفات كماله الفعلية ، حتى ورد أن الحى القيوم هما اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب - هذان الاسمان جعلهما الله بما شملاه من هاتين الصفتين دليلا على توحيد إلاهيته ، فقال قبلهما « الله لا إله إلا هو » .

والذى يستقرىء القرآن الكريم ، يجد الكثير من الآيات التى يستدل فيها بتوحيد الأسماء والصفات على توحيد الإلهية .

وكذلك السنة المشرفة لا تخلوا من النصوص التى توضح ذلك . ولنا - أن شاء الله تعالى - في هذا المبحث فضل بيان في المكان الذى يناسبه .

المالك (والملك - والمليك) :

■ وكلها أسماء لله جل وعلا . واسم (الملك) يدل على أن الله وحده يملك هذا الكون ، إذ هو سبحانه الخالق له وحده . وإذا كان الناس يملكون في هذه الحياة شيئا من أعراضها ، ثم هم ينسبون ملكيته إلى أنفسهم فيقول قائلهم : هذه دارى ، وهذا بستانى ، وهؤلاء أولادى ، وهذه أموالى ، فما كل أولئك إلا ودائع ، استخلفهم الله تعالى - مالكها الأصيل - عليها فترة من الزمن لتعمر الأرض بذلك ، ثم هم لا بد ملاقوا ربهم ، وتاركوا كل ودائعهم التى استخلفهم الله تعالى عليها لمالكها الأصلى رب العالمين .

لذا يقول تبارك وتعالى : « ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير » (آل عمران اية ١٨٠) ، ويقول تعالى : « وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون » (الحجر آية ٢٣) ، ويقول سبحانه : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها والينا يرجعون » (مريم آية ٤٠) ، ويقول جل شأنه « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين » (القصص آية) ، ويقول عز وجل « وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض » (الحديد آية ١٠) .

فلا بد من أن ترد الودائع وأهلها حتما لخالقها وخالق كل شىء سبحانه ، وفي هذا يصدق قول من قال :

وما المال والأهلون إلا ودائــع　　　ولا بد يوماً أن تُرَدّ الودائعُ

والمالك : هو من اتصف بصفة الملك من آثارها أن يأمر ، وينهى ، ويثيب ، ويعاقب ، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات ، وأصناف الملك (١) .

وقد ورد اسم المالك سبحانه في سورة الفاتحة في قوله تعالى : « مالك يوم الدين » (الفاتحة آية ٣) .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن الجزء الأول ص ١٥ .

وقد قرىء مالك ، وقرىء مَلك ، وكلا القراءتين صحيح متواتر في السبع ، وليس تخصيص المُلك بيوم الدين الإخبار بأنه تعالى رب العالمين ، وذلك عام في الدنيا والآخرة ، وإنما أضيف اسم (مالك) الى يوم الدين لأنه لا يدعى هناك أحد غيره ، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه كما قال تعالى « يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » (النبأ آية ٣٨) - قال الضحاك عن ابن عباس (مالك يوم الدين) يقول لا يملك من أحد في ذلك اليوم كملكهم في الدنيا بأن يقول أحد - تجوُزًا - هذا ملكى ، هذا مالى ، أما يوم القيامة فليس لأحد ملك ولا مال(١)

■ وقد اختلف العلماء في أى الاسمين أبلغ : مالك أو مَلك ؟ فقال أبو عبيد والمبرد ورجح قولهما الزمخشرى : إن (ملك) أعم وأبلغ من (مالك) إذ كل ملك مالك ، وليس كل مالك ملكاً) ولأن أمر الملك نافذ في ملكه ، فلا يستطيع أن يتصرف إلا بتدبير الملك ·

وقال آخرون : إن (مالك) أبلغ من ملك ، لأن (المالك) يكون مالكاً للناس وغيرهم ، فالمالك أبلغ تصرفا وأعظم ·

وقال أبو حاتم : إن (المالك) أبلغ في مدح الخالق من ملك ، و (الملك) أبلغ في مدح المخلوقين من (المالك) ، لأن (المالك) من المخلوقين قد يكون غير ملك ، وإذا كان الله تعالى مالكاً كان ملكاً · وقد اختار هذا القول أبو بكر بن العربى ·

وقال الإمام الشوكانى : والحق : أن كل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر ، (فالمالك) يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع ، والهبة ، والعتق ، ونحوها ؛ و (الملك) يقدر على ما لا يقدر عليه (المالك) من التصرفات العائدة الى تدبير الملك وحياطته ، ورعاية مصالح الرعية مصالح الرعية ، (فالمالك) أقوى من (الملك) في بعض الأمور ، و (الملك) أقوى من (المالك) في بعض الأمور ·

والفرق بين الوصفين بالنسبة الى الرب سبحانه : أن (الملك) صفة لذاته ، و (المالك) صفة لفعله (٢) ·· وقد ورد اسم (المالك) في القرآن الكريم مرتين : في قوله تعالى : « مالك يوم الدين » (الفاتحة آية ٤) ، وفي قوله « قل اللهم مالم الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » (آل عمران آية ٢٦) ·

وقد ورد اسم (الملك) في قوله تعالى : « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك » (الحشر آية ٢٣) - وقد جاء في معنى (الملك) : انه المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة (٣) · وقيل : إنه المالك لجميع الممالك ، فالعالم العلوى والسفلى وأهله الجميع مماليك لله فقراء مُدبّرون (٤) ·

وقيل : إنه الله ، ملك الملوك ، وهو مالك يوم الدين (٥) ·

---

(١) تيسير العلى القدير المجلد الأول ص ١٤ - بتصرف ·

(٢) فتح القدير الجزء الأول ص ٢٢ - بتصرف - قلت : (و « الملك » ليس صفة وإنما هو اسم الله تعالى يدل على صفة الملكية التى هى صفة لذاته سبحانه - و « المالك » ليس صفة كذلك . وانما هو اسم الله تعالى يدل على صفة الملكية التى هى صفة لفعله سبحانه) ·

(٣) تيسير العلى القدير - المجلد الرابع ص ٢١٥ ·

(٤) تيسير الكريم الرحمن - الجزء الثامن ص ١٠٧ ·

(٥) مرجع الزجاج ص ٣٠ ·

وقد ورد اسم (ملك) في القرآن الكريم خمس مرات : في قوله تعالى : « فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما » (طه آية ١١٤) - وفي قوله : « فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » (المؤمنون آية ١١٦) - وفي قوله : « هو الله الذى لا إلاه إلا هو الملك القدوس » (الحشر آية ٢٣) - وفي قوله : « يسبح له ما فى السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم » (الجمعة آية ١) - وفي قوله : « قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس » (الناس آية ١ ، ٢) . (١) .

كما ورد اسم (المليك) في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : « إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » (القمر آية ٥٤ ، ٥٥)(٢) . وقد قيل في معنى (المليك) أنه الملك العظيم الخالق (٣) .

هذه الأسماء الخمسة السالف ذكرها - سوى الملك والمليك - هى أسماء الله تعالى التى وردت في سورة الفاتحة .

- يتبع -

تعظيم شأن المساجد

يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

« وان المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا » .

ويقول :

« إنما يعمر مساجد الله من امن بالله واليوم الاخر واقام الصلاة واتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » .

ويقول :

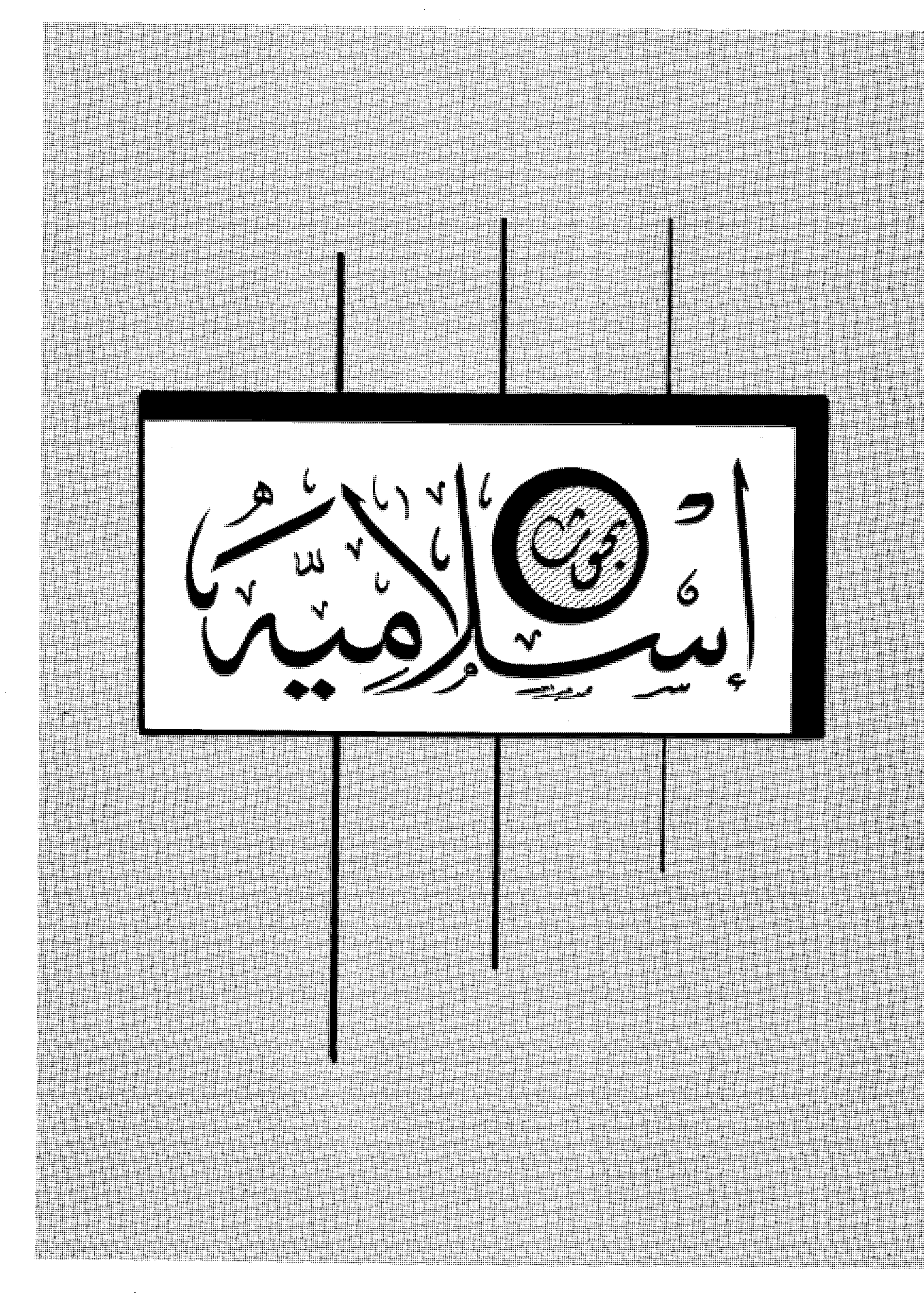
« في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

---

(١) المعجم المفهرس المذكور .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تيسير العلي القدير المجلد الرابع ص ١٤٩ .


بحوث
إسلامية



إمام الدعاة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

■ إذا كان بين عظماء الرجال نماذج من دعاة الحق والخير صالحون فإن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم هو إمامهم وقدوتهم في كل كمال كانوا عليه ، ودعوا الناس إليه .

فمن هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
إنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن كعب بن مرة ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النظير بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن معد بن عدنان من ولد اسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام .

ولد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بدار أبى يوسف ، ولدته آمنة بنت وهب بن زهرة بن عبد مناف بن قصى بن كلاب . ولدته صبيحة يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول عام الفيل الموافق لأغسطس عام (٥٧٠) ميلادية . مات والده عبد الله بن عبد المطلب وهو حمل في بطن أمه ، فكفله جده عبد المطلب وماتت والدته وهو ابن ست سنين ، فحضنته أم أيمن جارية أبيه ، ومات جده عبد المطلب فكفله عمه أبو طالب .

مظاهر الكمال المحمدى

■ إن الكمال في محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأتي عليه وصف ، ولا يمكن أن يوضع به كشف ، فصفاء نفسه التى أشرقت بنور الله ، فكانت كأصفى مرآة قد انعكست عليها مظاهر الكمال البشرى كله ، حتى كان محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم مضرب الأمثال في كل كمال ، وبذلك قدم لإمامة الأنبياء ، وجعل قدوة للمؤمنين .

وها نحن نذكر بعض جوانب الكمال المحمدى ليورد عليه الطالب الداعى قلبه ، ويحيله بخاطره فيحصل على طاقة من الكمال النفسى ما يكون عوناً له على حمل رسالته ، وأداء واجب دعوته التى تحملها بإيمانه وعلمه .

الاستعداد الروحى لتلقى الوحى :

■ وعن استعداد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الروحى لتلقى الوحى نقول : إن النبى الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم كان قبل إنبائه وبعثته آية في النظافة والطهر ، نظافة العرق وأصالته وطهارة الروح وسلامته ، لقد اتصلت ارومته بأصل جماله وكماله إبراهيم ، والذى كان محمد صلى الله عليه وسلم أشبه الناس به كما أخبر بذلك عن نفسه وانحدر سلسبيل النقاء في أصلاب الآباء حتى انتهى إلى قرار مكين فنبع منه محمد خير الناس أجمعين . هكذا كانت نظافة العرق الكريم والنسب الشريف . وأما طهارة الروح وسلامته فحسبنا أن نلقى نظرة على ربيع حياته ، فتتجلى لنا من معانى الطهر آياته ، وتفصح لنا عن سلامة روحه السنة عداته .

لقد كان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نبوته في شبابه وفتوته يتمتع بأفضل الأخلاق وأطيب الشمائل فلم يؤثر عنه ما يخل بمكارم الأخلاق قط . إنه لم يأت ولا مرة واحدة ما كان يأتيه بنو قومه أبداً . فلم يسجد لصنم ، ولم يشرب خمراً ولم يلعب قماراً ولا ميسراً ، ولم يستقسم بزلم ولم يظلم في عرض أو مال أو دم أحداً . لقد كان بشهادة أعدائه وخصوم دعوته مثالياً في أخلاقه وناهيك بإجماع قريش على إضفاء لقب الأمين عليه ، هذا اللقب الذى لم يظفر به أحد في ديارها وبين شبابها ورجالها أبداً ، لقد كان فداه أبى وأمى ونفسى وإنى لصادق . كان أميناً في سره وفي علنه ، وفي قوله وفي عمله ، أميناً في غيبه وفي مشهده أميناً في كل شئ وعلى كل شئ .

وإذا كانت قريش قد أجمعت على منحه ذلك اللقب السامى الكريم وهو لقب الأمين فإن الله تعالى قد أقسم له في مطلع نبوته على أنه على خلق عظيم وهى شهادة لا تعدلها والله شهادة إذ قال تعالى في فاتحة سورة القلم : « ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم » .

إن الكمال الروحى الذى عاش عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف به قبل نبوته لم يكن نتيجة تربية أم أو أب ، أو أثر تعليم أستاذ أو مرب قط ، وإنما كان أثر عناية الله تعالى به . فالله الذى أوجده ليكون واسطة بينه وبين عباده في تبليغ دينه وشرعه هو الذى حماه من كل ما يلوث نفسه ويعكر صفاء روحه ، وكان ذلك إعداداً له لحمل رسالة الله إلى عباد الله ، إذ حمل مثل تلك الرسالة يتطلب كمالاً نفسياً ، يكون صاحبه فيه مثلاً أعلى لغيره من سائر الناس ، وكذلك كان رسول الله ، وها هو ذا فداه أبى وأمى ونفسى يحدث عن صيانة الله تعالى له وحفظه ليبقى طاهراً زكياً فيتأهل لما هيىء له من الوحى والنبوة ، فيقول كما روى البيهقى عن على رضى الله عنه : يقول : ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما. قلت ليلة لبعض فتيان مكة ج ونحن في رعاء غنم أهلها وقلت لصاحبى : أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلى ، قال فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة فسمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير ، فقلت ما هذا ؟ قالوا: تزوج فلان فلانة فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبى . فقال : ماذا فعلت ؟ فقلت ما فعلت شيئاً ، ثم أخبرته بالذى رأيت وذكر أنه حصل له مرة أخرى فتم له مثل الذى حصل في الأولى ، ثم قال : فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشئ من ذلك حتى أكرمنى (١) الله عز وجل بنبوته .

---

(١) ذكر هذه الحادثة ابن كثير في تاريخه . وقال فيها هذا حديث غريب جداً وقد يكون عن على نفسه . وقد يكون قوله في آخره حتى أكرمنى الله بنبوته .... والله أعلم . أ هـ .

نـــزول الوحـــى :

■ إن تلك الطهارة الروحية الكاملة التى كان عليها محمد بن عبد الله قبل نبوته وبعثته هى التى هيأته بإذن ربه تعالى للاصطفاء للنبوة والرسالة فكان بعد الوحى إليه ونزول جبريل عليه نبى الله ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

إنه على رأس الأربعين من عمره المبارك نبئ صلى الله عليه وسلم ، إذ جاءه الحق وهو بغار حراء بعد أن كان قد حبب إليه الخلاء وكان ذلك في شهر رمضان حيث نزل عليه جبريل عليه السلام وهو به فضمه إلى صدره وأرسله ثلاث مرات وهو يقول له : إقرأ ، فيرد قائلاً : ما أنا بقارئ . وفي الرابعة قال : إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

فذهب بها صلى الله عليه وسلم إلى زوجه خديجة رضى الله عنها يرجف بها بوادره ، وهو خائف على نفسه . فهدأت رضى الله عنها من روعه ، وسكنت من اضطراب نفسه وهى تقول له : والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

وانطلقت به رضى الله عنها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى بصره . فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس(١) الذى نزل الله على موسى ليتنى أكون فيها جذعاً . يا ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال صلى الله عليه وسلم أو مخرجى هم ؟ قال نعم : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الأعودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم يلبث ورقة أن توفي فتر الوحى ... وأثناء فترة الوحى تبدى له جبريل عليه السلام في صورته الملائكة وقد سد الأفق ، وله ستمائة جناح ثم أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان منه قاب(٢) قوسين أو أدنى فأوحى الله إليه ما أوحى ، ونزل عليه قوله تعالى « يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » .

الدعـــوة ســـراً :

■ وبعد فترة الوحى التى فترها وكانت سنتين ونصف سنة حمى الوحى وتتابع وآمنت خديجة وورقة بن نوفل أول من آمن برسالة رسول الله ، ثم آمن على بن أبى طالب وكان صبياً في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآمن بعده زيد بن حارثة الكلبى وكان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلى هؤلاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ورقة فإنه مات قبل مشروعية الصلاة ، وكانت قبل الإسراء ركعتين في الصباح وركعتين في المساء لقوله تعالى : (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) ، ثم أسلم أبو بكر رضى الله عنه ، وأسلم بدعوته نفر كريم كان منهم عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ولما استجابوا لدعوته رضى الله عنهم أجمعين أتى بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا وصلوا . فكانت هذه فضيلة لأبى بكر تضاف إلى أخرى قال فيها رسول الله صلى الله غليه وسلم : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ماعكم عنه (تلبث) قال رؤية (وانصاع وثاب بها ولما عكم) حين ذكرته له وما تردد فيه .

---

(١) صاحب سر الملك . الجاسوس في الخير والجاسوس في الشر .

(٢) كناية عن القرب . والقاب : ما بين وتر القوس وطرفه وهو مقلوب الأصل قابا قوس .

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح ، ثم الأرقم بن أبى الأرقم ، الذى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من داره مركزا للدعوة يعلم فيها من آمن من أصحابه ويصلى بهم طيلة ما كانت الدعوة سرا بمكة وبين قريش ، وأسلم في هذه الفترة من النساء غير خديجة أسماء بنت عمير امرأة جعفر بن أبى طالب ، وأمها هند بنت عوف بن الحارث أخت ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج الرسول صلى الله عليه وسلم وأخت لبابة أم الفضل امرأة العباس . وهى والدة عبد الله بن جعفر جواد العرب في الإسلام وتزوجها أبو بكر الصديق بعد استشهاد جعفر بموته فولدت له محمدا ، وتزوجها بعد وفاة أبى بكر على رضى الله عنه فولدت له يحيى ، فما أكثر بركة هذه المؤمنة ، وما أعظم يمنها رضى الله عنها وأرضاها .

واستمرت الدعوة سرا زهاء ثلاث سنوات فأنزل الله تبارك وتعالى قوله :(فأصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) .

الدعــــوة جهـــراً :

■ امتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ربه فجهر بدعوته التى كانت سراً ، ولما رأت قريش ذلك ، لا سيما بعد أن ذكر آلهتهم وعابها ناصبته العداء ، وأجمعت على خلافه وعداوته ووقف أبو طالب إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم يذود عنه ويحميه ، حتى اضطرت قريش إلى إرسال وفدها يفاوض أبا طالب في شأن رسول الله ، ويطلب منه أن يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تسفيه أحلامهم ، وسب آلهتهم ، وعيب دينهم ، أو يخلى بينهم وبينه لينالوا منه . وعرض أبو طالب وجهة نظر وفد قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال صلى الله عليه وسلم(والله يا عم لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو هلك دونه ماتركته). واستعبر رسول الله فبكى ، ثم قام ، فناداه أبو طالب ، إذهب يا أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشئ أبداً .

ولما علمت قريش بعدم خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشت إلى أبى طالب تساومه في الموضوع فقدمت له شـــا با هو أنهد فتى في قريش وأجمله ، وقالت خذ هذا بدل ابن أخيك فاتخذه ولدا واسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك فنقتله فإنما هو رجل برجل ، فرد أبو طالب قائلاً : والله لبئس ما تسومونني ! أتعطونى إبنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ، هذا والله ما لا يكون .

ولما بلغ الأمر هذا الحد ، أظهرت قريش عداءها السافر ، وأخذت تشن حربا ضروساً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه ، وقد كثر عدد هم وتزايد أمرهم فأغرت برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءها فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لا يستخفى به ، مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم . وحدث أن نال أبو جهل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت حين كان أبو جهل يسب ويشتم رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاة لعبد الله جدعان تسمع ، فلما جاء حمزة وكان في قنص أخبرته بما صنع أبو جهل إزاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتمل حمزة الغضب ، وطلب أبا جهل حتى وجده فضربه ضربة عنيفة فشج رأسه وقال له : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟؟ ولما رأت قريش أن حمزة قد أسلم علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه صلى الله عليه وسلم .

■ وكان أول من جهر بالقرآن وأسمعه قريشاً عبد الله بن مسعود حيث اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً وقالوا والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه فقال عبد الله أنا . فأبوا عليه ذلك غير أنه أبى إلا أن يكون هو فذهب في ضحى النهار إلى المسجد فوقف عند المقام ، وقريش في

انديتها حول المسجد وقرأ بأعلى صوته : بسم الله الرحمن الرحيم الرحمن علم القران، ولما سمعت قريش قراءته تأملوها، وجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ ثم قالوا : إنه يتلو بعض ما جاء به محمد · فقاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه ، ولما عاد عبد الله وأثر الضرب في وجهه قال له أصحابه هذا الذى خشيناه عليك · فقال ما كان أعداء الله أهون على منهم الان ، ولئن شئتم لاغادينهم بمثلها غدا · قالوا : لا ، قد أسمعتهم ما يكرهون ولما عز المسلمون بإسلام حمزة رضى الله عنه وعظم أمرهم وكثر عددهم كشرت قريش عن نابها وضاعفت من أذاها للمؤمنين الذين ليس لهم مناعة من قومهم · ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك عرض على المستضعفين الهجرة إلى الحبشة ، فقال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة(١) ·

■ وما زال أذى قريش منصباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أصحابه ، بحيث لا يستطيع أحد من المؤمنين أن يصلى في المسجد الحرام حتى أسلم عمر رضى الله عنه وقاتل قريش حتى صلى حول الكعبة وعندها عز المسلمون بعمر بن الخطاب وأصبحوا يصلون حول الكعبة جهارا نهاراً كما قال عبد الله بن مسعود أن إسلام عمر كان فتحاً وان هجرته كانت نصرا وان إمارته كانت رحمة ولقد كنا نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه · بيد أن قريشاً لما رأت إنتصار المؤمنين بعمر رضى الله عنه جنت جنونها وركبت رأسها وطالبت من أبى طالب وبنى هاشم تسليم الرسول صلى الله عليه وسلم للقتل · ولما فشلت في ذلك أمرت بمقاطعة بنى هاشم مقاطعة تامة فلا يباعون ولا يبتاع منهم ولا يكلمون ، ولا يقدم لهم أدنى مساعدة ولا تقضى لهم أية حاجة وحاصرتهم في شعب أبى طالب ، وكتبت بذلك صحيفة وعلقتها بالكعبة ودام حصارها للرسول صلى الله عليه وسلم وبنى هاشم ثلاث سنوات جاع فيها بنو هاشم حتى أكلوا ورق الشجر ، وقيض الله تعالى رجالا من قريش منهم هشام بن عمرو بن الحارث ، وزهير بن أمية بن المغيرة والمطعم بن عدى فأتوا على الناس وهم حول الكعبة وقالوا : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى ، لا يباعون ولا يباع منهم ، والله لا نقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، وانتهى الأمر بنقض الصحيفة وخروج بنى هاشم والحمد لله ، وعلى أثرها توفي أبو طالب وتوفيت خديجة رضى الله عنها فاشتد الكرب برسول الله صلى الله عليه وسلم وعظم ألمه وحزنه ·

■ ومن سجل التاريخ أنهم عذبوا في ذات الله تعالى من المؤمنين في مكة سمية أم عمار بن ياسر وولدها وزوجها فقد ماتت سمية تحت العذاب قتلها أبو جهل بحربة طعن بها في فرجها ، فكانت أول شهيدة في الإسلام ، كما عذب بلال إذ كان مولاه أمية بن خلف الطاغية الجمحى يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا ، والله لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو في ذلك البلاء أحد .. أحد · وكان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه وكانوا أهل بيت إسلام إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء(٢) مكة فيمر بهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول : (صبرا آل ياسر موعدكم الجنة) ·

• • •

(١) كان عدد المهاجرين ٨٣ رجلاً ما عدا أطفالهم الذين هاجروا معهم ومن ولد في الهجرة ·

(٢) الرمضاء : الرمل الحار من شدة حرارة الشمس ·

الدعوة في دار الهجرة :

■ إنه بعد موت أبى طالب اشتد أذى قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إلى الطائف يطلب نصرة رجال من ثقيف فعمد إلى ثلاثة نفر من سادة ثقيف وهم عبد ياليل بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، وأخوهما حبيب بن عمرو فكلمهم في شأن نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قريش بعد أن دعاهم إلى الله سبحانه وتعالى فأسمعوه ما امه ، والم كل مؤمن إذ قال له الأول : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الثانى : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك . وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لا لانت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك . فقام رسول الله من عندهم وقد يئس من خبر ثقيف .

وواصل رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض نفسه على القبائل العربية في أسواقها وعلى مياهها ، يدعوهم إلى الله تعالى ويطلب النصرة على قومه الذين أذوه وبالغوا في أذاه .

ولما أراد الله تعالى أن يعز رسوله وينصر دينه ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على سابق عادته إلى موسم الحج يدعو إلى ربه ويطلب نصرته على قومه فشاء الله تعالى أن يلقى نفرا من الخزرج عند العقبة فدعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم ما شاء الله من القران فامنوا وأسلموا وكانوا ستة نفر منهم أسعد بن زرارة من بنى النجار ، فلما عادوا إلى المدينة نشروا الدعوة حتى لم يبق بيت إلا فيه ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام .

ولما كان الموسم من العام المقبل ، وأتى الموسم من الأنصار إثنا عشر رجلا ، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة وبايعوه على الإسلام بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا . ولما لم يكن في نصوص البيعة ذكر الحرب قيل فيها بيعة النساء وذلك لعدم فرض القتال يومئذ . ونصوص البيعة هى الواردة في قوله تعالى من سورة الممتحنة : يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين الاية .

■ ولما أرادوا العودة إلى المدينة بعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير رضى الله عنه يقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله ، فذهب معهم ونزل على أسعد بن زرارة رضى الله عنهما ، وكان يؤمهم في الصلاة . (خرج يوما أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير إلى حائط لبنى الأشهل فاجتمع عليهما ناس من المسلمين فسمع بذلك سعد بن معاذ . فقال لأسيد بن حضير ، وكل منهما كان سيدا في قومه : لا أبالك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فأزجرهما وأنههما أن يأتيا دارينا بعد . ولولا أن سعد منا من حيث علمت لكفيتك ذلك . فذهب أسيد بعد أن أخذ حربته ، فلما راه سعد ، قال يا مصعب هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه . فقال مصعب أن يجلس أكلمه . فجاء أسيد ووقف عليهما وقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ، اعتزلا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ؟ قال أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن .. فقال أسيد ما أحسن هذا الكلام وأجمله . كيف تصنعون إدا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ففعل أسيد ذلك ، ودعا أسيد سعد بن معاذ فحضر مجلس مصعب فأسلم وهكذا انتشر الإسلام بالمدينة بإسلام أسعد بن زرارة ووجود مصعب بن عمير وبدخول أسيد بن حضير وسعد بن معاذ في الإسلام فلم تكن إلا أيام قلائل وما في المدينة بيت إلا وفيه إسلام ومسلمون إلا ما قل وندر ..

وما إن دارت السنة دورتها وخرج حجاج المدينة من المسلمين والمشركين إلى موسم الحج ، وخرج معهم مصعب بن عمير رضى الله عنه واتصل مصعب برسول الله صلى الله عليه وسلم مع رجال من أهل المدينة بمكة وواعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (العقبة) أيام التشريق ، وحج الجميع وقضى الحج ، ولما كانت ليلة الميعاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا في نصف الليل يتسللون من رحالهم حتى نزلوا بالشعب عند العقبة ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما هى إلا ساعة وإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، حضر وهو مشرك يومئذ ليطمئن على ابن أخيه ويستوثق له من مسلمى المدينة فيما عاهدوه عليه . وتمت بيعة العقبة الثانية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين نحو من ثلاثة وسبعين رجلاً من الخزرج والأوس وكانت البيعة بعد أن تكلم العباس أول متكلم فقال : يا معشر الخزرج : إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومتعة في بلاده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه . فقال الخزرج قد سمعنا ما قلت : فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ..

■ فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا إلى الله تعالى ورغب في الإسلام ، ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون به نساءكم وأبناءكم وإلى هنا قام البراء بن معرور رضى الله عنه فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا[1] وقاطعه أبو الهيثم بن التيهان قائلا يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم[2] الدم الهدم الهدم . إنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . ثم خطب العباس بن عبادة الأنصارى فكرر ما قاله ابن عبد المطلب تقريبا . فقال أهل المدينة إنا نأخذه ـ رسول الله ـ على مصيبة المال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك يا رسول الله ؟ قال الجنة .

عندئذ قالوا أبسط يدك يا رسول الله نبايعك فبسط صلى الله عليه وسلم يده فبايعوه ، واختار منهم إثنى عشر نقيبا وهم : أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورابع بن مالك والبراء بن مرور ، وعبد الله بن عمرو بن خزام وعبادة بن الصامت بن قيس ، وعبادة بن الصامت بن دليم بن حارثة ، والمنذر بن عمرو ابن خنيس . وهؤلاء من الخزرج .

ومن الأوس : اسيد بن حضير بن سماك ، وسعد بن خيثمة بن الحارث ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير . وعاد أهل البيعة إلى المدينة ولم يتخلف منهم إلا سعد بن عبادة حيث أسرته قريش ، وذلك أن قريشاً لما بلغها بيعة أهل المدينة للرسول صلى الله عليه وسلم على حربها طلبت أهل البيعة فلم تدركهم حتى تحملوا راحلين فنجوا إلا سعدا أدركته فأسرته فهو في أسرها حتى أطلقه الله تعالى من أسرها بواسطة جبير بن مطعم بن عدى بعد أن عذبته قريش العذاب الشديد .

■ وما إن وصل المبايعون المدينة حتى انتشر خبر البيعة في ربوع المدينة وتحولت فعلا المدينة إلى دار إسلام وقلعة من قلاعه ، وعندئذ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يهاجروا إليها فهاجروا ار سالا ، ولحق بهم

---

(١) أزرنا ، كناية عن النساء . إذ الازار يكنى به عن المرأة .

(٢) الهدم كناية عن الحرمة فمعنى الحديث ، ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم أهل الهدم الدار تهدم وقد كانت تحوى الحرمات وتحوطها ...

مهاجروا الحبشة كذلك وانتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ربه بالهجرة حين جاء الإذن فخرج مع أبى بكر الصديق مهاجراً إلى المدينة ، وكان في هجرتها آيات منها ما كان في غار ثور ومنها في شاة أم معبد ، ومنها مع سراقة بن جعشم ·

■ أما غار ثور فقد أعمى الله تعالى المشركين عن رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه فيه · وهم يقلبون الحجارة حجراً حجراً بحثاً عنه صلى الله عليه وسلم ، ولم يروه ، إذ العناكب نسجت(١) على فم الغار والحمامة عششت وبيضت في الحال مما جعل المشركين لا يشكون أن بالغار أحداً وهم يمرون به في كل لحظة متتبعين الآثار ، حتى قال أبو بكر : لو أن أحداً نظر إلى قدمه لرآنا ، فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً : ما ظنك(٢) بإثنين الله ثالثهما يا أبا بكر ، وفي القرآن الكريم ألا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ··

وأما شاة أم معبد فالآية فيها أنها كانت في درها بعد أن كانت لا تحلب لما أصابها من جهد السنة الشهباء ، إذ مر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة جلدة برزة تختبئ بفناء بيتها وتطعم وتسقى من يمر بها · فسألها : هل عندها شئ يشترونه منها ؟ فقالت : والله لو كان عندنا شئ ما أعوزكم القرى ، والشاة عازب · فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر البيت · فقال ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ فقالت : هى أجهد من ذلك ، قال : أفتأذنين لى بحلبها ؟ قالت : قم بأبى وأمى ، إن رأيت بها حليباً فاحلبها ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله ، وقال اللهم بارك لها في شاتها ، فتفاجت ودرت واجترت ، فدعا بإناء لها يربض(٣) الرهط فحلب فيه حتى علته الرغوة ، فسقاها فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب صلى الله عليه وسلم آخرهم فشربوا جميعاً عللا بعد نهل ، ثم حلب فيه انية حتى ملأ الإناء فغادره عندها ثم ارتحلوا عنها · وجاء زوجها فوجد عندها اللبن فعجب وقال من أين لك هذا ؟ والشاة عازب ولا لحلوبة بالبيت ، فقالت أنه مر بنا رجل(٤) مبارك كان حديثه كيت وكيت · فقال زوجها أبو معبد والله أنى لأراه صاحب قريش الذى تطلبه ، صفيه لى يا أم معبد فوصفته له ، فقال هذا والله صاحب قريش ، ولو كنت وافقته لالتمست أن أصحبه ، ولا فعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا ·

■ أما سراقة فالآية فيه أنه لما بلغه أن قريشاً جعلت مائة بعير لمن يرد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً أو ميتاً ركب فرسه وحمل سلاحه وخرج في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أن سار وجدّ به السير حتى أخذ فرسه يعثر في الأرض وكلما عثر الفرس سقط سراقة على الأرض · وهكذا عدة مرات فلما رأى أنه دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفاقه عثر الفرس وذهبت يداه في الأرض وسقط سراقة عنه ، ورأى دخاناً كالإعصار فعرف حين رأى ذلك أنه الرسول صلى الله عليه وسلم قد منع منه وأنه ظاهر لا محالة · فنادى : أنا سراقة بن جعشم أنظرونى أكلمكم، فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شئ تكرهونه · ولما عاد سراقة خائباً لامه أبو جهل فأنشده الأبيات التالية :

---

(١) خبر نسج العنكبوت وتعشش الحمامة ذكره البزار ومسنده ·

(٢) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد ·

(٣) يشبع الجماعة ·

(٤) أصبح آل أبى معبد يؤرخون به فيقولون بعد أن جاءنا الرجل المبارك أو بعد أن رأينا الرجل المبارك ·

أبا حكم والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادى اذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمدا ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه ؟
عليك بكف القوم عنه فاننى ... أرى أمره يوماً تبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طرا يسالمه

ومن أولى آيات الهجرة أنه لما خرج رسول الله وصاحبه من الغار ولم يعرف أين كان اتجاههما جاء رجل من الجن من أسفل مكة وأخذ يتغنى بالأبيات التالية من الشعر ، والناس يتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... فيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر حيث تروحا(١) ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا اختكم عن شاتها وانائها ... فانكم ان تسألوا الشاة تشهد
فيا لقصى ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا يجازى وسؤدد
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبر وأوفي ذمة من محمد

■ ووصل الرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبى بكر الصديق المدينة ودخلها من جنوبها حيث نزل بديار بنى عمرو بن عوف بضاحية قباء وكان ذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول فأقام بها خمسة أيام دعا فيها إلى الله تعالى وتلا القرآن وعلم المؤمنين دين الله تعالى وصلى بالناس ، وبنى مسجد قباء فكان أول مسجد بنى في الإسلام وترك منازل بنى عمرو بن عوف قاصداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة فصلاها في حى بنى سالم بن عوف بالمسجد الذى يعرف الآن بمسجد الجمعة بواد يقال له (رانوناء) فكانت أول جمعة تصلى في دار الهجرة وعرضت له رجالات أحياء الأوس والخزرج كل يطلب النزول إليه ويقول : أقم عندنا في العدد والعدة والمتعة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يأبى عليهم ذلك ، وكلما اعترضوا ناقته لينيخوها بأحيائهم يقول لهم دعوها فإنها مأمورة حتى وصل إلى حى بنى النجار من أخواله(٢) فبركت الناقة وألقت بجرانها(٣) في المكان الذى بنى فيه المسجد النبوى الشريف على مقربة من دار أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى رضى الله عنه والذى نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيفاً وبقى بمنزله حتى بنيت الحجرات الشريفة فسكنها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بناء مسجده الشريف والذى شارك في حمل حجارته وهو يرتجز يقول : **اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة.. فاغفر للأنصار والمهاجرة ..**

وعمار بن ياسر يرتجز ويقول :

لا يستوى من يعمر المساجدا ... يدأب فيه قائما وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

---

(١) وردت رحلا من الرحيل .

(٢) لأن أم عبد المطلب والد عبد الله أبى الرسول صلى الله عليه وسلم أمه سلمى بنت عمرو من بنى عدى بن النجار .

(٣) الجران ما يصيب الأرض من صدر البعير وبطنه .

ففهم أحد الصحابة أنه يعترض به فهدده بالضرب فغضب لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : مالهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار .

■ ودخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه بحمل اللبن فقال يا رسول الله قتلونى يحملون على مالا يحملون فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض وفرته بيده وهو يقول : ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية .

ولم تدر السنة حتى استجمع للرسول صلى الله عليه وسلم إسلام الأنصار فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهله إلا ما كان من ثلاث أو أربع بيوتات من الأوس فإنهم بقوا على شركهم ، وتم بناء المسجد والحجرات في خلال تلك السنة ، وأول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة تلك التى رويت عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ونصها : أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال أما بعـد ... أيها الناس فقدموا لأنفسكم . تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ واتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

وخطب مرة أخرى أيضاً فقال : ان الحمد لله ... أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد أفلح من زينه الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، قد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم إن الله يغضب أن ينكث عهده . والسلام عليكم .

ومن أجل ما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأعمال في مجال الدعوة بالمدينة بعد بناء المسجد وجمع المؤمنين فيه للصلاة والتربية والتعليم هو كتابه الذى كتبه بين المهاجرين والأنصار ، وقد ضمنه موادعنه يهود المدينة ، ومعاهدتهم وإقراره لهم على دينهم وأموالهم ، وما شرط لهم واشترط عليهم وهو كتاب يقع في أكثر من ثلاث صفحات تضمن خطوطاً سياسية اصلاحيةحربية وسلمية لا نظير لها في معاهدات الناس وكتاباتهم في هذا الشأن بحال من الأحوال ، وهو في كتاب السيرة لابن هشام .

■ ومن أجل الأعمال كذلك مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار حيث قال في مجمع حاشد من المهاجرين والأنصار : تآخوا في الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال هذا أخى ... فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين وهكذا حتى لم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلا آخى أحداً وآخاه ، والله أكبر ماذا نتج عن هذه المؤاخاة من الخير والبركة الأمر الذى لا نظير له ولم تعرف الدنيا له مثيلاً . كل ذلك في نطاق الدعوة إلى الله تعالى التى يجب أن يتخذ لها كل الأسباب الكفيلة ببلوغها وانتشارها وانتصارها وإسعاده للناس عليها في الدنيا والآخرة .

وبعد هذه الخطوات الجبارة التى خطاها الرسول صلى الله عليه وسلم في مضمار الدعوة بدار الهجرة اتسع الطريق أمامه فداه أبى وأمى ، فضاعف الجهود ، إذ نجم النفاق بين سكان المدينة من عرب مشركين ويهود على حد سواء ، وأخذت التجمعات والتكتلات ضد الرسول والمؤمنين تظهر هنا وهناك وتبعتها الاتصالات بالعدو بمكة ، وعظم الأمر ، واشتد الخطب ووقف الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وقفة البناء الشامخ والجبال الراسية فلا تزعزع ولا تضعضع . ولكن الجهاد بالسيف والمال والقال والحال حتى نصر الله أولياءه وخذل أعداءه ولكن ما بين ذلك من الأحداث الجسام والأعمال العظام مالا يأتى عليه وصف !! وليراجع له كتب السير والمغازى فإنه كان العجب العجاب في حياة الدعوة بالمدينة وحياة سيد الدعاة بها صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً

الصورة المثالية في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم :

■ إن الصورة المثالية الكاملة في شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تتجلى في خلقه وفي خُلُقه معاً وهى بالغة في كل منهما منتهى الكمال ، والحمد لله واهبه والمتفضل به . أما في خلقه صلى الله عليه وسلم فإن أصحاب السير وجميع كتب من كتب في السيرة المحمدية مجمعون على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أكمل الناس ذاتاً ، وأجملهم وجهاً ، وأحسنهم قداً واعتدالاً ، ولنترك الرواة الصادقين يصفون لنا الذات المحمدية كما رأوها وعرفوها . فقد روى مسلم عن البراء أنه قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً مربوعاً بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه ، عليه حلة حمراء ما رأيت شيئاً قط أحسن منه صلى الله عليه وسلم .

كما روى مسلم عن أنس رضى الله عنه أنه قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون كأن عرفه اللؤلؤ ، إذا مشى تكفأ ، ولا مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت مسكه ولا عنبره أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الحسن بن على رضى الله عنهما سألت هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان وصافاً ، وأنا أرجو أن يصف لى منها شيئاً أتعلق به فقال :

■ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ، أطول من المربوع وأقصر من المشذب « البائن الطول » عظيم الهامة رجل الشعر أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب ، سوابغ من غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرينين ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، أدعج ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، كان عنقه جيد دميه في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادناً متماسكاً ، سواء البطن والصدر بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس (رؤوس العظام) أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، سائل الأطراف ، عبل الذراعين (غليظهما) خمصا الأخمصين ينبوعهما الماء ، إذا زال زال تقلعاً ، ويخطو تكفؤاً ، ويمشى هوناً ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام .

وأما في خلقه العظيم فإنه بأبى هو وأمى كان مثالاً من أمثلة الكمال البشرى ، فلا يسامى في أخلاقه ولا يدانى بحال فهو فريد دهر الدنيا ووحيد عصرها .

حلف الزمان ليأتين بمثـله　　　حنثت يمينك يا زمان فكفرى

وها نحن نستعرض شذرات(١) من ذهب كماله في كل مجالات حياته الأخلاقية والنفسية والعقلية لنقف على عين الحقيقة ، ونعرف الكمال المحمدى الذى كان به سيد الدعاة الصالحين وأمامهم أجمعين .

في عفـوه وحلمـه :

■ إن العفو كالحلم كلاهما من الأخلاق الإنسانية الفاضلة . وان الاستقصاء للشمائل المحمدية غير محتمل أصلاً ، ولقد أحسن من قال :

انما مثـلوا أصفائك للناس　　　كما مثل النجوم الماء

ولذا فإننا نكتفى دائماً بنماذج لذلك الكمال المحمدى في كل مظهر من مظاهره . ومن شمائل الحلم والعفو عنده صلى الله عليه وسلم نذكر الأمثلة الثلاثة الآتية :

١ ـ صح أنه كان صلى الله عليه وسلم في غزاة فأعطى رجاله فرصة للاستراحة فيها فانتشروا في واد يستريحون تحت ظلال أشجاره ، وأتى هو شجرة فعلق صلى الله عليه وسلم سيفه في أحد أغصانها ونام فجاء أعرابى من المشركين فاخترط السيف وقال للرسول صلى الله عليه وسلم من يمنعك اليوم منى يا محمد ؟ فرفع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وقال : الله ... فارتاع الرجل وسقط السيف منه ، فتناوله الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك أنت الآن منى ؟ فقال الأعرابى لا أحد ... فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف . إن هذا لهو العفو بعد المقدرة الذى يستحق صاحبه الإجلال والإكبار ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ذاك .

٢ ـ قسم صلى الله عليه وسلم مالاً بين أصحابه فجاءه أعرابى فجذبه من طرف ردائه وقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما زاد على أن قال : ويحك من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

٣ ـ دخل أعرابى المسجد ، واضطرته الحاجة إلى التبول فانحنى ناحية من المسجد وأخذ يبول ، فانتهره أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، وصاحوا فيه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه لا تزرموه (أى لا تقطعوا عليه بوله) فتركوه حتى قضى بوله ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلو من ماء فصبه عليه . فحلم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا أنطق الأعرابى فقال : اللهم ارحمنى وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : لقد تحجرت واسعا يا أخا العرب .

رجاحـة عقلـه :

■ من الكمالات المحمدية رجاحة عقله صلى الله عليه وسلم ، ولنورد برهاناً على ذلك أربعة مواقف كانت له

---

(١) الشذرة والجمع شذرات بالتحريك وشذور قطع الذهب تلتقط من معدنه .

صلى الله عليه وسلم إثنان منها في عهد ما قبل الإسلام ، وإثنان في عهد الإسلام وهى أربعة مواقف من عشرات أو مئات المواقف كل موقف منها دال على ما أوتى صلى الله عليه وسلم من رجاحة العقل وكمال الإدراك .

فالأول :

■ هو حضوره صلى الله عليه وسلم حلف الفضول وقوله فيه : لقد حضرت حلف الفضول بدار عبد الله بن جدعان . وما أحب أن لى بحلف حضرته في دار عبد الله بن جدعان حمر النعم ولو دعيت به لأجبت(١) إن هذا الحلف عقد على أساس نصرة المظلوم والوقوف إلى جنبه حتى يؤخذ له الحق ممن ظلمه ، فحضور النبى صلى الله عليه وسلم هذا الحلف مؤيداً له مغتبطاً به ، حتى قال : ما أحب أن لى به حمر النعم ، دال على كمال عقله صلى الله عليه وسلم ورجاحته ..

والثـــانى :

■ حكمه صلى الله عليه وسلم بأن يوضع الحجر الأسود في ثوب ، ثم تأخذ بأطرافه القبائل القرشية حتى إذا بلغ الحجر مكانه من جدار البيت تناوله هو ووضعه في موضعه ، وكذلك فعل حتى قضى بذلك على فتنة متوقعة وخصومة قائمة من أشد الخصومات أوشكت أن تزهق فيها الأرواح ، فدل تصرفه الحكيم هذا على رجاحة عقله وكماله الذى أهله لأن يكون أكمل الناس عقلاً بلا منازع .

والثـــالث :

■ أنه لما دخل مكة يوم الفتح منتصراً ووجد رجالات قريش قد تجمعوا حول الكعبة ينتظرون حكم الفاتح المنتصر عليهم ماذا يفعل بهم ، ناداهم قائلاً : يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : إذهبوا فأنتم الطلقاء ..

إن هذا الموقف المثالى في تاريخ العظماء ينم فعلاً على ما أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من رجحان العقل وكماله ، الأمر الذى أصبح به مثلاً عالياً في هذا الشأن .

والرابـــع :

■ إنه تنازله لقريش على كتابة لفظ الرحمن الرحيم ، وعلى لفظ رسول الله في كتابة وثيقة المعاهدة التى أبرمها مع قريش عام صلح الحديبية ، إذ أمر الكاتب أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال ممثل قريش الدبلوماسى سهيل بن عمرو أمسك . لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل أكتب باسمك اللهم . فتنازل عن ذلك وكتب باسمك اللهم . ولما قال للكاتب أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله قال ممثل قريش : أمسك لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن أكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، فتنازل عن ذلك وكتب ، في حين أن أصحابه وعلى رأسهم عمر وعلى رضى الله عنهم قد كرهوا ذلك وأبوا أن يفعلوه ، ورأوا أنه إعطاء للدنية في دينهم .

غير أن النتائج الطيبة التى عقبت ذلك التنازل دلت على قصر نظر القوم ، وبعد نظر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكمال عقله ورجاحته ، الأمر الذى كان به مضرب المثل في كمال العقل وحسن السياسة وكمال التدبير

---

(١) عبارة ابن هشام : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم . ولو أدعى به في الإسلام لأجبت .

رحمتـــــه :

■ إن الرحمة التى كان يحملها قلب محمد صلى الله عليه وسلم كانت رحمة مثالية لم يحظ بها أحد من الناس ، ولم تكن وصفاً في كمالها لغيره صلى الله عليه وسلم وها نحن نعرض لبعض مظاهرها التى تجلت فيها فنقول : رفع إليه ولده إبراهيم وهو مريض يجود بنفسه فوضعه بين يديه وبكى صلى الله عليه وسلم وقال : أن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

وزار مرة قبر أمه فوقف عليه وبكى طويلاً وانصرف وهو يقول : استأذنت ربى في أن استغفر لها فلم يأذن لى ، واستأذنته في أن أزر قبرها فأذن لى .

ولما فتح صلى الله عليه وسلم حصن بنى أبى حقيق من خيبر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيى بن اخطب وبامرأة أخرى ، فمر بهما بلال على قتلى يهود ، فلما رأتهم الجارية التى مع صفية صاحت وصكت وجهها ، وحثت التراب على رأسها ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الجارية ما رأى قال أنزعت منك الرحمة يا بلال تمر بالمرأتين على قتل رجالهما ؟

هذا ولم تكن رحمته صلى الله عليه وسلم قاصرة على بنى الناس مؤمنهم وكافرهم فحسب بل دعت ذلك إلى الحيوانات ، فقد قال وهو يقرر الرحمة ويحض عليها ويورثها في القلوب في كل ذات كبد رطبة أجر ، ويقول عذبت امرأة في هرة أوثقتها فلم تطعمها ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت وقال بينما كان كلب يطيف بركيه كاد يقتله العطش إذ رأته امرأة بغى من بغايا بنى إسرائيل ، فنزعت موقها فسقته فغفر الله لها به .

كرمـــــه :

■ إن الكرم النفسى الذى يتحلى به الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأتى عليه الوصف ، وكيف يوصف كرم من لم يسأل شيئاً طول حياته وهو في حوزته فقال لا أبداً . خرج يوماً وعليه حلة من أجمل الحلل وأبهاها فرآه أحد أصحابه ، فقال يا رسول الله أعاينها فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فخلعها وآتاه بها فأعطاه إياها . ولم يسأله له ؟ وكان قصد الرجل السائل أن تمس جلده بعد أن مست بشرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ير ه في ذلك من البركة .

وجاءه مرة رجل يسأل مالا ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع الرجل إلى قومه وقال يا قوم اسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفقر أو قال من لا يخشى الفاقة .

وبايع مرة جابر بن عبد الله رضى الله عنهما في جمل له ، قد كل من السفر فباعه إياه بكذا مائة درهم ، ولما جاء يتقاضاه الثمن أعطاه الثمن والجمل معاً الله أكبر فماذا عسانا أن نذكر .. هذا من كرم محمد صلى الله عليه وسلم ، إنه بحق أكرم من على الأرض بلا نزاع ...

عـــدله :

■ إن المثالية في عدل محمد صلى الله عليه وسلم والعدل خلق من أخلاق النفس الكاملة ، تتجلى في مواقف عديدة كانت له صلى الله عليه وسلم وإنا لنكتفى منها بذكر موقفين فقط الأول : أنه لما سرقت المخزومية وجاء

أسامة بن زيد حب رسول الله وابن حبه جاء مدفوعاً برجالات قريش ليشفع لها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسقط عنها حد السرقة وهو قطع يدها . قال له الرسول صلى الله عليه وسلم وهو غضبان : أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها .

■ وثانيهما أنه صلى الله عليه وسلم عدل صفوف أصحابه المجاهدين في وقعة بدر ، وكان بيده قدح من القداح يعدل به الصفوف للقتال ، فرأى سواد بن غزية حليف بنى عدى بنى النجار متقدماً على الصف فطعن في بطنه بالقدح الذى بيده وقال استو يا سواد ، فقال يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فاقدنى من نفسك ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال استقد .

إن في هذين الموقفين من مظاهر العدالة مالا يقادر قدره .

شجاعته :

■ إن شجاعة قلب النبى صلى الله عليه وسلم لم تكن أقل من شجاعة عقله ، إنه قد بلغ فيها بحق المثالية التى لا توصف ، وناهيك في إثبات هذا الخلق العظيم أن يقول أفذاذ الأبطال كعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام وخالد بن الوليد وغيرهم ممن عرفوا بالبطولات النادرة ، والشجاعات الفذة أن يقولوا : كنا إذا حمى الوطيس واشتد البأس نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم نتقى به .

وشاهد آخر : قد انهزم الجيش الإسلامى يوم حنين هزيمة منكرة وتفرق رجاله هاربين في كل واد ، ويثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم كالجبل الأشم في الميدان يقاتل وحده وينادى أصحابه فثابوا إليه وقاتلوا معه حتى انتصروا وهزموا أعداءهم شر هزيمة .

وشاهد آخر على شجاعته صلى الله عليه وسلم هو شهادة أنس بن مالك بقوله كما روى ذلك مسلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً ، وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس أبى طلحة عرى في عنقه السيف وهو يقول لم تراعو لم تراعوا .

وحسبنا دليلاً على شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين ، فلولا علم الله تعالى بما وهب رسوله من الشجاعة التى لا توجد عند غيره لما كلفه بأن يقاتل وحده ...

إن شخصاً يكلف بالقتال وحده ، وقتال من ؟ إنه قتال كل أهل الكفر على الأرض ، وما على الأرض يومها إلا كافراً باستثناء تلك الحفنة المؤمنة من أصحابه رضى الله عنهم لشخص هو من أشجع من طلعت عليه الشمس وغربت في دنيا الناس . ذلك هو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

■ وأخيراً : إن هذا الكمال الخلقى الذى أصبح به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل إنسان وأفضله وأعظمه على الإطلاق ، الأمر الذى أهله بحق لأن يكون مثالاً أكمل للدعاة الصالحين ونموذجاً نادراً بين كل دعاة الحق والخير في دنيا الدعوة والدعاة ، إنما هو مستمد من مصدر كل كمال ، ونابع من فيض ربانى لا يعرف النضوب ولا يغيض ، ولكنه سلسبيل متدفق لا يقف ولا ينتهى ذلكم هو القرآن الكريم الذى استمد منه محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم كماله النفسى والخلقى فكان مثالاً للكمال البشرى في هذه الحياة ولقد صدقت أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن .

وها هى ذى أوصافه صلى الله عليه وسلم في القرآن تلك الأوصاف التى استحق بها أن يكون خير الدعاة بل سيدهم وإمامهم ولا فخر ، فلنورد ما ذكرا ولنورد الخاطر عليها وردا .

وصفه ربه تعالى بكمال الخلق وعظمته فقال من سورة القلم ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجر غير ممنون « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ووصفه بكامل الرأفة وعظيم الرحمة بما لم يصف به غيره من صالحى عباده فقال تعالى من سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

ووصفه بكمال العدالة ، وحمل شرف الرسالة ، وقوة الهداية فقال تعالى من سورة الأحزاب : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً مبينا » .

ووصفه بالمزكى للنفوس المهذب للأخلاق والمثقف للعقول المطهر للأرواح فقال من سورة الجمعة : « هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم أياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

ووصفه بأنه برهان على نفسه في إثبات رسالته وتقرير نبوته وكمال هدايته لخلقه قال الله تعالى من سورة النساء : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » .

ووصفه بكمال الشجاعة وقوة الاعتصام بالله والتوكل عليه فقال من سورة النساء والأعراف : « فقاتل في سبيل الله لاتكلف إلا نفسك» .وقال «قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

ووصفه بكمال العبودية له وشرفه باختصاصه به دون سواه من سائر عباده الصالحين فقال تعالى من سورة الجن « وانه لما كان عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » وقال من سورة الإسراء : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » .

ووصفه بأنه الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر المحل للطيبات المحرم للخبائث وهى صفات عظيمة وكمالات عديدة مازه بها وفضله بمثلها تعظيماً له وتكريماً فقال تعالى من سورة الأعراف : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث .

هذه بعض صفات الكمال المحمدى في القرآن الكريم وغيرها كثير اكتفينا بها إشارة إلى أن الكمال المحمدى في النفس والخلق إنما هو مستقى من فيض القرآن الذى هو ينبوع الكمالات وبحر الفيوضات ، وها نحن نذكر طرفاً آخر مما أدب الله تعالى رسوله فكمله وللمعالى أهله ورفعه فجعله أسوة للمؤمنين وقدوة للصالحين ، ولنعرف بذلك سر الكمال المحمدى الذى أصبح به أنموذج للدعاة الصالحين ، وأفضل الخلق أجمعين .

قال تعالى له وهو يؤدبه « خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين وأما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم (الأعراف) .

وقال له : « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

وقال له : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

وقال له : فاصبر على مما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل وأطراف النهار لعلك ترضى ، ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها .. » .

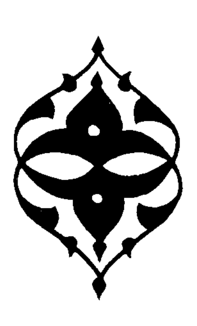
وقال له : « ولا تقولن لشئ أنى فاعل ذلك غدا إلا إن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدنى ربى لأقرب من هذا رشدا » .

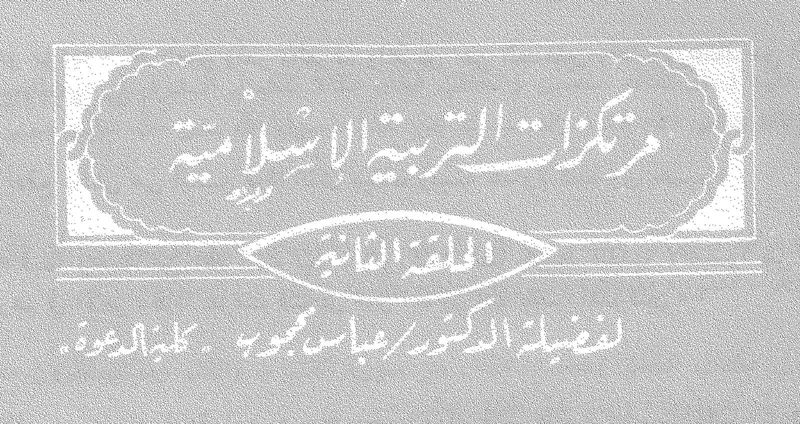
وقال له:«إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أثما أو كفورا واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلا » .

وقال : « يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما ، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

وقال له : « وان أحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » .

وقال له : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون أنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين » .





ثالثاً : مرتكز العلم

■ يقول الله تعالى في محكم التنزيل : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين ، الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبير وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليما »(١) .

فالقرآن هو كتاب الهداية والتربية وهى هداية وتربية لا تختص بجيل دون جيل أو قوم دون قوم ولا بزمان ومكان معينين ولكنها هداية أجيال من البشر وأقوام من الناس باختلاف الأزمنة والأمكنة ـ على منهج الخير ومنهج الله لذا كان استعمال الفعل المضارع « يهدى » الدال على الحال والمستمر في المستقبل ، وهداية الله وتربيته لا تتأثران بالرأى ولا تنقادان مع الهوى ولا تميلان مع المودة والشنآن ولا تخضعان للمصالح والأغراض لأنها هداية وتربية خالق الكون وفاطر السموات . وتشمل هذه التربية عدة مجالات هى :

أولاً : مجال العقيدة : فهى تهدى إلى عقيدة واضحة بسيطة لا غموض فيها ولا التواء ، تحرر الروح من الأوهام والأساطير والخرافات وتحرر طاقات البشر للعمل والبناء وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق .

ثانياً : في مجال الإنسان : تهدى الإنسان إلى التناسق بين مظهره ومخبره وسلوكه ودوافعه وبين النظرية في الإيمان والتطبيق في الواقع الأمر الذى يجعل الإنسان يسمو بنفسه إلى عالم أفضل وأحسن ويترجم أعماله كلها إلى عبادات حتى ولو كانت من متع الحياة مادام ـ المقصود بها وجه الله تعالى .

ثالثاً : في مجال العبادة : هى هداية وتربية إلى عبادات سهلة بسيطة تتوازن فيها طاقات الإنسان والتكاليف التى أمره الله بها . بحيث لا تتعارض التكاليف مع طاقة الإنسان وقدراته وبحيث يكون التوازن بينهما محفوظاً بنسبة ثابتة « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ثم « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » .

والموازنة الدقيقة بين التكاليف والواجبات هى التى تجعل هذه التكاليف سهلة معقولة لا مشقة فيها فتملها النفس وتيأس منها الروح ولا سهولة فيها بالدرجة التى تجعل المرء يستهونها ويستهتر بها فهى وسط لا تتجاوز حدود الطاقة والاحتمال ، والقصد والاعتدال .

---

(١) الإسراء ٩ .

رابعاً : في مجال الجماعة والدولة :

■ للإسلام هدايته وتربيته للدولة من القاعدة ممثلة في الأمة الإسلامية إلى القمة ممثلا في الحاكم أو الراعى وتوجيهه في نظامه الأساسى الذى يشمل :

١ ـ نظام الحكم .
٢ ـ نظام الاقتصاد والمال .
٣ ـ النظام الاجتماعى .
٤ ـ نظام التعامل الدولى .

أما تربيته للجماعة فتشمل علاقة الناس بعضهم ببعض والضوابط الاجتماعية التى تحكم الأفراد والأسر والدول والأجناس والاباء والأبناء وغير ذلك من مجال العلاقات(١) .

وقد ذكرنا أن العقيدة الإسلامية لا تتعارض مع القوانين العلمية والنواميس الكونية ولابد لهذا أن تكون الناحية العلمية أساسا من الأسس التى تقوم عليها التربية الإسلامية .

إن القوانين العلمية التى بنيت عليها التربية الإسلامية ليست هى قوانين علم من العلوم النفسية أوالاجتماعيةأوالطبيعية أو غيرها فحسب وإنما هى مبنيَة على مجموع العلوم والحقائق وأهمها نظرة الإسلام لقوانين الكون والحياة ولكننا سندرسها من خلال تحديد الدكتور الكسيس كاريل الذى يرى أن القوانين الأساسية التى تقوم عليها الحياة الإنسانية تنحصر في ثلاثة قوانين هى قانون المحافظة على الحياة ، وقانون تكاثر النوع ، وقانون الارتقاء العقلى والروحى(١) .

■ أما بالنسبة لقانون المحافظة على الحياة فإن الإسلام يدعو إلى المحافظة على حياة البشر ويذم كل أمر يؤدى إلى إبادة هذه الحياة أو قتلها ومن هنا كان تحريم الإسلام للقتل والزنا والسرقة وشرب الخمر والكذب والزور والربا وما إلى ذلك لأنها إذا نظرنا إليها جميعها وجدناها وسائل هدم للحياة وقتل لها كما أن الإسلام يدعو إلى ما يثرى هذه الحياة ويقويها ويحقق للإنسان الأمن والاستقرار والهدوء فينصرف إلى أداء رسالته في الحياة وعلى قمة هذه الإيمان بالله وعدم الشرك به في أى مظهر من مظاهره وطاعة الوالدين والإحسان إلى الناس وترجمة ذلك كله في المعاملة والسلوك والاقتصاد والتوسط في أمور الحياة والعدل والوفاء بالعهد وحفظ المواثيق وما إلى ذلك من كل أمر دعا الإسلام إليه للمحافظة على الحياة وإنمائها وازدهارها .

■ إن الإيمان بالله وحده وعدم الإشراك به يمثل أول عنصر في عناصر المحافظة على الحياة إذ أن الإيمان هو الذى يعطى الإنسان الأمن والاستقرار والسكون الأمر الذى يدفعه إلى العمل والإنتاج وإثراء الحياة وتعمير الأرض والتعايش بسلام مع الآخرين جماعات أو دولا ونقيضه الإشراك بالله واتخاذ الآلهة دونه باعتبار الإشراك بالله العنصر الأول في إبادة الحياة وقتلها إذ أن العقل لا يقبل ولا يستقر على الاستسلام بأن لهذا الكون بنظامه الدقيق من تعاقب الليل والنهار والمد والجذر في البحار والتوافق بين العناصر التى يتألف منها جسم الإنسان والعناصر التى تكون التربة الزراعية وغيرها لا يقبل العقل إلا أن يكون الموجد واحداً والمنظم واحداً والقوانين التى أودعها الكون واحدة كما أنه لا يقبل الشريك إذ أن الشراكة في الخلق تعنى التنافس والتطاحن والتباين والاختلاف والعجز والفساد ثم يترتب على ذلك اضطراب الحياة وفقدان الطمأنينة والاستقرار والأمن والنظام ، وإذا فقد الإنسان ما يؤمن به حقا ويحتاج إليه دوما ويستنجد به متى أراد ويدعو متى احتاج وهو متيقن من النجدة والإجابة ـ فقد الطمأنينة والأمن وفقد الدافع للحياة فضلاً عن المحافظة عليها وفقدان الدافع والداعى يؤديان إلى قتل الحياة وتدميرها (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .. الانبياء ٢٢

(١) راجع سيد قطب في ظلال القرآن ص ١٦ ج ١٥ وما بعدها ج ١٥ المجلد الخامس .

(٢) تأملات في سلوك الإنسان ص ٤٧ .

■ يقول الله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار أيتين فمحونا أية الليل وجعلنا أية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلاً ، وكل إنسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا » .

إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا .

فالوجود كله وما فيه من حركة وسكون لم يترك للصدفة فالليل والنهار أيتان من أيات الله المتجددة الدقيقة والليل جعله الله للهدوء والراحة والنوم والنهار للجد والكدح والسعى ومن تعاقب الليل والنهار علم الناس حساب الساعات والأيام والشهور والفصول ، وبهذا الناموس الإلهى ارتبط العمل وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ومسئولية فردية جعلت الإنسان يختار بين الهدى والضلال والطاعة والمعصية ولا يتحمل أحد وزر أخيه لأنها مسؤولية فردية كما ذكرنا .

أما المبادئ التربوية التى تبين طرق الهداية وتربط قواعد السلوك والتكاليف الفردية بالعقيدة فإنها تتمثل في الأحكام والنظم والقيم التى دعا الإسلام المسلم إلى التمسك بها حتى تتحقق له الهداية واقعاً ويرقى بآدميته في الخلق والسلوك وهذا ما تضمنته الآية (وكل شئ فصلناه تفصيلا) فما هى النظم التى دعا إليها مما يهدى للتى هى أقوم ؟ .

■ يقول الله تعالى : « لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ، ربكم أعلم بما في نفوسكم أن تكونوا صالحين فإنه كان الأوابين غفورا وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا واما تعرضن عنهم إبتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ، إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أنه كان بعباده خبيرا بصيرا ، ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم أن قتلهم كان خطئاً كبيرا ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده واوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا . واوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ولا تمشى في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها »(١) .

■ ويقول تعالى أيضاً : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون(٢) .

الآيات السابقة من سورتى الأنعام والإسراء تبين تكاليف الهداية والأوامر والنواهى التى يربى بها الله عباده ونلاحظ أن هذه الآيات قد اتفقت في عدد من التكاليف الفردية والاجتماعية التى تؤدى إلى حفظ الحياة وسلامتها وقوتها سواء في النواحى الايجابية أو النواحى السلبية وهى :

---

(١) سورة الإسراء ٢٢ _ ٣٨ .

(٢) سورة الأنعام ١٥١ _ ١٥٣ .

عدم الإشراك بالله باتخاذ الآلهة معه لأن هذا يمثل محور العقيدة التى يقوم عليها منهج الله في التربية فالقران في كثير من سوره وقصصه يركز على الحقيقة الكبرى وهى عبادة الله وحده والنهى عن عبادة غيره فقضية الألوهية والعبودية هى قضية الإنسان الأولى والأخيرة في هذا الوجود لذا كانت وصية الله الخالدة لعباده والتى حملتها رسله إليهم هى (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) . الأعراف اية ٥٩ ـ ٦٥ ـ ٧٣ ـ ٨٥

ولأن العقيدة مسألة خاصة بالإنسان يحاسب على أساسها فإن الله يوجه الخطاب للفرد مع عمومية الأمر فقال : (لا تجعل مع الله إلهاً أخراً) . (يا بنى لا تشرك بالله) والنهى عن الشرك يقتضى توحيد المعبود الواحد الأحد لذلك قال تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) وهذه الصيغ نجدها كثيرة في القرآن الكريم إذ نجد الأمر بعبادة الله ثم النهى عن عبادة غيره أو الشرك به وكلا المعنيين واحد إلا أن أحدهما منطوق والآخر مفهوم (يا قوم اعبدوا الله) ألا تعبدوا إلا الله (ولا تشرك بالله) (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) الخ .

ثم الإحسان إلى الوالدين : ونجد في الآيتين استعمالاً لكلمة (الإحسان) للربط بين حسن المعاملة للوالدين وتقوى الله ومراقبته إذ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وسنفصل هذا المعنى في الحديث عن تربية القرآن في مجال العلاقة بين الأبناء والآباء .

■ أما عن قتل الأولاد الذى حكاه القرآن عن الجاهليين والذى لا زال مستمرا فإن القرآن يحدثنا أن العقيدة الصحيحة تؤدى إلى توافق الإنسان مع فطرته وصحة مشاعره وسلامته كفرد وكعضو في المجتمع ، وكما أن العقائد الصحيحة تنعكس اثارها على المجتمع فكذلك العقائد المنحرفة تنعكس على المجتمع لأن المجتمع في حركته لا يصدر إلا عن عقائد فالعقيدة هى الحياة ، والقرآن يحدثنا عن انعكاس المعتقدات على المجتمع بما كان يفعله الجاهليون من قتل الأولاد خشية الفقر والإملاق ولو كانوا يعتقدون اعتقاداً صحيحاً بأن الأرزاق بيد الله لما وجدوا علاقة بين كثرة الأولاد والفقر فالدافع إلى ذلك التفكير هو فساد هذه العقيدة التى لا تترك الأمر بيد الله خالق الكون ورازق الأحياء ونجد اختلافاً في التعبير بين الآيات باختلاف مقتضى الحال فلما كان قتل الأولاد بسبب فقر الآباء قدم رزق الآباء على الأبناء في سورة الأنعام (نحن نرزقكم وإياهم) ولما كان القتل لاعتقاد أن سبب الفقر هم الأبناء قدم رزقهم على رزق ابائهم في الإسراء .. (نحن نرزقهم وإياكم) إننا نجد الصورة تتكرر في الجاهلية التى نعيشها فقد نشأ عن انحراف عقائد المسلمين وابعادهم لتولى الله الأرزاق من تفكيرهم أن ربطوا بين ظروفهم المادية وكثرة النسل فظهر في واقعهم العملى والنظرى حركة تحديد النسل بادعاء صعوبة الحياة وارتفاع تكاليف المعيشة وتحسين التربية بالإقلال من عدد الأولاد وهى فكرة يهودية قصد منها إضعاف الجنس البشرى بعامة والإسلامى بخاصة ليسهل لهم السيطرة على البشر وهى فكرة تتمشى مع اعتقادهم في أنهم الجنس الأسمى والشعب المختار الذى يجب أن يحكم ويسود العالم .

■ ومع ذلك فإننا نلحظ في الدول التى أخذت بنظام تحديد النسل كثيراً من المشكلات الاقتصادية والتفكك الأسرى والحيرة في أوساط الشباب بل إن دولاً إسلامية أخذت بهذا النظام وجندت له الأموال والإمكانيات المختلفة وجعلت لها مصالح قائمة بهذا الأمر إلا أنها فشلت في ذلك لتعارض الفكرة مع الفطرة السليمه بله المسلمة وارتفعت فيها نسبة المواليد بنسب عالية وكبيرة ، وتطالب التربية القرآنية للفرد من الإنسان البعد عن الفواحش خاصة الزنا ففى سورة الأنعام (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) وفي سورة الإسراء تحديد الزنا باعتباره فاحشة وفي السورتين ربط بين ثلاثة أنواع من القتل ، قتل الأولاد خشية الفقر وقتل ناشئ عن الزنا ثم قتل النفس التى حرمها الله .

وعن القتل الناشئ عن الزنا يقول المرحوم سيد قطب : (ان في الزنا قتلاً من نواحى شتى ، انه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة في موضعها ، يتبعه غالبا الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق قبل مولده أو بعد مولده . فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة أو حياة مهينة فهى حياة مضيعة في المجتمع على نحو من الإنحاء وهو قتل في صورة أخرى للجماعة التى يفشو فيها فتضيع الأنساب وتختلط الدماء وتذهب الثقة في العرض والولد وتتخلل الجماعة وتتفكك روابطها فتنتهى إلى ما يشبه الموت بين الجماعات .

وهو قتل للجماعة من جانب آخر إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها ، ويجعل الأسرة تبعة لا داعى لها والأسرة هى المحضن الصالح للفراخ الناشئة لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه(١) . وقد حرم الإسلام قتل النفس التى حرمها الله إلا بالحق وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحق الذى يقتل به النفس المسلمة في حديثه صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم أمرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والزانى المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة » . رواه البخارى ومسلم .

■ فالذى يقتل مسلما يقتل به حفاظاً لدماء المسلمين على أن لا تعم الفوضى وتراق الدماء وتكثر الثأرات بين الناس فلابد من القصاص حتى لا تمتد يد على نفس بريئة إذا علمت بأن القصاص لا يلحقها وفي القصاص حياة لنفوس أخرى (ولكم في الحياة قصاص يا أولى الألباب) وقد رأينا مدى انتشار الجرائم في الدول التى ألغت عقوبة الإعدام والتى يطالب فيها الناس بإعادة هذه العقوبة حتى تحد عدد الجرائم المتزايدة لاطمئنان المجرم على أن حياته لن تزهق . أما الزانى المحصن ففى قتله وقاية للمجتمع من انتشار جرثومة الفساد واختلاط الأنساب وما يترتب على جريمة الزنا من جرائم القتل والإجهاض ومحاولات اخفاء الحمل غير المشروع وابناء السفاح ونظرة المجتمع لهم وموقفهم من المجتمع وما إلى ذلك ، أما الخارج عن جماعة المسلمين ففى قتله حماية للنظام من الفوضى الدينية والجماعة من التفكك والضعف فالدين لا إكراه في اعتناقه أما من اعتنقه وآمن به فليس مخيراً في الخروج منه فقد كانت له الحرية الكاملة قبل أن يسلم ويؤمن أما بعد ذلك فالأمر مختلف وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من فارق الجماعة قدر شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » .. رواه الترمذى والنسائى . وقد أخذت الجماعات العلنية والسرية حتى العصابات والمنظمات الإرهابية بهذا المبدأ من الإسلام ، فالجماعات تقتل كل من خرج عليها حتى لا يفضح أسرارها ويكشف خططها ويطلع الأعداء على أسرار جماعته فإذا كانت مبادئ البشر تحمى بهذا المبدأ في عالمنا فكيف بمبادئ خالق البشر ؟ ونظامه ودينه ؟ .

إن جماعة المسلمين مطالبون بتوفير الأسباب التى تحفظ حياة البشر الأسوياء الذين يعيشون في ظروف عادية وغير الأسوياء الذين يعيشون في ظروف غير عادية كاليتامى وبالرغم من أنهم ينطبق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه » .. رواه الترمذى . إلا أن الجماعة المسلمة مطالبة برعاية مال اليتيم وحفظه وتنميته بما يعود بالفائدة إليه فاليتيم ضعيف محتاج إلى غير ه حتى يبلغ أشده والوفاء بحقوقه من الوفاء بالعهد وعندما تسهر الجماعة المسلمة على شئون الأيتام والأرامل والمساكين والفقراء فإنها تحفظ حياتهم وتجعلهم أناسا صالحين في المجتمع .

أما عن تربية القرآن في مجال المعاملات والبيع والشراء فواضح أن الجماعة المسلمة تتحرك وتتعامل فيما بينها والمجتمع المستقر المزدهر هو الذى يقوم فيه التعامل على أسس من العدل والأمانة والاستقامة والنظافة في القلب والضمير ولذلك ذم الله سبحانه المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون وذلك استعجالاً للكسب الفانى والقليل الذى يذهب الثقة ويهدر الكرامة .

والأوامر التى تدعو إلى سلامة الحياة ونقائها كثيرة كالوفاء بالعهد وقول الحق ولو على ذوى القربى واتباع هدى الله والاقتصاد في الانفاق والنهى عن التبذير والقاء النفس في التهلكة وغير ذلك من الأوامر والنواهى التى يحفل بها كتاب الله وسنة نبيه وكلها تؤدى إلى توفير حياة هانئة سعيدة خالية من القلق والاضراب والفوضى .

أما عن قانون تكاثر النوع :

■ فإن هذا القانون مرتبط بسابقه فالحياة التى يطالب الإنسان بحفظها وصيانتها هى الحياة التى ينشئها

---

(١) سيد قطب في ظلال القرآن ص ٢٩ المجلد الخامس الجزء ١٥ .

(١) سورة الروم الآية .

المجتمع النظيف الطاهر بين الرجل والمرأة وهما عماد الأسرة التى تكون الحياة المشتركة بين الجنسين الذكر والأنثى ، والله سبحانه شرع الزواج الذى يحقق السكينة والمودة والرحمة وتكاثر النوع من اياته : (ومن أياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لايات لقوم يتفكرون)(١) ٠

لذلك شرع الإسلام الزواج وحض عليه ليبتغى الناس ما كتب الله لهم من الذرية وإنشاء الأجيال ولذلك حض الرسول عليه الصلاة والسلام الشباب على الزواج (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضى للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) (٢) ٠

■ فالزواج هو العلاقة الشرعية الوحيدة التى عن طريقها يحفظ النسل ويستمر ، فالشخص القادر على الزواج والمستطيع تحمل أعبائه الاقتصادية والاجتماعية والتربوية عليه أن يؤدى واجبه ودوره في استمرار الحياة وتكاثر النوع ولهذا جعل الإسلام للأسرة نظاما كاملا فالمرأة مساوية للرجل في الحقوق والواجبات والرجل هو رب الأسرة ورئيسها ومديرها لذلك كانت له القوامة وعليه التكاليف المترتبة على هذا الامتياز ، والعلاقة في الأسرة قائمة على السكينة والمودة والرحمة والعطاء والبذل والطاعة والتفاهم ، كما أرسى الإسلام الضوابط والنظم التى تحفظ هذه العلاقة في الظروف العادية كما وضع الحلول للمشكلات التى قد تنجم بين الرجل والمرأة وتدرج في خطوات العلاج حتى لا تنهار هذه العلاقة بمجرد الخلافات الناتجة من حركة الحياة بين الزوجين ٠

ولأن الزواج هو الوسيلة الشرعية لتكاثر النوع زيادة على أنه سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن التبتل بمعنى الانقطاع عن النساء عبادة لله فعن أنس رضى الله عنه أنه قال : (كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالباءة وينهى عن التبتل نهيا شديدا ويقول : « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » ٠

■ وقد سبق أن ذكرنا أن الإسلام يحرم كل أمر يعوق الحياة ويعطلها ويهدمها ويحبذ كل أمر يدعو إلى إثرائها ونمائها وزيادتها ومن هنا كان تحريمه للتناسل الذى لا يقوم على أساس شرعى لأنه ضد المحافظة على الحياة وتشجيعه التناسل الشرعى وتحريمه كل أمر يعوق حفظ النوع واستمراره وتكاثره لذلك حرم الإجهاض إلا للضرورة ومنع الاخصاء لما رواه الصحابة من قولهم : (كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لنا شئ فقلنا ألا نستخص فنهانا عن ذلك ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب ٠ ثم قرأ علينا (يأيها الذين أمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) ـ رواه البخارى ـ

■ إن حركة تحديد النسل التى ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر في أوربا حركة مناقضة لقوانين الحياة في زيادة النسل الإنسانى وتكاثره وقد استحدث المجتمع المعاصر وسائل كثيرة للحيلولة دون زيادة النسل كان من أخطر نتائجها حسب الاحصاءات انتشار الفواحش والأمراض الخبيثة المزمنة ، وقد كان من نتائج إنتشار الزنا وسهولة ارتكابه أنه يولد في كل عام ٨٠ ألف طفل غير شرعى أما في أمريكا فنسبة أولاد الحلال هى ١ : ٥ أما عن الأمراض الخبيثة المترتبة على الزنا مثل السيلان والزهرى فإنها كثيرة وأخطارها مدمرة للعالم ٠ (ففى مدن أمريكا كلها تقريبا نجد أن الزهرى والسيلان في انتشار وتقدم بسرعة لا توصف وأن أكثر من يفشو فيهم هذان المرضان هم الأحداث من الفتيان والفتيات ـ الذين سنهم أقل من عشرين سنة بل الحقيقة أن نصف المصابين بهذين المرضين هم هؤلاء الأحداث (٣) وهناك إحصاءات مذهلة عن انتشار الأمراض الخبيثة في العالم يمكن الرجوع إليها في كتاب (حركة تحديد النسل) للشيخ أبو الاعلى المودودى ٠

■ وترتب على حركة تحديد النسل أيضا ضعف العلاقات الزوجية وانتشار نسب الطلاق والهجر بين الأزواج وحرمان الأطفال من رعاية أسرهم وابائهم وتشرد الشباب الناشئ في هذه البيئات ، وذلك لما للأبناء من أهمية في

---

١ ـ سورة الروم الآية ٢١

٢ ـ كتاب النكاح سبل السلام ١٠٩ ج أول ٠ وكتب السنة ٠

٣ ـ كتاب (مشاكل السكان) نقلا عن المودودى ـ حركة تحديد النسل ص ٣١ ٠

استمرار العلاقات وازدياد الروابط الأسرية ولما لانعدامهم من فتور في العلاقات وكآبة ووحشة يشعر بها الزوجان ، كما ترتب على هذه الحركة انخفاض نسبة المواليد مع استعمال الموانع وارتفاع نسبة الإجهاض وقد كان رد الفعل في أمم الغرب واضحا وأصبحت نسبة المواليد المنخفضة مدعاة للقلق مما حدا بكثير من الدول إلى البحث عن طريق لجان متخصصة لدراسة تلك الظاهرة ووضع الحلول المناسبة لها فأوصت اللجنة التى شكلت في انجلترا بما يأتى :

١ ـ أن تمنح كل أسرة مكافأة مالية على قدر ما يكون لديها من الأطفال .

٢ ـ تخفيف وطأة الضرائب على من لديهم عدد من الأطفال .

٣ ـ زيادة عدد حجرات النوم في البيوت .

٤ ـ معالجة مشاكل قلة السكان بواسطة جمعيات .

٥ ـ العمل على رفاه الأسرة الكبيرة ورخائها الاقتصادى عن طريق مشاريع المحافظة على الصحة والأعمال الخيرية .

■ وقد أيدت مقترحات اللجان بما يحفظ الحياة الاجتماعية والعائلية وأعطيت للمقترحات صفتها القانونية ورصدت مكافات مالية للأطفال وأمهاتهم وأجازات للعاملات وتوفير فرص التعليم والعلاج والسكن للمتزوجين من أصحاب الأطفال حتى يزيلوا كل عائق مادى أو تربوى يمنع إنجاب الأطفال أو يحتج به المؤيدون (١) .

أما فرنسا فقد (أصدرت فيها الحكومة قانونا يحرم تعليم منع الحمل ونشر المعلومات عن طرق ووسائله خطابة أو كتابة أو إشارة بالسر أو العلانية حتى أن الأطباء أنفسهم ملزمون بموجب هذا القانون أن لا يقوموا سرا أو علانية بشئ قد ينتج عنه منع الحمل ، ولحمل السكان على كثرة التناسل قد وضعت فيها أكثر من عشرة قوانين بموجبها تمنح الأسرة ذات العدد الكبير من الأطفال مكافات مالية وتعفيها من بعض الضرائب ، وتوفر لها تسهيلات متعددة في الرواتب والأجر والمعايش وفي أجور السفر في القطار بل هى تمنحها الجوائز والوسائم وعلى العكس من ذلك تفرض فيها الضرائب الإضافية على الذين لا يتزوجون أو يتزوجون ولكن لا ينجبون ذرية)(٢) وكذلك فعلت إيطاليا في عهد (موسلينى) الذى وضع عقوبات مالية وبالسجن لمن يفعل أمرا يؤدى إلى منع الحمل وكذلك فعلت السويد التى انخفضت فيها المواليد بصورة خطيرة .

■ أما عن موقف الإسلام فيقول المودودى : (إن قوانين الإسلام للحياة الاجتماعية والاقتصادية مع تعاليمه الخلقية وتربيته الروحانية قد محت كل سبب أو داعية من تلك الأسباب والدواعى التى لأجلها نشأت ثم تقدمت وانتشرت حركة تحديد النسل في المدنية الغربية ، فالإنسان إذا كان مؤمنا بالإسلام مصدقا لتعاليمه وقوانينه من الوجهة الفكرية والعملية فإنه من المحال أن تنشأ في نفسه رغبة في تحديد النسل أو تعرض له في حياته ظروف ترغمه على الانحراف عن طريق الفطرة المستقيم (٣) .

■ .ويرى المودودى أن امتناع الرجل والمرأة عن الوفاء بالتزاماتهما في الإنجاب وزيادة النسل هو المقصود من قوله تعالى : (ولامرنهم فليغيرنَّ خلق الله) والقران يقول : (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم إن شئتم وقدموا لأنفسكم) ويقول أيضا : (ومن اياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فغرض القران من إقامة العلاقة الزوجية واللذة التى يجدانها في الاتصال إنما هى للإبقاء على النوع البشرى وتكاثره وزيادته وهى المناسبة مع فطرة الإنسان فإذا لم يتحقق هذا الغرض من الزواج وكانت المتعة هى المقصودة فإنهما يرتكبان جريمة قتل النفس وتغيير خلق الله وفطرته وفي ذلك يقول الدكتور ازوالد شوارز (من الحقيقة التى لا غبار عليها أن هذه الغريزة إنما هى لإنجاب الذرية وتخليد النسل إذ من القوانين الثابتة في علم الأحياء أن كل عضو في جسد الإنسان يجب أن يؤدى وظيفته الخاصة المستقلة حتى يحقق بذلك المهمة التى قد أسندتها

---

(١) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٩ ـ ٧٠ .

٣ ـ ازوالد سوارز ـ نفسية الجنس ص ١٧ نقلا عن حركة تحديد النسل للمودودى ص ٧٦ ـ ٧٧ .

إليه الفطرة ، وعلى هذا إذا منع هذا العضو من أداء وظيفته الخاصة فلابد أن تتعرض حياة الإنسان لمشاكل مرهقة متعددة ـ ومما يتعلق بهذا البحث أن جسد المرأة لم يخلق في معظمه إلا لوظيفة الحمل والتوليد فهى إذا منعت أن تعمل لتحقيق هذه الوظيفة الأساسية لنظامها الجسدى والعقلى ، فلابد أن تذهب ضحية الاضمحلال والتذمر والعقد النفسية المتعددة وعلى خلاف هذا فإنها عندما تصبح أما ، تجد جمالا جديدا وبهاء روحيا يتغلب على ما قد يعتريها من الضعف والاضمحلال بسبب وضع الطفل وإرضاعه) .

■ إن خطورة هذه الحركة هى في دخولها وانتشارها بين المسلمين وترويج أجهزة الإعلام والحكومات لها وقد استغل دعاة التحديد ما يعانيه المسلمون من فقر وسوء ترشيد لتوزيع ثرواتهم التى من الله عليهم بها استغلوا فقرهم وروجوا لهذه الحركة وربطوها بصعوبة التربية والتعليم لعدد من الأولاد وقلة الدخول ومحدوديتها وارتفاع تكاليف المعيشة وقلة الموارد وصعوبة الرقى والتحضر مع كثرة الأولاد ، وقد وجدت هذه الأسباب مع ضعف العقائد والإيمان بالله الخالق الرازق المدبر المعطى المانع ـ وجدت قبولاً ورواجاً وانتشارا تحت ظل الأنظمة البعيدة عن منهج الله وشريعته ونظامه الاجتماعى والاقتصادى كما أنهم وجدوا من يذكرون بعض الأحاديث الخاصة بالعزل والتى لو درستووضعت أمام الأحاديث التى تنفر من العزل لما وجدوا إباحة لذلك إلا في ظروف خاصة وحاجات ضرورية لا ترقى إلى مستوى الدعوة الجماعية .

■ إن تكاثر النوع وزيادته من الوسائل الحقيقية لزيادة الإنتاج وارتفاع مستوى دخل الفرد والاكتفاء الذاتى في القوى البشرية المؤثرة في زيادة الدخل ، والأمة الإسلامية أمة حضارة وبناء ودعوة وجهاد وهذه الصفات تستلزم الدعوة إلى تكاثر النسل وتدريب الكوادر المؤهلة الجيدة لميادين الاقتصاد والدعوة والجهاد والبناء وفي ذلك يرى المؤرخ ويل درانت أن كثرة السكان من أهم أسباب التقدم المدنى كما يرى المؤرخ المعروف الإنجليزى ـ (أرنولد توينبى) أن على زيادة السكان يتوقف تقدم أى حضارة إنسانية ويقول أورجابنسكى : « أن التضخم العظيم ، مطلق العنان ، لعدد من السكان كان له الأثر القوى والقول الفيصل في الارتفاع بأوروبا وجعلها قوة من الدرجة الأولى في العالم ، انه لم يكن من نتائج انفجار عدد السكان في أوروبا بعد أن تهيأت الأيدى العاملة لتيسير حياتها الاقتصادية الصناعية من جانب ومن جانب آخر ظل يتهيأ لها المهاجرون والجنود والعمال للانتشار في العالم وتسيير مختلف دولها المنتشرة في أصقاعه البعيدة المترامية الأطراف حيث كان قد دخل في حوزته السياسية نصف مساحة الكرة الأرضية وثلث عدد سكانها »(١) .

■ إن الأمة المسلمة عليها أن تكرر هذا الدور وهذا الانتشار في العالم لأن واجبها أن تقدم للعالم منهج الله ونظامه لأن في ذلك سعادته الدنيوية والأخروية ، وما قوة الصين الشعبية ونظرة العالم لها إلا من خلال العدد الهائل لسكانها وتوجس العالم منهم ، وأن أعداء الإسلام لا يهابون إلا تزايد عدد المسلمين الذى سيؤدى إلى قوتهم وعن ذلك تقول مجلة التايم الأمريكية في عددها بتاريخ ١٩٦١/١/١١م « الحقيقة أن سيادة أوروبا السياسية تتوجس خطراً سياسياً شديداً من تزايد السكان في آسيا والعالم الإسلامى في النصف الثانى من القرن الجارى »(٢) .

إن قوى الشرك والصليبية والاستعمار والشيوعية والصهيونية العالمية كلها أعداء يتربصون بالعالم الإسلامى ويحيكون الدسائس والمؤامرات التى تعطله عن بناء قوته الاقتصادية والسياسية والعسكرية ومن أهم المعوقات التى يركزون عليها الدعوة إلى تحديد النسل في الوقت الذى تحرم الصليبية واليهودية على اتباعها تحديد نسلهم بل تطالب فيها إسرائيل من دول العالم مدها بالرجال لتزيد من قوتها العسكرية والسكانية والعالم لا يعترف اليوم إلا بمنطق الأقوى والأشد ولا شدة ولا قوة بعد الله إلا بزيادة الكفاءة السياسية والقتالية للعالم الإسلامى ولا سبيل إلى ذلك كله إلا بتكاثر النوع وزيادة السكان .

---

(١) حركة تحديد النسل ص ١٧٩ .

(٢) حركة تحديد النسل ص ١٨٣ .

■ أما بالنسبة لقانون الارتقاء الروحى والعقلى فإن الإسلام يدعو الإنسان الى المحافظة على عقله الذى كرمه الله به وميزه عن الحيوانات الأخرى لذلك حرم عليه كل شئ يؤدى إلى فقدانه لهذه الخاصية المميزة له فحرم عليه المسكرات والمخدرات باعتبارها عوامل هدم للمجتمع وقتل لمواهب الإنسان وصرف للطاقات البشرية في غير الوجهة التى يجب أن توجه إليها ، وهى تتنافي مع مطالبة الإنسان بالسمو الروحى الذى هو من مميزات الإنسان وهى التى تمنحه السكينة والطمأنينة (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وهى التى ترفعه عن الخلود إلى الأرض واتباع الشهوات والانغماس في الحياة المادية (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (١) ٠

إن فقدان التربية الروحية للإنسان يؤدى به إلى الانحلال والفوضى وسيطرة الشهوات وانتشار الأدواء الاجتماعية مثل الحسد والبغضاء والكذب والنفاق الخ ٠ إذ أن الجانب الروحى في حياة الإنسان يمثل إحدى حاجاته الطبيعية التى تبعده عن كثير من الأمراض المادة وتحقق له السعادة في الدنيا والاخرة وتسمو نفسه إلى درجات الكمال والنماء والرقى والعبادات التى فرضها الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج وخضوع كامل لله هى الطريق إلى السمو الروحى والكمال العقلى ووسيلة إلى السعادة في الدنيا والنعيم المقيم في الاخرة « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢) ٠

إن الإسلام قد كلف الإنسان بتكاليف وواجبات تتناسب مع طاقته وتميزه عن الحيوان وغير الحيوان ممن عجزت طاقاتهم عن القيام بواجب تلك التكاليف وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : « أنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » (٣) ٠

والإنسان بتحمله عبء التكاليف والقيام بها قد ميز نفسه عن الحيوان فهذه التكاليف والواجبات ما هى إلا تمييز لإنسانية الإنسان وإعزاز لمكانته وتأكيد لتكريم الله له عن سائر المخلوقات والذى ميز الإنسان وجعله له هذه الخاصية هو تميزه من الناحية العقلية والروحية والأخلاقية فإذا تخلى الإنسان عن حمل هذه التكاليف غلب صفات الحيوان في شخصه وأصبح كما وصفه القرآن من الأنعام أو الدواب « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا

« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »(٤٠) ٠ بل انهم قد يكونون في منزلة أقل من الانعام «ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا»(٥)٠وأهم مظاهر هذا الرقى هو التحلى بحسن الخلق ولين الجانب وتزكية النفس وإصلاحها وتطهيرها باعتبارها أهم الحاجات التى اقتضت إرسال الله الرسل للناس إذ يقول تعالى : « هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ٦) ويقول : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »(٧) ٠

---

١ ـ العنكبوت : ٤٥
٢ ـ البقرة : ٢٧٧ ٠
٣ ـ الأحزاب ٧٢
٤ ـ الأنفال ٢٣
٥ ـ الفرقان : ٤٤
٦ ـ آل عمران : ١٦٤
٧ ـ البقرة : ١٥١

■ فالله سبحانه وتعالى يذكر عباده ما أنعم به عليهم من إرسال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، ليتلو عليهم آيات الله المختلفة وبمدلولاتها ومظاهرها المتباينة « ليطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهى السنة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقول الغراء فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته إلى حال الأولياء وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس علماً وأبرهم قلوباً وأقلهم تكلفاً وأصدقهم لهجة » . وقال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم » ولمن يعرف قدر هذه النعمة ويقدرها يقول تعالى : « ألم تر الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار » قال ابن عباس يعنى بنعمة الله محمدا صلى الله عليه وسلم(١) ولأن الله سبحانه ذكر هذه النعمة نعمة إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم طلب الله مقابلة تلك النعمة بما يجب له من شكر وذكر فقال : « فاذكرونى أذكركم واشكرولى ولا تكفرون » ٢) . وحين نتدبر اللفظ يزكيهم نجد أن المقصود بالتزكية انتزاع ما هو غير مرغوب فيه ، وتعزيز ما هو مرغوب به فهى إذن تعديل للسلوك بلغة التربية الحديثة .

والقرآن يقدم التزكية على التعليم كما هو واضح من ترتيب السياق ويجعلها مقدمة له تسهل التعليم وتعززه : قد أفلح من تزكى وجاء أيضاً « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها » .

وفي ميدان التزكية هذه تشدد التطبيقات النبوية على الابتعاد بالفرد عن البيئات التى تتنكر للقيم الإسلامية وعن مؤسساتها الثقافية والتوجيهية والوظيفية ابتعاداً يستهدف توفير نوع من الحمية الفكرية والروحية والسلوكية ، ويمكن التربية الإسلامية من الانفراد باعادة تشكيل سلوكه (٣) .

وفي سبيل هذه التزكية اتخذت التطبيقات التربوية الإسلامية ثلاث خطوات أولها تعديل السلوك بابعاد المسلم عن المنايع الدينية الأخرى وتوحيد المنبع الذى يستقى منه المسلم وهو القرآن ومخالفة المظاهر الحياتية لغير المسلمين ، وثانيها أبعاد المؤثرات الثقافية الخارجية من أنماط التفكير والقيم والعادات والتقاليد والتصورات ثم الخطوة الثالثة وهى : (الشروع بتعديل السلوك غير المرغوب به وتعزيز ما هو مرغوب به ، ويلاحظ أن القرآن الكريم والسنة الشريفة قد حددا للنفس ثلاثة مراتب يتدرج الفرد خلالها حتى يبلغ السلوك العاطفى والعقلى والعملى منتهاة المرغوب به . وهذه المراتب هى : مرتبة الإسلام وتستهدف تعديل السلوك الظاهر ثم مرتبة الإيمان حيث يتدعم السلوك الظاهر بالإيمان الباطن ثم مرتبة الإحسان حيث تتناسق مهارات التفكير مع تطبيقات الجوارح وانفعالات الشعور وتتضافر جميعها لإخلاص العبودية لله وإصابة الحق في كل ميدان من ميادين العبادة أو العمل وبذلك تتضافر جميع أنماط السلوك لتعزيز الموقف الذى تحدده أهداف التربية الاسلامية) (٤) .

ومرحلة الإيمان التى ذكرها الأستاذ ماجد عرسان والتى يطلب فيها مطابقة المخبر للمظهر هى التى عبر عنها القرآن الكريم في الآية (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم)(٥).

■ أما المرحلة الثالثة فهى التى عبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : (الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (٦) أو التى قال فيها : (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس) (٧) .

١ - تفسير ابن كثير ص ١٩٥ - ١٩٦ ج ١ .
٢ - البقرة ١٥٢ .
٣ - ماجد عرسان الكيلانى - تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ص ٤١ .
٤ - المصدر السابق .
٥ - الحجرات : ١٤
٦ - رواه مسلم
٧ - رياض الصالحين : ٢٧٩

ولو استعرضنا التكاليف والأوامر التى أمرنا الله بها لوجدنا ها في نهاية الأمر كمال السلوك وقمة الاستقامة وغاية الرقى الروحى والعقلى وصلاح الفرد والأمة فالصلاة والصيام والزكاة والحج ومراعاة حقوق الله كلها من إيمان بذاته وصفاته وأفعاله ورسله وملائكته وكتبه وبعثه وحسابه وجنته وناره وحلاله وحرامه ونصر شريعته والجهاد لإقامة حكمه وإعلاء كلمته ، ومراعاة أوامر الله في طاعة الوالدين وحقوقهما وبرهما والدعاء لهما وتفقد أمورهما ما داما على قيد الحياة ثم مراعاة حقوق الزوجة والأولاد من إحسان وبر ونفقة وتربية وهداية ثم حقوق الأقارب والجيران والمسلمين عامة ثم حقوق الدولة الإسلامية والجماعات كل هذه الأشياء هى التى تؤدى إلى الإنسان الكامل الخلق الموجه لطاقاته التى أودعها الله فيه في اتجاهها الصحيح وكلها في النهاية تؤدى بالإنسان إلى تحقيق سر وجوده على هذا الكون وهو عبادة الله وحده خالق هذا الكون الذى سخره لعباده ليكونوا سادة الكون وعبيد الله ..

إن الرقى الكامل لا يتم بمجرد الجهود التى يبذلها الفرد لإصلاح نفسه والسمو بها والترفع بها عما يهين أدميته ويذهب عقله ولكن جهود الأمة والدولة كلها يجب أن تتجه إلى ذلك فإذا كان العلم المجرد يرى ضرراً كبيراً على إنسانية الإنسان من إباحة الخمور وأنواع الدخان والانقياد وراء الشهوات بلا رابط فإن أنظمة الحكم وقوانين الجماعات يجب أن تحرم ذلك صيانة لعقل الإنسان وكرامته وإنسانيته ، وإذا كان التفكير الحر المعقول حقا يميز ادمية الإنسان فإن الأنظمة التى تحجر التفكير وتمنع النقد والمناقشة والتأمل كالمجتمعات الشيوعية والاشتراكية وتوابعها والأنظمة التى تبيح التفكير بلا قيود ولا ضوابط كلها تحط من قدر العقل وإنسانية الإنسان .

■ والقرآن قد جاء بدعوة لتحرير العقل البشرى من قيود الحجر كلها قديمة وحديثة وأنكر على الذين يعطلون هذه الخاصية خاصية التفكير في أنفسهم (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما الفينا عليه اباءنا أولو كان أباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) ١) . وقوله : (قالوا أجئتنا لنعبد الله ونذر ما كان يعبد اباؤنا) . (٢)

ويحدثنا القرآن أن ضلال البشرية راجع إلى تعطيلها لعقلها وتقديسها لتقاليد وديانات سابقيها ولو كانوا على غير الهدى وهذا سر رفضهم لكل دين جديد جاء لتحرير عقولهم والسمو بأرواحهم وربطهم بالله سبحانه وتعالى : خالق الكون ، (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على اثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على اثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) . (٣)

■ لذلك كله دعا القرآن إلى تحرير العقل البشرى والتأمل في ملكوت الله والكون بنظامه وتنسيقه وآياته وحقائق الوجود الدالة على عظمة الخالق المدبر المنسق (إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض : لآيات لقوم يعقلون) (٤) . والنظر في الكون والتأمل في ملكوت الله جعل كثيراً من علماء الغرب فضلاً عن المسلمين يؤمنون بأن لهذا الكون خالقاً ولنظامه مدبراً يقول : (أوبختون) (أن من وراء هذا الكون عقلاً مدبراً حكيماً ، هذا العقل هو الروح الأعظم ، هو الله سبحانه وتعالى ويقول العالم (بليغن) في كتابه (العلم ينظر إلى السماء) (إن الكون كله بنجومه المختلفة الأحجام التى لا حصر لها ، والتى تندفع في جميع الاتجاهات كأنها شظايا قنبلة متفجرة ، صورة لا يكاد المرء يتخيلها حتى يدركه البهر وتنقطع أنفاسه ، ولكن يبدو أن الأجدر بأن يبهر ويقطع الأنفاس ، هو رؤية هذا

١ ـ البقرة : ١٧٠ .
٢ ـ الأعراف : ٧٠
٣ ـ الزخرف : ٢١ ـ ٢٤ .
٤ ـ البقرة : الآية : ١٦٤ .

الحيوان البشرى الضئيل الذى يعيش على شظية من شظايا نجم صغير ، في زاوية صغيرة من زوايا مجرة لا تختلف شيئاً عن الملايين من أمثالها ، هذا الحيوان يجرؤ على أن يسمو ببصره إلى إطراق الفضاء ، يجرؤ فيتحدى ثم يجرؤ فيحاول أن يعرف سر الكون) ·(١) ·

وهذا هو معنى قوله تعالى :
(وفي أنفسكم أفلا تبصرون)(٢) ·
إن ارتقاء الإنسان عقلياً وروحياً هو الوسيلة لسعادته في الدنيا والآخرة لأن الإنسان في حاجة إلى الحياة الروحية كحاجته للمتطلبات المادية والعقل والروح هما الميزان للإنسان عن بقية المخلوقات إذ أن معرفة الله سبحانه والمداومة على ذكره والامتثال للواجبات الروحية التى فرضها على عباده هى التى تضفى على حياة المرء البهجة والمسرة والرضا والإطمئنان في الدنيا والنجاة والفلاح في الآخرة وفي ذلك يقول تعالى :« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » · هذا في الدنيا أما في الآخرة « ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها فكذلك اليوم تنسى » (٣) ·

• • •

رابعاً : مرتكز المسئولية والجزاء

■ تربية الإحساس والشعور بالمسئولية من الأمور التى بنت التربية الإسلامية ركائزها عليها وذلك لما للإحساس بالمسئولية وغرسها في النفوس وممارستها في الواقع من أثر كبير في تربية الأفراد والمجتمعات ، والمسؤول هو الشخص الذى يتحمل نتيجة أعماله وتصرفاته أمام الله سبحانه وتعالى وأمام نفسه ومجتمعه وعلى مدى الإلتزام بهذه المسؤولية أو عدم الإلتزام بها يكون الجزاء خيراأوشرا والمسؤول في الإسلام هو الراعى كما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالأمام راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته) (٤) ·

فالمسؤوليات تتدرج لتشمل الفرد والأسرة والجماعة والحاكم والعامل مما يدل على أن الراعى هو كل شخص في موقع المسؤولية أياً كانت المسؤولية المناطة به ، والمسؤولية بهذا المعنى تشمل كل فرد من أفراد الأمة توفرت فيه الأهلية للتكاليف والوعى بنفسه وسلوكه وواجباته في الحياة ·

والعرب يطلقون كلمة (الراعى) على من ينظر إلى الأشياء بعين المصلحة والخير والقرآن استعمل الكلمة في دلالتها الحقيقية « كلوا وارعوا أنعامكم »(٥) ،والمعنوية « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون »(٦) · وارتباط المسئولية بالأمانة كثير في القرآن باعتبار أن الأمانة تشمل كل الواجبات المناطة بالإنسان في الحياة إزاء ربه أولاً ثم إزاء نفسه وأسرته ومجتمعه ولذلك يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم »(٧) ،والأمانة هنا كما يقول ابن عباس الأعمال التى ائتمن الله عليها العباد من فرائض وغيرها (٨)

---

(١) نقلاً عن محمد شديد ـ منهج القرآن في التربية ص ٩٤ ·
(٢) الذاريات ٢١

٤ ـ رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذى عن ابن عمر مرفوعاً ·
٥ ـ سورة طه : ٥٤ ·
٦ ـ سورة المعراج : ٣٢ ·
٧ ـ الأنفال : ٢٧ ·
٨ ـ ابن كثير ص ٣٠١ ج ٢

ولذلك يشترط الإسلام في الشخص المسئول شروطاً تبين الأهلية كشرط العقل والبلوغ والحرية في الإرادة والاختيار والقبول والرفض والقدرة على التحمل ، فالمجنون غير مطالب بالمسئوليات وكذلك الصغير والذى لا يملك إرادة نفسه أولا يستطيع تنفيذ إختياراته ولذلك أخرج الإسلام من دائرة المسئولية المجنون والنائم والناسى والمضطر « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » وكذلك « فمن إضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم »(١) كما أخرج ما تتحدث به نفس الإنسان من هواجس ووساوس إلا إذا ترجمت أحاديث النفس إلى أفعال فعندما نزل قول الله تعالى : « لله ما في السموات وما في الأرض وأن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شئ قدير » اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهرعوا إليه يتساءلون عن مؤاخذتهم على حديث نفوسهم وهواجس قلوبهم فطلب منهم أن يسمعوا ويطيعوا فنزلت الآيات التالية لها قال ابن عباس (فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها وصار الأمر إلى أن قضى الله عز وجل إن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل) ٢) ، فالمسئولية على قدر طاقة الإنسان وقدرته « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ، وتكاليف الإسلام كلها من واجبات وفرائض وسنن وغيرها لا تجد فيها أمراً خارجاً عن طاقة الإنسان فهى تكاليف ليست شاقة ومتعبة بحيث يعجز عنها الإنسان وليست سهلة وبسيطة بحيث يستهتر بها الإنسان ويستهزئ وهو مع مسئوليته غير مخاطب على النسيان والخطأ « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به »(٣) .

■ بل إن الإسلام جعل مسؤولية الإنسان عما تحدثه به نفسه من معصية في صالحه إذا تخلى عن ذلك خشية لله وتذكرا له ففى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : « إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا همَ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً »

والأحاديث حول هذا المعنى كثيرة وكلها تدل على ربط المسئولية بالسلوك العملى ولكن الإسلام يوضح فرقاً بين ما تقدم وبين نوع من أحاديث النفس المرتبطة بالإرادة وسبق الإصرار كما يقولون وهو نوع من السلوك يؤاخذ عليه الإنسان في الإسلام سواء ارتبط بالعمل أم لم يرتبط وهو الذى قال فيه الله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » أو قوله : « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان » وقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » والمقتول مؤاخذ لأنه دخل تحت طائلة الشروع في القتل وسبق العزم والإصرار على القتل إلا إذا كان دفاعاً من المقتول أو القاتل عن نفسه .

وحديث المسئولية السابق يوضح أن الإنسان في الإسلام لا تقتصر مسئولياته على نفسه وإنما تتدرج هذه المسئوليات من الفرد إلى الأسرة إلى الجماعة إلى الحاكم أو الراعى ففى مسئولية الفرد نحو أسرته يقول الله تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها »(٤) ، « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » (٥) ، « يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » (٦) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » (٧) .

■ وبما أن أقل عدد يتكون منه الأسرة فردان هما الزوج والزوجة فإن لكل واحد منهما مسئولياته وكذلك الأبناء والأقارب إن كانت الأسرة كبيرة ، وقد وضع الإسلام المسئولية الكبرى ، في الأسرة على عاتق الزوج

---

١ ـ البقرة : ١٧٣ .
٢ ـ ابن كثير ص ٢٣٩ .
٣ ـ البقرة : ٢٨٦
٤ ـ طه : ١٣٢ .
٥ ـ مريم : ٥٥
٦ ـ التحريم : ٣
٧ ـ ابن حبان .

باعتباره المتولى لزمام القيادة والنظام والتوجيه للأسرة والمسئولية عنها أمام الله والمجتمع وعلى عظم المسئوليات والتكاليف تكون الامتيازات الممنوحة للرجل ومنها إمتياز القوامة ومقابل هذا الامتياز الامتياز الذى منح للمرأة هو إطلاق صفة الصلاح عليها إن قامت بواجبها وأعانت زوجها على مسئولياته والله تعالى يقول : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله »(١) .

■ وهذه القوامة قد حددها الله تعالى من خلال الوظائف والخصائص النفسية والعضوية والعقلية لكل من الرجل والمرأة وهما يمثلان نفساً واحدة واختصت كل واحد من شطرى النفس بتكاليف وأعباء حسب إستعداداته الفطرية وخصائصه العقلية والعاطفية ، لأن الرجل والمرأة يكونان مؤسسة تسمى بالأسرة فإن رئاسة هذه المؤسسة هى القوامة والقوامة بهذا (وظيفة ، داخل كيان الأسرة ، ولإدارة هذه المؤسسة الخطيرة ، وصيانتها وحمايتها ووجود القيم في مؤسسة ما ، لا يلغى وجود ولا شخصية ولا حقوق الشركاء فيها والعاملين في وظائفها)(٢) .

وقد حدد الرسول صلى الله عليه وسلم مسئوليات كل من الزوجين في خطبة الوداع حيث يقول :
(أما بعد : أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت)(٣) . فمسئوليات الزوج تتمثل في حسن الخلق والمعاشرة والتحمل وضبط النفس والمودة والملاطفة وحسن الظن والإنفاق بحسب الاستطاعة « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما أتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما أتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا » . وكذلك العدل إذا عدد الزوجات وهو العدل فيما يملك مثل العدل في النفقة وفي المبيت دون العاطفة والحب ، أما الزوجة فمسئولياتها واضحة في الخطبة وهى طاعة الزوج إلا في معصية وعدم مخالفته في حدود قدرتها وإمكانياتها والمحافظة على بيته وماله وعرضه وتوفير سبل الراحة المادية والمعنوية له وعونه على الدنيا والآخرة وتحبيب نفسها إليه وإحسان عشرته وإطراء معروفه فهى راعية ومسئولة أمام الله عن رعيتها .

أما مسئولية الآباء نحو الأبناء فكثيرة أهمها اختيار الاسم الصالح المعبر عن أمله فيهم وتغذية أجسامهم بالغذاء وأرواحهم وعقولهم بالعلم والمعرفة والفضائل والقيم والأخلاق الحسنة والتربية الشاملة القائمة على حسن العقيدة وسلامة الضمير والخوف من الله أما مسئولية الأبناء فعظيمة وجسيمة والقرآن قد أكثر من وصاية الأبناء بالآباء ولم يوص الآباء بالأبناء لأن إحساس الآباء فطرى وعطاؤهم مطلق وحبهم غريزى لذا كان وصية القرآن للأبناء أما الآباء فقد وصوا مرتين في مشكلة قتل الأبناء « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب إرحمهما كما ربيانى صغيرا » (٤) .

■ وفي حديث ابن مسعود يقول : (سألت النبى صلى الله عليه وسلم أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ فقال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد في سبيل الله)(٥) .

---

(١) النساء ٣٤ .

(٢) سيد قطب في ظلال القرآن ص ٦١ ج ٥ م ٢ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٠٤ .

(٤) الاسراء ٢٣ .

(٥) رواه البخارى ج ٨ ص ١٦٣ .

فرب الأسرة مسئول عن كل فرد من أفراد أسرته رعاية وعناية وتربية وتعليماً وتوجيهاً في حدود طاقته وقدراته حتى يخلى بذلك مسئوليته أمام الله سبحانه وتعالى ٠

■ أما المسئولية الجماعية فإن الفرد مسئول عن تصرفات أعضائها وسلوكهم باعتبار الجماعة وحدة واحدة لهما شخصيتها الاعتبارية ولأن الأمة الإسلامية أمة دعوة ورسالة فإن أولى المسئوليات المناطة بها هى القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠ يقول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله (١) ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المصلحون »(٢) ٠

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »(٣) ويقول عن بنى إسرائيل « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون »(٤) ٠

ولأن انحراف الأفراد يؤدى إلى فساد المجتمع فقد عقب الرسول صلى الله عليه وسلم على الاية السابقة بقوله : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنـه على الحق أطر ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم »(٥) ، وفي هذا المعنى قول الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب »(٦) ، ولأن المسلمين في، توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » فإن الرسول صلى الله عليه وسلم شبه الجماعة بالجسد لتضامنها في مسئولياتها وشبهها بالسفينة وبمسئولية الجماعة عنها بصفتهم الجماعية لا الفردية فقال : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا »(٧) ٠

وقد أخذت كل النظريات الحديثة في الأخلاق بما قرره الإسلام من أن حرية الأفراد ليست مطلقة بل مقيدة بقيود كما أخذ بها في (إعلان حقوق الإنسان) وعرفت الحرية فيها بأنها (القدرة على عمل كل شئ لا يضر بالغير) ، وحقوق الغير في الإسلام تشمل حق الله أولاً ثم المجتمع أفراداً وجماعات ، وإزالة المنكر أمر جعله الرسول صلى الله عليه وسلم من مسئوليات الأفراد في الجماعة وواجباتهم بالطرق المتاحة لهم « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »(٨) ٠

■ ومجاهدة الخارجين عن الإسلام والمنحرفين في السلوك دليل على الإيمان فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من نبى بعثه الله في أمة قبلى إلا كان من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل(٩) والمسئوليات الجماعية كثيرة في الإسلام وفي القرآن والسنة المزيد لمن أراد ذلك ٠

---

(١) آل عمران ١١٠ ٠

(٢) آل عمران ١٠٤ ٠

(٣) التوبة ٧١ ٠

(٤) المائدة ٧٨ ٠

(٥) رواه أبو داود والترمذى ـ رياض الصالحين ص ١٠٥ ٠

(٦) الأنفال ٢٥ ٠

(٧) أحمد أمين / الأخلاق ٠

(٨) رياض الصالحين ص ١٠٠ ـ ١٠١ ٠

(٩) رواه مسلم المصدر السابق ص ١٠١ ٠

■ أما المسئولية الفردية فإن الفرد المسئول هو من توافرت فيه صفات الأهلية للقيام بمسئولياته ،والمسئوليات المناطة بالفرد المسلم تتميز بالوسطية بين الصعوبة والسهولة كما أسلفنا ولم يكلف الله عباده بمسئوليات تفوق إمكاناتهم وقدراتهم الجسدية والعقلية والنفسية لأن الله يريد لعباده اليسر ولا يكلف نفساً فوق طاقتها والرسول صلى الله عليه وسلم يطلب من المسلمين أن يمتثلوا وينفذوا الأمور التى نها عنها وأن يؤتوا من أوامره ما يستطيعون والإنسان مسئول أمام الله سبحانه عن نفسه وهو وإن كان مسئولاً عن تصرفات الآخرين وسلوكهم من حيث التوجيه والإنكار والأخذ بيدهم إلا أنه غير مسئول عما وقع من أعمالهم ، فالله يقول : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى »(١) .

ويقول : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »(٢) .

أما مسئولية الراعى أو الحاكم أو الدولة فتتمثل أساساً في تنفيذ شريعة الله ومنهجه في الحياة وإقامة حدوده وأحكامه وصيانة حقوق المسلمين والسهر على مصالحهم ودرء الفساد في كل أنواعه ويتمخض عن المسؤوليات السابقة نوع الجزاء الذى يترتب على العمل الذى قام به الفرد باختياره وإرادته ومارس فيه الحرية التى أعطاها الله له لأن الفرد المسلم تقوم تربيته على أساس مراقبة الله سبحانه وتعالى الدائمة للإنسان في سره وعلانيته خيره وشره وأنه مثاب على الخير ومعاقب على الشر وهذا الإحساس هو ضابط السلوك بالنسبة للفرد الذى يعلم أن الله مطلع على كل صغيرة وكبيرة « ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور »(٣) ، ولذلك صور القرآن حال المجرمين يوم القيامة وشفقتهم وخوفهم من ذلك الاحصاء الدقيق المتناهى في الدقة والذى يحصى عمر الإنسان بالثوانى إن عمل مثقال ذرة من خير وجده وإن عمل مثقال ذرة من شر وجده « ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة وكبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا »(٤) لأن المحصى والمحاسب هو الله سبحانه وتعالى الذى أحاط علمه بدقائق الأمور ولطائفها محسة وغير محسة « إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير »(٥) كيف لا يكون ذلك وهو الذى يقول عن ذاته العلية « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا »(٦) .

■ إن العقل الإنسانى لا يقبل الظلم ولا يرض به ، والعدالة تقتضى إثابة المحسن وعقاب المسئ والله قد حرم الظلم على نفسه وجعله محرماً بين الناس ووعد بالجنة وهو لا يخلف وعده ، ولأن العدالة تقتضى إنتفاء المساواة بين الخبيث والطيب والمحسن والمسىء والصالح والطالح والمؤمن والكافر يقول الله تعالى: «إن الذين يضلون عن سبيل الله ، لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب . وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار »(٧) . ويقول : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ، ومماتهم ساء ما يحكمون »(٨) .

(١) الأنعام ١٦٤ .

(٢) الإسراء ١٣ ــ ١٤ .

(٣) غافر ١٩ .

(٤) الكهف ٤٩ .

(٥) لقمان ١٦ .

(٦) المجادلة ٧ .

(٧) ص ٢٦ ــ ٢٨ .

(٨) الجاثية ٢١ .

والفرد الذى وعده الله بالثواب أو العقاب يأتى يوم القيامة وحده « وكلهم اتية يوم القيامة فردا »(١) . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » (٢) . فإذا وجد خيرا حسب ما قدم كان مصيره الجنة والنعيم المقيم وإذا قدم شراً كان مصيره ما يستحقه من عقاب الله والقرآن قد فصل ذلك كثيرا وبين جزاء المحسن والمثيب إلا أن الله سبحانه وتعالى لا يثيب إلا بمضاعفتها لمن يريد والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما لا يعلم قدره إلا الله وقد يغفر الله لمن يشاء من عباده الذنوب دون الكفر فإنه لا يغفره « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »(٣) ولأن الشرك بالله ليس من الذنوب فإنه يقول : « لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا »(٤) .

والجزاء قد يكون في الدنيا أو الاخرة أو فيهما معاً كما أنه قد يكون قصاصا يقوم به ولى الأمر وقد يكون مباشرة من الله في الدنيا بالهلاك كما حدث لعاد وثمود وغيرهم من الأمم التى قص القرآن أخبارها وقد يكون بالأمراض والأوبئة أو الذل والإستكانة والضلال أو الإبتلاء بفقدان السكينة والأمن والاستقرار والانحلال الخلقى من حسد وبغض ونفاق وشقاق ومجانة وخيانة ورشوة ومحسوبية .

إن السعادة والشقاء في الدنيا والاخرة تتوقفان على مدى التزام المسلم والمسلمين بمنهج الله وتربيته ونظامه وأحكامه وأوامره ونواهيه مراعاة ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم « يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ »(٥) .

ولأهمية الجزاء في سلوك الإنسان فإن الله سبحانه وتعالى رغب في الخير وحث عليه وربط مصير الإنسان في حياته الدنيا والاخرة بمدى التزامه بالعمل والسلوك المرغوب فيه أو غير المرغوب فيه إذ أن العقل البشرى لا يتصور عدم الجزاء على ما يعم الحياة من خير ورحمة ومودة وإخاء أو ما يكدرها من ظلم وشر وفرقة واستعباد وبعد عن الله .

أما بالنسبة للجزاء الدنيوى فالقرآن يقرر أن في القصاص حياة للناس وقد قسم بعض الباحثين العقوبات إلى مؤيدات فطرية تتمثل بالعقوبة التلقائية التى تترتب على مخالفة أمر الله وربانيته هى عقوبة القهر الإلهى في الدنيا أو الثواب والعقاب في الاخرة ففيه يقول الأستاذ سعيد حوَى : (أن أى إنحراف عن أى جزء من أجزاء الإسلام يحمل في طياته عقوبته التى تحيق بالمنحرفين عنه ، فمن رفض العبودية لله عاقبته سنن الله بأن تجعله عبداً للإنسان ومن غش ليربح عاقبته سنن الله بأن يفقد الثقة ويخسر ومن فرط في واجب اليوم عاقبته سنن الله بمضاعفة التعب في يوم آخر ، وهكذا فما من انحراف عن أى جانب من الإسلام إلا تقابله عقوبة تليق به في الدنيا لأن الانحراف عن قوانين الله في الكون والإنسان والاجتماع دائماً ليس لصالح الإنسان بل هو تدمير له أو تعذيب »(٦) .

ثم ضرب الباحث عشرة أمثلة من عقوبات الفطرة على أمثلة من الانحراف عن أمر الله ليوضح هذا المؤيد القوى من مؤيدات الإسلام وهذا عين ما يقصد إليه الدكتور الكسيس كارل في كتابه تأملات في سلوك الإنسان إذ

(١) مريم ٩٥ .

(٢) الأنعام ٩٤ .

(٣) النساء ٤٨ .

(٤) الزمر ٥٣ .

(٥) هود ١٠٥ ـ ١٠٨ .

(٦) سعيد حوَى ـ الإسلام ص ٧ ج ٤ .

يقول : « وليس من العسير أن الخطيئة إنتهاك إرادى أو غير إرادى لقوانين الحياة ، وقوانين الحياة صارمة صرامة قوانين اختلاط الغازات وسقوط الأجسام ولما كان إنتهاك هذه القوانين لا يعاقب عليه إلا بعد مضى زمن من وقوعه وبطريقة خفية فإن الإنسان لم يدرك بعد فداحة النتائج التى تترتب على الخطيئة فكل خطيئة تؤدى إلى إضطرابات عضوية أو عقلية أو اجتماعية وهى إضطرابات لا يمكن علاجها على وجه العموم ، وإذا كانت التوبة لا تشفى تليف الأنسجة لدى السكير أو الأمراض العصبية لدى أولاده فإنها تعجز أيضاً عن إصلاح الإضطرابات الناجمة عن الحسد والإسراف الجنسى والغيبة والنميمة والبغضاء كما أنها كذلك لا تبعد الشقاء عن الشواذ الذين يولدون لأبوين مصابين بالعيوب ، فالخطيئة تؤدى إن عاجلاً أو آجلاً إلى التدهور والموت ، التدهور للجانى نفسه أو للوطن أو للنوع ولهذا يجب على كل فرد أن يكون قادراً على التمييز بين الخير والشر »(١) .

إن التربية الإسلامية وقد وضعت كل فرد من الأمة في موقع المسئولية التى يترتب عليها المحاسبة والجزاء يتناسب مع القوانين الطبيعية في الكون والنزعات الفطرية في الإنسان إذ أن الإنسان يريد أن يرى نتيجة أعماله وثمار جهده لأن العمل يكون على قدر الثواب في الدنيا ، فكيف بالآخرة ..

• • •

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

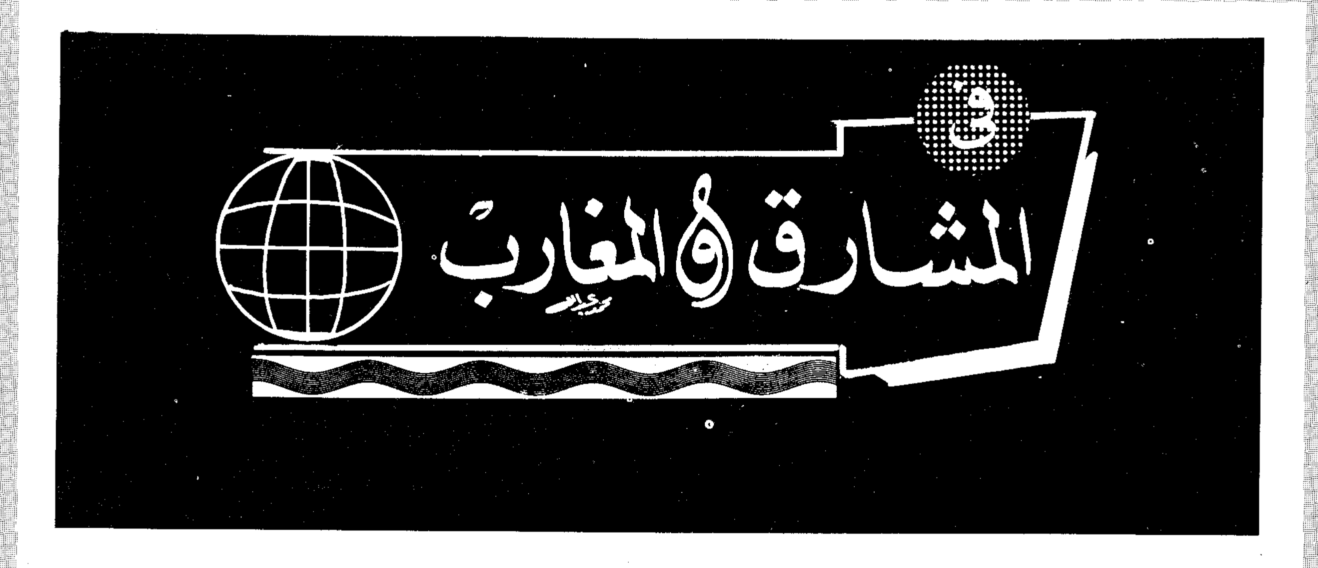
(من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح) .

وقال :

من تطهر في بيته ثم خرج إلى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة ، فإذا دخل المسجد لم يزل في صلاة ما انتظر الصلاة والملائكة تصلى عليه وتقول : (اللهم إغفر له اللهم ارحمه) .

---

(١) راجع سعيد حوّى الإسلام ـ المؤيدات الفطرية ص ٧ ـ ٦٢ .



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعـد :

سبب الكتابة :

■ فقد رأيت أن أسجل في هذه الصفحات ما تذكرته أو دونته في رحلتى التى أتاحت لى أن أعبر الكرة الأرضية من شرقها إلى غربها ، وأن ألتقى في هذه الرحلة بأجناس العالم المختلفة ، أما لقاء مقصوداً أو لقاء غير مقصود ، ولكنه لا يخلو من فائدة يسجل من أجلها . وفي السير في أرض الله عبر لمن اعتبر ، وفيه الجديد الإيجابى المفيد ، والسلبى الذى يجب أن يجتنب . وهذا هو السبب الذى جعلنى أقدم على التسجيل . أسأل الله أن يكون فيه لى أولاً ، ثم لشعبى المسلم ـ في كل أنحاء الأرض ـ ثانياً ما ينفعنا في ديننا ودنيانا .

وها أنا أروى القصة من أولها :

تردد . وترجيح . وسبب :

■ عرض على فضيلة نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في الربع الأخير من السنة الدراسية الماضية السفر إلى أمريكا لحضور مؤتمر علماء المسلمين الاجتماعيين في أنديانا .

فطلبت إمهالى لأيام قلائل لأدرس أمورى الخاصة وأقرر ما إذا كانت تسمح لى بالسفر أم لا ؟ وكانت الرغبة في السفر شديدة ، لأنى أود أن أرى إخوانى المسلمين في البلدان الأجنبية ، وكيف يعيشون مطبقين تعاليم دينهم هناك في جو كله عقبات في طريق ذلك التطبيق وأرى أيضاً المجتمعات الغربية وحياتها التى أسمع عنها من أفواه الزوار ، وعلى صفحات بعض المجلات والجرائد الإسلامية وغير الإسلامية ، وكذلك بعض الكتب التى تتضمن بعض المعلومات عن المجتمعات الغربية قديماً ـ أيام انحطاطها مادياً ومعنوياً ـ وحديثاً ـ في عنفوان رقيها المادى .

لابدَ من رفيـــق :

■ وبعد يومين أو ثلاثة قررت أن ألبى رغبة فضيلة نائب رئيس الجامعة ورغبتى معاً . وكان فضيلة الدكتور أحمد الأحمد مرشحاً لنفس المهمة وأنا شديد الرغبة في أن يوافق كما وافقت ، ولكنه اعتذر لظروف خاصة .

وعندئذ ألححت على فضيلة نائب الرئيس في أن يرشح شخصاً آخر يجيد اللغة الإنجليزية ، إذ من الصعب على مثلى وأنا لا أقدر على التفاهم مع القوم أن أسافر وحدى ، لما أتصوره من صعوبة العيش في المأكل والمشرب والمسكن دون تفاهم مع الناس ، لا سيما مع علمى بأن أغلب مأكولهم ومشروبهم لا يخلو من حرام علىّ في دينى . فقال لى فضيلة رشح من ترى ، فرشحت الأخ الدكتور محمد بيلو أحمد أبو بكر السودانى أحد مدرسى كلية اللغة العربية لأنه قام بتدريس اللغة الإنجليزية لطلبة السنة الأولى في الكلية(١) عندما تعذر الحصول على مدرس آخر ، لأنه لابد أن يكون في مقدوره التفاهم مع الناس ولو بصعوبة فوجود شئ خير من لا شئ . ووافق فضيلة نائب رئيس الجامعة على الترشيح وطلب منى أن أبلغ فضيلة الدكتور بذلك فبلغته فطلب منى إمهاله ليفكر في أمره ، فإذا سنحت له ظروفه فإنه لا مانع عنده . فقلت له لا بأس ولكن أرجو أن يكون ذلك في أسرع وقت ممكن للحاجة إلى أخذ تأشيرات دخول من الدول التى نريد السفر إليها من قبل سفاراتها والوقت قد اقترب .

يوم السفر في مطار المدينة :

■ وفي اليوم التالى جاء الدكتور بجوازه موافقاً على السفر وبدا كل منا يستعد لذلك .
وقبل ظهر يوم السبت الموافق ١٩ / ٧ / ١٣٩٨ هـ تحركنا إلى مطار المدينة المنورة . وبعد إنتهاء الإجراءات ودعنا إخواننا الذين رافقونا إلى المطار ، وودعت أنا أبنائى الخمسة الذين كانوا معى ، وذكرتهم بالله وأوصيتهم بتقواه . وفي داخل قاعة الانتظار قعدنا أنا وزميلى على مقعدين متجاورين فجاءت مناسبة ، لا أذكرها الآن . فذكرت له بيتاً من الشعر يقال فيمن لا يضبط الأمور ، وكان يردده لنا فضيلة شيخنا العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطى في دروسه :

أقول له زيداً فيسمع خالداً ويكتبه عمراً ويقرؤه بكراً

■ وبعد ذلك بقليل أخذ الزميل ينظر إلى أرقام الرحلات التى تظهر على الجهاز في القاعة ليتأكد من موعد إقلاع طائرتناوبدلاً من قراءة رقم الإقلاع قرأ رقم الوصول ، فاستغرب فقلت له : عد مرة أخرى فاقرأ .. فقرأ فعرف الخطأ ، فقلت له : لقد طبقنا بيت الشعر ولا زال رطباً على ألسنتنا وفي مذكرتك ، وكان قد أعجبه البيت فكتبه في مذكرته عندما سمعه منى ، فضحكنا جميعاً ، وجاء الموعد فخرجنا إلى الطائرة وأقلعت بنا في موعدها المحدد والحمد لله ، إلى جدة .

---

(١) كلية اللغة العربية التى كلفت عمادتها .

فندق الإخاء واللقاء المفيد :

■ وصلنا مطار جدة ، وكان بعض الإخوان في إنتظارنا في المطار ، وكنا نظن أن نزولنا في جدة سيكون في فندق الشركة ـ أى إقامة ترانزيت وعندما سألنا المختص في علاقات الركاب . ذكر لنا أنه لا يحق لنا ذلك لأنا حجزنا على رحلة في اليوم التالى ، وفي نفس اليوم رحلات إلى لندن ، فقال صاحبنا الذى كان ينتظرنا في المطار الحمد لله الذى حال بينكم وبين فندق الشركة ، فبيتنا فندق للأخوان فحياكم الله ، وفعلاً نزلنا ضيوفاً على أخينا واجتمعنا ببعض الاحبة الذين جاءوا يودعوننا عندما علموا بوجودنا وسفرنا إلى الخارج . ومن هؤلاء الأخ الشاب الصالح حامد البار ، أحد الطلبة السعوديين الذين يتلقون تعليمهم في أمريكا وكان قد عاد منها قريباً ، وكان لقاؤنا به فرصة للاستفسار عن بعض الأمور التى يهمنا معرفتها ، كالحصول على الأكل الحلال ، وقائمة بالأطعمة التى يجب اجتنابها ، وكذلك أرقام هواتف بعض الأشخاص في بعض المدن الأمريكية للاتصال بهم لمساعدتنا عند الحاجة ، ولقد كان ذلك مفيداً جداً لمسنا فائدته في أوقات الحاجة .

وبهذه المناسبة فإنى أوصى كل مسلم يريد السفر إلى بلاد الغرب أو الشرق من البلدان غير الإسلامية أن يسجل أى عنوان أو رقم هاتف لمن يمكنه مساعدته شخصياً أو في أمور الدعوة إلى الله .

وفي يوم الأحد الموافق ٢٠ / ٧ أقلعت بنا الطائرة السعودية من مطار جدة الدولى إلى لندن في الساعة العاشرة والدقيقة العشرين صباحاً ، وكان وصولنا إلى مطار لندن في الساعة الرابعة والدقيقة العشرين ، أى كانت مدة الطيران الفعلى ست ساعات .

تمتــع وتكديــر :

■ وكان الجو في هذا اليوم صحواً ، وكنت أنظر من النافذة إلى الأرض لأتمتع بالمناظر الطبيعية ، فكنت تارة أرى الصحارى الغبراء وتارة ماء البحر ، وأخرى التواءات نهر جار ، ومرة خضرة غابات أو بساتين وأخرى بعض السحب المتراكمة أو المتفرقة ، كما كنت أرى بعض المدن ذات التخطيط الجميل والشوارع المستقيمة ، وهكذا مرت الساعات الست وأنا لا أشعر بأنى مسافر لما كنت أتمتع به من جمال خلق الله .

ولكن مضيفى الطائرة عكروا علىّ ذلك الجو الممتع عندما أخذوا يغلقون النوافذ وطلبوا منى إغلاق نافذتى التى كنت أطل منها على خلق الله لماذا ؟ لأن فيلماً سينمائياً سيعرض ليشاهده الركاب ويستمتعوا به ألا ما أحقره من فيلم وإنه لاستبدال الذى هو أدنى بالذى هو أعلى .

. ولقد تحملت مشقة فراق ذلك الأعلى دون أن أحفل بالأدنى وكنت أختلس رفع غطاء النافذة بين حين وآخر لألمح شيئاً من ذلك الجمال وكان الفيلم ثقيل الظل علىّ ، لأنى أريد أن أفتح النافذة بمجرد إنتهائه .

وبالقرب من مضيق دوفر إنتهى الفيلم فرفعتُ ستارة النافذة لأرى مضيق سباق السباحة .
وعندما قطعنا المضيق حال السحاب بيننا وبين الأرض فما كنت أرى منها قطعة إلا ليغطى السحاب أختها ، ولى مع السحاب حوار ، سيأتى عندما تعبر بنا الطائرة فوق المحيط الهادى ، في رحلتنا من لوس انجلوس إلى طوكيو . وهبطت بنا الطائرة في مطار لندن عاصمة الدولة العجوز التى لم تكن الشمس تغيب عنها .

في مطار لندن :

وعندما نزلنا من الطائرة كنت أقول في نفسى : متى تنتهى إجراءاتنا في مطار لندن الدولى الذى تهوى إليه الطائرات المليئة بالركاب من كل حدب وصوب ؟ وما إن دخلنا قاعة الاجراءات حتى تبددت تلك المخاوف فلكل رحلة جناح خاص ، وفي كل جناح موظفون ينقسم القادمون إلى مجموعات صغير فلا تمضى ربع ساعة إلا وقد انتهى كل الركاب من إجراءات الجوازات ، ونذهب إلى مكان تسلم العفش ، فإذا عفشنا قد وضع بجانب الساحب الموزع . وهكذا كنا نتسابق نحن وأثاثنا في مطارات الغرب كلها وفي اليابان ، لسرعة المعاملة والإجراءات .

فنــدق لنــدن :

هكذا سميته فندق لندن ، أما اسمه الحقيقى فقد أنسانيه كرهه الشديد عندى ـ أى كره الفندق ـ لسوء مناظره وخبث روائحه وكثرة أوساخه ، وكثرة المرضى من نزلائه ، هل تصدق أن فندقاً هذه أوصافه يوجد في لندن عاصمة المملكة المتحدة ؟ أى وربى صدق فالكاتب كان من نزلائه . وله قصة أرويها هنا ليحذر نزلاء لندن الجدد من العرب ، وخاصة من يصر على ارتداء زيه العربى هناك .

قصة الفندق والناصحون المتسولون :

فلقد قابلتنا فتاة لابسة زى موظفى المطارات ، وبيدها جهاز لاسلكى وسألتنى سؤالاً لا أدرى ما هو فأحلتها لفضيلة زميلى الدكتور فإذا هى تسأل : أتريدون مساعدة منى ؟ فأجاب نعم . نريد أثاثنا ـ كان ذلك قبل وصولنا إلى قاعة تسلم الأثاث ـ ونريد موظفى الخطوط السعودية لنتفاهم معهم ، فرافقتنا إلى مكان الأثاث ودلتنا على عربة النقل الصغيرة وأوصلتنا إلى موظفى الخطوط السعودية . وهنالك سلمتنا لموظف في علاقات الركاب ـ وأظنه مدير العلاقات ـ واستلمنا منها بابتسامات وترحيب واهتمام إنها محسنة سلمتنا إلى محسن وبدون أى مقابل مادى ظهر لنا إلى الآن .

وأخذ زميلى يتفاهم معه ومع بعض زملائه عن السكن الملائم وعن وسيلة المواصلات ، فبدأوا يحدثونه عن الفندق الفذ في لندن الذى لا يوجد الأمان إلا فيه ، وكل الفنادق سواه لا يأمن الإنسان فيها على نفسه ولا على ماله . الذى يجمع بين الأكل الأفرنجي والطعام العربى . الذى ينزل به السعوديون وغيرهم من الشرقيين .

■ والمواصلات ؟ أشار إلى سائق بجانبنا وقال : هذا سائق الملحق العسكرى السعودى ، وهو الذى يوصلكم إلى الفندق فظننا أن السفارة السعودية وصلت إلى حد استقبال كل وافد سعودى إلى هذه البلاد لمساعدته عندما يصل لعدم معرفته بالبلد ولغة أهل البلد ، الحمد لله رب العالمين . وبعد قليل سأل زميلى الموظف المبتسم المعنى بنا : ما اسمك ومن أين أنت فذكر اسمه المسيحى ولا أذكره الآن، إنه فلسطينى ، فوقع الشك في نفسى وبدأت أحافظ بشدة على الحقائب ولا سيما التى فيها الجوازات وخرجنا مع السائق فوجدنا حافلة صغيرة تنتظرنا فرفعنا أثاثنا وركبنا فوجدنا شخصاً آخر يرافقنا في السيارة ، ومعه زوجته المشلولة والظاهر أنه قد وصف له هذا الفندق كما وصف لنا . وبعد أن أخذ السائق طريقه بدا يذم فنادق لندن كلها التى لا يأمن الإنسان فيها على نفسه وماله . وأن هذا الفندق الذى ستنزلون به هو الفندق الوحيد الذى يطمئن فيه النزلاء . ودخل في نفسى الشك ورأيت فندقاً على يمينى فسألته كيف هذا الفندق ـ عن طريق زميلى ـ فأجاب : الليلة في هذا الفندق بعشرين جنيهاً أتريد أن أنزلكِ فيه وهو غال وغير مؤتمن وكان الجواب لا وفي نفسى أن نعم خير من لا ولكن دون جزم وعندما وصلنا بجوار تلك العمارة القديمة أخذنا نساعد صاحبنا زوج المرأة منا من يأخذ له المظلة ومنا من يأخذ له حقيبة اليد وهو يحاول بجهد إسناد زوجته حتى تدخل إلى إدارة الفندق ، وسلم السائق ركابه بالعدد لأحد العاملين في الفندق . وذهب دون أن يستلم منا الأجرة .

وأخذت أقلب النظر في ممرات الفندق الفذ ، وفي مكاتبه وفي بعض الحجر المجاورة ، وبدأت أشم الروائح الكريهة ، وأرى بعض النزلاء الذين قد لا يقدرون على استئجار مكان آخر غيره لفقرهم وطول إقامتهم للعلاج وأرى أشخاصاً آخرين ينظرون كما أنظر وهم متقززون من هذا النزل الكريم .

إيثار الخداع :

■ وبعد قليل اصطحبنا العامل الذى استلمنا من القائد بالعدد إلى إحدى الحجر التى وصفها بأنها خير حجر الفندق ، وأنه آثرنا بها لأنا مشايخ علم كما قال : وكان لباسنا يوحى بذلك ، فأنا سعودى ألبس الثوب والغترة ولبست العقال لأول مرة في حياتى حفاظاً على غترتى لشدة الهواء . وزميلى سودانى ، وله عمة كالبرج وأكمام كالخرج وعلمنا عند الله . وعندما رأينا الحجرة الطويلة العريضة ذات الأسرة الأربعة قلنا للرجل أنا نريد حجرة بسريرين فقال : لا يهم اننا نحسبها لكم بسريرين . أى والله لقد وصلت الفريسة إلى الفم ولا يمكن لجائع إفلات فريسته . تركنا وذهب

نظرات اشمئزاز :

■ فأخذ كل منا ينظر إلى البسط والأغطية ويقلبها وينظر إلى الوسائد وأكياسها ، وإلى أرجاء الحجرة وما تحتوى عليه جدرانها من بقع تتقزز منها النفوس ، ثم أخذنا نفتش لنجد بيت الماء خارج الغرفة وهو مشترك وعندما دخلته أسرعت بالخروج منه ، فسألنى الزميل أتوضأت بهذه السرعة ؟ فقلت له : أدخل وتوضأ قبلى لأعد نفسى للدخول مرة أخرى .

وبعد إجبار أنفسنا على الوضوء صلينا المغرب والعشاء حتى لا نتوضأ مرة أخرى ، وأخذنا نفكر ماذا نفعل ؟ أننام في هذه الحجرة ؟ وهل يا ترى يأتينا النوم فيها ، ومن أين نأكل ؟ ونظرنا من بعيد إلى المطعم فوجدنا حجرة كبيرة ، يطبخ النزلاء فيها لأنفسهم ويلتمسون الأكواب للشرب فلا يجدونها .

لابد من مخرج :

■ فقلت لزميلى : عندى صديق يسكن في ضواحى لندن ، وقد أعطانى بعض إخوانه رقم هاتفه قبل مغادرتنا المملكة ، وما كنت أريد إزعاجه في الليل ويسكن خارج المدينة ولا أدرى كيف ظروفه ولكن لابد من حل ولا نعرف غير الاتصال بصديقنا لينقذنا من هذه الورطة .

اتصل الزميل بالصديق : محمد أشرف حياه وأخبره أن صديقك ـ فلاناً ـ موجود في المكان الفلانى ، فتردد الصديق في معرفة المكان ولكنه كان ذكياً فطلب رقم هاتف الفندق وقيده عنده .

بجانب الشارع :

■ وخرجت أنا من الفندق لأقف بجوار بابه على الرصيف والهواء البارد شديد وأحس بالتعب والبرد ولكنى أشم هواء لا أوساخ فيه وأنظر إلى الشارع لعل الصديق يصل بين لحظة وأخرى ، وكنت مع الشارع كما قال الشاعر :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في التر ب خاتمه

نعم : الشارع نظيف والفندق قذر ، في الشارع هواء طلق ، وفي الفندق روائح منتنة ، فالصبر على البرد والقيام خير ، وكنت كلما رأيت شخصاً قادماً إلى الفندق فيه بعض القسمات التى أتخيلها في صديقى ظننته إياه ، وطال الانتظار والصديق صهرى ولكنى لم التق به من قبل ، وعندما تعبت جلست على مقعد أكل عليه الدهر وشرب في أقرب ممر إلى الباب ، وتعب صديقنا في التماس الفندق الفذ الذى لا يدرى أهل لندن عنه شيئاً ، ولما لم يستطع الاستدلال عليه ذهب إلى موظفى الهاتف فأعطاهم رقم الهاتف وطلب منهم عنوان الفندق فدلوه عليه إنه يقع في قلب لندن ، وفي مكان مشهور جداً إنه قرب حديقة : هايدبارك .

فرج بعد استبطاء :

■ وبعد انتظار طويل قريب من اليأس وصل محمد أشرف إلى الفندق ، قال : أيوجد هنا عبد الله القادرى فلم أتمالك أن أعتنقته قبل أن يجيبه أحد وكان ينظر إلى نواحى الفندق القريبة منه نظر استغراب ، وكنت أقرأ في نظراته العبارة التالية : صهرى عبد الله القادرى ، القادم من بلاد غنية ، كالمملكة العربية السعودية ، ذو الوظيفة الجيدة ، عميد كلية اللغة العربية ينزل في هذا

المكان الذى لا يصلح مأوى إلا للمعدمين ولكنه لذكائه لم يفصح عما في نفسه فطلب منا أن نصعد إلى الحجرة ليكون حديثنا مقصوراً علينا .

إنه لم يقدر على الاستمرار في الترحيب ، كما هى عادة الأصدقاء والأحبة الذين يستقبلون صديقاً حبيباً ، فبدأ يسأل كيف نزلتم في هذا المكان ؟ فأخبرناه بقصتنا ، وكان الوقت تقريباً الساعة الثانية عشرة بتوقيت بريطانيا الصيفى .

قصة العشاء وفرش الملابس :

■ فسألنا هل تعشيتم ؟ فقلنا : لا ونحن في أمس الحاجة إلى الطعام ولم نقدر أن نذهب إلى أى مطعم خشية أن نصادف حراماً والثقة في أعدائنا غير متوافرة ، وكنا مشغولين بالوضع الذى كنا فيه .

فاتفق مع زميلى على أن يذهبا للبحث عن طعام حلال ، وأن يدعانى أرتاح في الحجرة ، وحقاً لقد كنت مضطراً للراحة ، فأبعدت الغطاء الذى كان على أحد الأسرة وفرشت بعض الغتر وبعض الثياب الخاصة بى على البساط والوسادة ، واضطجعت بعد تردد شديد وجسمى يكاد يقفز من على السرير ولكن لشدة التعب وعدم النوم في ذلك اليوم الطويل أغاثنى الله بالنوم فكان كما قال الله تعالى : « وجعلنا نومكم سباتا » أى راحة .

وبعد زمن غير قصير نسبياً سمعت طرقاً بالباب ففتحت فإذا الصديق والزميل قد جاءا فنظرت إلى الساعة فإذا هى الثالثة صباحاً ، فسألت أهذه المدة كلها كنتما في بحث عن الطعام فذكرا أنهما ركبا قطاراً وذهبا إلى مكان بعيد فيه شخص يبيع الطعام الحلال ، وكان عبارة عن خبز محشو باللحم « سندوتش » فأكلنا ونام صديقنا معنا بدلاً من مطالبته الملحة قبل ذلك بمرافقته لننام في منزله ، لأن منزله بعيد عن المدينة ولم يبق على الفجر إلا قليل .

واتضح لنا بعد ذلك أن أهل الفندق مع موظفى الخطوط السعودية الذين هم مسئولون عن علاقات الركاب وهم فلسطينيون ، وغيرهم يكونون شركة خداع وغش لا مثالى ممن لا خبرة له بالبلاد ، وأن المغنم يقسم بين الجميع .

لا عودة بعد اليوم إن شاء الله :

■ وفي صباح يوم الإثنين الموافق ٢١ / ٧ حزمنا حقائبنا ونزلنا إلى إدارة الفندق لنحاسبه ونودع الفندق إلى غير رجعةإن شاء الله .

وفي الإدارة إتفقنا على الاتصال بالحاج أحمد بابا السودانى هاتفياً إذ كان اسمه ضمن الأسماء التى سجلناها مع رقم هاتفه ، وهو في أنديانا بلس ، وكان الاتصال تقريباً في الساعة التاسعة

فلم نجد الحاج ، وإنما أجابتنا زوجته وذكرت أنه مسافر وكان أهل اندينا لا زالوا نائمين في الليل ، فذكرنا لها أننا سنصل إلى نيويورك غداً الثلاثاء ولا نعرف هناك أحداً ونحب أن يقابلنا أحد الأصدقاء فقالت أنها ستعمل جهدها هى ولقد وفت بوعدها كما سيأتى الكلام عند وصولنا إلى نيويورك .

واتفقنا على أن نتجول هذا اليوم في لندن لنزور بعض المراكز الإسلامية فقال لنا أخونا محمد أشرف : نذهب أولاً إلى محطة القطار الرئيسية لإيداع الأثاث هناك ، ثم ننطلق لزيارة الأماكن التى تريدون زيارتها .

إلى أين يجرى الناس ولماذا ؟

■ فذهبنا إلى المحطة المذكورة ونزلنا في الطوابق السفلى لنرى عالم الذر الكبار يموج في كل اتجاه . لقد رأينا الناس يجرون جرياً غير عادى عندنا كل طائفة تيمم جهة وبعضهم يقف ويتأمل في كتابات الجدران ثم ينطلق مهرولاً ، فقلت في نفسى ، لعل حرباً عالمياً قامت ، أو حرائق نشبت ، ولكن رأيت صاحبنا محمد أشرف يعمل مثلهم يقف ويتأمل في كتابة الجدران ثم ينطلق ونحن مضطرون أن نتبعه وعرفنا بعد ذلك أن الناس منطلقون إلى أعمالهم وإذا لم يجروا فإن القطار يفوتهم ـ ويأتى قطار آخر ولكن بعد أن تمضى بعض الدقائق التى تعتبر فائتة من وقتهم ، ويقف الناس في طوابير ليأخذوا تذاكر الركوب ، ولكن ينتهى الطابور بسرعة دون إزدحام أومحاولة المتأخر أن يتقدم على من قبله كما هو الحال عندنا .

وهناك آلات خاصة لمن هو أكثر عجلة لا يريد الوقوف بالطابور يستطيع أن يرمى فيها قروشه المطلوبة ويضغط على الزر فتعطيه البطاقة ولكنها أغلى من البطاقة التى تؤخذ من البشر .

والسلالم صاعدة وهابطة بعشرات الناس تسعى بهم سعياً حثيثاً ولكنهم لا يكتفون بسرعة تلك السلالم فيجرون هم أيضاً عليها إنهم يسابقونها لأنها بطيئة في نظرهم وذلك من أجل أن يدركوا ما هو أسرع منها وهو القطار ولا يقف على درجات تلك السلالم إلا العجزة ومن لا ارتباط لهم بالوقت وكنا من هذا الصنف الأخير وكنت أخشى في أول الأمر أن تلحق إحدى السلالم الأخرى فتطحن رجلى ولكن الله سلم .

زحام وهدوء :

■ وكل تلك الجموع الكثيرة وتلك الحركات السريعة والهدوء يسود الناس والنظام يسير معهم ، لا تسمع صوتاً ولا ضوضاء ، بل لا يلتفت أحد لأحد ولا يسأل أحدا أحدا ، وإنما يسيرون على حسب التعليمات المكتوبة على اللوحات في الجدران .

وذهب بنا محمد أشرف إلى مكان إيداع الأثاث لقاء أجر قليل من القروش وأخذ بطاقة استلام بذلك . ثم نزلنا فوقفنا لحظات جاء بعده القطار فركبنا ، وأخذت أنظر إلى الناس فإذا هم ما

بين قارئ في جريدة أو كتاب أو متحفز للنزول في المحطة القادمة . وهناك أماكن في القطار يحظر فيها التدخين وأخرى يباح فيها ، كل راكب يستطيع أن يكون في المكان الذى يناسبه .

إلى دار الرعاية الاجتماعية :

■ وكنا متوجهين إلى زيارة دار الرعاية الاجتماعية في لندن فخرجنا من أنفاق القطار من الطوابق السفلى إلى ظهر الأرض فوقفنا لحظات ، فإذا الحافلة ذات الطابقين واقفة فركبناها ونزلنا في المكان الذى يظن أن المقر قريب منه فدلنا بعض أهل الحارة على منزل فطرقنا بابه فخرجت امرأة سورية محتشمة تخاطب زميلى وصديقى باللغة الإنجليزية فلما رأتنى ألبس اللباس العربى إنطلقت عقدة لسانها ورحبت بنا فسألنا عن المسئول عن الدار فقالت : إن هذا المنزل تابع لها (أى للدار) ولكن فيه تعليم بعض الأطفال وأشارت لنا إلى مكان الدار في الجهة التى أتينا منها فرجعنا أدراجنا نلتمس الدار ، فإذا أنا أرى مكتبة تجارية تحتوى على كتب عربية كثيرة فقلت للأخوين ندخل هذه المكتبة لعلنا نجد من يدلنا على الدار ، فدخلنا وسألنا مدير المكتبة فقال إنكم الآن في الدار . فتفضلوا على الرحب والسعة .

واتصل بالأخ المسئول عن الدار فجاءنا فوراً ، وكان على خلق فاضل وسمت المسلم الفاضل ـ ولا أزكى على الله أحداً ـ فتعرف علينا ورحب بنا وطلب منا أن نبقى حتى نتناول طعام الغداء فاعتذرنا لضيق وقتنا وقد وعدنا بعض الجهات بالزيارة ، فتوضأنا وصلينا معهم الظهر وشربنا الشاى ، ثم تجولنا في المكتبة التى تحتوى على كتب إسلامية كثيرة ، ومنها كتيبات صغيرة للأطفال والمبتدئين في اللغة العربية ، وأشرطة لتعليم اللغة الإنجليزية ، ومصاحف مسجلة في أشرطة ويشتمل المركز على مسجد وبجانبه دورة مياه كاملة للوضوء ، وقاعة لبعض الألعاب الرياضية الخفيفة ومكان للاستقبال ، ويفد إليهم بعض الطلبة المغتربين للصلاة معهم والمذاكرة والقراءة وهم يقومون بمجهود يشكرون عليه على رغم قلة الإمكانات .

بعد ذلك ودعناهم وذهبنا إلى منطقة (وستئند) ذات المبانى القديمة ، المزدحمة بالسكان والسائحين الأجانب والمشهورة بالمراقص والمسارح ودور السينما والفساد الذى لا ينبغى وصفه بالتفصيل .

تائهون لفقدهم ذكر الله :

■ وقبل وصولنا إلى المنطقة المذكورة وجدنا في طريقنا طائفة من البشر مختلطة من الرجال والنساء ، لا يعرف الفرق بينهم إلا بلحا الرجال أطلقوا شعورهم ولبسوا ملابس رثة ، وتبدو القذارة على ثيابهم والحسرة على وجوههم ، وهم يحملون أدوات الموسيقى ويوقعون عليها ويضربون الدفوف ويرقصون ويغنون ، وكنت لا أفهم من كلامهم إلا هوم هوم فسألت ماذا يريدون من ذكر المنزل فقيل لى أنهم يقولون في أغنيتهم كيف السبيل إلى عودتنا إلى منازلنا والناس مجتمعون

حولهم ، منهم من يسمع صامتاً ، ومنهم من يضحك ثم شرح لنا محمد أشرف حالهم ، فقال : إن هؤلاء كانوا من أولاد الأغنياء ذوى الأموال الطائلة والقصور العالية والسيارات الفخمة تعبوا من عيشتهم المادية وخرجوا يلتمسون في الشوارع وعلى الأرصفة وفي الحدائق العامة وغيرها شيئاً يريحهم فلم يجدوا ذلك أيضاً ويريدون أن يعودوا إلى البيوت ولكنهم قد جربوها فهم يسألون عن السبيل إلى بيوتهم مع وجود الطمأنينة والرضا فقلت لزميلى الدكتور - وهو الذى يترجم بينى وبين محمد أشرف قل له يدعوهم إلى فعندى بإذن الله السبيل الذى يعيدهم إلى منازلهم مع وجود الرضا والطمأنينة . وكنت جاداً في ذلك ومتيقناً أنهم لو سمعوا منى شرح كلمة التوحيد وبعض ما تقتضيه من طاعة الله والصلة به لتحولوا من ضائعين إلى مرشدين ولكن أخانا محمد أشرف أجاب بأن هؤلاء وصلوا إلى درجة من القناعة التى لا تسمح لهم بأن يسمعوا من أحد من المجتمع أى نصيحة لأنهم لم يخرجوا إلى هذه الحال إلا بعد أن يئسوا من إصلاح هذا المجتمع وهم ذوو عنف فقد يضربون من يحثهم فحوقلت ودمعت عيناى حسرة على انحطاط المسلمين الذى خسر به العالم كما قال الأستاذ الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، وبدأت أتأمل عنوان هذا الكتاب من جديد مع أنى قد قرأت الكتاب مراراً وبدأت أشعر بعاطفة المؤلف وتخيلت أنه أسال دمع عينيه مع حبر قلمه عندما كتب هذا العنوان .

مستنقع اسن :

■ واصلنا السير إلى منطقة (وستئند) فرأيناها فعلاً تختلف عن الأماكن الأخرى التى مررنا بها في المدينة .

وكان أشرف يقرأ بعض الإعلانات المكتوبة على بعض المبانى ويخبرنا بمعناها وأنها لا حظ من أن أسجلها هنا بقلمى وكان يقول لنا أن أموال الأثرياء في الشرق الأوسط تنفق بين هذه الجدران وأن هذه المكان من أهم الأماكن التى ينطلق منها تحطيم أخلاق المسلمين في كل مكان وأن اليهود هم الذين يسيطرون عليه ، ولقد ضقنا ذرعاً بالمناظر القذرة والمشكلة أنى كنت أرتدى اللباس العربى ، والعرب الساقطون معروفون بالتردد على هذا المكان ، لذلك أشعرت الأخ محمد أشرف أننا في حاجة إلى الذهاب إلى المركز الإسلامى .

وفي هذا المكان القذر رأينا بعض المطاعم التى كتب عليها أنها تقدم الطعام الإسلامى فتعجبت وسألت أشرف أحقاً هذا أم أنها مصيدة لمن بقى عندهم شئ من الصلاح يترددون على مثل هذا المطعم فتصطادهم حبائل الشيطان فأجاب أن هذا هو الصحيح .

المركز الثقافي الإسلامى :

■ ثم ذهبنا إلى المركز الثقافي الإسلامى الذى يحتوى على مسجد كبير بطابقين : أحدهما للرجال والآخر للنساء ، وبه دورات مياه واسعة ونظيفة ومجهزة . ومكتبة ، وبه مكاتب إدارية . وتعجبنا عندما رأينا بعض الفتيات يعملن في مكاتب المركز الإسلامى فقيل لنا أنهن مسلمات بريطانيات ولابد لهن من عمل وعملهن في مكاتب المركز أولى من عملهن في أماكن أخرى ، هكذا قيل وأرى أن

مثل هؤلاء الفتيات إذا لم يوجد من يعياهن شرعاً أن تفتح لهن أبواب عمل أخرى ينفعن فيها أكثر مثل دار الحضانة لأبناء المسلمين وروضة أطفال وما شابه ذلك وهناك بقينا فترة ننتظر حتى جاء أخونا الكريم الدكتور سيد متولى الدرش إمام المسجد ، وعندما رآنا رحب بنا وأدخلنا معه إلى مكتبه ، وبدأنا التعارف كما زرنا الأخ مدير المركز الدكتور زكى بدوى وكانت الجلسة مع الأخ الدكتور سيد طويلة عرفنا من خلالها بعض أعمال المركز ، والحقيقة أنها في نظرى محدودة جداً على رغم أن منظر المسجد والمكاتب الإدارية يعطى انطباعاً بأعمال أكثر ، وذكر لنا الأخ سيد أن الجاليات الإسلامية في بريطانيا كثيرة وأعدادها كثيرة ، وأنها في أمس الحاجة إلى مديد من العون لها بفتح مدارس لأبنائهم وبناء مساجد وأئمة ومدرسين ودعاة .

وذكر أن هناك من يقوم بشئ من الدعوة والتبليغ ، كالباكستانيين الذين يبذلون جهوداً طيبة ، ولكنهم ليسوا على المستوى المطلوب في فهم المشكلات المعاصرة والأحزاب المعادية للإسلام وشبهاتها ، وفي نفس الوقت عندهم تعصب للمذهب الحنفى ولا يتعاونون مع من يخالفهم في آرائهم .

وطلب منا الدكتور سيد أن نبلغ المسئولين في المملكة العربية السعودية أنه ينبغى أن تبذل جهوداً أكثر في الدعوة إلى الله ، ومن أهم وسائلها : المدارس والمدرسون والأئمة المزودون بالعلم والمربون على أساليب الدعوة ، فوعدناهم بأننا سننقل ذلك .

جولة سريعة في بعض معالم لندن :

■ بعد ذلك اتصل أخونا محمد أشرف حياة بأحد أصدقائه ، المدعو شيهان حسين الذى يدير إحدى محطات القطار في لندن وأخبره بوجودنا ، والظاهر أنه كان علم عنى في الجملة بمصاهرتى الأخ أشرف فقال له شيهان : إنتظرونى سآتيكم بعد قليل ، وجاءنا فعلاً بسيارته ، وأخذنا للتجول في بعض الأماكن المشهورة في لندن .

وكان مرورنا سريعاً ، وقد لا ننزل من السيارة في بعض الأماكن فمررنا بحديقة هايدبارك التى خصص جزء منها لحرية الكلمة والنقد ، إذ يأتى إليه من يريد ويلقى ما يشاء من الكلام حتى يفرغ كل ما في جعبته دون أن يمس بأذى ولو كان كلامه في الملكة أو رئيس الوزراء أو أعضاء البرلمان أو غيرهم وليس له كل ذلك خارج هذا الجزء من الحديقة ـ وبالمناسبة فقد كان فندق لندن قريباً منها .

ثم ذهبنا إلى مبنى مجلس الوزراء وتجولنا حوله ، وكذلك مبانى البرلمان ثم مقر الملكة الذى لا يوجد في باب حائطه حراس ، وإنما حارس أو حارسان في باب القصر والناس يحومون حوله ويصورون (والظاهر أنه لابد من حراس غير ظاهرين) وهناك وقفنا على جسر ووترلو .

ومررنا بالبرج الذى أقيم عليه تمثال نلسن تخليداً لذكراه وتحيط به تماثيل أخرى لبعض زعماء بريطانيا ، كما تحيط به تماثيل الأسود ، والمياه تتدفق من كل جانب ·

ولا أدرى متى يسمع صوت المسلم الذى يحطم تلك التماثيل وهو يقول : « قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » إقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم عندما فتح مكة ؟

إلى منزل أشرف :

■ وبعد جولة في شوارع لندن إصطحبنا الأخ محمد أشرف إلى منزله في مدينة لوتن - إحدى ضواحى لندن في الشمال منها - وتبعد عنها بثمانين كيلو متراً وكان قائدنا الأخ شيهان حسين الذى بلغت سرعة قيادته في بعض الأماكن أكثر من مائة وأربعين كيلو في الساعة ·

وهناك نزلنا ببيته الصغير ذى الطابقين : الطابق الأول فيه غرفة الاستقبال والمطبخ ، والثانى فيه غرف النوم وبيت الماء والحمام وأخذ يقدم لنا أبناءه عمر واخوانه واخواته فسلموا علينا كأنهم يعرفوننا من قبل وتحلقوا حولنا فذكرونى أنا وزميلى الدكتور بأبنائنا الذين تركناهم قبل يومين ، وسنغيب عنهم أكثر من شهر ، وكان الأولاد أحسوا بعواطفنا فلم ينفضوا عنا ، لاسيما عندما عرف الكبار منهم صلة الرحم والمصاهرة بيننا وبدأنا المذاكرة مع الإخوة في أمور الإسلام ووجوب التمسك به وحفظ الأبناء من تيار الكفر الجارف ، وأن العمر الحقيقى للمسلم هو الذى يقضيه في طاعة الله ·

على من تقع المسئولية ؟

■ فاعترف الأخوة بذلك ، ولكنهم قالوا : نحن رجال أعمال لا نعرف الإسلام معرفة تمكننا من تعليم أبنائنا ، وليس عندنا الأوقات الكافية لنكون معهم فلابد من مساعدة الجاليات الإسلامية هنا بالمدرسين وأئمة المساجد والكتب التى تشرح مبادئ الدين الإسلامى · ولابد من تكرار الزيارات لنا من العلماء لتذكيرنا ودلالتنا على ما يمكن القيام به ، وأنا نحملكم المسئولية هذه لتنقلوها إلى المسئولين في المملكة العربية السعودية التى لم تبق دولة في العالم مثلها في التمسك بالإسلام والدعوة إليه ، وقد أغناها الله بالإمكانات التى تستطيع بها أن تغزو العالم كله بالإسلام ، فوعدناهم بأننا سننقل رغبتهم ولكنهم يجب أن يعملوا شيئاً بأنفسهم ، وإن كان من الواجب مساعدتهم ·

وقدم لنا أخونا طعام العشاء الذى أعد في المنزل ، وهو يذهب على دراجته النارية إلى مكان بعيد لشراء اللحم الحلال الذى ذبحت دابته على الطريقة الإسلامية ، فكنا نتناول طعاماً لا نفرق بينه وبين طعام بيوتنا ·

وبعد مذاكرة ونقاش حول الأمور الإسلامية استأذن الأخ شيهان حسين ليعود إلى لندن ويدعنا ننام في بيت محمد أشرف ، وكنا قد تعبنا في نهار ذلك المساء حيث كنا نجرى كما يجرى البريطانيون أو أقل قليلاً وتنقلنا بالقطار لجهات متعددة ولم نذق النوم بعد أن صلينا الفجر ، بل إننا في اليوم السابق كله لم ننم ، وفي الليلة الماضية نمنا قليلاً جداً لذلك كله كان نومنا عميقاً طول الليل .

وداع الصغار :

■ وفي يوم الثلاثاء الموافق ٢٢ / ٧ نهضنا من النوم متأخرين فصلينا الفجر وكان قد أعد لنا طعام الإفطار ، فأفطرنا ، ومر بنا أولاد محمد أشرف الصغار يودعوننا للذهاب إلى المدرسة .

من دخل بلادنا حمر :

■ وكأننا تأخرنا قليلاً عن موعد الحافلة التى تقف عند باب المنزل لتوصلنا إلى محطة القطار الدنيا ، فخرج محمد أشرف يجرى قبلنا ونحن نجرى أيضاً والناس يجرون من كل جانب رجالاً ونساء وأطفالاً لإدراك الحافلة في شارع مجاور لمنزل أشرف .

لقد ألفنا الجرى مع البريطانيين ، وإنها لعادة طيبة أن يحافظ الإنسان على وقته .

عمارة وخسارة :

■ ولكن هل ترى هؤلاء المهرولين للحفظ على أوقاتهم ، حقاً يحافظون على أوقاتهم ؟
نعم : إنهم لا يفوتون أوقات الأعمال ، ولا الأوقات المعدة للطعام ولا الأوقات المعدة للنوم ، ولا الأوقات المعدة للقراءة في غيرها ، بل كل عمل يعطونه وقته ، ولذلك ترى ثماراً جبارة مادية لأعمالهم ونكران ذلك يعتبر حماقة وظلماً .

ولكن القوم ـ وهذه حقيقة كسابقتها ـ بدون أعمار في نظر الإسلام لأن العمر الحقيقى هو الذى يفنى في طاعة الله ـ ومن طاعة الله تلك العمارة المادية الضخمة للدنيا ، من شق شوارع وبناء جسور وتيسير مواصلات تحت الأرض وفوقها على ظهرها وفي أجواء السماء ، وفي أعماق البحار ومن دقة في المواعيد ، وسرعة في المعاملة ، وغير ذلك مما يشهد به الواقع ـ ولكن هذه الأمور كلها لا تكون طاعة لله إلا على أساس الإيمان به وطاعته في أمره ونهيه ، وإقامة العدل في الأرض ، ومحبة الخير للبشرية ودعوتها إلى ما ينفعها أى الإسلام الكامل لله ، وهذا ما يفقده القوم ، لذلك أقول أنهم محافظون على أوقاتهم ، ولكنهم ضيعوا أعمارهم .

• • •

لوعـة الفـراق :

■ وكان الأخ محمد أشرف يحس بلوعة الفراق ، لاقترابه ، وكنا نرى ذلك على وجهه ، وفعلاً ودعنا وودعناه ، وعيناه تغرورقان وأوصانا بالحذر على نقودنا وجوازاتنا وتذاكر سفرنا في الغرب لأنه يعج بالمجرمين فشكرناه على ذلك ودخلنا إلى البوابة ، وكنا نظن أننا سنخرج إلى باحة المطار لتستقبلنا حافلة تنقلنا إلى الطائرة ، ولكنا فوجئنا بوجودنا في مقدمة الطائرة والمضيفة تنظر في بطاقات الدخول وتشير إلى مقعدينا ، فعرفنا أن الطائرة تقف بجانب ممر مصنوع بدل السلم لا يسمح للشمس أن تلفح الراكب ولا للمطر ، وهو هناك كثير، أن يبلله . ولعلنا نجدها قريباً في مطاراتنا .

دلتنا المضيفة على مقعدينا أنا وزميلى ، وقد وضعوا بطاقة وراءنا بمقعدين أو ثلاثة كتب عليها : ممنوع التدخين ، وفاء بالشرط الذى اشترطناه .

عناية المضيفين بالركاب :

■ وكان إقلاع الطائرة من مطار لندن الدولى في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين ، وكان الاتجاه إلى الغرب مع ميل قليل إلى الجنوب ، والرحلة كلها كانت فوق المحيط الأطلسى : « بحر الظلمات سابقاً » .

وبدأ المضيفون يقدمون للركاب الهدايا التذكارية وهى عبارة عن محفظة من البلاستيك بها قارورة عطر وجوارب متينة يلبسها الراكب بدلاً من النعلين لطول المسافة وأشياء أخرى وعندما بدأت أتصفح الجريدة فوجئت بأن زعيم اليمن الجنوبية سالم ربيع قد قتل وأن معارك تدور رحاها بين أعضاء الحزب الشيوعى الحاكم في عدن فذكرت بيت الشعر المشهور :

حجج تهفات كالزجاج تخالها   حقا وكـل كاسـر مكســور

وبدأوا يسألوننا بصفة خاصة عن الطعام الذى نريد ، لأنا قد طلبنا من قبل طعاماً حلالاً ، وأخذ زميلى يشرح ما نريد ومالا نريد والمضيفة تصغى وتفهم منه كلمات وتشكل عليها أخرى فتستفسر عنها إذا ظنت أنها فهمت منه ذهبت وجاء المضيف الآخر ليتأكد من صحة ما نقل ويؤكد اهتمامهم بتقديم ما نريد . وأنهم ليتفاهمون معنا وهم يستغربون من خوفنا وشكوكنا في أطعمتهم وأشربتهم وكنت أقول لزميلى أخبرهم أنا مسلمون وأن ديننا يحرم علينا مافيه ضرر بأجسامنا أو عقولنا كالخنزير والخمر وكانوا إذا ذكر الإسلام أبدوا إهتماماً بنا وهزوا رؤوسهم تعجباً .

• • •

كرماء بالخمر بخلاء بالسكر :

■ وقدم الطعام ، وجاء دور الشراب ، فكانت قوارير الخمر وكؤوسها تحدث رنيناً والمضيفون والمضيفات يترددون على الزبائن كلما رأوا كأساً فارغة ملأوها لصاحبها ليشرب مرة أخرى وهم يقدمون للراكب أجود أنواع الخمر في مثل هذه الرحلات الطويلة ، لا سيما ركاب الدرجة الأولى كما أنهم يسقونهم حتى لا تبقى بهم حاجة للسقى .

أما نحن فقدموا لنا كوبى ماء وكوبى شاى ، وانتهى الأمر فبقى المضيفون متضايقين من الحالة التى نحن عليها ، وهى أن الركاب أخذوا حقوقهم وزيادة ، أما نحن فشرابنا ماء وشاى فقط فكانوا يترددون علينا ويقولون ماذا نفعل لكم ، هل تحبون أن نعطيكم شيئاً ؟ فيجيب زميلى ثنكيو ، أى شكراً ، وهنا وقعت نكتة بين الزميل وبين المضيف : الغربيون لا يكثرون من السكر في الشاى ، وزميلى سودانى ـ أصلاً ـ ـ مصرى ـ مهاجراً ومصاهرة ، يحب أن يكون السكر كثيراً ، فجاء المضيف بكوب الشاى ومعه علبة فيها أكياس السكر فأعطى الزميل كيساً ، فقال له : أعطنى آخر فأعطاه فقال : وآخر فأعطاه ، وما كان موجوداً غير الآخر فأعطاه وقال له : المطعم قد أقفل فلا تطلب كيساً آخر ، مع إستغرابه لأخذ هذه الكمية الكبيرة في نظره لأنه لم يزر مصر ولا السودان كما يبدو .

إنعام وكفران :

■ وبعد تناول طعام الغداء وإكثار الركاب من الشرب أخذت الصيحات تتعالى والأصوات ترتفع فخشينا أن يقوم هؤلاء الناس كلهم يتضاربون فيما بينهم وقد لا نسلم منهم ، إذا غابت عقولهم ولكن الله صرفهم عنا فذهبوا إلى الدور الثانى وتركوا لنا المكان .

ثم أخذت المضيفة تنزل أغطية النوافذ لعرض فيلم الرحلة ، وأنا من طبيعتى أحب أن أرى مناظر خلق الله على طبيعتها فأسرعت بقفل نصف النافذة الأعلى وأبقيت نصفها الأسفل وعندما مرت بقربى خشيت أن تحرمنى تلك الفتحة فقلت لزميلى أخبرها أنى أحب أن أتمتع بمنظر البحر والسحاب والجزر إن وجدت فأخبرها فتركتنى وشأنى .

البوصلة أخافت المضيف :

■ وكانت بيدى بوصلة أعرف بها الاتجاه وبها مفاتيح الزميل ورآها المضيف وأظنه من رجال الأمن ، فلما رآنى أنظر إليها بين آونة وأخرى شك في أمرها ولعله ظنها من المفرقعات الموقوتة فجاء إلى زميلى يسأله ما هذا الذى بيد رفيقك فأجابه الدكتور فاطمأن وسكت .

وعندما بدأنا نقترب من مدينة نيويورك بدت بعض الجزر ذات الأشكال الهندسية العجيبة ، وبدت بها مرتفعات ووديان وكانت كلها خضراء ·

في مطار نيويورك :

■ وهبطت الطائرة في مطار نيويورك الدولى في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة بتوقيت بريطانيا ، فكانت مدة الطيران على المحيط الأطلسى ست ساعات وخمساً وثلاثين دقيقة ، والفرق الزمنى بين لندن ونيويورك خمس ساعات ، إذ كانت الساعة في نيويورك وقت هبوط الطائرة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين ·

ودخلنا قاعة تسلم الأثاث فأخذنا أثاثنا ومررنا في صف بالجمرك الذى لم يمض عليه إلا قليلاً وقد إنتهى من التفتيش وكان يفتش أثاث الركاب بدقة ولكنه لم يفتح حقائبنا إلا الحقيبة اليدوية التى كانت بيد الزميل ، ونظر في الجوازات فوجد البطاقة التى كتبت في الطائرة ثم خرجنا فوجدنا الأخ ضاحى الحكيم في إنتظارنا وهو شاب فلسطينى يحمل الجنسية الأمريكية ويعمل نجاراً وما كان يعرفنا ولا نعرفه · ولكن زوجة الحاج أحمد بابا السودانى التى إتصلنا بها من لندن يوم الإثنين ٢١ / ٧ وهى في أنديانا قد إتصلت بصديقة لها في نيويورك وطلبت منها تكليف من يستقبلنا ممن يجيد اللغة العربية فجزاها الله خيراً على اهتمامها وكثر من النساء أمثالها ، فإن وجود شخص من أهل البلد يدل النازل الجديد من أهم الأمور ، وإذا تذكرنا فندق لندن عرفنا نعمة وجود الأخ ضاحى في إستقبالنا ·

وكان الأخ ضاحى قد حجز لنا حجرة ·· في فندق تودر الذى يقع قرب مبنى هيئة الأمم المتحدة ، وبعد أن نزلنا في الفندق ودعنا وأعطانا رقم هاتف منزله لنتصل به إذا دعت الحاجة ، وفهمنا منه أن والده موظف في الأمم المتحدة وأن أخته إحدى الدليلات في هيئة الأمم المتحدة إلا أن أباه في چنيف ·

في مكتب رابطة العالم الاسلامى :

■ وفي يوم الأربعاء ٢٣ / ٧ إتصلنا بمكتب رابطة العالم الإسلامى في نيويورك فوجدنا شقيق الأخ مدير المكتب أحمد صقر وأخبرناه أننا في الفندق المذكور وأنا نريد زيارة المكتب ولكنا لا نعلمه فقال : : أن المكتب قريب منكم جداً ولكن انتظروا دقائق في نفس الفندق ، فانتظرنا خمس دقائق تقريباً فجاءنا وسلم علينا واصطحبنا معه إلى المكتب ·

وهناك تم اللقاء بالأخ الدكتور عثمان أحمد الذى جلس معنا طويلاً وشرح لنا أحوال المسلمين في أمريكا وذكر لنا بعض ما يقوم به المكتب من الأعمال في هيئة الأمم المتحدة ، ومساعدة بعض المسلمين في الحدود المتاحة له ، وأن المكتب في حاجة إلى دعم أكثر وصلاحيات أوسع ، لأن

المشاكل التى تتطلب الحلول للمسلمين في أمريكا كثيرة لا يفى بها المكتب ولا المراكز الإسلامية الأخرى بوضعها الحالى .

وضرب لنا أمثلة بالمسلمين الذىن يدخلون السجون ويتصلون بالمكتب يطلبون العون ، كما أن المشاكل الأسرية التى تحدث للمسلمين تستدعى تقديم بعض العون والمكتب لا يستطيع أن يقدم إلا في حدود ضيقة جداً بعد زمن طويل من الكتابات والمعاملات الرسمية .

وليت المسئولين عن المراكز الإسلامية يعلمون ما تقدمه المراكز المسيحية وغيرها من المعونات لاتباعهم ويتعظون بذلك وهم أهل الحق وغيرهم أهل الباطل .

في مبنى هيئة الأمم المتحدة :

■ كما التقينا ببعض أعضاء المكتب وحصل التعارف بيننا وبينهم . واصطحبنا الأخ أحمد سعد وهو من موظفى المكتب ، فلسطينى الأصل هاجر إلى أمريكا بعد معركة دير ياسين بعد أن ذاق البطش اليهودى في غياهب السجون وهو الآن أمريكى الجنسية ، اصطحبنا إلى مبنى هيئة الأمم المتحدة ، وهو بناء ضخم وبه مكتبة فيها كتب باللغات المختلفة وبها وثائق حكومية وثائق جماعات وأقليات ومشردين ولكن هذه الوثائق لا يمكن الإطلاع عليها إلا بترخيص وشروط .

وعند مرورنا ببعض طوابق المبنى رأينا صوراً لبعض زعماء العالم ومفكريه وفلاسفته ، كما رأينا صوراً للمشردين من الأقليات كالفلبينيين والأرتريين وغيرهم وتظهر في صورهم حالة البؤس والتشرد والجوع والعرى والمرض يعلق هذه الصور هناك الجمعيات المضطهدة لاستجلاب العطف العالمى الوهمى الذى يضم هذا المبنى الكبير .

ومن الأماكن التى زرناها في هذا المبنى : مجلس الأمن الذى يتلاعب بأمن العالم ما عدا دول النقض . وهناك رأينا قاعة كبيرة ذات مدرجات وفي وسط صحن القاعة وضعت مقاعد الأعضاء الدائمين وتحيط بها مقاعد من أستطيع أن أسميهم بالمتفرجين من دول العالم .

فتأملت في القاعة قليلاً لآخذ في نفسى صورة عن المكان الذى تدير منه دولتان العالم كله ويتلاعبان بأمنه واستقراره ثم ذهبنا لنرى مجلس هيئة الأمم المتحدة فوجدنا في الباب الخارجى جندياً يعتذر لأن الهيئة مجتمعة في القاعة وأصر الأخ أحمد أسعد علينا لتناول وجبة الغذاء في مطعم المبنى فتناولنا الطعام وعدنا إلى المكتب .

وكنا قبل أن يذهب إلى مبنى هيئة الأمم المتحدة عرفنا أن الأخ الشيخ أحمد شيت الرفاعى النيجيرى الذى تخرج في الجامعة الإسلامية قبل ثلاث سنوات موجود في نيويورك يدعو إلى الله على نفقة رابطة العالم الإسلامى ويعمل مع البلاليين فاتصلنا به في ، الهاتف وعندما عرف أن الذى يكلمه عبد الله القادرى صاح بأعلى صوته قائلاً الله أكبر ووعد بسرعة المجئ إلى المكتب ، وعندما

عدنا إلى المكتب وجدناه ينتظرنا وهنا شرح لنا الأخ الدكتور عثمان أحمد قضية المرأة النيجيرية المسلمة الأصل والتى اضطرت للزواج برجل مسيحى في أمريكا ، لعدم وجود معيل لها وجهلها بدينها ، وأن زوجها اصطحبها معه للعمل في بعض الشركات الأميريكية في أفريقيا وأنجبت له أربعة أولاد ، وأنها إتصلت ببعض علماء المسلمين وعندما عرف أنها كانت مسلمة الأصل ذكرها بأهمية دينها ووجوب رجوعها إليه والحرص على أن يكون أبناؤها مسلمين بدلاً من تنصيرهم .

وهنا بدأ النزاع بينها وبين الزوج وبعض أهله ، إذ كان يطلب منها أن تأخذ أولادها كل يوم أحد إلى الكنيسة ، وهى تأبى وتصر على دينها وعلى جعل أبنائها مسلمين ، ثم اضطرت للهرب إلى أمريكا بأولادها ، لأنها تحمل الجنسية الأمريكية ، وهو يهدد بجعل الأولاد نصارى بالتعاون مع بعض أهله .

وأن المرأة تستصرخ ضمائر المسلمين في الجامعات الإسلامية لتخصيص منح دراسية لأبنائها حتى ينجوا من دنس العقيدة النصرانية الفاسدة .

وقد وعدت الأخ عثمان أحمد أن أنقل للجامعات في المملكة هذا الأمر وأسعى في إنقاذ هؤلاء الأولاد ، إضافة إلى السعى في مساعدتها مادياً من بعض أهل الخير ، إذ أنها الآن تعانى من ضغط النصارى عليها بلقمة عيشها .

كما رأيت امرأة تحمل طفلها تطلب المساعدة بقيمة تذاكر سفر لها ولإبنها لتسافر إلى زوجها الذى يواصل دراسته في السودان على منحه ـ لعلها في جامعة أم درمان الإسلامية ـ وقال لى الأخ عثمان أحمد : أن مشاكل المسلمين هنا لا حدّ لها ، وهم يلجأون إلى المراكز الإسلامية بإسم الإسلام يطلبون المساعدة ، كما يلجأ المسيحيون إلى المراكز المسيحية إلا أن المراكز المسيحية عندها من إمكانات المساعدة المادية ما لا يوجد عند المراكز الإسلامية أقل نسبة منه ولذلك نقع في حرج ، فلم يسعنى إلا أن أحوقل ، لأنى لا أقدر أنا أن أعمل شيئاً أيضاً .

جولة في مدينة نيويورك :

■ بعد ذلك اصطحبنا الأخ أحمد الرفاعى في سيارته للتعرف على بعض مناطق نيويورك ، وأنى لنا أن نمر بمثل هذه المدينة الكبيرة التى تعتبر العاصمة التجارية للولايات المتحدة الأمريكية ، ونحن لم يبق أمامنا إلا مساء هذا اليوم في هذه المدينة .

في عمـارة

■ ولكن الأخ أحمد إختار لنا زيارة ثلاثة أماكن : مكان سياحى تجارى عالمى مشهور ، وهو العمارة العالية الثانية في الإرتفاع التى تبلغ طوابقها إثنين ومائة طابق ، فذهبنا إليها واشترينا

التذاكر اللازمة للصعود ، وهنا رأينا مئات من الناس صاعدين وهابطين ، والمصعد الواحد يتسع لما لا يقل عن خمسين شخصاً وهو في غاية من السرعة ، فصعدنا إلى أعلى العمارة هذه وأخذنا ننظر من كل جانب إلى أنحاء مدينة نيويورك ، وكنا نرى الناس ، والناس هناك ذو أجسام ضخمة ، مثل البهم ، أولاد الغنم الصغار أو أصغر ، ولكن المصيبة كانت في قوة الهواء الذى كاد يأخذ الملابس الساترة ، فما بالك بغيرها ؟ .

في حـى هـارلم :

■ ثم نزلنا لنذهب إلى المكان الثانى الذى اختاره لنا الأخ أحمد ألا وهو هارلم التى يسكنها الزنوج فقط . وكانت مبانى هذه المنطقة مساكن لليهود وملكاً لهم ، ولكنهم غادروها عندما جاء مشروع إسكان الزنوج فيها . لماذا اختار لنا الأخ أحمد هذه المنطقة بعد أن كنا في منطقة تجارية وسكنية راقية ، يرى بريق عماراتها ولمعانها وهى في غاية من النظافة والنظام والهدوء على رغم كثرة الناس بها . إنه أراد أن يرينا كيف يعيش هؤلاء السود المساكين في مدينة نيويورك فماذا رأينا ؟ لقد رأينا بيوتاً محطمة النوافذ والأبواب ، قد اشتعلت فيها الحرائق ورأينا الزنوج وهم يتسكعون في الشوارع مثل المجانين منهم السكران ومنهم الشبيه بالسكران .

رأينا أناساً لا أظن أن يجد السائح أشباههم في أدغال أفريقيا من البؤس والحرمان والشقاء . إنهم يتجمعون على أبواب البارات ويتراقصون وهم قيام أو قعود ، ومنهم من يضرب الدفوف المكسرة ويرقص عليها .

ولا أستطيع أن أصف ما رأيت إلا بالبؤس والجهل والحرمان ولقد كان الأخ أحمد لا يقف بسيارته إلا ريثما يتحرك ، لأن المنطقة منطقة إجرام وكان يخشى علينا من أجل لباسنا .

عندئذ قلت : هل حقاً أنا في أمريكا ؟ هل حقاً أنا في نيويورك هل حقاً أنا بجانب مكرفون كارتر المنادى بحقوق الإنسان في العالم ، هل حقاً أنا بقرب هيئة الأمم المتحدة التى كنت في مبناها صباحاً ؟ كل تلك الأسئلة دارت بخاطرى وأنا أعبر تلك الشوارع المخيفة .

منبع الإجـرام :

ألا إنها منطقة إجرام مشهورة فعلاً ، ولكن إجرام من ؟ أهو إجرام السود ؟ أم أن الأصل هو الإجرام الأبيض الذى يقتل الإنسان وينادى بحقوقه ؟

■ لقد شبهت إجرام السود وإجرام البيض بالتشبيهين التاليين :

إجرام البيض هو بحيرة من الأقذار : عذرة الناس وأبوالهم ، وإجرام السود على الرغم إنهم هم المباشرون - ريح ينقل تلك الروائح إلى أنوف الناس ، فأى الإجرامين أشد عند أولى الألباب ؟.

قـــارن :

■ ثم مرّ بنا الأخ أحمد ، ونحن في طريقنا إلى منزله ، في منطقة سكنية سماها لنا ، ولكنى لم أحفظ اسمها ، ذات عمارات متناسقة وشوارع غاية في التنظيم وهدوء عجيب ، وهى تبعد قليلاً عن منطقة الزنوج وذكر أن هذه المنطقة يسكنها الأغنياء والأسر الراقية وعلق الأخ أحمد على ذلك فقال : قارنوا بين هذه المنطقة وبين منطقة هارلم ، وهذه المنطقة لا توجد بها بارات . أما منطقة هارلم فإن أغلب عماراتها المتهدمة توجد بها بارات . وهل خلق هؤلاء المساكين عند الرجل الأبيض الذى أفنى عمره للدعوة إلى حقوق الإنسان لغير البارات والتسكع ؟

كل شئ هناك بالدولار حتى الأمن وموقف السيارة :

■ وصلنا إلى جانب العمارة التى يسكنهاالأخ أحمد فإذا هو يخرج مفتاحا ويدخله في قفل بجانب الجدار ، وهو في سيارته فانفتح باب كبير امامه يبعد عن موقع السيارة بمقدار عشرة أمتار فسألنا : ما هذا ؟ فأجاب هذه مظلة السيارات لسكان العمارة يدفع صاحب السيارة أربعين دولاراً ويستلم مفتاحاً يدخل سيارته ويخرجها متى شاء حفظاً لها من الشمس ومن الثلج أيام الشتاء وكذلك من السرقة وبعد دخوله ينغلق الباب بنفسه . وهكذا ..

دخلنا منزله وصلينا المغرب وتحدثنا معه قليلاً وسألناه عن مدى كفاية راتبه له فقال : المنزل أجرته ثلثمائة دولار والهاتف والكهرباء تكلف تقريباً مائة دولار وموقف السيارة يكلف أربعين دولار ، ومواقفها في الشوارع كما رأيتم والذى رأيناه أن المواقف في الشوارع كلها بالأجرة فوقوف السيارة ساعة بثلاثة دولارات وقد تزيد وقد تنقص حسب المكان . ولا يجد موقفاً لسيارته بدون أجرة ، وهذا قد يفسر جزءاً من الرأسمالية .

مقارنة مخجــلة :

■ وقفنا خمس دقائق تقريباً ولا يزال نفسنا في شدته من الجرى فإذا الحافلة تقف بجانبنا فـصعدنا وأخذنا مقاعدنا ، وأنهم على سرعتهم تلك لا تجدهم يتزاحمون مطلقاً في جميع معاملاتهم فالأول يأخذ مكانه ولا يتقدم عليه أحد ، وهكذا الذى يليه دون أن يمس اللاحق السابق ، أو يكلمه كلمة واحدة ، بخلاف الحال عندنا فإنك تجد العدد القليل يتزاحم ويدفع كل واحد الآخر ويكذب بأنه أسبق من غيره ، لذلك تجد الصف الطويل في بلاد الغرب ينتهى بسرعة مذهلة ، وترى أقل من ذلك بكثير في الشرق يضيعون وقتهم في التدافع والخصام وتحطيم أبواب الحافلات والكذب .

سارت الحافلة ، وأخونا محمد أشرف يشرح لنا بعض المعالم على يمين الطريق وشمالها : هذا مصنع كذا ، وهذا مبنى كذا وهذا مرقص ، وهذا بار ، والأرض كلها خضراء ما عدا الطريق والحيوانات تنتشر في المزارع .

محطات القطار :

وعندما وصلت الحافلة إلى المحطة أخذ الناس في الخروج منها والدخول إلى محطة القطار مسرعين ، فما هى إلا لحظات حتى قطعنا التذاكر ووقفنا على جانب خط القطار ، فإذا هو مقبل يجر عرباته الكثيرة فوقف ودخل الناس من كل باب وكل واحد أخذ مكانه ، إن شاء أن يرتاح من رائحة التدخين فلكارهى التدخين أجنحة أخرى وهكذا نجد مواصلات الغرب في القطار وفي الطائرة وفي الباخرة وفي السيارة يخصصون أماكن منها لغير المدخنين . إنهم يحترمون ـ على الأقل ـ المال الذى قدمته من أجل راحتك فعيب عليهم أن يقلبوا لك ظهر المجن فيزعجوك .

في قاعات المطار إلى نيويورك :

■ وصلنا إلى المحطة الرئيسية للقطار التى كنا بالأمس أودعنا فيها حقائبنا فاستلمنا الحقائب بمجرد إبراز البطاقة ، وذهبنا إلى المطار إلى الشركة التى تم الحجز فيها من المدينة المنورة قبل سفرنا بأسابيع فضغطت الموظفة على زر آلتها فأعطتها المعلومات الكافية عنا فأخذوا العفش ، والعفش لا يوزن في جميع دول الغرب إلا إذا كان كثيراً للشحن وذهبنا نتجول في أسواق المطار فاشترينا بطاقات تذكارية وكتبنا رسائل بها إلى الأولاد ، ثم ذهبنا نلتمس لعلنا نجد بعض الصحف العربية لنتابع أخبار اليمن الشمالية التى أغتيل رئيسها يوم سفرنا من المدينة إلى جدة يوم السبت الموافق ١٩ / ٧ .

فلمحت جريدة عربية ، فأخذتها دون أن أنظر إلى عناوينها لأننا كنا على وشك التوجه إلى بوابة خروجنا .

ذكر أن التأمين الصحى له مبلغ ، والتأمين على السيارة إجبارى هذا عدا الطورى والنفقات اليومية والملابس والمحروقات الخاصة بالسيارة ، والغلاء هناك فاحش جداً .

شكوى متكررة جديرة بالاهتمام :

■ وعندئذ بث الأخ أحمد ما عنده فشكا من الدين وعدم كفاية الراتب الذى يتسلمه من الرابطة ، مع العلم أنه في بعض الأوقات يتأخر كثيراً عن موعده فيزيد الطين بله ، وهذه الشكوى تكررت من جميع الإخوان الذين تعاقدت معهم رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ورابطة العالم الإسلامى لا سيما الذين عندهم عوائل .

وقد ضمنت ذلك التقرير الذى قدمته للجامعة عند رجوعى من هذه الرحلة ، وأن من أهم ما يجب أن تعمله المؤسسات الإسلامية المسئولة سواء كانت في المملكة العربية السعودية أو غيرها كوزارة الأوقاف الكويتية أن تعيد النظر في رواتب الذين تتعاقد معهم وتبعثهم إلى بلدان الغرب أو اليابان لغلاء المعيشة هناك ، ولا ينبغى أن يظهر الداعية المسلم بمظهر المستجدى حالاً ، وإن لم يكن

مستجدياً بقوله ، فالمبشرون يمنحون من الإمكانيات المادية ما لا يكفى راتب الداعى المسلم لعشر معشار راتب الفرد من المبشرين . وأيهما أحق بالإكرام والظهور بمظهر الغنى عن الناس دعاة الحق أم دعاة الباطل ؟ ألا هل بلغت ؟

صوتك مسموع وحركتك منظورة وأنت في داخل منزلك :

■ وعند خروجنا من منزل الأخ أحمد إطلعنا على سر غلاء أجرة منزله فقال أن الساكنين هنا يتمتعون بالهدوء والحراسة الكاملة وأرانا صفة الحراسة .

الحارس يقعد في مكان خاص خارج العمارة داخل سورها وأمامه تليفزيون ، وهو يرى على الشاشة كل سكان العمارة في داخل شققهم كيف ؟ ركبت كاميرات في كل شقة ، وهى تنقل الصورة إلى الحارس باستمرار والحارس مسلح ، إذا ارتاب في شقة من الشقق عمل ما يجب عليه فقلت للأخ أحمد : معنى هذا أنه يكشف عليكم في كل وقت ، وأنتم عندكم عوائل فكيف تعملون ؟

فأجاب أن في استطاعة صاحب كل شقة أن يغطى الكمرة التى في شقته فلا يستطيع الحارس أن يرى شيئاً في الشقة .

واستطرد الأخ أحمد في موضوع الراتب فقال : أن السفير النيجيرى عرض على وظيفة في هيئة الأمم المتحدة براتب يكفينى ويزيد ويكون إيجار البيت والهاتف ومحروقات السيارة والتأمين الصحى وتذاكر السفر إلى البلاد كل ذلك على حسابهم ، وزارنى في البيت وألح على كثيراً ولكنى رفضت ، لأنى لا أريد أن أترك مجالاً فضلته منذ بدأت أطلب العلم ، وهو مجال الدعوة إلى الله .

أوصلنا الأخ أحمد إلى الفندق وودعنا على أن يعود إلينا صباح يوم الخميس الذى سنسافر فيه إلى أنديانا .

إلى المطار ثم إلى أنديانا بلس :

■ رتبنا أثاثنا ونمنا إلى الصباح ، وبعد صلاة الفجر بقليل جاءنا الأخ أحمد فأنزلنا الأثاث وحاسبنا إدارة الفندق وسرنا إلى مطار نيويورك ـ مطار داخلى ـ عندما وصلنا إلى الباب الخارجى في المطار وجدنا من يتسلم منا الأثاث ويعطينا البطاقات ولم ندخل إلى موظفى الخطوط إلا بحقائب اليد .

وأخذ الموظف المختص التذكرة وعمل اللازم وناولنا بطاقة الدخول ، وتجولنا قليلاً في أسواق المطار . وكان زميلى الدكتور مغرماً بمناظر كل بلد وهى متوافرة في المطارات ، وغرامه بذلك إنتقل إلىّ أيضاً بحكم المجاورة ، كما يقول علماء النحو ، فاشترى لنا صورا مناظر نيويورك (إلى

انديانا) وصعدنا بعد ذلك إلى الطائرة التى أقلعت صباحاً وكانت مدة الطيران ساعتين تقريباً بين نيويورك وانديانا بلس . وكنت أنظر خلال زمن الطيران إلى الأرض ، فلا أرى بقعة غبراء لا فرق بين جبال ووديان وسهول ومرتفعات . كل الأرض خضراء وبين كل مسافة وأخرى أرى قرية ذات شوارع منظمة وأرى أنهاراً جارية . فقلت : سبحان الذى فتح لهم أبواب الرزق ، وسبحان الحليم الذى ىفتح لعباده هذه الأبواب وهم يجاهرونه بالمعصية في العقيدة والسلوك والشريعة .

في مطار انديانا أمر غريب ولكن بعذر :

■ وعندما وصلنا إلى مطار انديانا بلس كنا نتوقع أن نجد من يستقبلنا مباشرة عند نزولنا ، لأن سفرنا أصلاً إلى هذه المدينة من أجل المؤتمر وقد جاءت برقية خاصة من بعض المسئولين عن المؤتمر طلب فيها رقم الرحلة وزمن الوصول من أجل استقبالنا وأجيبوا على ذلك رسمياً من الجامعة الإسلامية برقياً وتم الاتصال بهم من لندن من دار الرعاية الاجتماعية هاتفياً .

فلم نكن نتوقع أن ننزل ولا نجد من يستقبلنا ، فلما استلمنا الأثاث وأخذنا نلتفت هنا وهناك ولم نر أحداً انتظرنا ما يزيد عن ساعة إلا ربعاً ، ثم اتصل الزميل بالهاتف فقيل له الذى يستقبلكم في الطريق وجاء فعلاً أحد شباب أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين (وفيق العطار) حيث اصطحبنا إلى فندق في شمال غرب المدينة يسمى : رمادا .

صلاة الجمعة وافتتاح المؤتمر :

■ بقينا في الفندق بقية يوم الخميس وليلة الجمعة ويومها إلى قبيل صلاة الجمعة حيث جاءنا الدكتور منذر قحف ليصطحبنا لصلاة الجمعة ، ويعتذر عن تأخرهم في إستقبالنا بالمطار والفندق لأنهم في حالة إعداد للمؤتمر ولا يوجد أحد متفرغ للاستقبال لقلتهم .

كانوا قد فرشوا قاعة كبيرة في أسفل إحدى العمارات للصلاة فيها ، كما استأجروا بعض قاعات كلية مجاورة للأعمال الخاصة بالمؤتمر . خطب وصلى بنا الجمعة رئيس اتحاد الطلبة المسلمين ، وهو طالب سودانى ، وكانت الخطبة باللغة الانجليزية ، وبدأت أشعر بالضيق لجلوسى في مكان عبادة أسمع كلاماً لا أفهمه ، وهو عبادة يجب الإنصات له ، إلا أننى كنت أتخيل معانى الخطبة عندما يذكر الخطيب بعض الأعلام الإسلامية ، من أشخاص وأماكن ، كذكره : غار حراء وشعب ابى طالب وآل ياسر ، والحبشة ثم المدينة فعرفت أن الخطبة كانت تدور حول الدعوة ومحنة الدعاة وصبرهم ونجاحهم في النهاية .

وبعد الانتهاء من صلاة الجمعة ذهبنا إلى قاعة الاجتماعات العامة لافتتاح المؤتمر ، فبدأ بتلاوة بعض آى القرآن الكريم . ثم كلمه الدكتور التيجانى عبد الرحمن أبو جديرى السودانى الذى يعتبر من كبار أعضاء الاتحاد ، بل كان يرأسه رسمياً قبل ذلك ، ولا زال له حركته الفعالة في

الاتحاد ، ثم كلمة للدكتور منذر قحف الذى هو رئيس المؤتمر وقد انتخب مرة أخرى لرئاسته ، وهو الذى تلا على الحاضرين منهاج سير المؤتمر وأسماء المتحدثين وعناوين البحوث التى ستلقى ملخصاتها . ثم دعينا لتناول طعام الغداء ، وبعده رجعنا لمواصلة الاستماع إلى البحوث والمناقشات ، وقد أسعفونى بمترجم ، بعد أن هددت مداعباً بترك القاعة والعودة إلى الفندق لعدم استفادتى .

فجلس بجانبى الأخ عمر الصوبانى ، وهو طالب أردنى يحضر الماچستير في ولاية ديترويت ، فكنت أتمتع بسماع الكلمات المقتضبة منه لسرعة تلاوة البحوث .

أما زميلى الذى كان يعتبر قائد السفر في اللغة فكان يجاهد ليدرك بعض المعانى بسماعه لنفسه ، وليس في إمكانه أن ينقلها إلى غيره ، لأنه إذا بدأ يترجم كلمة فسيفوت عليه ربع البحث ، فتركته يجاهد لنفسه .

استمر الاجتماع والمناقشة إلى صلاة المغرب حيث ذهبنا لأداء الصلاة ثم رجعنا مرة أخرى لمواصلة العمل إلى أن صلينا العشاء ، وتناولنا طعام العشاء وبعد ذلك سمح لنا بالعودة بعد جلسات طويلة لا سيما إذا تذكرنا طول النهار هناك الذى لا يقل عن خمسة عشرة ساعة في تلك الفترة .

وفي يوم السبت ٢٦ / ٧ / ٩٨ بدأ الاجتماع من الساعة الثامنة صباحاً واستمر إلى الساعة الثانية بعد الظهر تقريباً ، ثم استؤنفت في الساعة الرابعة واستمر إلى الساعة العاشرة مساء ، وهكذا كل يوم الأحد ٢٧ / ٧ / ٩٨ الذى تم فيه اختتام الجلسات ، قبل قراءة التوصيات والقرارات إلا أنه تم فيه انتخاب رئيس المؤتمر ومساعده ..

وكنت من خلال الترجمة التى تعاقب عليها أربعة أشخاص أجد بعض المطبات التى أحتاج إلى الاستفسار والسؤال فيها ، وكلما وجدت مطباً طلبت إزالته من الطريق . وهكذا .

مفتاح قفل البشرية الشهادتان :

■ وفي ختام المؤتمر طلبت فرصة لإلقاء كلمة فلم يسمح لى إلا بخمس دقائق ، وكنت آسفاً على هذا الضغط الشديد للوقت الذى سمح لى فيه بالكلام ، فقد صبرت ثلاثة أيام متوالية على سماع كلام لا أفهم منه إلا النتف التى يلقى المترجم إلىّ كلماتها ثم يحال بينى وبين ثلاثين دقيقة على أكثر تقدير ؟

ولكنى استعنت بالله تعالى ووجهت للحاضرين كلمتى وخلاصتها أن جميع العلوم لو طوعت في إصلاح الإنسان الفرد والأسرة والمجتمع لا يسعها أن تصل إلى تلك الغاية ما لم يكن الإصلاح الأول بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه الإصلاح بهذه الكلمة يجعل الإنسان عبداً وحده ، ولا يتلقى إلا من رسوله صلى الله عليه وسلم فيكون صلاحه نابعاً من داخل نفسه والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ولذلك

يجب أن يكون علم الاجتماع وعلم النفس وغيرها من العلوم التى يراد بها إصلاح الإنسان ، وهى ما تسمى بالعلوم الإنسانية ، أن تكون كلها مستمدة من هذا الأصل الأصيل ثم مقتضياته التى فصلها الكتاب والسنة وإلا فإننا سنبقى نحاول عبثاً إصلاح هذا الإنسان كما هو حاله الآن .

مع الطلبة المبتعثين :

■ وكنا خلال هذه الأيام التى قضيناها في المؤتمر بأنديانا نلتقى ببعض الطلبة المسلمين الصالحين من المملكة العربية السعودية وغيرها فنجد فيهم روح الشباب المسلم الغيور على دينه المحب لتقدم بلاده على أساس الإسلام الذى لا تقدم لأى بلد بدونه ، وإن ظهرت بعض الثمار لجهود مادية بذلها الناس في بعض الشعوب ، فإن ذلك في الحقيقة ليس تقدماً إلا في ميزان الإنسان الذى خرج عن فطرته التى فطره الله عليها ، لما يشاهد من ويلات وآثار سيئة في حياة هذه الشعوب التى تسمى المتقدمة ، وليس الخبر كالعيان كما يقال .

لقد كان هؤلاء الطلاب يبثون شكواهم من حالة أكثر زملائهم الذين ابتعثوا لتلقى العلوم النافعة ليعودوا إلى بلادهم رواداً متفانين في رفع مستواها العمرانى ـ مادية ومعنوية ـ ولكنهم ذابوا في المجتمع الغربى وخلعوا ثياب شخصية الآباء والأجداد وانغمسوا في الشهوات والملذات القذرة ففقدوا شخصية المسلم المعتز بدينه وعقيدته ولم يصلوا إلى شخصية الغربى المبدعة في العلوم المادية ، بل تسيبوا وأصبحوا وصمة عار على بلادهم ، ومنهم من جمع مع ذلك الانخراط في صفوف منظمات الحادية أو ماسونية أو قومية حاقدة على الإسلام والمسلمين .

وطلب منا هؤلاء الأخوة الغيورون أن ننقل هذه الشكوى إلى من يعنيهم الأمر في هذه البلاد التى لم يبق للمسلمين أمل واضح إلا فيها وهكذا تكررت شكوى الصالحين في كل مدينة زرناها في الولايات المتحدة ..

لسعات عقارب منذرة ثم لدغات ثعابين قاتلة :

■ وإننى لأتساءل ، كما يتساءل غيرى : ماذا سيكون مصير بلدان المسلمين عندما يتربع على كراسى إداراتها ذوو أدمغة أفرغت من كل معانى الإسلام التى بفقدها يصير الفرد أجنبياً عن بلاده وبنى قومه وشحنت بمعانى أخرى غير إسلامية تكسب الفرد عداء لدينه فيعود وقد وضع لنفسه أو وضع له أساتذته الذين أفرغوا دماغه وملؤه ـ منهاجاً يقضى به على كل مظهر للإسلام ، ويحقق به أهداف الكفر وأوليائه أقول : ماذا سيكون غير الويلات والمصائب التى حدثت فعلاً في كل شعوب العالم الإسلامى العربية منها وغير العربية إلا ما شاء الله .

أليست الإنقلابات العسكرية التى لم تهدأ في تلك الدول نتيجة لهذا الجيش الذى رباه الغرب على ما يريد ؟

أليس المسخ التعليمى في بلدان المسلمين نتيجة للمناهج الجاهزة التى نقلها هؤلاء من بيئة غير بيئتهم وقسروا أبناء شعوبهم قسراً عليها ، وهى لم تفصل على قدهم ؟

أليس وبال أجهزة الإعلام الذى هد أركان العقيدة من قلوب المسلمين وأوقعهم في شباك المسخ الخلقى والفكرى من آثار مسخ شبابنا الذى رباه الغرب ؟

أليس فقدان الغيرة على الدين والعرض والوطن ثمرة من ثمار فقد العقيدة والأخلاق الإسلامية في نفوس شبابنا الذين أخرجهم لنا الغرب ؟ أليس التناحر السياسى والقلق النفسى والتنافر الاجتماعى من عطاء شبابنا الذى وجهه أساتذة الغرب ؟

ألا إن في ارتداد كثير من زعماء الشعوب الإسلامية ممن طعنوا في القرآن الكريم والسنة النبوية وسخروا من رسول الإسلام ودين الإسلام لعبرة لمن أراد أن يعتبر .

عبر لم نتعظ بها :

■ وإن في عدن والصومال وأفغانستان وغيرها لعظة لمن أراد أن يتعظ ولا أريد أن أطيل في ضرب الأمثال ، ولكن أريد أن أقول : لقد ارتفعت أصوات حداة الخير منذرة بهذا الخطر في أول أمره ، ولقد إرتفع صوت العبد الضعيف قبل سبع أو ثمانى سنوات مع تلك الأصوات وإذا لم يسمع العقلاء تلك الأصوات فسيسمعون غيرها ويندمون يوم لا ينفع الندم .

وسأعود لهذا الموضوع مرة أخرى ، إن شاء الله ، عند الحديث على النتائج في نهاية هذا البحث .

امال وأعمال :

وفي يوم الإثنين ٢٨ / ٧ / ١٣٩٨ هـ اصطحبنا بعض أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين في أنديانا ، وعلى رأسهم الأخ الدكتور محمود رشدان إلى المزرعة التى إشتراها الاتحاد لإقامة مشاريعه فيها ، وهى تتكون من مائة وعشرين فداناً ، كما قال الأخ محمود ، وبها بعض المرافق التى تستعمل مؤقتاً ريثما يتيسر لهم تعميرها حسب المخطط النهائى .

فيها مكاتب إدارية وغرف نوم تستعمل لضيوف الاتحاد من أعضائه ومن غيرهم ومطابخ ، وقاعات للاجتماعات ، ومسجد تؤدى فيه الصلاة وهى مفروشة ومؤثثة تأثيثاً طيباً .

وبها أيضاً مستودع للكتب المتنوعة باللغة العربية واللغة الإنجليزية وبها موظفون يستقبلون الكتب التى ترد للاتحاد من أمريكا ومن خارجها من بعض الدول العربية عن طريق

المؤسسات الإسلامية ، ويرتبونها كما يعدون الكتب التى تبعث إلى أنحاء العالم ـ الولايات المتحدة ، ودول أوربا وأفريقيا وغيرها في طرود ، ويكتبون عليها العناوين وهكذا ...

وتنقسم هذه الكتب إلى قسمين : قسم يأتى للاتحاد منحة من بعض المؤسسات الإسلامية ، وهذه توزع بدون مقابل ، وكتب يشتريها الاتحاد ، وهذه تباع بثمن رمزى ، وقد يوزعون بعضها لبعض المستحقين بدون مقابل .

وتحيط الأشجار بالمزرعة من كل جانب ، بل إن في ناحية منها غابة كثيفة ، وبحيرة من الماء المتجمع من مسايل الأمطار وذكر الأخ محمود أنه يوجد بها الصيد ، وقد بلغ مقدار قيمتها نصف مليون دولار . وأنها لفى غاية الرخص .

بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه :

■ ويعمل في المزرعة أحد المزارعين الأمريكيين على طريقة المزارعة الإسلامية بنسبة معينة من الغلة ، وكانت عندئذ مزروعة بالذرة . وفي باب المزرعة رأينا اللافتة التى كتب عليها اسم الاتحاد قد كسر عمودها الذى نصبت عليه ، فسألنا الأخ محمود عن السبب فأفاد أن بعض النصارى المتعصبين من الجيران يضايقونهم بعض المضايقات وأنهم قدموا شكوى في المحكمة يبدون تضررهم من شراء الاتحاد لهذه الحديقة بحجة أنهم لم يشتروها لمجرد إقامة شعائر دينية ، وإنما للتجارة ، قال الأخ محمود : وقد كسبنا الجولة الأولى في المحكمة وسنكسب الثانية إن شاء الله . والحق دائماً دامغ للباطل يقهر العقول قهراً على الإقرار به والحكم به ـ ولو في داخل النفس إذا كان صاحبها متبعاً لهواه ـ

وتحدث الأخ محمود عن بعض المشاريع التى ينوون إقامتها على هذه الأرض ، فذكر أنهم سيبنون عليها مسجداً كبيراً وقاعة محاضرات ومدرسة تكون نواة لكلية إسلامية « كلية شريعة » تجمع المدرسة بين الدراسات الإسلامية والمواد المطلوبة في مدارس الولايات المتحدة الأمريكية حتى يتمكن الطالب من حمل مؤهل للجامعات الأمريكية .

كما ذكر أن جميع المكاتب الإدارية للاتحاد سيضمها مجمع واحد ، وستبنى بها مكتبة تضم الكتب الإسلامية باللغات المختلفة ، كما ستبنى منازل لأسر المتفرغين للعمل ، ومنازل لأسر الضيوف من أعضاء الاتحاد وغيرهم .

وذكر الأخ محمود مشاريع غيرها كثيرة ، وأرانا مخططها الهندسى وإنها في الحقيقة لآمال إسلامية طموحة تستوجب الشكر لهؤلاء الفتية الذين أقاموا ولا يزالون يقيمون مشاريع إسلامية بجهودهم الخاصة واشتراكاتهم التى يقتطعونها من أرزاقهم من أجل الدعوة إلى الله وتقتضى أن يبذل أغنياء الأمة الإسلامية من حكومات وشعوب الإعانة المادية لهولاء الذين رأينا نفعهم في كل مكان حللنا به .

إتــق الله يا رجــل :

■ وكان معنا في هذا اليوم الدكتور محمد عبد الرءوف ، رئيس المركز الإسلامى في واشنطن ، الذى كان حضر المؤتمر ، وكذلك الأخ عمر الصوبانى الأردنى الذى يحضر الدكتوراه في ولاية ديترويت ، وقد جرى بينهما نقاش حول موضوع استعمال بعض المسلمين للقاعات التابعة للمساجد للاحتفالات التى تقام في الأعياد ، أو للزواج أو غير ذلك من المناسبات ، فكان الأخ عمر ينتقد ذلك إنتقاداً شديداً ويقول : أن المساجد لم تبن إلا لذكر الله واستعمالها في هذه الأمور يعتبر معصية لا تليق ببيوت الله .

ولم يرق هذا الرأى للدكتور فبدا يناقش أن ذلك لا شئ فيه ، ويستدل بعمل الأحباش في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن الأخ عمر اشتد في نقاشه وقال له : إتق الله يا رجل أن هؤلاء الذين يعملون الاحتفالات الآن يرتكبون فيها معاصى بعرى النساء واختلاطهن مع الرجال والرقص واستعمال أدوات الموسيقى والدفوف وغير ذلك من الفحش وكان الدكتور لطيفاً في نقاشه لكبر سنه واهتزاز موقفه بالنسبة لموقف الأخ عمر .

متابعة مريبة :

■ كما كان يلازمنا أحد المسيحيين الذى حضر أيضاً المؤتمر وكان يتصنت لكل كلمة تقال ، غير أن الكلام إنقلب إلى اللغة العربية التى لا أظنه يفهمها ، والرجل متهم بأنه يهودى يتستر بالنصرانية وهو يدرس الأديان في إحدى كليات اللاهوت ، وأن وجهه لوجه متجهم للإسلام والمسلمين ، وإن كان يحاول أن يظهر بغير ذلك ، ولكن حسبنا الله ونعم الوكيل .

شاب أمريكى مسلم طموح :

■ وكان من ضمن المشتركين معنا شاب أمريكى لا يتجاوز عمره الخامسة والعشرين ، في تقديرى ، اسمه عثمان لو لن يحضر رسالة الماچستير في جامعة بنسلفانيا ، لا أذكر عنوان رسالته الآن ، ولكن موضوعها يدور حول مقاصد الشريعة الإسلامية في التخطيط المعمارى أى كيفية بناء العمارة الإسلامية الشرعية ، والشوارع وغير ذلك والأخ عثمان شاب مسلم متحمس يتكلم باللغة العربية ، وإن كان ذلك بصعوبة ، ويكتب بها أيضاً وقد قرأ بعض الكتب الإسلامية المهمة مثل كتاب الموافقات للشاطبى وكتاب اعلام الموقعين لابن القيم وغيرهما كثير ، وهو يفهم فهماً جيداً إلا أنه يبدو عليه نوع من التكلف الذى يدفعه إلى الإستشهاد بنصوص إسلامية من الكتاب والسنة ومن أقوال العلماء قد لا تكون في محلها ، لذلك ناقشته كثيراً حتى فهمت مراده ونصحته بألا يقحم نصاً من النصوص في أى موضوع إلا بعد فهمه فهما جيداً إنه في محله ، وهو في الحقيقة طالب علم يريد الحق ، ولذلك لم يتردد في قبول نصيحتى ..

وعندما سألت الأخ عثمان عن أسرته وموقفها من الإسلام أجاب أنه يحاول بجد اقناع أبويه بالدخول في الإسلام ، وأنهما راضيان عن إسلامه ولكنهما لا يحبان الالتزام بأحكام الإسلام .

العقول المهـاجرة :

■ تناولنا بعد ذلك طعام الغداء وعاد بنا الأخ محمود إلى الفندق وفي يوم الثلاثاء ٢٩ / ٧ / ١٣٩٨ هـ كنا على موعد مع الطبيب الباكستانى المسلم الذى يحمل الجنسية الأمريكية ، إنه من العقول المهاجرة ، (شهيد أطهر) من أجل الكشف الطبى العام ، نقلنا إلى المستشفى الأخ السودانى عز الدين يوسف على وهو طبيب أيضاً ضويق في بلاده فهاجر إلى بلاد الكفر التى تتلهف لاقتناص أى إنسان نافع ، بخلاف كثير من بلدان العالم الإسلامى . وقد ذكر لى الأخ عز الدين أنه قد تم تعاقده مع جامعة الرياض ليكون مدرساً في كلية التربية : الطب النفسانى .

وكان الكشف عند الدكتور شاملاً لتحليل الدم والكشف على القلب ، ثم حولنى إلى الأشعة للكشف العام ، وكنت قد تناولت طعام الإفطار الذى لم يكن في ذلك اليوم ضعيفاً كالمعتاد ، فطلب منى أن أعود غداً الأربعاء صائماً ففعلت ـ المقصود بالصوم هنا الصوم اللغوى ـ إلا أنه تم الكشف على الأعصاب .

وفي يوم الأربعاء ٣٠ / ٧ / ٩٨ نقلنا الأخ السودانى عوض عثمان بسيارته إلى المستشفى لأن الأخ عز الدين يوسف الطبيب الذى نقلنا بالأمس كان على موعد لدخول المستشفى لإجراء عملية جراحية خفيفة (وقد اتصلنا به من ديترويت وفهمنا أن العملية كانت ناجحة فحمدنا الله على شفائه) .

أتعبـونى :

■ وبعد انتظار قليل نادت الممرضة المختصة في بعض أقسام الأشعة ذاكرة لقبى : قادرى ، ولكن بنطق لم يفهمه إلا زميلى الدكتور فقمت ودخلت غرفة صغيرة فخلعت ملابسى ولبست اللباس الرسمى الذى كدت أفر من المستشفى لنفورى منه ، ولكنى وقد وقعت لابد من إتمام المشوار ، فعزمت على زميلى الدكتور أن يدخل معى بحجة أنى لا أقدر على التفاهم مع هؤلاء الناس (وكان ذلك خوفاً من الخلوة بأجنبية) فكان لى ما أردت .

كنت أظن أن الزمن إذا طال بى هو ربع ساعة ، وكان في أول الأمر ربع ساعة فعلاً وظننت أن الأمر إنتهى ، ولكن الممرضة قالت لزميلى إنتظر ربع ساعة خارج الحجرة ، ثم عودا وعند تمام خمس عشرة دقيقة تماماً قبل أن نتحرك خرجت وتنادينا للدخول وهكذا تكرر الأمر لمدة لا تقل عن خمس ساعات ، كانوا يطلبون منى أن أنقلب على جنبى الأيمن فيكشفون على الجنب الأيسر ثم العكس ويحركون الآلة فتقف وأقف أنا معها شئت أم أبيت ، ثم يضغطون عليها لتنام فتنيمنى

معها كذلك وكانوا في كل مرة يطلبون منى أن أكتم أنفاسى فأكتمها حتى تكاد نفسى تخرج لولا أن الأجل لم ينته بعد ، وهم يسرعون في إجراء الكشف فأستعيد نفسى .

وكانوا يسقوننى باستمرار سوائل ملونة مرة ملء كوب الشرب أشرب بنفسى الكوب ، ومرة في كأس صغير بواسطة أنبوب صغير من البلاستيك مثل أنبوب شراب الليمون ونحوه ، وكان مذاق تلك السوائل صعباً على فكنت أشربه وأكاد أتقيأ ، وزاد الطين بلّة أن بطنى امتلأ فلم أقدر على أن أزيده ولكنهم صمموا على المزيد حتى أنقذنى الله منهم فخرجت ولبست ثيابى وقلت للدكتور إذهب بنا قبل أن يتذكروا شيئاً فينادوننا مرة أخرى .

ومررنا بالطبيب الدكتور (شهيد أطهر) وأخبرنا ببعض النتائج الأولية من الكشف الذى حصل عنده ، وكتب لنا بعض الأدوية ، ووعد ببعث النتيجة النهائية إلينا في المدينة لذلك أخذ العنوان عنده .

ألا يعلم من خلق ؟

■ وكنا ننتظر أن يعود إلينا الأخ عوض عثمان لنقلنا في سيارته ولكنه إضطر لمرافقة الأخ الدكتور مالك بدر رئيس قسم علم النفس بجامعة الخرطوم والذى كان من المشتركين في المؤتمر ، وهو رجل متحمس للإسلام ومقبل على استخراج قواعد علم النفس من الكتاب ، والسنة ، مقتنع بأن القرآن كله ما نزل إلا لإصلاح النفس الإنسانية ، وكل من التمس إصلاح هذه النفس من خارج كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن مآله إلى الفشل لأن الخالق أعلم بخلقه وقد أنزل لهم ما يصلحهم . وقد نبهت الأخ مالكا إلى نهج ابن القيم رحمه الله في استخراج المعانى النفسية من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . كان الأخ عوض يرافقه في بعض أسواق المدينة ولكنه لم يتركنا بدون أن يعمل على مساعدتنا لكوننا كنا في إنتظاره ، فأخبر بعض المسئولين عن الاتحاد فبعثوا لنا شاباً لبنانياً لا يزيد عمره في الغالب عن سبع وعشرين سنة ، واسمه ناظم محمد سعيد منقاره . نال شهادة الليسانس من الجامعة اللبنانية في بيروت ، حاز الأولية في دفعته . كما نال الماجستير بامتياز في الفيزيا من إحدى الجامعات الأمريكية وشهادة الماجستير في الكمبيوتر أيضاً ، وقدم رسالتين فيهما .

وهو يعمل الآن مع اتحاد الطلبة المسلمين في الكومبيوتر وله زوجة لم يرض بخروجها للعمل ، كما أنها كما يقول راضية ببقائها في البيت على الرغم من أن الجو هناك يدعو المرأة والرجل معاً إلى الخروج ولا تبقى في المنزل إلا المرأة الشريفة ، وعلى الرغم من أن عملها سيدر عليه دخلاً مادياً يساعده على العيش هناك للغلاء الفاحش في الأسعار وأجور المنازل والمحروقات وغيرها . ويبدو على الأخ ناظم الصلاح والحماس لدينه ، ويشكو من سوء معاملة النصارى له في لبنان ، حيث حرموه من الابتعاث مع أنه كان الأولى به لأنه الأول في دفعته ، فقدموا عليه بعض زملائه النصارى الذين هم أقل درجات منه ، وصدق الله العظيم القائل : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ومع ذلك فإننا نجد أكثر المسلمين يجاملون اليهود والنصارى وهم لا يجاملوننا إلا

بألسنتهم في أوقات حاجتهم إلى المجاملة ، كما قال الله تعالى : « يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم » .

تسخير واستغلال :

■ ركبنا مع الأخ ناظم وبدأت أسأله أنا عن دراسته وبلده وعمله فذكر لى هذه المعلومات ، وسألته عن الكومبيوتر الذى يعمل فيه الآن فذكر أنه يعمل فيه مهندساً هو وشاب آخر معه ، وأن هذا الكومبيوتر يختزن الآن المعلومات كاملة عن اتحاد الطلبة المسلمين وأعضائه من الطلبة وغيرهم وكذلك معلومات عن زوارهم ، وهو ميسر لهم الأعمال الإدارية .

كما أن هناك مشروعاً لتزويده بمعلومات الحديث النبوى الشريف ـ الأمهات الست وغيرها بحيث يكون مستعداً لإعطاء أى معلومات تستدعى منه ، عن الحديث ورواته وتراجمهم باختصار ودرجة الحديث وهو الآن في دور التجارب ، وهو يعمل بالحروف العربية والحروف الإنجليزية . وكان من ضمن الأماكن التى زرناها هو مقر الكومبيوتر المذكور الذى تلقى معلومات عن زيارتنا قبل الوصول إليه ، وعندما وصلنا رحب بنا بأسمائنا ووظائفنا بالخط العربى الواضح ، وأبدى استعداده للإجابة عن أسئلتنا في حدود طاقته فسألناه بعض الأسئلة التى أجاب عليها واعتذر عن بعضها لعدم توافر المعلومات عنده .

وإنه لمشروع يشكر عليه المسئولون في الاتحاد ، وكان علىّ الجامعات الإسلامية في العالم العربى أن تمنح الاتحاد بعالم من علماء الحديث على الأقل يساعدهم بخبرته في إعطاء المعلومات لهذه الآلة السريعة الفائدة والتى يجب ألا تعطى إلا معلومات صحيحة دقيقة من ذوى الخبرة والاختصاص .

كما أنه ينبغى للجامعات الإسلامية أن تحرص على استجلاب هذه الآلة على أوسع نطاق للاستفادة منها في الإدارة والعلوم الإسلامية على اختلاف تخصصاتها ، وأن تبتعث بعض طلبتها الصالحين الذين تثق فيهم من الآن للتدرب والتخصص في هذا المجال ، حتى لا تضطر إلى التعاقد مع من هب ودب رغماً عليها .

ألسنا أولى بعقولنا :

■ ولقد أبدى الأخ ناظم رغبته في الانتقال من أمريكا إلى بعض الدول العربية للعمل فيها ، لا سيما المملكة العربية السعودية التى تهفو نفسه إلى الاستقرار فيها ، ووعدته أن أبذل جهدى في الاتصال ببعض الجهات التى يمكنها الاستفادة منه للتعاقد معه ، وقد تم الاتصال فعلاً ببعض الجهات وأن العالم الإسلامى لأحق بهذه العقول الإسلامية المفيدة من أعداء الإسلام الذين يقتنصون عقول أبنائنا بكل الوسائل .

تجول بنا الأخ ناظم في مدينة أنديانا بلس وفي بعض أسواقها دون أن ننزل من السيارة إلا قليلاً ، لأن الوقت لا يتسع للتجول مشياً على الأقدام .

طاقة صامتة :

■ كما كنا على موعد مع الدكتور أحمد العسال الذى أعارته جامعة الرياض لاتحاد الطلبة المسلمين لمدة ستة أشهر وله نشاط مفيد جداً هناك والرجل يعمل في صمت ورزانة ويحاول جمع كلمة المسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، كنا على موعد معه لتناول طعام العشاء ، كما تناولنا العشاء في الليلة السابقة في بيت الدكتور محمود رشدان ، وصلنا إلى بيت الدكتور العسال وصلينا هناك المغرب والعشاء ، وكان معنا الأخ الدكتور مالك بدر ذو النكات السودانية الطريفة التى كان يتحفنا بها كلما التقينا به وغيره من الأخوة .

ومن منزل الدكتور العسال تم اتصالنا بالأخ الشيخ عبد الغفور البركانى الذى يعمل في مدينة ديترويت الصناعية في صفوف العمال والجاليات الإسلامية ولا سيما العمال اليمنيين الذين يشكلون الكثرة هناك وهو مبتعث من الرئاسة العامة للبحوث والدعوة والإرشاد في المملكة ، أخبرناه بموعد وصولنا غداً الخميس وطلبنا منه أن يحجز لنا في أحد الفنـادق هناك .

نبذة عن اتحاد الطلبة المسلمين :

■ وقبل الانتقال إلى الكلام عن ديترويت رأيت أن ألخص تعريفاً باتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا ليكون القارئ على بصيرة ومعرفة بنشاط إخوانه في الله من أجل رفع كلمة الله :

● أسس الاتحاد نخبة من الطلبة المسلمين في عام ١٣٨٣ هـ .وتزيد فروعه الآن على مائة وسبعين فرعاً ، ونشاطه يتركز في الجامعات لأهميتها وله نشاط في الجاليات الإسلامية .
● يضم الاتحاد في عضويته الطلاب والعلماء والمهندسين ويزيد عدد أعضائه على ستة آلاف عضو (كان هذا الاحصاء في رمضان سنة ١٣٩٧ هـ) .
● الاتحاد مسجل لدى السلطات الرسمية في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، ويعتبر جمعية ثقافية علمية دينية وهو منظمة مستقلة عن أى هيئة أو حكومة أو حزب سياسى .

أهداف الاتحـاد :

■ ● إعانة وتنظيم الطلبة المسلمين ليسهل عليهم التحصيل العلمى الرفيع مقروناً بالعقيدة الصحيحة والخلق القويم وتهيئة الوسائل والبرامج التى تمكنهم من ممارسة شعائرهم الدينية والارتباط الوثيق بقضايا بلادهم والعمل الواعى على نصرتها .
● تعريف المجتمع الأمريكى بتعاليم الإسلام ودعوتهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة (وتصحيح مفاهيمهم عن الأمة الإسلامية والعربية) .

● تيسير تعليم الإسلام وممارسة تعاليمه للمسلمين الجدد وربطهم بعقيدة التوحيد وتجنبهم مواطن الانحراف والزلل في العقيدة والسلوك ٠

● تجهيز المكتبات والمؤسسات العلمية والجامعات بالمصادر الإسلامية حول العالم الإسلامى وقضاياه لتيسير مراجعتها على الباحث الأميريكى والطالب المسلم بحيث تكون بديلاً لكتب المستشرقين ٠

● إنشاء المؤسسات الإسلامية اللازمة لمستقبل المسلمين والإسلام في القارة الأمريكية كالمدارس والمعاهد ومخيمات الشباب وبيوت الطلبة والمستشفيات وغيرها ٠

● العمل على وحدة المسلمين في أمريكا الشمالية وزيادة التعارف والتآلف فيما بينهم ٠

● هذا وقد أنجز الاتحاد إنجازات طيبة في حدود طاقته : كبيوت الطلبة ومخيمات الشباب ٠

● وأنشأ بعض المؤسسات المتخصصة النافعة :

١ ـ كهيئة الوقف الإسلامى التى كان من نتائجها : مطابع الاتحاد ودور الثقافة والنشر ، ومركز بيع الكتب الإسلامية ومشروع استعمال الطاقة الشمسية ومشروع الكشف عن الفطريات المرضية ..

٢ ـ مركز التعليم الإسلامى ٠

٣ ـ الجمعيات العلمية المتخصصة : كجمعية الأطباء المسلمين ، ورابطة علماء الاجتماعيات المسلمين ، وجمعية العلماء والمهندسين المسلمين ٠

٤ ـ الأمانة العامة الدائمة التى أسست سنة ١٣٩٥ هـ وللاتحاد منجزات أخرى يستطيع القارئ أن يعود إلى الكتيب العربى الذى نشر باسم : اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا والذى أقتطفت منه هذه النقاط ٠

أما إلى هؤلاء وإما إلى أولئك :

■ والذى أود أن أختم به الكلام عن هذا الاتحاد وفروعه أن أنادى أغنياء الأمة الإسلامية أن يبذلوا من أموالهم ما يعينون به هؤلاء العاملين وغيرهم ممن يقومون بواجب ليس عليهم وحدهم بل هو واجبنا جميعاً ، والذى لا يقدر ، أولاً يحاول ، المشاركة بنفسه ، وهو قادر على المشاركة بماله في سبيل الله ، ثم لا يشارك فليخف على نفسه من أن يكون فيه شئ من صفات غير المؤمنين ٠

إن هؤلاء القوم ـ اتحاد الطلبة المسلمين وغيرهم ـ ذوو اختصاصات علمية متنوعة ، وذوو مقدرة إدارية وعمل دؤوب ، في وسعهم أن يوسعوا دائرة دعوتهم إلى إنشاء مدارس وكليات ، ومساجد ومراكز متنوعة الأعمال والذى ينقصهم المال الا فلينتظر الأغنياء وبال غناهم الذى يبطر أكثرهم فينفقون أموالهم في غير طاعة الله ، ونداء الواجب يدعوهم فلا يستجيبون ٠

● ● ●



لفضيلة الدكتور / محمد السيد الوكيل : وكيل كلية الحديث الشريف

● ليست الهجرة في عرف الدعاة والمصلحين وسيلة راحة ، ولا حيلة للاستجمام من عناء طال صبرهم عليه ، ولا هى فرصة للترويح عن النفس بالسير في الأرض ، والاطلاع على عوالم جديدة لم تتح لهم فرصة الاطلاع عليها ، ولكنها في الحقيقة عناء يضاف إلى عنائهم وجهد يتحملونه فوق طاقاتهم ، ووحشة تضاف إلى ما هم فيه من غربة في بلادهم .

● أليست الهجرة إنتقالاً من الوطن إلى أرض جديدة ؟ ومن يضمن للمهاجر السعادة والأمن في تلك الأرض الجديدة ؟ أليس في الهجرة مفارقة الأحباب والخلان ؟ ومن يكفل للمهاجر من يعوضه عن أحبابه وخلانه في مهاجره ؟

أو ليس في الهجرة قلق للنفس بعد استقرارها ، ووحشتها بعد أنسها ؟ وأنى للمهاجر الاستقرار والأنس وهو غريب شريد ؟ .

إن حب الوطن غريزة فطر عليها كل مخلوق ، ومفارقة الوطن تترك في النفس اضطراباً مهما كانت الغاية من مفارقته ، والإنسان عندما يفارق وطنه على أمل العودة يعلل نفسه بسرعة الأيام ، ويمنيها بأنس اللقاء بعد الفراق ، أما إذا لم يكن أمل في العودة ، وانقطعت آمال المهاجر في لقاء من فارق ، وأصبح اللقاء أمنية عزيزة بعد أن كان حقيقة واقعة ، فإن المهاجر يرى كل شئ بعين اليائس ، ويسمع كل لحن بأذن الأصم ، فهو لا يستلذ بعيش ، ولا يهنأ براحة ، ولا بأنس بجليس .

على أننا يجب أن نفرق بين التضحية والتغلب على نزعات النفس من أجل القيام بالواجب ، وبين شعور الإنسان باللوعة وإحساسه بالألم عند القيام بعمل يخالف الفطرة ، ويتعارض مع الجيلة .

وليس هذا الشعور وذلك الإحساس مما يلام عليه الإنسان لأنه جيلة خلق الإنسان بها ، وإنما يلام عليه إذا أقعده عن واجب ، وحال بينه وبين معالى الأمور .

ولعل هذا الشعور هو الذى خالط نفس بلال بن رباح ـ رضى الله عنه ـ بعد هجرته إلى المدينة حينما كان ينظر إلى السماء ويقول : « لا شك أن سماء مكة أجمل من هذه السماء ، وأن هواء مكة أنقى من هذا الهواء »(١) .

---

(١) بلال مؤذن الرسول ص ٤٥ .

ويزداد حنينه إلى الوطن ، فيضطجع في فناء البيت ، ويرفع عقيرته قائلاً بعد أن تفارقه الحمى :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بفخ وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة
وهل يبدون لى شامة وطفيل(١)

إن حب الوطن قد أدى ببلال أن يعود بخياله إلى مكة ، وأن يشعر بحنين زائد الى أحيائها التى تربى بينها ، وقضى شبابه بين ربوعها ، فتمنى أن يقضى فيها ولو ليلة ، ويمتع ناظريه برؤية جبالها ونباتاتها .

ويعلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بذلك فلم يلم بلالا على ما قال ، ولكنه يرق لحال المهاجرين ، ويقدر عواطفهم ، ويدعو الله - عز وجل - أن يثبتهم على هجرتهم وأن يحبب إليهم المدينة كحبهم مكة أو أشد(٢) .

أفبعد هذا يقول قائل إن الهجرة فرصة للراحة من عناء التعذيب أو وسيلة ترويح عن المضطهدين ؟

مكة البلد الأمين :

● ولد الرسول في مكة ، وقضى شبابه في ربوعها ، وتزوج سيدة نسائها ، وكان فيها محبوباً أثيراً ، كل أهلها يقدره ويجله ، ويرون فيه جميعاً أنموذجاً للشباب الطموح ، حيث كان يترفع عن التافه من الأمور ، ويربأ بنفسه عن سفسافها .

وكانت مكة تتميز عن قرى الجزيرة كلها بقدسية لم تطمع فيها قرى تفوقها جمالاً وخصوبة ، وتمتاز بنسيمها العليل ، وحدائقها الغناء .

إن قرى الجزيرة مهما تفوقت في الخصائص المادية لن تبلغ مبلغ مكة في منزلتها الروحية ، فقد إختارها الله ـ تبارك وتعالى ـ لتكون محل بيته العتيق ، وجعلها حرماً آمناً ، ليس للإنسان فقط ولكن الإنسان والحيوان والطيور والنبات ، ففى رحابها يأمن الخائف وفي كنفها يأنس المستوحش ، وبين جنبيها يجد الحائر السكينة .

عرف العرب لأم القرى تلك المكانة فقدسوها ، وأدركوا أنها لا يبغى فيها ظالم إلا قصمه الله فتجنبوا الظلم ، عاش أهلها في ظل بيت الله آمنين في وقت كان الناس يتخطفون من حولهم وقد ذكرهم الله ـ عز وجل ـ بتلك النعمة فقال ـ جل من قائل ـ « أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم »(٣) .

ولما استحلت جرهم حرمة البيت ، وأكلوا ما كان يهدى إليه ، وظلموا فيه سلط الله عليهم خزاعة فقاتلوهم حتى أخرجوهم من مكة .

---

(١) ابن هشام (٢ / ١٦٩) .

(٢) نفسه (٢ / ١٦٩) .

(٣) العنكبوت الآية ٦٧ .

● (وكانت مكة في الجاهلية لا يقر فيها ظلم ولا بغى ، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجه الله منها ، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه ، فيقال : ما سميت بكة إلا لأنها تبك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها)(١) .

وبلغ من احترام العرب لمكة أنهم كانوا لا يبنون بها بيتاً إلى جوار بيت الله ، وأنهم كانوا لا يبيتون فيها ولا يستحلون الجنابة بها تعظيماً لشأنها(٢) .

وظل هذا البلد الأمين يتمتع بتلك القدسية ، لا يستحله إلا فاجر ، وكان العرب يستحلون أحياناً الشهر الحرام ، ولكنهم لا يستحلون مكة ، وقد وجد بعضهم مخرجاً من حرمة الأشهر الحرم بالنسئ ، فكانوا يقدمون ويؤخرون ليواطئوا عدة ما حرم الله .

وقد رأينا في حرب الفجار أن هوازن قاتلت قريشاً قتالا شديدا حتى إذا دخلت قريش الحرم أمسكت هوازن عنهم(٣) ، وأنذرتهم الحرب بعكاظ من العام المقبل(٤) .

ولم يرو لنا التاريخ أن أحداً إنتهك حرمة البيت وأفلت من الهلاك في الدنيا قبل الآخرة ، ولعل أبرهة كان أول المعتدين عليه بعد جرهم ، وقد أثارت محاولة أبرهة حمية العرب فهبوا يدافعون عن البيت الحرام .

● فخرج ذو نفر في قومه من أشراف اليمن وهزمهم أبرهة ، وأخذ ذو نفر أسيراً ، ثم تصدى له نفيل الخثعمى في قومه فتغلب عليهم أبرهة وأخذ نفيلاً أسيراً ، ولما رأت ثقيف قوة جيش أبرهة هادنته وأرسلت معه أبارغال ليدله على طريق مكة .

واعتقد أبرهة أنه خالص لا محالة إلى البيت ، فأرسل رجلاً من جيشه فاستولى على أموال أهل مكة ، وساقها إلى أبرهة ، وزادت ثقة أبرهة في قدرته على تحقيق أمله ، وتهيأ لدخول مكة ، وعبأ جيشه . ولكن الله كان له بالمرصاد .

لم يكن هناك من يحمى البيت فحماه الله ، ولم تستطع قوة صد جيش أبرهة فسلط الله عليه من صده وأهلكه « وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »(٥) .

وزادت تلك الحادثة من مكانة مكة في نفوس العرب إذ ثبت لهم بما ليس فيه ريب حفظ الله لبيته وإهلاكه من أراده بسوء .

● كان ذلك في الجاهلية قبل بعثة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأما بعد البعثة فقد حدث أن اعتدت بكر على خزاعة والجأتهم إلى دخول الحرم ولم تحترم بكر حرمة البيت ، وإن هابت اقتحامه بادئ الأمر ، ونبهوا قائدهم نوفل بن معاوية الديلى ، وقالوا له يا نوفل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك ، ولكن نوفل كان قد صمم على الأخذ بثأره ، ولم يعبأ بتحذير قومه ، وقال : لا إله اليوم ، إنكم تسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه (٦) ؟ .

(١) مختصر سيرة الرسول ص ١٨ . ابن هشام (١ / ١٠٥) .

(٢) العصامى (١ / ١٦١ ـ ١٦٢) .

(٣) ابن هشام (١ / ١٧٠) .

(٤) هيكل ص ١١٧ .

(٥) الفيل الآيات : ٣ ، ٤ ، ٥ .

(٦) ابن هشام (٤ / ٢٣) .

● وعلم رسول الله بما ارتكبت بكر من إنتهاك حرمة البيت ونقض العهد والإعتداء على حلفائه الخزاعين فهب لإنقاذهم ، وفتح مكة وأذل الله قريشا وحلفاءهم بكرا ، ولكن الرسول منّ عليهم وأطلق سراحهم ، فعرفوا بالطلقاء .

وفي سنة ثلاثمائة وسبع عشرة من الهجرة كانت فتنة القرامطة في مكة حيث سفكوا دماء الحجاج وعطلوا الشعائر واعتدوا على بيت الله الحرام ، وانتزعوا الحجر الأسود وأخفوه إثنتين وعشرين سنة .

وصال أبو طاهر القرمطى وجال بفرسه حول الكعبة ، وكان مخموراً على رواية بعض المؤرخين ، وأخذ يصيح :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا (١)

● ويقول الإسفرائينى عن أبى طاهر سليمان بن الحسن القرمطى : إنه قتل ثلاثة آلاف مسلم ، وأخرج سبعمائة بكر من خدورهن ، واقتلع الحجر(٢) .

فماذا كان مصير هذا المعتدى الأثيم ، المنتهك لحرمات بيت الله ؟ يقول الإسفرائينى : في عام ثلاثمائة وثمانية عشر قصد سليمان ابن الحسن بغداد ، فلما بلغ هيت رمته امرأة من سطحها بلبنة فقتلته(٣) .

هذا الجبار الذى تحدى أهل مكة واستباح حرمة البيت تقتله امرأة ليكون أحقر قتيل ، وأهون فقيد ، وهكذا يدافع رب البيت عن بيته .

وعادت للبيت حرمته ، وعاد الأمن إلى أهله ، وعاش الناس في جواره آمنين لا يروعهم أحد ، ولا يعتدى عليهم معتد قرابة ألف وثلاثة وثمانين عاماً حتى روعتهم تلك الفتنة العمياء التى غامر بها شباب ـ أغلب ظنى أنهم مخدوعون ـ لم يتبصروا الأمور ، ولم يفكروا في العواقب ، خدعتهم فكرة ظهور المهدى ، فحسبوا أن هذا أوانه ، فلووا أعناق الأحاديث ليّاً ، ليخضعوها لهواهم ، وينزلوها على رغبتهم .

ونسى هؤلاء أن المهدى سيكون بين يدى الساعة ، وأنه هو المنقذ الذى سيلجأ إليه الناس ، ويكرهونه على قبول البيعة ، وليس هو الذى يطلب البيعة لنفسه ، ونسوا كذلك أن المهدى لن يبايع بقهر السلاح ، ونسوا فوق ذلك كله أن حرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة ، وأن قطرة دم من مسلم تراق بغير حق أعظم جرما من اية جريمة مهما كانت .

● وأن الإنسان ليقف أمام تلك الفتنة مذعوراً من هولها ، حائراً من تدبيرها ، على من ينحى باللائمة ؟ أعلى هؤلاء الذين علموهم التزمت المقيت وأفهموهم أن الإسلام هو هذه الشكليات ، ونفخوا في رؤوسهم أنهم العلماء وحدهم ومن سواهم يجب أن يتتلمذ على أيديهم ، ويتلقى عنهم ، أم على هؤلاء الذين أهملوهم حتى استفحل

(١) تاريخ مكة (١ / ١٥٢) .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٩٠ .

(٣) نفســه .

أمرهم ، وعظم خطرهم ، إن الإسلام يحتم علينا أن نعلم هؤلاء وأمثالهم ، وأن نقرع حججهم بحجج أقوى منها وأوضح ، وأن نبين الحق إذا التبس على الناس ، حتى يفيق الغافلون ، ويهتدى الحائرون ولو أننا سلكنا هذا السبيل لماتت الفتنة في مهدها ، ولكفينا ويلاتها .

وإننا لنحمد الله ـ عز وجل ـ أن أعاد للبلد الأمين حرمته ، ورد على أهله السكينة والإطمئنان ، ووفق أولى الأمر لإعادة الأمور إلى نصابها فاللهم أصلحهم وأصلح بهم ، وزدهم من فضلك توفيقا وتسديدا .

الهجرة سبيل الأنبياء :

● الهجرة كما قلت سابقا ليست وسيلة للراحة ، وإنما هى أسلوب من أساليب نشر الدعوة ، وطريقة للمحافظة عليها من بغى الباغين وعدوان الطغاة ، ولهذا كانت الهجرة سبيل الأنبياء من قبل نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرتادون فيها الأرض الخصبة التى تحتضن الدعوة ، ويبحثون أثناءها عن البذور الطيبة الصالحة للإخصاب .

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ أبو الأنبياء يدعو قومه إلى التوحيد الخالص والعقيدة الصحيحة فيتآمرون عليه ، ويكيدون له ، ويتعصبون ضد دعوته ، فيترك بلده الذى ضاق به ، ويودع أهله الذين تآمروا عليه ويفر من كوثى في سواد الكوفة إلى حران ثم إلى الشام ، والقرآن الكريم يقص علينا ذلك فيقول : « فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ، وقال إنى ذاهب إلى ربى »(١) .

ولوط ـ عليه السلام ـ لما رأى أن النار لم تحرق عمه إبراهيم ، وأنه خرج منها كأنه لم يدخلها أمن لإبراهيم ، وصدقه فيما جاء به ، وخرج معه مهاجرا « فآمن له لوط ، وقال : إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم » (٢) .

وموسى يتآمر عليه فرعون ، ويضايقه في دينه ، فيأمره الله أن يترك هذا البلد الذى لم يستطع فيه تبليغ دعوته ، وأن يهاجر بقومه إلى حيث يمكنه عبادة ربه وأداء رسالته ، قال ـ تعالى ـ : « فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون ، واترك البحر رهوا ، إنهم جند مغرقون » (٣) .

● لم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول من هاجر من الرسل ، بل سبقه بالهجرة رسل كرام على الله ، خرجوا بدينهم إمتثالاً لأمر الله ـ عز وجل ـ فسنوا بذلك الهجرة لمن أتى بعدهم من النبيين والمصلحين حتى لا يعتذر معتذر ببغى الباغين واضطهاد الظالمين ، أو يقول قائل : كنت في أرض يسيطر عليها الطغاة ، ولم يسمحوا لنا بنشر الدعوة ولا بقول كلمة الحق ، وحينئذ يكون السؤال (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟) (٤) .

● فماذا تكون الإجابة ؟؟

---

(١) الصافات الآية (٩٨ ـ ٩٩) .

(٢) العنكبوت الآية : ٢٦ .

(٣) الدخان الآية : ٢٣ ـ ٢٤ .

(٤) النساء الآية : ٩٧ .

ولقد ثبت بالتجربة أن الهجرة من أنجح الوسائل لنشر الدعوة ، وأن الدعاة إلى الله متى ما هاجروا بدينهم مخلصين لله هجرتهم ، لا يبغون من ورائها إلا إرضاء الله ـ تبارك وتعالى يجرى الله على أيديهم ، فتنفتح لهم القلوب ، ويجتمع عليهم الناس . فيؤازرون دعوتهم وينشرون عقيدتهم ، ويوسع الله لهم في أرزاقهم ، ويسبغ عليهم نعمته .

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، (وكان الله غفوراً رحيماً »(١) .

ذكريـات :

● عاش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مكة ذلك البلد الأمين ، قضى فيه طفولته وصباه ، وشبابه وكهولته وشطراً كبيراً من شيخوخته ، وله فيه ذكريات عزيزة يوم كان شاباً يافعاً ، إن حرب الفجار تركت في نفسه رغبة في مقاومة الظلم والوقوف في وجهه ، وإن حلف الفضول وما يتضمنه من مكارم الشيم وعظيم الأخلاق قد ملك عليه قلبه حتى إنه قال : (ولو دعيت به في الإسلام لأجبت) .

ثم هذه المروج التى كان يخرج إليها يرعى فيها الغنم ، لقد أصبحت جزءاً من حياته لا يستطيع مفارقتها بسهولة ، وإن ذكرى زواجه بالسيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وما قضاه معها من أيام طويلة وجميلة لا تزال ماثلة أمام عينيه ، يرى فيها سعادته بزوجه الرءوم ، وأولاده الصغار الأبرياء .

وإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليذكر يوم اشتراكه في بناء الكعبة المشرفة ، ويوم رضيه المتخاصمون حكما ينهى بقضائه ما نشب بينهم من نزاع .

إنه يتذكر كل هذا فيجد نفسه مشدوداً إلى مكة برباط وثيق ويذكر حب قومه له ، وإعجابهم به ، وتسميتهم له بالصادق الأمين فترتاح نفسه ، ويطمئن قلبه ، ولكن ما بالهم الآن يتآمرون عليه ، أو ليس هو هو ؟ ما الذى حدث حتى يحاولوا قتله ؟ وماذا جرى حتى يتربصوا به الدوائر ؟

وتدور برأسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلمة ورقة بن نوفل (ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك) ويتذكر سؤاله له (أو مخرجى هم) ؟ وهو أقرب إلى الاستنكار منه إلى الاستفهام ، ويجيب ورقة إجابة الواثق المتأكد : (نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزرا)(٢) .

هذا هو السبب الحقيقى لتآمر قومه به ، وثورتهم عليه ، إنه جاءهم بالحق ، ولكنهم يكرهون الحق الذى جاء به ، وإنه ليدلهم على طريق الخلاص ، ولكنهم يتمنون أن يمطروا بحجارة من السماء ولا تكون نجاتهم على يديه ، لقد أعماهم الحقد ، وغشى أبصارهم الحسد ، ولم يعد يدور بخلدهم إلا التفكير في التخلص من محمد وما جاء به ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

المؤامـــرة :

● ضاق القوم ذرعا بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووجدوا أنفسهم قد فشلوا في كل محاولاتهم ، فشلت وسائل التعذيب والإرهاب ، كما فشلت أساليب الخداع والإغراء ، كذلك باءت حرب الإشاعات بخيبة الأمل .

---

(١) النساء الآية : ١٠٠ .

(٢) رواه البخارى .

● ورأى المشركون بأعينهم إنتشار الإسلام في كل مكان وعلموا بما تم بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل المدينة من البيعة على النصرة والإيمان ، فأزعجتهم تلك الأخبار ، وأقلق نفوسهم ما يتوقعون من انتصار التوحيد على الوثنية التى استماتوا في الدفاع عنها ، وحز في نفوسهم أن يتغلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم عليهم بعد هذا العناد الطويل .

تواعد القوم أن يلتقوا في دار الندوة ، وأن يطرحوا هذا الموضوع الذى شغل بالهم على بساط البحث ، وعزموا على أن يتخذوا فيه قرارا حاسما مهما كلفهم ذلك .

لقد ماتت خديجة التى كانت تقف دونه بمنزلتها ومن يؤازرها من عشيرتها ، ومات أبو طالب الذى كان يفديه ويدافع عنه ، لم يعد هناك ما يحول بينهم وبين الإيقاع به فلماذا يترددون ؟

وبدأت الجلسة بحماس لم تعرفه دار الندوة من قبل ، إن المسألة في نظرهم مسألةكرامة ، لقد سفه محمد عقولهم ، وعاب الهتهم ، وعرض بابائهم فماذا بقى لهم ، إنهم إن لم ينتصروا لالهتم المهانة وعقولهم المسفهة وابائهم المجرحين فلا خير في العيش ، ولا فائدة في الحياة .

قال أحدهم في إنفعال شديد : أرى أن تحبسوا محمدا في الحديد ، وتغلقوا عليه بابا ، ثم تتربصوا به ما أصاب الشعراء من أشباهه .

ورفض الاقتراح من غير مناقشة طويلة حيث لا يستحق المناقشة لأنهم يعتقدون أن أصحاب محمد لا تعجزهم فرصة يختلسونها ، ثم يطلقون فيها سراحه .

وقال اخر : خير لكم من ذلك أن تنفوه من بلادكم ، فإذا خرج عنا فلن نبالى أين ذهب ولا حيث وقع ، وحينئذ نصلح أمرنا ، وتعود إلينا ألفتنا كما كانت .

● ولم يكن هذا الاقتراح خيراً من سالفه ، فقد رفض لأول وهلة لقد غاب عن صاحب الاقتراح أن خوفهم من خروجه أكثر من خوفهم من بقائه ، ولم يفطن إلى أنه لو خرج من بينهم يكون خطره عليهم أشد ، وتهديده لعقيدتهم أقوى حيث يستطيع أن يجمع من الأتباع ما يمكنه بهم أن يجتاح عليهم ديارهم ، ويغلب عليها دونهم

عندئذ قام أبو جهل وقال إن لى رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، وقال الحاضرون في لفهة : هاته يا أبا الحكم ، قال أبو جهل : أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً جليداً نسبياً وسيطاً فينا ثم نعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فيرضوا منا بالعقل ، فنعقله(١) .

● وفرح القوم برأى أبى جهل ، وأيدوه من غير نظر ولا مناقشة وكيف لا ، وهم لم يجتمعوا إلا ليتخلصوا من محمد ، إن اقتراح أبى جهل هذا قد كشف عن قبح الاقتراحين السابقين وسخفهما بقدر ما كشف عن حمق صاحبيهما ، لا شك أن حبس محمد في الحديد سيثير عاطفة بنى هاشم إن لم يحرك عاطفة كثير من الناس الذين

---

(١) ابن هشام (٢ / ٩٠ ـ ٩١) والعقل الدية .

يرونه مكبلاً بالحديد من غير جرم ولا جريرة ، فيتعاطف معه كثير ممن لم تربطهم به عاطفة ولا قرابة ، لأن تعاطف الناس مع المظلوم حقيقة لا يمارى فيها أحد .

كما أن نفيه من البلد سلاح رهيب يستطيع - صلى الله عليه وسلم - أن يستغله ضدهم ، فيألب عليهم القبائل ، وهم جميعاً على أتم إستعداد ليستمعوا إليه لولا أن قريشاً تحول بينهم وبين ذلك ، فإذا ما خلا له الجو للالتقاء بهم في حرية من غير ضغط ولا تشويش ، لا شك أنه سيقنعهم فيكونون معه عليهم .

لهذا رأى الجميع في رأى أبى جهل الفرصة التى ينشدونها ، فيجب ألا يضيعوها ، وغادروا دار الندوة وقد أجمعوا أمرهم على تنفيذ إقتراح أبى جهل .

ومكروا ومكر الله :

● أوحى الله إلى نبيه ما بيت القوم له ، وأمره بالهجرة ، وكان الطريق قد تمهد من قبل ببيعة الأنصار ، وهجرة المسلمين إلى المدينة المنورة ، وقد وجدوا فيها وطناً بدلا من وطنهم ، وألقوا فيها أهلا خيرا من أهلهم ، وعاشوا فيها آمنين على أرواحهم وإيمانهم .

وبدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - يواجه الموقف الجديد في ثبات لا لا يزعزه التردد ، وبحزم لا يوهنه اللين ، وكان عليه أن يواجه كيدهم بكيد هو أنكى منه وأشد ، وكان عليه أن يقابل تخطيطهم بتخطيط هو أدق منه وأتقن .

لقد خطط القوم وفكروا ، وناقشوا الأمر وقلبوه على كل وجوهه ثم أجمعوا أمرهم على ما رأوه يحقق أمالهم ، فهل يجوز أن يواجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذا الاهتمام بالكسل ، والتخطيط بالتواكل ؟

كلا ، لابد أن يولى الأمر اهتماما أكثر من اهتمامهم ، لأنه متعلق بعقيدته أولا ، وبشخصه ثانيا ، كما لابد أن يواجه تخطيطهم بتخطيط يفسد عليهم حيلتهم ، ويحبط كيدهم .

● وإننا لنعجب غاية العجب إذا وقفنا على خطة الرسول - صلى الله عليه وسلم - التى واجه بها خطة القوم ، وإن المحققين ليقفون مدهوشين من روعة تلك الخطة وإحكامها ، ولن أتعرض لقصة الهجرة هنا إلا بالقدر الذى استنبط منه العبرة ، واستخلص منه الدروس التى يحتاجها المسلم في طريقه الطويل الشاق إلى غايته السامية الغالية ، فالقصة برمتها مسطورة في كتب السيرة والتاريخ .

اجتمع شباب قريش وفتيانها في الليلة التى حددوها لتنفيذ المؤامرة ، وأحدقوا ببيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والسيوف في أيديهم تخطف الأبصار ببريقها ، يترقبون خروج رسول الله لينهشوه بتلك السيوف .

وكان على رسول الله أن يخرج من بين هذه الجموع المحتشدة المترقبة وكان عليه كذلك أن يضللهم حتى لا يفطنوا لخروجه فيتبعوه ، ويفسدوا عليه خطته ، عندئذ أمر عليا - رضى الله عنه - أن ينام في مكانه ، وأن يتغطى ببردة الحضرمى الأخضر ، فامتثل على لأمره ، ونام في مكانه مضحيا بنفسه يفدى بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وضرب على بذلك أروع امثلة التضحية والفداء .

● نام علىّ على فراش الرسول ، ونظر المشركون من خصاصة الباب فاطمأنوا على سلامة خطتهم ، وظلوا يتحينون فرصة خروجه ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل .

● وهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالخروج من بيته، وكانت لحظة جد خطره فالمشركون على باب الرسول وسيوفهم مشرعة في أيديهم كأنها الحيات تتلمظ لتنهش فريستها، وحانت لحظة الوداع، فودع الرسول عليا وطمأنه قائلا : لن يخلص إليك شئ تكرهه منهم(١) وأوصاه أن يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس(٢) .

وخرج رسول الله على القوم وهو يعلم مكانهم وما جاءوا من أجله ولكنه خرج وكله ثقة في الله ـ عز وجل ـ وفتح باب بيته ليجد فتيان قريش يغطون في نوم عميق، وكأنهم لم يناموا منذ زمن بعيد .

ماذا دهى القوم ؟ لقد كانوا منذ لحظات يسمرون، وقد حضر معهم سادة قريش : أبو جهل والحكم بن أبى العاص، وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وربيعة بن الأسود، وطعيمة بن عدى، وأبو لهب، وأبى بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج(٣) .

لقد حضر هؤلاء السادة ليشجعوا فتيان قريش على اداء مهمتهم وليتشفوا في رسول الله، ويمتعوا أبصارهم برؤية دمه الشريف وهو يهراق أمامهم، فما بالهم يغطون في هذا النوم العميق ؟

ولقد كان أبو جهل ـ لعنه الله ـ منذ لحظات يحدث القوم ساخرا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقول : إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن .

وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها(٤) .

● يا سبحان الله !! لقد سمع رسول الله ذلك من أبى جهل وهو في طريقه إلى الباب ليخرج، فأى مصيبة حلت بهم فصرفتهم عن غايتهم ؟؟

إنها إحدى المعجزات، لقد أخذ الله أبصارهم، وضرب على قلوبهم حتى خرج عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يروه، وسخر من أبى جهل كما كان يسخر منه قبل لحظات، وقال : نعم، قلت ذلك، وأنت أحدهم، وأخذ حفنة من تراب فجعلها على رؤوسهم، وهو يتلو قوله تعالى : « يس والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين ... فأغشيناهم فهم لا يبصرون »(٥) .

فلم يبق أحد منهم إلا قد وضع على رأسه ترابا(٦) .

أى سخرية هذه ؟ وأى احتقار للقوم ؟ شباب أقوياء وسيوفهم في أيديهم، يخرج عليهم رسول الله وحيدا، ولكنه في رعاية الله، ويضع التراب على رؤوسهم متحدياً تلك السيوف التى ذبلت في أيديهم كأنها أغصان فصلت عن شجرتها، فلم تغن عنهم شيئا .

---

(١) ابن هشام (٢ / ٩١) .

(٢) نفسه ٩٣ .

(٣) مختصر ص ١٦٥ .

(٤) ابن هشام (٢ / ٩١) .

(٥) سورة يس الآيات : ١ ـ ٩ .

(٦) ابن هشام (٢ / ٩١) .

ويمر بالقوم رجل فينبههم ، فإذا التراب على رؤوسهم ، والخزى يجلل وجوههم ، وينظرون من خلال الباب فيرون النائم متسجيا بالبرد الحضرمى الأخضر فيقولون : هذا محمد نائم على فراشه ، وظلوا في حصارهم ينتظرونه ، حتى أصبحوا ، فقام على ـ رضى الله عنه ـ عن الفراش فقالوا : قد صدقنا والله من حدثنا(١) .

وخاب أمل القوم ، وضل سعيهم ، ألم يكن في هذا الحدث وحده واعظ لهم ينبههم إلى أن الرسول ممنوع منهم ؟ وأنهم مهما دبروا فالله من ورائهم ولكن (ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)(٢) .

خرج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيته على النحو الذى ذكرت متوجهاً إلى بيت أبى بكر ، وكان قد أخبره بالهجرة وبالموعد الذى سيغادران فيه مكة ، وأمره أن يكتم عليه ، ومن أوفي من أبى بكر بعهد قطعه مع رسول الله ؟

وكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ينتظر تلك الساعة بفارغ الصبر ، وكان قلقاً على الرسول خائفاً أن يصيبه مكروه من القوم ، ولكن الرسول كان محفوفا بالعناية الربانية ، ولهذا خرج على القوم دون أن يتردد وإنى أشهد شهادة حق أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو لم يكن رسولا حقا ما خرج في تلك الساعة مهما كانت قوته وشجاعته .

وفي بيت أبى بكر وضع الرسول خطة كاملة للهجرة ، وأعد لكل شئ عدته ، لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم أن إتخاذ الأسباب أمر يقتضيه كمال الإيمان وحسن التوكل ، وعلى هذا الأساس وضع برنامج الهجرة .

كان لابد من سلوك طريق غير مألوفة حتى لا يعترضه أحد من أعدائه فاستأجر لذلك الدليل ـ عبد الله بن أريقط ـ وكان ماهرا يعرف الطريق معرفة جيدة ، وكان عبد الله مشركا ، ومع ذلك إئتمناه على هذا السر الخطير ، ووفي الرجل بعهده فلم يخن ، ولم يغدر ، ولو فعل لم يلم لأنه على دين قومه ، ولا يهمه أمر المسلمين في شئ ، ورصدت قريش مائة ناقة لمن يأتى بمحمد حيا أو ميتا(٣) وأبت نفس ابن أريقط أن يربح هذه الجائزة على حساب رجل ائتمنه ، ورضى بأجره المتفق عليه .

وكان لابد أن يختفى رسول الله فترة عن أعين الناس حتى يهدأ الطلب وتفتر الهمم في اقتفاء أثره فيتمكن من السير وهو آمن .

فأدلج إلى غار ثور ، وأقام فيه ثلاثة أيام ، ولم ينس رسول الله أن يدبر أمر الطعام والشراب والأخبار في تلك الفترة التى سيقضيها في الغار ، فجعل أسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنها ـ لإعداد الطعام والشراب تأتيهما به ليلا حتى لا يراها أحد(٤) .

وجعل على أخبار القوم عبد الله بن أبى بكر ، كان يسمع ما يدور في مجالس القوم نهاراً ويعيه فإذا جن الليل أتاهما بأخبار الناس وأعلمهما بما يتكلمون به ، وعلى أساس هذه الأخبار يخطط للبقاء في الغار أو لمغادرته

---

(١) نفسه ص ٩٢ .

(٢) المطففون الآية : ١٤ .

(٣) مختصر السيرة ص ١٦٩ .

(٤) ابن هشام (٢ / ٩٣) .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخشى أن يرى أحد من المشركين اثار أقدام عبد الله بن أبى بكر وأخته أسماء فيستدل بها على مكانهما ، فأمر عامر بن فهيرة مولى أبى بكر أن يسرح بالغنم مبكرا على آثارهما فيعفى عليها ، ويزيل ما قد يكون سببا في معرفة مكانهما ، كما كان يريح الغنم عليهما ليلا فيذبحان منها ، ويحلبان فيشربان .

ومع كل هذه الاحتياطات ، ورغم كل التخطيطات وصل القوم إلى الغار ، ولكن هل على الرسول وصاحبه لوم إذا عرف القوم مكانهما بعد ذلك ، كلا ، فقد إتخذ كل الاحتياطات اللازمة ، وبذلا كل ما في وسعهما والله ـ سبحانه ـ بعد ذلك يتولى ما لم يقدرا عليه .

وصل المشركون إلى الغار ، ورأى سيدنا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ أقدامهم فقال : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه أبصرنا ، والرسول يهدئ من روع أبى بكر ويقول : يا أبا بكر ، ما ظنك بإثنين الله ثالثهما ؟ لا تحزن إن الله معنا (١) .

لقد كان رسول الله في ثقة تامة بالله ـ عز وجل ـ وكيف لا وهو لم يهمل سببا من الأسباب ، ولم يقصر في أمر يستطيعه ، وأكثر من هذا فقد كان خروجه بأمر الله ، والله ـ تبارك وتعالى ـ لا يضيع نبيه أبدا .

لهذا كان الرسول يخاطب أبا بكر وهو موقن أن الله لن يضيعهما ولابد أن يرد عنهما عدوهما ، وقد كان .

وتولى الله صرف المشركين عن الغار ، أما كيف ؟ وبماذا ؟؟ فهذا ما لم يخطر لأحد على بال ، لم يرسل الله ملائكة تحرس النبى وصاحبه ، ولم يسلط على القوم جيشا يردهم عن وجهتهم ، ولكن أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، وأرسل حمامتين فباضتا عليه(٢) .

وتنازع المشركون أمرهم بينهم ، هذا القائف يقول : قد دخلا هنا ، وهذا العنكبوت والحمام يوحى إليهم بكذب القائف ، حتى قالوا : كيف يدخل الغار ولم يتكسر بيض الحمام ، ولم يتمزق نسج العناكب ، ولو صح أنهما دخلا قبل بيض الحمام ونسج العنكبوت ، فهل ينمكن العنكبوت من نسج ذلك في تلك المدة الوجيزة ، إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يغب عنهم إلا منذ يوم فقط ، فكيف يستطيع العنكبوت نسج ذلك كله حتى يغطى فم الغار في يوم ؟ ولو صح بيض الحمام في هذا اليوم فان ذلك يستحيل على العنكبوت .

لقد حسب المشركون الأمر بحسابهم المادى المعتاد ، ولم يدروا أن لله جنود السماوات والأرض ، وأن الخوارق طوع إرادته ـ سبحانه ـ « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »(٣) .

وبهذا الأمر الكريم نسجت العناكب فوق ما يتصوره عقل الإنسان وباضت الحمائم على وجه الغار ، وهكذا صرف الله عن نبيه أعداءه بأوهى الأسباب وأضعف المخلوقات ، « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب »(٤) .

---

(١) مختصر السيرة ص ١٦٨ .

(٢) مسند البزار .

(٣) سورة يس الآية : ٨٢ .

(٤) سورة ق الآية : ٣٧ .

إلى المدينـــة :

● مضت على الرسول الأيام الثلاثة وهو في الغار ، وهدأ الطلب ويئس المشركون ، واطمأن الدليل فوافاهما براحلتيهما ، وغادر رسول الله الغار مع صاحبه في رعاية الله وحفظه .

وسلك الدليل بهما طريقاً لا يعرفها كثير من أهل مكة إمعاناً في تضليل المشركين ، وضماناً لسلامة المهاجرين ، وكان السائرون في هذا الدرب أربعة : رسول الله ، وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر صحبهما ليقوم بخدمتهما ، ثم عبد الله بن أريقط دليلهما .

أخذ الدليل بهما طريق الساحل ، وسار أمامهما ، وجد الناس في طلبهما رغبة في الحصول على الجائزة الثمينة التى رصدتها قريش لمن يأتى بهما أو بأحدهما حياً أو ميتاً .

ورغم أمعان الدليل في التضليل ، ورغم الجهد المبذول في التخفى إلا أن سراقة بن مالك أدرك المهاجرين ، وخاف أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ مرة أخرى وقال : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله ، وأجاب الرسول بكل ثقة واطمئنان : (لا تحزن إن الله معنا) .

لقد حاول سراقة أن يفوز بالجائزة ، إنها ليست شيئاً هيناً بل هى مائة ناقة عن كل واحد منهما ، يقول سراقة : كنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة الناقة (١) .

وفرح سراقة عندما رأى الرسول وصاحبه ، وحدثته نفسه بالثروة العظيمة التى تنتظره ، لا شك أنه سيكون من سادة قريش وأثريائهم ، ومن سيكون أكثر ثراء منه فيهم إنه سيكون بعد قليل صاحب مائة ناقة إن لم يكن صاحب مائتين .

وهمز سراقة فرسه ليدرك الركب ، وجد في السير ، وأجهد فرسه ولكن حيل بينه وبين ما يشتهى ، فكيف حصل هذا ؟ ولنترك سراقة يحدثنا بما حصل له ، قال سراقة :

فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى ، فذهبت يداه في الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار ، قال : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى ، وأنه ظاهر(٢) .

إن سراقة رجل قد أراد الله به الخير فهداه إلى الحق ، وأدرك أنه ما دام لم يستطع الوصول إليه وهو أمامه فلا بد أن يكون له شأن ، وإلا فما الذى يحول بينه وبينه ؟

وأدرك سراقة سر هذه الحيلولة فأمن بالله ورسوله ، وأخذ على نفسه أن يرد عن الركب كل ما يطلبه .

● لم يكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل في رد سراقة ، ولكن الله هو الذى رده ، إن الرسول قد اتخذ الأسباب التى يستطيعها ، فسلك طريقاً غير معروفة ، وأخذ الدليل ليهديه ، واستخفى عند خروجه وذلك ما يستطيعه ، فإذا حدث ما لم يكن في الحسبان فالله ـ عز وجل ـ يتولى دفعه ، وقد كانت المعجزة التى شاهدها سراقة فعلم أن الرسول ممنوع لا محالة فآمن به .

---

(١) ابن هشام (٢ / ٩٦) .

(٢) نفسه ص ٩٦ ـ ٩٧ .

● وقف سراقة بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعرض عليه الزاد والمتاع وأحبره بما يريد به الأعداء ، فلم يقبل الرسول منه زاداً ولا متاعاً وأمره أن يخفى أمره ولا يخبر أحداً به(١) .

والتفت الرسول إلى سراقة وقال : كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ؟(٢) إنها كلمة لا يقولها في مثل هذا الموقف إلا رجل عظيم تام الثقة بالله ـ عز وجل ـ إن الرسول يطارده قومه ، وقد خرج من بينهم مهاجراً إلى بلد آخر مستخفياً ، ثم يخبر سراقة بأنه سيلبس سوارى كسرى ، إنه أمل عظيم في الله سبحانه ـ وثقة تامة في نصره المبين .

ويعود سراقة بهذه البشارة الطيبة وبكتاب أمان كتبه له أبو بكر بأمر الرسول ، ويعود فوق ذلك بإيمان ملأ قلبه فكان ذلك عنده خيرا من ألف ناقة .

ومر الرسول وصاحبه بخيمتي أم معبد وهى امرأة من خزاعة كانت تجلس في خيمتها تطعم وتسقى من يمر بها فسألاها عن شئ يشترونه ، فأجابت لو كان عندى ما أعوزكم القرى .

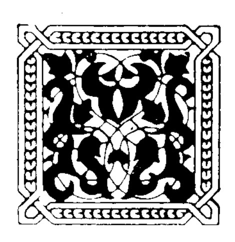
ورأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في جانب الخيمة شاة فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت : هى شاة خلفها الجهد عن الغنم .

فاستأذن منها ، وحلبها فتفاجت فدرت ، وملأ الرسول منها إناء يكفى الرهط فسقاها ثم سقى أصحابه ثم شرب آخرهم ، ثم حلب في الإناء مرة أخرى حتى ملأه وتركه عندها وغادرها .

● وهكذا يضرب الرسول المثل في حب الخير للناس لقد كان يستطيع أن يرحل عن أم معبد دون أن يحلب لها ، ويكفى أنه سقاها وسقى أصحابه ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حريصا على أن يصل الخير إلى الناس جميعاً ، ولعلها لا تجد ما تطعم منه زوجها إذا حضر فترك عندها ما تستعين به على ذلك .

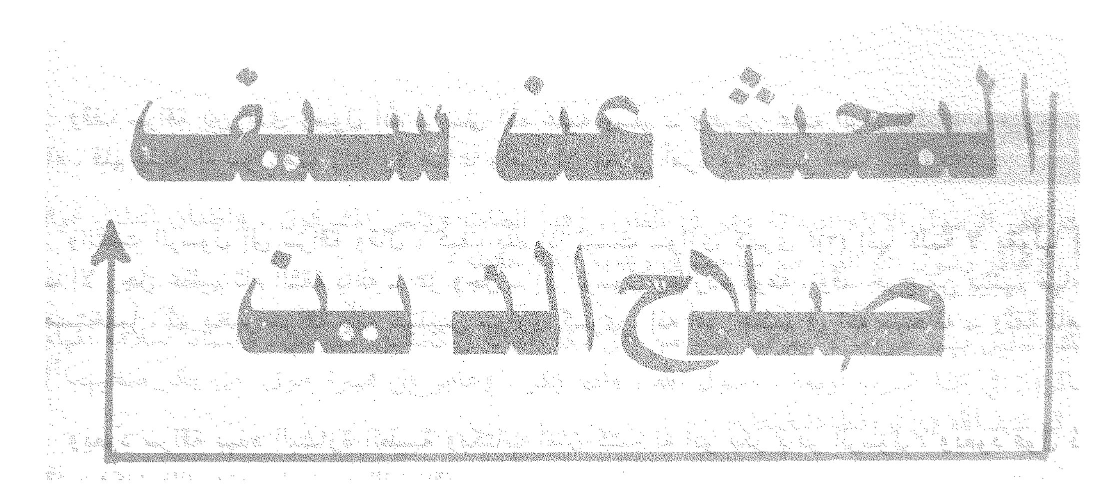
وفي الطريق لقى الركب الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ قادما من الشام في تجارة له ، ومعه بعض المسلمين ، فكسا الرسول وأبا بكر ثيابا بيضاء مما جلبه من الشام .

وسار الركب المبارك ميمما شطر المدينة ، وعلم الأنصار بمقدمه فخرجوا لاستقباله وقد لبسوا سلاحهم ، وتلقوه بظهر الحرة المعروفة بحرة الوبرة ـ الحرة الغربية ـ فمال بهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات اليمين متجها إلى قباء حتى نزل في بنى عمرو بن عوف وكان ذلك في يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول .



(١) صحيح البخارى .

(٢) الإصابة (٢ / ١٩) .



لفضيلة الدكتور : عبد الرحمن بله على

في عام ٤٩٠ هـ الموافق ١٠٩٦ م حشد الغرب الصليبى بنيه من كل جنس وهجم على الشرق الاسلامى في اعداد كموج البحر . وحتى يبرروا الهجوم العدوانى لابد من استغلال العاطفة الدينية فصاحوا في الناس أن بيت المقدس أصبح في يد شعب غريب يقصدون المسلمين وما كان ذلك هو السبب وان علقوا على صدورهم الصلبان لكنهم نظروا في واقعهم ووجدوا انهم على حالة من الفقر والعوز لا يصلح معها عيش ، أرضهم تضيق بهم وتعجز عن امدادهم بالطعام ، وأرض الشرق لا نظير لها في خيراتها .. هم في حاجة الى ثروات وامكانات يريدونها للنهوض بغربهم وهى لا توجد الا في الشرق الاسلامى .

هذا ، الى جانب ما هم عليه من حقد دفين على الاسلام وأهله فهم لا يألون جهدا ، ولا يدخرون وسعا في حربه وطىّ راياته ، والقضاء على أمته . وفي سبيل تلك الغاية يعتسفون الطرق ، ويركبون الصعب والذلول .

من أجل هذا وذاك سالت بهم الوديان كل مسيل ، يدفعهم حقد أسود ويسوقهم عدوان أثيم على ديار المسلمين الذين استحكمت يؤمئذ بينهم العدوات وضعضعت من قوتهم عميق الحزازات مما جرأ النصارى عليهم ودفعهم الى أن يغزوهم في عقر دارهم .

وهكذا اندفعت كتائبهم ، وتوالت حملاتهم ، لا ينقضى منها عنيف الا جاء بعده أعنف ، وقد صور ذلك القاضى الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبى أصدق تصوير حين قال للسلطان : « انه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض ، وأطراف الدنيا ، ومغرب الشمس ومزخر البحر ، ما تأخر منهم متأخر ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة ، لا أموال تنفق فيهم ، ولا ملوك تحكم عليهم ولا عصا تسوقهم ، ولا سيف يزعجهم ، مهطعين الى الراعى ، ساعين في أثر الساعى ، وهم من كل حدب ينسلون ومن كل بر وبحر يقبلون . » (١)

ومارٰاع المسلمين الا رؤيتهم النصارى يقتحمون عليهم ديارهم ، ويرفعون السيوف في وجوههم ، ويدفعون بالخيول في صدورهم . وامام هذه المباغتة تنادى المسلمون والتحمت صفوفهم

---

(١) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، أبو شامة ، ط ١٢٨٧ هـ ، جـ ٢ ، ص ١٦٨

وواجهوا هذا العدوان بشجاعة لا نظير لها ، ودارت بين الفريقين معارك عنيفة انتهت باستيلاء المسيحيين على بيت المقدس .

وعندما لعبت بعقولهم نشوة الانتصار راحو يذبحون النساء والأطفال الشيوخ وأئمة المسلمين وعبادهم وهم داخل بيت المقدس وفي رحابه .. لم تمنعهم قدسية المكان عن ارتكاب هذه الجريمة التى تنشق لها المراير ، وتنفطر من هولها القلوب .

وتمكن الصليبيون من السيطرة على الشام وخاصة الجزء الساحلى من آسيا الصغرى الى خليج العقبة وبهذا ، تحكموا في منافذ الشرق الاسلامى فتفتحت لهم طرق التجارة ، وسيطروا على الأسواق الشرقية فأصبحت لهم مورد كسب ، وينبوع ثروة ، ومصدر غنى ورخاء .

وقف المسلمون أمام هذه الهزيمة التى طعنت كرامتهم بأصْمَى سلاح ، وتركت في حلوقهم أمرُ من طعم العلقم وقفوا يتطلعون بعين الأمل الى قائد راشد الرأى قوى العزيمة مشدود الشكيمة لا يرام ماوراء ظهره ، صبور في ميدان القتال ، لا يستسلم مهما عظمت الخطوب ، وكثرت عقبات الدروب .. اذا رأى خرقا بادر بسده ، واذا أبصر سارع برده ، توحيدا للكلمة ،وذودا عن ـ حرمات الأمة وحماية لظهرها وتمكينا لدينها . .

وجدوا ضالتهم المفقودة وأمنيتهم المنشودة في القائد الفذ صلاح الدين الأيوبى الذى ترجمت له مواقفه المشهورة واعماله المذكورة التى جعلته يقف في تاريخ الاسلام معلما فريدا وقمة شاهقة الذرى . . وأول شيء فعله أن عمد الى الكلمة فجمعها ، والى الصدع فرأبه ، والى الصف فوحده جاعلا من مصر والشام والجزيرة العربية وديار بكر أمة واحدة ، وقوة ضاربة ، واستنفرهم للجهاد في سبيل الله ، وانصرف يتألفهم بشتى الوسائل ومختلف الطرق ، ولقد كانت غاية وعرة الطريق صعبة المنال كثيرة العقبات ، ولكنه تخطاها واحدة وواحدة ، بالصبر والحكمة ، وقوة العزيمة وشدة شكيمته . يقول له وزيره القاضى الفاضل « وليس لك من المسلمين كافة مساعد الا بدعوة ، ولا مجاهد معك الا بلسانه ولا خارج معك.الا بِهَمّ ، ولا خارج بين يديك الا بأجرة ، ولا قانع منك الا بزيادة ، تشترى منهم الخطوات شبرا بزراع وذراعا بباع ، تدعوهم الى الله فكأنما تدعوهم لنفسك ، وتسالهم الفريضة وكأنما تكلفهم النافلة ، وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم . » (١) .

ولكن القائد الراشد يستطيع بعمق تفكيره وحسن تدبيره أن يجعل من الضعف قوة ، ويجنى من الشوك عنبا ، ويصنع من الناس ذهبا . فها هو يجعل من المسلمين وهم على حالهم ذاك أمة موحدة الهدف ، مسموعة الكلمة مرهوبة الجانب ، متخذة من الاسلام آصرة ، ومن كتاب الله اماما ومن العربية لسانا ، ومن جميع المسلمين اخوانا . راجعا في هذه الوحدة الى سالف عزها وسابق مجدها .. تلك كانت أمنيته التى ظلّ يعمل لها ، ويهبها جهده ووقته وسيفه ، لا يبتغى من

(١) مختارات من كلام القاضى الفاضل (مخطوط) بدار الكتب المصرية رقم (٢٨٨٢) أدب ، ورقة رقم (٧) .

وراء ذلك كسبا شخصيا ، وليس أدل على ذلك من أنه بادر بعد القضاء على الدولة الفاطمية ، بمصر - بادر بالانضمام الى علم الدولة العباسية الكبرى في بغداد حتى تكتمل الوحدة ، ويتم بتوحيد الكلمة والصفوف أمام الغزو الصليبى ، ولا يجد أمام تماسكهم من الهزيمة خلاصا ، ولا عنها مناصا يحدثنا التاريخ بأن بعض وزراء الدولة الفاطمية بدأوا يراسلون الصليبيين سرا، يكشفون لهم عن وجهها ، ويرغبونهم في غزوها ، فبات السلطان مقتنعا بضرورة القضاء عليها وطى بنودها ومسح وجودها ، فلما تم له ذلك لم يبادر بقطع الخطبة عن الخليفة الفاطمى ويدعو لأمير المؤمنين ببغداد ، لأن الجو لم يتهيأ بعد لمثل هذه الخطوة إذ لا يزال ملبدا بالغيوم منذرا بالخطر ، وبعد مشاورة من يثق في رأيه اهتدى الى ابطال الزيادة المعروفة في اذان الشيعة : .. « حى على خير العمل » جسا للنبض وتحسسا لمشاعر الناس . وتلك نظرة صادقة وسياسة راشدة ، لأن الدولة الفاطمية التى حكمت مصر (٢٩٧ - ٥٦٧) كانت تغدق المال على المصريين خاطبة ودهم ، راغبة في تأييدهم وانتمائهم الى المذهب الشيعى الذى تقوم عليه الدولة .

● والناس في كل زمان ومكان عبيد المال والاحسان . فلما تمكن واستوثق عفّى على اثارها تماما فحرق كتبها ، وأبطل اراءها ، وحارب عقيدتها المنحرفة عن نهج الحق ، ومنع أن يفسر القرآن على حسب الاهواء والميول كما يفعل الشيعة ، وأمر بتدريس فقه المذاهب الأربعة ، بعد أن كان ذلك ممنوعا أمام فقه الشيعة ، كما أمر بقطع الخطبة عن الخليفة الفاطمى ، واعلانها لخليفة بغداد.

وهكذا طوى هذه الصفحة بكل هدوء طيا محكما ، وأسدل ستاراً سميكا على تلك الحقبة من التاريخ بما عليها .

وحتى تنتظم الوحدة جميع المسلمين كتب رسالة الى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ينهى اليه فيها أن هناك مددا متصلا يأتى الكفار من الغرب ، ذلك أن فرع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب فأجابوهم رجالا وفرسانا ، وشيبا وشبانا ، الأمر الذى جعلهم قوة متزايدة النماء ، واخر استرجاع ما اغتصبوه ، ويطلب منه النجدة وقطع الطريق امام المدد الصليبى ، وينبئه أنهم كانوا يأملون أن يصلهم هذا المدد من جانبه ليكون للمسلمين آمالا وللكافرين آجالا ، فلما بطّأ أرسلوا هذه الصيحة عليها تحرك هذا المدد ولا غرو في ذلك ، « فقد تحفل السحابة ولا تمطر الا أن تحركها أيدى الرياح ، وقد تترك النصرة فلا تظهر الا أن تضرع إليها ألسنة الصفاح .. » .

● والرسالة طويلة دبجها شيخ أهل الترسل في زمانه وكاتب الديار المصرية وزير صلاح الدين - القاضى الفاضل(١) وهى وثيقة تاريخية بالغة الأهمية ، وقطعة باهرة البيان - ويذكر المؤرخون أن الظروف الداخلية والقلقة للمغرب أخرت الاستجابة ، اليها وتلبية ندائها .

---

(٢) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ط ١ ، جـ ١١ ، ص ٢٤٧

(٢) الروضتين ، ٢ / ٢١٥

● وعلى الصعيد الداخلى أدرك بنور بصيرته وصفاء روحه وصائب حكمته أن ماعند الله تعالى لا ينال الا بطاعته والتزام شريعته ، فعمد الى المظالم يرفعها عن كاهل الناس ، والى المنكرات الفاشية يزيل أسبابها ، ويغلق أبوابها ، ويفرض حرمة الأخلاق ، ويضرب على أيدى العابثين ويؤكد حاكمية الدين . واستطاع أن يجمع الناس حول راية الجهاد ، ويتجه بهم الى ميدان القتال ، ، وينازل بهم كتائب الأعداء ، صابرا محتسبا ، لا يجد اليأس الى نفسه سبيلا ، ولا ترى في مواقفه من الرياء فتيلا ، فلا غرو أن نصره الله نصرا بقى على مر الحقب ذكرا طيبا في الدنيا ووسام شرف على هامات المسلمين

فقد نازل الصليبين في كثير من المعارك انتهت بنصره ، وبث الخوف في أوصالهم لما امتاز به هو وجنوده من تضحية وبذل وفداء ، وكلٌ قد تدجج بسلاح العقيدة والايمان ، وهو سلاح فعال اذا دخل معركة آمال كفتها ، ، وغير نتيجتها .

وعلى مشارف « حطين » دارت رحى معركة فاصلة انتصر فيها صلاح الدين انتصارا باهرا . ورأى أن يجهز على الصليبيين قبل التقاط انفاسهم وتجميع شتاتهم ، فبادرهم بجيش عرمرم الى « بيت المقدس » وأمام قوته الضاربة وسطوته القاهرة رأوا الا قبل لهم به ولا طاقة ، فرفعوا أكفهم طالبين الصلح رابحين حياتهم ، فدخله يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة من الهجرة . (٢)

● ثم تعقبهم فأجلاهم عن كثير من الحصون و القلاع التى اغتصبوها ، وسيطروا عليها فتم له استرجاع المقدسات ا ـ.واطفاء جمرة الأعداء ورفع راية الاسلام ع عالية خفاقة على كثير من الأماكن واضعا الحروب الصليبية على قدم النهاية وكان رحمه الله في كل معاركه معهم مثلا أعلى في المرؤة والساحة فكان انتقامه عند المقدرة عفوا شاملا ، وهو يرمى من ذلك إلى اظهار سماحة الاسلام وشكر فضل الله ، الى جانب ماجبل عليه من كرم الخلق ونبل الطبع وسماحة النفس

وفي أيامه الأخيرة كان يسر لبعض خاصته أن أمله المنشود اعادة الأرض المغتصبة ورد خطر الصليبيين عنها ، وتعيين من يثق فيه لتصريف شئونها وحماية ثغورها ، ثم يتفرغ حينئذ الى الدعوة الى الله تعالى فلا يدع مكانا في العالم الا حملها إليه حتى لا يرى على وجه الأرض الا مؤمنا بالله رب العالمين ، أو معطيا الجزية للمسلمين خاضعا لهم ، داخلا تحت طاعتهم .

● الا أن آثار الجهاد بدأت تظهر على القائد ، فقد عاش لله أكثر مما عاش لنفسه ، ومكث في ميادين القتال أكثر مما مكث في حدائق القصور ، وعاشر سمر الرماح وبيض الصفاح أطول مما عاشر أهله وذويه . وأخيرا أدرك الاعياءُ البطل فلزم الفراش في الشام وفي شهر صفر عام ٥٨٩ هـ فاضت روحه الى ربه ، وتذكر بعض المراجع (٣) أنهم دفنوا معه سيفه الذى كان يجاهد به ، كأنه جرى في خلدهم أن ليس هناك أحد جدير بحمل سيفه واتمام دوره وتحقيق أمله .

والواقع أن أمتنا قد تنهزم في بعض الأحيان حتى أن عدوها ليظن أنها أصبحت رمادا هامدا ، ولكن ماهى حتى يظهر قائد عبقرى التفكير عميق النظر والتدبير فيكتشف أن تحت الرماد شرارة فما يزال ينفخ فيها حتى تتأجج نارا تلتهم الأعداء ويخافها الأقوياء . وفي تاريخنا من العبر والدروس ما لو تأملناه ووعيناه لعادت هزائمنا نصرا ، وخسائرنا مكسبا وربحا ، خاصة في الأوقات التى نتعرض فيها للهزائم العسكرية والهزات النفسية ، فيكون عونا لنا ـ بعد الله ـ على الثبات أمام العدو المتربص بنا الطامع في ارضنا . فهلا راجعنا رصيدنا التاريخى لنعرف كيف بلغت عزتنا ، وركيزة مجدنا وقوتنا وان كان التاريخ لا يعيد نفسه ، فان أوجه المماثلة في حوادثه المعادة أكثر من أوجه المخالفة ، فما الحرب العالمية الأولى الا امتداد للحروب الصليبية ، وليس أدل على ذلك مما قاله (غورو) القائد الفرنسى بعد أن تم له النصر على السوريين في معركة (ميسيلون) فقد مضى هذا القائد الى قبر صلاح الدين ، وخاطبه قائلا : ((ها قد عدنا يا صلاح الدين)) ولولا أن الله حكم على الأموات ألا يتدخلوا في شئون الأحياء لقام اليه القبر يلحمه السيف .

فلنأخذ لذلك أهبته ، ولنعد له عتاده وقوته . والله حسبنا وهو مولانا فنعم المولى ونعم النصير .

الشريعة الإسلامية

تمتاز الشريعة الإسلامية عن القوانين الوضعية بأنها مزجت بين الدين والدنيا ، وشرعت للدنيا والآخرة ، وهذا هو السبب الوحيد الذى يحمل المسلمين على طاعتها في السر والعلن والسراء والضراء لأنهم يؤمنون بأن الطاعة نوع من العبادة يقربهم إلى الله .

« الشهيد عبد القادر عودة »



بما يلى نقدم أوَّلا : ـ

سبحان من لا أحد أصدق منه قيلا ، ومِن قوله عن الإنسان الذى خلقه : (إن الإنسان لظلوم كفار) (قتل الإنسان ، ماأكفره !) ، فالموجد يعرف سر ماأوجده (ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير) .

فقد راح هذا الإنسان يضع لنفسه حقوقا ، فجعلها على نفسه حتوفا .

راح يضعها وكأنه وضع لنفسه شيئا عجز خالقه عن أن يصنعه له .

فعل ذلك وكأنه راحم لنفسه أكثر من الذى كتب على نفسه الرحمة ، سبحانه ..

فعل ذلك وهو الضعيف المصنوع ، وكأنه ينبئ صانعه بما لم يعلمه عنه (قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض) .

ذهب هذا الإنسان ينشئ لنفسه ماسماه (حقوق الإنسان) ، لا لشئ إلا أنه مع ربه كثير الجدل طويل اللسان ، (وكان الإنسان أكثر شئ جدلا) .

وكأنّ القران العظيم والسنة السَنيّة التى شرحته ، وقد وسعا شؤون الدنيا والاخرة لم يسعا حقوقه .

وأخذ هذا القاصر (حقوقه) وقدمها إلى (هيئة الأمم المتحدة) لتقوم على هذه الحقوق وتؤديها له كاملة غير منقوصة .

فإذا بالإنسان قد استبان له بعد أن أفاق من غشيته أن هيئة الأمم المتحدة التى ائتمنها على حقوقه هى (هيئة أمم مختلفة) ، لم تتحد يوما داخل مبناها ، ولم يفد وجودها شيئا لنفسها . فهل تقيم حقوقا لكل إنسان في كل أرجاء الأرض ؟ هى ومجلس أمنها المعروف ؟!

إن الأرض ماضجت بكل أصقاعها إلا من اعتداء الظلمة الجبارين والذين أوتو من زينة الدنيا ما تربعوا به في مجلس (أمنها) فحولوه إلى مجلس (خوفها) والمسمون بالأعضاء الدائمين الناقضين لكل قرار لا يتفق وهواهم لان لهم من دون الدنيا حق نقض القرارات (الڤيتو) ، ولو هلك بهذا الڤيتو المُفْتئت كل من عداهم ، بعد أن وضعوا حقوق الإنسان التى ائتمنوا عليها تحت نعال أحذيتهم أثناء جلوسهم في مجلس (الأمن) .

فمتى أخافت هيئة الأمم ومجلس أمنها معتديا وردَته عن عدوانه وطغيانه ؟ . إن الصراع الإنسانى ، والتوحش البشرى ، والنزيف الدموى ، والضوارى التى افترست صغار غابها ، والشعوب التى محيت بأكملها ،

والتشريد لأمم طردت من ربوعها ومهادها ، ومقدسات غالية لطخها بالدنس أعداؤها ، ومعتنقو الخسران من تشيُّع وتصهين يطاردون بنى الإنسان تنكيلا وتمزيقا ، أصبح هو السمت المميز والمبدأ المعتنق لحضارة إنسان القرن العشرين ، ، كل هذا لم يحدث إلافي عهد هيئة الأمم المختلفة ومجلس خوفها ، وهما القائمان على تنفيذ (المواد الثلاثين لحقوق العالمين) .

● وقد أعدت هذه الهيئة العالميـة بجربها هيئات ، إقليمية أخرى فسارت على نفس السَليقة التى سارت عليها الهيئة الأم ، كمجموعة (دول الكومنولث الإنجلوسكسونية) ومجموعة (دول الكومنفورم الشيوعية) ومجموعة (دول عدم الانحياز) و(المجموعة الاوروبية) و (منظمة الوحدة الإفريقية) و (منظمة الجامعة العربية) ، وسواها .

هذا غير الأحلاف العسكرية ، كحلف الأطلنطى لدول أوربا الغربية ، ، وحلف وارسو لدول أوربا الشرقية ، وحلف دول شمال شرقى اسيا ، والحلف المركزى المسمى بحلف بغداد سابقا ، وغير ذلك كثير من المنظمات والأحلاف المنتشرة في مختلف بقاع العالم

وكل هذه المنظمات منقسمة على نفسها ، حيث كل أعضائها ممثلون في الهيئة المختلفة الرئيسية ، وهى المسماة (بهيئة الأمم المتحدة) والتى أنشأتها الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية بعد توقفها ووضع أوزارها مباشرة ، وذلك لتستمر لها الهيمنة السياسية بعد أن تمت لها الهيمنة العسكرية .

● وليت الخلاف في الهيئة الأم وأشباهها من المنظمات الأخرى وقف عند التنابز بالألقاب فيما بينها ، بل تنابزت بالمدافع والدبابات والمقاتلات ، في حروب متلاحقة بين أعضائها كانت ومازالت يهلك بها المشاركون في هذه المنظمات الالاف من أبناء أممهم ، فلم تربطهم المواثيق التى اتفقوا عليها إلا وهم متهالكون على المقاعد قباله بعضهم عند عقد الاجتماعات ، (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) ، وبعد الافتراق يظهر أثرا لنفاق خرابا ودمارا ، ولنكتف بضرب المثل بأقرب منظمتين بالنسبة لنا ، منظمة الوحده الإفريقية ، ومنظمة الجامعة العربية ، فلم تكد سنة تمر أو حتى بضعة أشهر منذ أنشئتا دون أن يقع قتال بين أعضائها يقتل فيه البراء ، وتطفح به برك الدماء ، وتؤول ديار عامرة إلى بلا بلاقع ، هذا غير سباب بذىء تفضح به الأسرار ، وهتك به الأستار . ينقله الأثير إلى سمع أهل الأرض ، تلك هى أخوة بنى الإنسان التى فج ضوؤها الازرق من (نيويورك) مقر لجنة حقوق الإنسان ، والتى أفاءت من زرقتها المعتمة على الإنسان في جنبات الافاق ، بما في ذلك منظماته المتشاجرة ، والتى لا تندمل لها جراحات ، والذى نقول ليس بالمجهول ، فالكل معنا له مثلنا أذن وعين ، الا أن بعض الحكام

الموقعين على إعلان حقوق الإنسان ومنهم من هو في منطقتنا هذه أيضا ، ينكلون بأبناء شعوبهم بأنواع من النكال لا أسمح لقلمى أن يسيل لها مداده ، حيث لا تكاد تصدق أو تخطر ببال ، فقد تعدى بعضها كل حدود الصفة البشرية ، وما أظنها تقع من زواحف الأجحار وكواسر الأحراش ، حتى لا يظن التالى لكلماتى هذه أنى قد قسوت في التعبير أو نبا القلم من يدى ، إنى سأكتفى بالتلميح الكافى عن التصريح ، بما أنا موقن منه حق اليقين ، حين سلب شرف وانتهك عرض والمعتدى عليه أو عليها مغلول « بالأصفاد في غيابة السجن ، فقط لأنهم قالوا لحكامهم هذا حرام وهذا حلال ، ولم يجْد بشئ ذلك التوقيع على إعلان للإنسان في ورقة لتقرأ أو تنشر ، فلم يصاحب ذلك خوف من الله بقليل أو كثير ، زيادة على معظم مواد الإعلان التى وضعت لتميل حيث مال الهوى ، كما سنوضح في هذا البحث إن شاء الله تعالى .

● ماكان للإنسان الذى وضع أو الذى رضى بتلك ، تاركاً ماوضع ربه له من أجمل حقوق بلغت الغاية وأوفت الكفاية ، إلا أن يظل قابضا على جلد القنفذ الذى ظنه المنقذ من همومه وأنكاده ، فهل يحيف الله على الإنسان لما

سخر له كل مافي سمائه وأرضه ، بما نرى كل يوم ونسمع ، ولكنه لم يَقرّ لم يقنع ، وهل أنقص سبحانه شيئا فجاء الإنسان ليتم هذا النقص قد قرأ هذا الإنسان أو سمع أو علم (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى)ـ (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) (ويتم : نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) ، ولكن لما كان الإنسان (ظلوما جهولا) اكتفى بحمل الأمانة قولا وأباها عملا ، إلا الذين هم قليل ماهم ٠

● وفي مراجعتنا لمواد حقوق الإنسان وجدناها متكررة متداخلة ، وكنا عازمين قبل أن يتبين لنا ذلك جعل حديث منفرد عن كل مادة من الثلاثين ، ولكننا وجدنا الكلام سيتكرر مع تكرار مايشير إليه كثير من هذه المواد ، فآثرنا أن نقسمها إلى مجموعات ، كل مجموعة منها تشمل المواد المتقاربة الموضوع ، فأصبحت عشر مجموعات بعشرة أبواب مرتبة هكذا :ـ

الباب الأول عن المادتين ، ١ ، ٢
الباب الثانى عن المواد ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١
الباب الثالث عن المواد ، ٣ ، ٥ ، ١٢
الباب الرابع ، ٤ ، ٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١
الباب الخامس عن المادة ، ١٦
الباب السادس عن المواد ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥
الباب السابع عن المادتين ، ١٧ ، ٢٣
الباب الثامن عن المواد ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥
الباب التاسع عن المادتين ، ٢٦ ، ٢٧
الباب العاشر عن المواد ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠

هذا وما قصدنا المقارنة بين ما وضع الله وما وضع الإنسان معاذ الله ، فنكون قد خسئنا وخسرنا ، لأن المقارنة بين الكائن والمكوّن في حكم العقل المجرد أمر محال ، وإنما قصدنا أن نظهر كيف تفعل الحجة الدامغة بالحجة الداحضة ، والله يخرج من قلوبنا سخائمها حتى تكون مصفاة من كدر الرياء ، آمين ٠

وإن يعجب القارئ فعجبَ أن التاريخ الذى أعلن فيه حقوق الإنسان كان نفس التاريخ الذى أعلن فيه قيام اسرائيل على جثث وعظام الأمة الفلسطينية ، والفلول التى بقيت منها قُطّعت في الأرض هائمة على وجهها ، والتاريخ هو عام ١٩٤٨ م ، تاريخ حقوق على ورق أعلنتْ ، وحقوق شعب بأكمله سرقت ، أختطف وطن بأسره أرضا وزرعا وضرعا وديارا بعد أن أوغل فيه تذبيحا وتمزيقا ، الأطفال قبل النساء والنساء قبل الرجال في قصة هى من أبشع ما حكت الدنيا من قصص التوحش اليهودى ، فعل الصهيونيون ذلك عام إعلان حقوق الإنسان تماما ليفهموا كل الخليقة أنهم ليسوا من بنى الإنسان حتى يتقيدوا بحقوق الإنسان، ولازالوا ملتزمين بما طبعوا عليه من الفظاظة والقسوة (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) ، هذا وصف خالقهم لهم ، وتأكيدا لوصف خالقهم هذا ازدادوا على مرّ الأيام قسوة وضراوة حتى مزقوا القرآن ، مع يقينهم من أنه كتاب الله بما قرؤوه في توراتهم ، أما عن الأمم المتحدة فقد حضَرت هذه المسماة باسرائيل هذه الهيئة بأسوأ صور التحقير ، لما وضعت تحت نعلها مايزيد عن عشرين قرارا أصدرتْه ضدها هى ومجلس أمنها ، ٠

● ذلك لأن السجية التكوينية لليهودى ، هى أنه لا يعيد ماسرقه إلا إذا جدعْت أنفه ، ولا يرد مااختطفته يده إلا إذا كسرت ذراعه أو سلبته حياته ، فليس داخلا في نظام دنياه لغة المحادثة أو المفاهمة ، وهل من عقل يتصور بأن هناك من يَصْدق القول عنهم أكثر من بارئهم ، وصاحب الصنعة أدرى بسر صنعته (ألا يعلم من خلق ؟ وهو اللطيف الخبير) ، ثم نقل سبحانه سرهم التكوينى هذا إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم حين قال له هذا القول العجب (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون ، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم

في كل مرة وهم لايتقون) إذاً ماذا لهم من علاج ؟ (فإما تثقفنهم في الحرب فشرِّد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) ، إذًا وهذا إخبار الله عنهم فالتعاهد والتوادد مع اليهود ضربٌ من المحال ، ومحاولة لن تأتى إلا بأسوأ الوبال .

ولهذا لم يكن منه صلى الله عليه وسلم بعد أن أمهلوه من الله بحلم طويل ، وصابرهم عليه السلام الصبر الجميل ، إلا أن ينفذ أمر الله النازل إليه فيهم ، فاستأصل شأفه شرهم ، ومحا وصحبه أثرهم ، وأزال من أرض الجزيرة كل ماعانوه من نجس ودنس ، ذلك لأن اليهودى مخلوق فاقد الحياء مع الله والرسل والناس ، فما من أمة سبَّتْ ربها بأبشع وأقذع مايقال إلآهم ، ومامن أمة قتلت الأنبياء غيرهم ، فماذا تنتظر منهم أن يفعلوا بمن دون ذلك ؟

فلن تصفو الحياة إلا إذا اختفوا من الحياة ، فهل من مدكر ؟

والآن نبدأ في تفاصيل البحث ، طالبين العون من المستعات ، وأن يجعله عملا نافعا لمن كتب ولمن قرأ ، بعد أن يَجرىَ القلم بصادق القول والقصد له وحده .

المادتان الأوليتان من إعلان حقوق الإنسان .

١ - يولد جميع الناس أحرار متساوين في الكرامة ، وقد وهبوا عقلا وضميرا وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء .

٢ - لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان دون أى تمييز ، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو أى رأى آخر ، أو الأصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو الميلاد أو أى وضع آخر ، دون تفرقة بين الرجال والنساء ، وفضلا عما تقدم فلن يكون هناك أى تمييز أساسه الوضع السياسى أو القانونى أو الدولى للبلد أو البقعة التى ينتمى إليها الفرد ، سواء كان هذا البلد أو تلك مستقلا أو تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتى أو كانت سيادته خاضعة لأى قيد من القيودسنلاحظ

أن هاتين المادتين وكثيرا من مواد الإعلان ذات كلمات جميلة أخَّاذة ، ظاهرها الرحمة لبنى الإنسان ، وتلك حقيقة إن تمت ، ولكنها لم تتم لأن باطنها شغف هؤلاء الناس بإلفات النظر إليهم على أنهم الإنسانيون المتمدينون دون من عداهم ،ولهذا فهم يصدرون المبادىء الصالحة والتعاليم النافعة وقد ظنوا أننا من البلاهة بحيث لاندرك أن المفيد من إعلانهم قد أعلناه منذ أربع مائة وألف سنة ، أفاء الله به علينا رحمة ظاهرة وباطنة بواسطة رسول بنا رؤوف رحيم(وما أرسلناك إلا رحمة للعاملين) فأسبغ الله علينا به نعَمة ظاهرة وباطنة ، لمن يسمع ويقرأ ادّعاء ورياء ، وباطنها ضد ظاهرها عداء واعتداء ، حتى ألفاظ الإعلان وضعوها بصورة يوهمون بها بأنهم أوجدوها وليسوا من عندنا أخذوها .

وها نحن نبدأ حديثنا عن المادتين اللتين ذكرنا نصهما آنفا من إعلان حقوق الإنسان فنقول وبتطويل :

لو رجعنا إلى بداية الخليقة لنسلط عليها فكرَ الباحث لوجدنا أن صفتى التعنصر والتميُز هما من وضع أعدى عدو لله وللخلق أجمعين ، ذلك هو إبليس الرجيم اللعين ، في قصته مع آدم لما ميَّز نفسه بعنصره ، حيث توهم الفرق بين العنصر الذى خلق منه وهو النار ، والعنصر الذى خلق منه آدم وهو التراب ، قال : (أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين) ، فأدت به هذه العنصرية إلى الطرد من رحَمة الله ، وعليه فالأصل في العنصرية أنها صفة إبليسية ، ومن تلبس بها تأبلس ، وإذًا فقد يلحق به في الطرد من رحمة الله ، تلك قضية واقعية لا نمارى فيها .

ولكن انطواء هذه العنصرية أو انطلاقها على مدى الدهور ، يكون حسب معرفة الإنسان لصانعه وأصل صنعته ، فإذا ماأدرك قدرة الصانع الأعظم سبحانه ، عرف ضلة نفسه باعتباره مصنوعا له ، وإذا أدرك أصل صنعته وهو التراب ، عرف تفاهة قدره ، فلاموجب لديه يجعله يميز نفسه عن غيره فقد فهم أن الصانع واحد هو الله ، وأن الأصل واحد هو التراب تدوسه النعال ، كلكم لآدام وآدم من تراب ، فإذا ماعلم هذا وسيطر على الأفهام في أى عصر ، سيطرت روح التآخى وهيمنت مشاعر التواصل ، وأنزوت نزوات التعالى والكبر ، فقد اعتصموا بحبل الله جميعا ولم يتفرقوا .

أما إذا أخلد الإنسان إلى الأرض واتبع هواه ، ونسى ربه الذى سواه ، وأصبح فكره حبيس نفس غرور ، ولم يخطر بباله ذلك الطين الذى خلق منه ، حتى ولو ادعى بأن له دينا ، فيمسى على الفور عنصر عصيا ومفرقا غويا ، فيبدأ بتمييز ذاته عن ذوات الغير ، فإذا انتقل داخل وطنه ميز مسقط رأسه ، فإذا تنقل خارج وطنه ميز وطنه ، فإذا انتقل خارج قارته ميز قارته ، ثم لا ينسى أن يميز نفسه بلونه ولنافي هذا تفصيل يأتى عند الحديث عن المواد المتصلة بذلك .. بل بلغ الأمر إلى العيب على مايرتديه الغير من زى ، لأنه ليس كما يلبس هو وقومه ، بل وعلى نوع الطعام لأنه مخالف لطريقة مايطهى عندهم ويطعم ، بل وعلى اللهجات يسخر منها حيث لم تكن كما ينطق هو ويتكلم ، وهكذا أصبح يعيش في نفس غيابة نسيت عيبها ، فقد نسيت خالقها ومامنه صُنعتْ ، لأن عنصريته التى قام عليها كيانه لم تفهم صيحة القرآن في الناس (ياأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) .

وأحب أن أتناول هذه الآية بتوضيح فيه بعض التفصيل ، فقد خفظت هذه الآية حتى من غير المتعلمين ، وأصبح يدلل بها في هذا المجال بصورة عامة لم تبين الكثير من جمال الآية ، فالنداء العظيم في أولها بدأ أوّلاً من الله إلى كل الناس ، يذكرهم بأن الأب واحد والأم ، آدم وحواء ، أى كلكم أشقاء ، ولما تكاثرتم نشرناكم في الأرض ، فأصبحتم قبائل وشعوبا هنا وهناك ، لكن ذلك لا ينسيكم أصل الأبوين ، فتعارفوا لتشعروا أنكم على سواء ، والأشقاء في النسب شئ واحد ، لكن لن يكونوا شيئا واحدا إذا ماتحول التعارف بينهم إلى معرفة موجدهم الأعز ، لأن معرفته تعالى تعطى صبغة الإيمان ، وهى أعلى مايعلو به الإنسان ، ومن صبغة الإيمان هذه تأتى صورة التآخى ، وهى أعلى من التعارف ، لأن التعارف عام بين كل الناس ، والتآخى خاص بين المؤمنين ولو كانوا غير أشقاء ، فقد يكون في الأشقاء من استقام ومن أعوج ، بل قد يكون منهم من آمن ومنهم من كفر .

ولهذا سمتْ خصوصية التآخى على عمومية التعارف (إنما المؤمنون إخوة) فإنّ تنافى في هذه الجملة القرآنية المعظمة أكدت معنيين ، أولهما تأكيد مكانة الأخوة ، وثانيهما أن تكون فقط بين المؤمنين ، ومن هم تحت ذلك فيقف أمرهم عند التعارف ، وأن نبرهم ونقسط إليهم ، مالم يكونوا مقاتلين أو مخرجين لنا من الديار ، وعندئذ فلا برَّ ولا قسط ، ولكن ذراع يرفع بالسلام لا ينثنى (فلا تهنوا وتدعو إلى السلم وأنتم الأعلون) ، وكلمة (أكرمكم) في الآية تعطى واضح الفهم بأن المكرمات عندالله للمؤمنين الأتقياء رُتبَ تتفاوت ، وفي النهاية جعلت الآية أعلى الرتب في المكرمات لمن ترقّى من تقى إلى أتقى ، فلم يقل سبحانه (تقيكم) وإنما قال (أتقاكم) لأن تقيكم مرتبة أدنى من أتقاكم ، ولهذا جاءت الكلمتان (أكرمكم) و (أتقاكم) على صيغة تفضيل واحدة ، أى الأعلى منزلة في الإكرام هو الأعلى درجة في التقوى - جعلنا الله منهم - أما ختام الآية (عليم خبير) فمتصل بما ذكر فيها عليم بخلقكم هذا الذى أخبرتكم بشئ منه ، لكن خبرته بأتقاكم بها (هو أعلم بمن اتقى فتصبح المعانى في الآية ، .. مرتبة بالخلق فالانتشار فالتعارف فعليكم تقوى من فعل وحده ذلك . ؟

تلك هى الآية التى يقرؤها الكثير اليوم ولا يعيها ، والله بها أعلم ، فلما وعاها أهل القرآن يوما ، عملوا بها واتحدوا عليها ، فتعاملوا مع غيرهم بنصفها الأول ، ومع بعضهم بنصفها الآخر ، فلم يتفاضلوا فيما

بينهم إلا بعمل ما يطمع أحدهم به أن يكون من الأتقى ، فلما صَمّت الاذان عن هذه الاية أمثالها المنظمة للأسرة البشرية كلَ حسب مكانه ومكانته ، أصبحت السيادة الآن في هذه الدنيا لذئاب التمييز والعنصرية ، وكان الشعار هو أن يأكل الكبير الصغير ، وجاء إعلان حقوق الإنسان فزادت شراسة هذا الشعار بما لم يعد معه ثقة ولا أمن ولا أمان .

(فأيهما أنفع للإنسان ؟ ماوضعه الله له ؟ أم الذى وضعه هو لنفسه ؟) ... ولما شاء الله تعالى أن ينزل من السماء نوره ليحمله إلى خلقه خير خلقه صلوات الله وسلامه عليه ، حاولت هوام الظلام يومئذ أن تطفئ نور الله هذا ، فتشعبت جوانب كيدهم منقضة جميعها على النور البازغ حديثا ، في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم والقلة لا تملك من المنعة شيئا للدفاع عن نفسها وكان من أبرز جوانب هذه المعركة عنجهية الجاهلية ، والتى انحدرت متعاقبة منذ القرون الأولى فكان أول اصطدامها بضدها في عصر نوح عليه السلام ، وظل شرها المميز العنصرى يتوارث ويظهر مع رسالة كل رسول ، حتى الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ، فأرادت أن تعمل معه عملها الذى تعودته مع غيره ، فكانت أن لقيت حتفها تماما على يد نبىّ الإسلام بما نزل عليه من وحى قاصم لكل عتل غاشم ، ومادمنا قد اكتفينا بضرب المثل بأول الرسل وبآخرهم عليهم جميعا سلام الله ، فلنذكر شيئا مما وقع في ذلك ، بادئين بنبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، لا تحيزا منا ولا تمييزا ، وإنما مرسلهم سبحانه هو الذى فضلهم على بعض (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، فإنه وإن كان نبينا صلوات الله عليه هو الآخر في ترتيبْ الأزمنة ، فهو الأول في ترتيب المنزلة ، فقد وضعه القرآن قبلهم جميعا في قوله : إنا أوحينا إليك ، كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) فبدأسبحانه الخطاب به قبل نوح (إنا أوحينا إليك) ، ثم ذكر بعد ذلك نوحا والنبيين من بعده ، وأيضا في قوله تعالى (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح) ، فالآية بالنبيين بدأتْ عامة ، وعند الترتيب وضعت نبينا في أولى الدرجات قبل نوح ومن بعده (ومنك ومن نوح وإبراهيم ...) إلى آخر الآية ، وشمل ذلك رسل أولى العزم ، وفي القرآن أمر رسولنا أن يقول (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) ، وأمر نوح أن يقول : (وأمرت أن أكون من المسلمين) .

ولقد عمدت إلى توضيح هذا حتى لا يتوهم أحد أننا نميز رسولنا لمجرد التمييز تعصبا منا كما يفعل أهل الأديان الأخرى لأنبيائهم ، فنحن نؤمن بهم جميعا ولا نفضل إلا من فضل الله (لانفرق بين أحد من رسله) ، والمقصود - والله أعلم / بعدم التفريق هنا في مهمتهم الكبرى التى جاؤوا بها جميعا ، وهى تعريفُ المخلوقين بالخالق ليوحدوه بلا ندّ ولا نظير ، أما درجات أشخاصهم وشمول شرائعهم فهو تفضيل وليس بالتفريق ، وقد عقد الله لنبينا في ذلك الأفضلية في شخصه وشريعته كما أوضحنا آنفا .

أعود فأقول إن أول مابدأت تقاوم به دعوة الرسول الكريم كانت العنصرية ، تلك الصفة التى لا يتشح بها إلا الجاهلون ، وكل جاهلى في كل عصر ، فقد صور الكفر للغلاظ من سادة قريش ، أن الفرق بينهم ومن أجابوا المنادى صلوات الله عليه من المساكين يمنع التساوى معهم بالدين الجديد ، ومن هذا النوع قدم القرآن قصصا عنهم في أكثر من أية وأكثر من سورة ، لكنى اخترت البعض منها لأتحدث عنه اكتفاء بما نريد الوصول إليه في معرض هذا البحث .

فقصة الضعفاء التى أوردها علماء أسباب النزول في أيات سورة الأنعام البادئة بقوله تعالى : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) وماتلاها من ايات سنذكرها بعد ، أسندوا روايتها بلفظ يختلف ومعنى يتحد إلى ابن حبان وأحمد والطبرانى وابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم ، عن الصحابة سعد بن أبى وقاص وابن مسعود وعكرمة وخباب ، رضى الله عنهم أجمعين .

تقول القصة : ، جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم بن عدى والحارث بن نوفل ، في أشراف بنى عبد مناف من أهل الكفر إلى أبى طالب فقالوا : لو أن ابن أخيك يطرد هؤلاء الأعبد ، كان أعظم في صدورنا

، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه ، فكلم أبوطالب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر بن الخطاب : لوفعلنا ذلك حتى ننظر ماالذى يريدون ؟ فنزل قوله تعالى : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم .. إلى قوله تعالى : (أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟) ، وكان هؤلاء الضعفاء الذين قصدوهم ، هم بلال ، وعمار بن ياسر ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وصالح مولى أسَيْد ، وعبد الله بن مسعود ، والمقدام بن عبد الله ، وواقد بن عبد الله الحنظلى ، وغيرهم ، رضى الله عنهم جميعا وأرضاهم ، فأقبل عمر فاعتذر ، فنزلت فيه الآية (وإذا جاءك الذين يؤمنون بأياتنا ..) إلى آخر الآية ، إنتهى لفظ القصة) ولنقرأ أولا الآيات كاملة ، ثم نتناول بعضها بالتفصيل .

● وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون) (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ماعليك من حسابهم من شىء ، ومامن حسابك عليهم من شىء ، فتطردهم فتكون من الظالمين) (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ ، أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟)

فالآية الأولى قدمت قضية الحقيقة أساسا ، وهى أن الذى يخاف من يوم المحشر ، هو الذى يقبل دائما أن ينذر ، والذين لا يخافون هذا اليوم لا تغنيهم النذر ولا ينتفعون بها (وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) ، ثم يأتى بعد ذلك في الآية موضوع الطرد ليصحح الوضع ، فالذين قبلوا الإنذار خوفا من يوم الحشر دخلوا في رحمة الله ، فلا يملك أحد طردهم منها ولا الرسول نفسه ، فأمره سبحانه أن يبقيهم في حضرته حتى لا يحرموا من تلقى الخير الهابط من السماء يقدمه إليهم من ربه ، وأخبره بأنه سيكون ظالما لو طردهم ، أما المستحق حقيقة للطرد فهو الذى عصى النذير ، لأنه لا يخاف أن يحشر فتكبر ، فكان أن طرد من حضرة الرسول ومن جنة ربه ، وهكذا سدد الإسلام وفي أول ظهوره ضربة ماحقة إلى من تحمله العجرفة على تمييز نفسه وتحقير غيره .

● ودور عمر رضى الله عنه في القصة هام ، فقد استولت عليه الرهبة لما نزلت الآيات تخالف رأيه ، عندما قال : لو فعلنا ذلك حتى ننظر ماالذى يريدون) فأسرع واجفا إلى النبى صلى الله عليه وسلم يعتذر إلى الله بين يديه ، فتنزل الآية بقبول اعتذاره ، لكن بعد أن ذكرت أن ماوقع من عمر كان سوءًا ، فلما علم الله أن هذا السوء غير منْوى ، وإنما وقع بغير عمد من صحابى ولى ، شرفه في نهاية الآية بالمغفرة له وإحلال الرحمة عليه ، فقد خاطب سبحانه نبيه في شأن عمر قائلا : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بأياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم) ، فإذا كان ماأراده عمر رضى الله عنه هو استدراج المتعالين لعلهم يؤمنون ، ومع ذلك اعتبر الله عمله سوءا يوجب التوبة ، ولم يشفع لعمر منزلته عند الله وعند رسوله إلا التوبة مما قال ، فيكف بمن يشمخون اليوم ويتميزون ، ومن يمدونهم في طغيانهم بالملق والزلفى ؟ ، أظن لهم ميعاد يوم لا يستأخرون عن ساعة ولا يستقدمون .

أما الذين قالوا لنبيهم نوح عليه السلام (ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) وقالوا له : (أنومن لك واتبعك الأرذلون) . رد نوح عن الأولى بشجاعة حملة الحق (وما أنا بطارد الذين امنوا ، إنهم ملاقوا ربهم) ، ملاقو ربهم لينتصر لهم ممن يهزأ بهم ، وهو نفسه علم أنه لن يسلم من أمر يفعَله الله به إذا رضخ لقومه وطرد الضعفاء (وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ؟) .

● فهو عليه السلام أدرك بأن النصر مؤكد لهؤلاء الذين ازدرى بهم ، وأن نبوته لن تغنى عنه شيئا إذا عصى الله وطردهم ، ثم لكى يغيظهم بدفاعه عن الضعفاء بدَل كلمة (الأرذلين) منهم بكلمة (المؤمنين) منه لما قال (ومأأنا بطارد الذين امنوا) في آية (وما أنا بطارد المؤمنين) في أخرى ، بل ورَد الإهانة عنهم بأن وصم خصومهم المستهزئين بهم . بالجهل مرة ، وبعدم الفهم والتذكر ثانية (ولكنى أراكم قوما تجهلون) ثم ، (أفلا تذكرون) .

وبعد الذى قدمه القرآن عن نبينا وعن نوح صلوات الله عليهما ، وهما الرسولان اللذان حصرا الدنيا بكاملها بين رسالتيهما نسأل : أيهما أرفع وأنفع ، وأكرم وأدوم ، ماوضعه الله للإنسان ، أم ما وضعه الإنسان لنفسه

❁ لقد مشتْ على هذا الصراط أمتنا الإسلامية سنين عديدة ، لم يَقِم وزنا لحسب ولاعصب ، واختفت في مجتمعها القومية وارتقت الربانية ، إلى أن بدأ المسلمون ينسَلون من دينهم رويدا عصرا بعد عصر ، وبدأ ثعبان العصبيات والقوميات يخرج من حجره ، والذى حبسته في حجره طويلا تعارف الإنسان وأخوة الإسلام ، إلى أن جاء عصرنا فحرص أعداء الإسلام والمستعمرون الذين احتلوا معظم رقعة الأرض الإسلامية أحقابا طوالا ، ألّا ينجابوا عنها إلا بعد أن يوقظوا فيها حمية القومية ، فنودى على الفور بعد جلاء الخبثاء المفرقين بالقومية العربية ، قبل أن يسبق أحد بنداء الإسلامية ، وساد نداء القومية الجاهلية ، وكان قد قدم لها بعمل ثابت وهو إنشاء الجامعة العربية في عصر احتلال الإنجليز للأرض العربية كلها تقريبا ، وصرخت أصوات مسلمة مخلصة إبان ذلك تطالب بجعلها جامعة إسلامية لتوصد الباب على تحريك القوميات مستقبلا ، وليجتمع فيها العالم الإسلامى كله ، عسى أن يكون ذلك تمهيدا لعودة الخلافة الإسلامية ، لتعود بها قوة المسلمين لما وَحدوا تحت الحكم بالقانون القرانى ، لكن هذه الأصوات المخلصة أهملت ولم يصغ إليها ، وغلبت فكرة الجامعة العربية الإسلامية ، وأتى بعدها تبعا شعار القومية العربية وليست الأخوة الدينية ، والان تم للأعداء ما أرادوه من إيقاظ التفرقة والتمييز ، حيث نظر بقية العالم الإسلامى إلى العرب نظرة الحذر والخيفة ، فلم يشتركوا معنا نحن العرب إلا بالقرارات في المؤتمرات ، ولم يطلقوا (١) معنا رصاصة واحدة لما أخذ اليهود بتلابيبنا ، والحق لهم لأننا أغفلناهم وجعلنا لأنفسنا جامعة تختص بنا ، وقومية نتميز بها .

❁ وفي ظل الجامعة العربية والقومية دخلت الشيوعية عدوة الإسلام الأولى أرض العرب وانتشرت ، بل سادت وحكمت ، وفي ظل ذلك أيضا اشتعلت الخصومات بين العرب ، بل وتقاتلت دولهم بالجيوش ، وفتك أبناء العم ببعضهم بالآلاف ، في حروب شبه مستمرة مستعرة ، وتتجدد هنا وهناك في عرض أرض العرب وطولها ، وفي ظل الجامعة العربية والقومية العربية تجرى مؤمراة العرب الصليبيين في لبنان لحصر المسلمين هناك بين فكَّىْ عَبَدَة العجل اليهود ، وعَبَدَةِ الصليب النصارى ، وذلك بمساعدة الدول المسيحية الصليبية .

وفي ظل القومية العربية وقعت بنا أشنع رزية ، لما أصيبت أمتنا الإسلامية في أحشائها بضياع قدسها ، وما حوْلَه من ملك إسلامى عريض ، قدَّمه إلينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلمبقوة زنودهم لما جمعتهم ، جامعة إسلامية ، وأضعناه في عصر القومية العربية .

وليمشى المكر السيئ من أعدائنا بلا توقف ، جعلوا قضيتنا مع اليهود إقليمية وليست عقيدية ، حتى لا تتحرك لها مشاعر صاحب الإسراء صلوات الله عليه ، فدرجوها من قضية القدس المقدس إلى قضية فلسطين ، ثم إلى أزمة الشرق الأوسط ، ولأننا أصبحنا إقليميين قوميين تقبلناها منهم بسرعة ، واستقر الأمر على أنها مجرد أزمة وتزول ، وأصبحنا جميعا على كل مستوى نرددها ، فلم تعد قضية إسلامية ولا حتى عربية ، وقل أن تذكر فلسطينية ، وإنما هى أزمة الشرق الأوسط ، ولازلنا وحدنا نبتلع غم هذا الكرب العظيم ، وراح من أوقعنا في فخ هذه القومية ينظر ضاحكا متشفيا ، فهل بعد هذه النكبات المبكية نتحد في جامعة إسلامية ، وفيما نزل بنا من عقاب الله كفاية (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ، ثم لايتوبون ولاهم يذكرون) .

❁ ولكن من المؤكد أنه سيعز دين الله ، وسيطرد اليهود إن شاء الله من قدسنا مذؤومين مدحورين ، ولو لينتقم سبحانه لنفسه منهم لتطاولهم عليه ، وليس لأجل العرب والمسلمين الذين عاهدوهم وأعطوا الدنيَّة في أنفسهم ودينهم ، وماكانوا اليوم أوفى من ماضيهم الغادر ، لما عاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم خانوه ، فما كان لليهود يوما دولة ولن يكون ، فهم قرناء الذلة والتيه ، وثلاثون عاما أوزهاء ليست شيئا في أعمار الأمم حتى يحسب بها لليهود دولة ، والانتظار لن يطول بما ليس في حسبان أهل التشاؤم والوهن والخنوع ، إن شاء الله ،

---

(١) بل حاولوا ولم تسمح لهم الدول العربية بذلك تعميقا لمعنى القومية العنصرية .

وماقصة التفرقة بسبب اللون ؟ وهى قصة تلطخت بها مدينة المتحضرين ، فوق تلطخات ومخازى أهلت الأكثر في بؤر المظهر . وخاصة من الذين وضعوا إعلان حقوق الإنسان .

لقد أعطانى المدرس وأنا صغير درسا في سبب تباين ألوان البشرة ، وقال لى : إن البشرة يسْودُ لونها إذا عاش الإنسان في المناطق التى تشتد فيها حرارة الشمس ، وتكون بيضاء في المناطق الباردة ، فلما كبُرتْ وكبُرتْ معى مداركى بعض الشئ ، علمت أولا أن هذه النظرية مُصدَّرة إلينا عبر الماضى من عند غيرنا ، وعلى كل حال لامانع من أن نقبل أى مفيد من أى جهة ، فلسنا متزمتين وقد يكون ذلك صحيحا فالكون لله والحر والبرد هو مقلبهما ، لكننى سألت نفسى ، إن الأوربيين عاشوا مئات السنين وهم مستعمرون للمناطق الحارة ، ولم يتغير لون بشرتهم ، وزنوج أمريكا عاشوا فيها قرونا طويلة ، ولم يتغير لون بشرتهم ، والطفل الأوربى الذى وُلد تحت خط الاستواء ، وتلقفته الشمس الحامية وكبر تحتها لم تَغيَّر لونه ، والملوَّنون من مستوطنى البلاد الثلجية لم تغير الثلوج البيضاء ألوان أطفالهم التى لوَّنهم الله بها وهم أجنة في بطون أمهاتهم ، ثم إن هؤلاء السمر ابتداء من صعيد مصر الى أخر القارة الإفريقية ، هل كانوا جميعا عراة حتى غيرت الشمس لون كل أجسامهم ؟ ..

أم أنه لو كانت الشمس هى المغيرة للون لكان الوجه وحده هو الذى يتغير ويبقى الجسم المستور بالثياب بغير تغيير ، فمعروف أن الأبيض كله أبيض ، وأن الأسمر كله أسمر ، وهكذا ، وقد يقول قائل : إننا نلاحظ تغيير لون الوجه الأبيض إذا تعرض للشمس طويلا ، ولكنه تغيير قليل لا يلبث أن يعود إلى أصل لونه عند ما ينتهى التعرض لحرارة الشمس هناك ، ثم هناك ألوان متعددة ، فاللون الأصفر يغلب على معظم دول أسيا ، فهل الشمس هناك صفراء ؟ والبلاد العربية لونها بين بين ، فهل لون الشمس في هذه المنطقة كذلك ؟ غير ذلك من ألوان في أنحاء الأرض متباينة وصور في تكوين الوجه مختلفة ، كلنا نراها وخاصة في موسم الحج الجامع المهيب .

إذًا من الذى لوَّن وصور (هو الذى يصوركم في الأرحام كيف يشاء) (هو الله الخالق البارئ المصور) ، إننا نرى الأشقاء بل التوائم يختلفون صورا ولونا وطولا وقصرا ، وماخلقوا جميعا إلا من نطفة لا يتغير لونها ، وكوِّنوا في رحم واحد ماتعرضوا فيه لحرارة الشمس ولا لصقيع البرد ، فجلَّ الخالق وعز ، وعفا الله عن المدرس الذى علمنى وأنا صغير عكس هذا يوما ، ولكنه هو الاخر معذور فقد تعلمه قبلى من غيره ، والذى قبله كذلك ، وهكذا نُسى الخالق ونسبت صنعته الى غيره (ألا له الخلق والأمر) ، وياليتنا وقفنا عند هذا ، بل رحنا نتخذمن صنعة الله هذه تفرقة وتمييزا ، ووقع في هذه الفتنة الوافدة مسلمون كثيرون في جهات وأماكن مختلفة ، أقولها وأنا متأكد منها ، ألسنا هائمين إعجابا بتقليد الأجانب في كل شىء حتى ولو عصينا بذلك ربنا وصريح ماأنزله على رسولنا ؟ لمَا قدم إلينا سبحانه تغير ألواننا على أنه أية من أياته ، لا يفعلها سواه ، لنجعلها من ينابيع الإيمان للنفس الفاهمة المدركة ، ففى سورة (الروم) وهو اسم لأمه غير عربية ، سمى الله بها سورة من سور كتابه ، يقول سبحانه فيها : (ومن أياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين) . فالآية دليل على ماقلته أنفا من تحليل قصة اللون ، وأن اختلاف اللغات والألوان بقدر لا يحصيه غيره ، هو خلق له مباشر ، وليس بسبب كونى تقلبى من حرارة أو برودة أو تضاريس أو مناخ بيئة ، فالتقدير المجمل للآية هو :

ومن دلائل وجوده وقدرته ، خلْق السموات والأرض ، وخلْق اختلاف لهجاتكم واختلاف ألوان أجسامكم ، ومع أن اللغة واللون داخلان في خلق السموات والأرض ، لكن اختصتا وحدهما في الآية بعبارة منفردة ، ليلفت سبحانه أنظار عباده إلى عظم أياته ، والعالمين منهم خاصة كما ذكرت الآية ، والتى من أعجبها فقط مجرد اللغة واللون ، وإنما اختلافهما ، وذكر سبحانه كلمة (لآيات) مرتين ، في أول الآية وأخرها ، ليؤكد أن ذلك من معجزات الصانع وحده ، ولكن هذه الآيات لا يجنى جناها ويستفيد منها إلا (العالمين) ، الذين علموا حقيقة الوجود والموجد لهذا الوجود عز وتنزه ..

● فما الحال إذا قدم الله إلى خلقه ماذكرته الآية ليميزوا بها الحقيقة الواقعة في هذا الملكوت ، فعكسوا الآية ، كما يقولون ، وانطلقوا يميزون بين الناس بلون الجلد ، فإن كان أهل الفكران والكفران مُصرين على تسفلهم هذا ، أو من تبعهم منا في هذا بما يعدُّ عدم تصديق بما أنزل به القرآن ، فنحن عندنا أيضا تمييز لهم يوم يقال ماسيغوه جيدا (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) ، وبلوْن الوجوه كذلك ، فعندنا لوجوههم سواد لن يزول أبدا (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) ولو كانت في الدنيا بيضاء لامعه ، فهى يومئذ بكفرهم سوداء حالكة ، وإذا كانت اليوم سوداء ، فهى يومئذ بإيمانهم جميلة بيضاء .

ثم نسمع أيضا وصفا للتمييز عندنا بلون الوجوه فنقرأ (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ، مالهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيتْ وجوههم قطعا من الليل مظلما) ، يالرهبة الوصف ، ولو وقف سبحانه عند كلمة (الليل) لأعطت المعنى ، ولكن لأن الليل قد يضيئه قمر وتتلألؤ فيه نجوم ، فحدد وجه صاحب السيئات بالليل المظلم الذى لا قمر فيه ولا نجوم عندما يغيب كلاهما في اخر الليل ، ونزيد من هذه الألوان ماقال كتابنا أيضا (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) ، فوجْهَ سواد الوجه في الاية الأولى لأنهم كفروا بربهم ، وفي الثانية لأنهم كسبوا السيئات ، وفي الثالثة لأنهم كذبوا على الله ، بل منهم من سيميز بلون لم يسبق في الدنيا أن لوّن وجه أحد ، وهو اللون الأزرق (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) .

● هذه قاعدة التفرقة والتمييز عندنا ، وحتى التفرقة ببياض الوجه لها عندنا أيضا قول جميل (وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون) وإذا كان الخلود هنا في الرحمة بمعنى الجنة ، فإن ماسنسمع في الاية الآتية أحسن من الجنة (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) ، فالنظر إلى وجه بارئ الجنة خير من كل الجنة ، أما الوجوه التعسة فهى (ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل فاقرة) ، باسرة ، شديدة العبوس ، وفاقرة ، داهية تقصمهم ، .

ثم نسمع من القران ما لا يشبع منه مسمع ، لنعرف القاعدة الصحيحة للتمييز بين الوجوه ، (وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة) ، مُسْفرة ، مضيئة من الفرح (ووجوه يؤمئذ عليها غبرةٌ ، ترهقها قترة) ، قترة ، ظُلْمة ، من هم هؤلاء ؟ تجيب الآية ، (أولئك هم الكفرة الفجرة) .

هذه هى قاعدة التفريق والتمييز عندنا نحن المسلمين ، قاعدة تطبع الوجوه بطابع العمل الربانى ، وليس ببشرة تتلون في دنيا التلوُّن .

وَوَجْه الله غايتنا	وليس لغيره ننظر
ومن عن ربه يعرض	لحقًا وجهه مُغبر
فبالتوحيد وحدتنا	بهذا وحده نفخر
الا سُحْقاً لمجتمع	يفرق بينه المظهر (١)

● وفي أواخر هذا الباب نورد مجموعة من وقائع تاريخنا العاطر ابتداء من عصر النبوة فما بعد لمن أراد المزيد ، حيث مامضى من حديثنا المطول كان كله قائما على أرفع الأدله ، وأيقن مقال ، وهو القرآن الكريم ، وأورد الاتى من غير تعليق :

(١) من قصيدة لنا في محاضرة ألقيناها منذ عامين في موسم الجامعة الثقافى عن التفرقة والتمييز.

١ ـ من قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع :
(ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا أحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل ، الا بالتقوى ، (ابن هشام) ٠

٢ ـ بلال الأسود جدا ، رضى الله عنه ، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم يوما : يابلال ، مادخلت الجنة إلا وسمعت دف نعليك بين يدى ، فما تصنع في الإسلام ؟ فقال : لاشئ يارسول الله غير أنى كلما تؤضأت صليت ركعتين بعد الوضوء) رواه البخارى ، وأصبحت ركعتا بلال سنة في الإسلام أقرها النبى صلوات الله عليه ٠

٣ ـ تجادل أبو أبوذر رضى الله عنه مع رجل أسود ، قيل هو بلال وقيل غيره ، فلما برح به الغضب عند الاحتداء قال له : يابن السوداء ، فشكى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لأبى ذر : (أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ، وقال : طف الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضا على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح ((البخارى) ٠

٤ ـ جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سأل جليسا له وقد مر بهما رجل : مارأيك في هذا ؟ فقال الجليس : هذا رجل من أشراف الناس ، هذا حرى والله إن خطب أن يزوج ، وإن شفع أن يشفع ، وان قال أن يسمع لقوله ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مرّ رجل آخر ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : مارأيك في هذا ؟ فقال : يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا والله حرى إن خطب ألا يزوج ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير ـ يقصد الفقير ـ من ملء الأرض من مثل هذا) (البخارى) ٠

٥ ـ قال الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه : هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ؟ (البخارى) ٠
(أبغونى في ضعفائكم ، إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم) (أبوداود) ٠

٦ ـ وأثر عن عمر رضى الله عنه قوله للمسلمين
لوددت أنى وإياكم في سفينة في لجة البحر ، تذهب بنا شرقا وغربا ، فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم فإن استقام اتبعوه ، وإن جنف قتلوه ، فقال طلحة رضى الله عنه : وماعليك لوقلت ، وإن تعوّج عزلوه ، فقال عمر : لا ، القتل أنكل لمن بعده ٠

٧ ـ وكتب إلى أبى موسى الأشعرى واليه على الكوفة يقول :
ياأباموسى ، إنما أنت واحد من الناس ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملا ، إن من ولى أمر المسلمين يجب عليه مايجب على العبد لسيده ٠

٨ ـ وقال للناس يوما :
ماقولكم لو أن أمير المؤمنين شاهد امرأة على معصية ؟ ، فقال له على رضى الله عنه : يأتى بأربعة شهداء ، أو يجلد حد القذف كسائر المسلمين ٠

٩ ـ واشتكى يهودى عليا إلى عمر رضى الله عنهما ، وكان جالسا بجانبه ، فقال له عمر : قم يا أبا الحسن ، قف بجانب اليهودى موقف القضاء ، وبعد تبرئة على باعتراف اليهودى ، لا حظ عمر على وجه علىّ تغيرا ، فقال له أو قد ساءك أنى أوقفتك بجانب اليهودى موقف القضاء ، فقال على : لا . وإنما خشيت ظن اليهودى محاباتى عليه لما ناديته باسمه وناديتنى بيا أبا الحسن ٠

١٠ ـ وقولته (أى عمر) رضى الله عنه لعمرو بن العاص لما ضرب ابنه واحدا من أهل مصر ـ في قصة مشهورة ـ (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وأعطى سوطه للشاكى وامره أن يضرب ابن عمرو ٠

١١ ـ قال عثمان رضى الله عنه للمسلمين أثناء خلافته : ـ
إنى أثوب وأنزع ، ولا أعود لشئ عابه المسلمون ، فإذا نزلت من منبرى فليأتنى أشرافكم فليرونى رأيهم ، فوالله لئن ردنى الحق عبدا لأذلن ذل العبيد ٠ (من تاريخ العصر الراشدى)

فاسموا يا واضعى حقوق الإنسان ، هذه هى حقوقه في الإسلام ، فأيهما أفضل ، ماوضعه خالق الإنسان للإنسان ، أم ماوضعه الإنسان ؟ الله أكبر ، سبحانه من رحيم كريم ، لايضاهى ولا يمثل ·

الباب الثاني

نتحدث في هذا الباب عن المواد ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ من حقوق الإنسان · ونورد نصوصها فيما يلى : -
المادة السابعة : - كل الناس سواسية أمام القانون ، ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة منه دون أية تفرقة ، كما أن لهم جميعا الحق في حماية متساوية ضد أى تمييز يخل بهذا الإعلان ، وضد أى تحريض على تمييز كهذا ·

المادة الثامنة : - لكل شخص الحق في ان يلجأ إلى المحاكم الوطنية لإنصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التى يمنحها إياه القانون ·

المادة التاسعة : - لايجوز القبض على أى إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفا ·

المادة العاشرة : - لكل انسان الحق على قدم المساواة التامة مع الاخرين في أن ينظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظر عادلا علنيا للفصل في حقوقه والتزماته وأية تهمة جنائية توجه إليه ·

المادة الحادية عشرة : - كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئا حتى تثبت إدانته قانونا بمحاكمة علنية تؤمّن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه ·
ولا يدان أى شخص من جراء أداء عمل الامتناع عن أداء عمل إلا إذا كان ذلك يعتبر جرما وفقا للقانون الوطنى أو الدولى وقت الارتكاب ، كذلك لا توقع عليه عقوبة أشد من تلك التى كان يجوز توقيعها وقت ارتكاب الجريمة ·

وسأبدأ الحديث عن هذا الباب بايات من القرآن من قانون العدل كله ، نفصلها ليدرك بها الكثير دقة مواد القضاء النازل من السماء ، وأقصد بالكثرة المسلمين الذين لا يعلمون كتابهم ، إلا أن يفتنوا بمن يؤلفون غيره ·

الآية الأولى : - (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعمّا يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا) ·

❁ بدأ سبحانه الاية بتأكيد لفظى ليضفى على ما سيذكره التأكيد المعنوى ، (إنّ الله يأمركم) ، وكلمة (يأمركم) جاءت بعد اسم من أصدر الأمر ، لتنشعر الهيبة والرهبة من عظمة صاحب الإسم الامر بما سيقوله بعد ، ولأن الآمر سبحانه وقد عرفتموه ، لايمكن لأحد أن يأمر معه ، أو ينقض من أمره قدر قطمير ، ثم اختيار كلمة الأمر بعد اسمه المعظم ، يعطى الفهم القاطع بأن المقررات التى ستوضحها الكلمات التى في الاية ، لا تجيز الترك وعدمه ، وانما هى إلزام حتمى للتنفيذ ، تلك هى (أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ، ولشتى أنواع الأمانة جاءت بلفظ الجمع ، أعلاها الأمانة التى حملها الإنسان تجاه ربه ، وهى إقامة شرائعه خالصة لذاته ، وأدناها كلمة سر يؤتمن عليها ، وبين الأثنين حقوق لا تحصى تتصل بالله تعالى ، والكل مأمور بأدائها كاملة إلى أهلها ، لكن الاكد في الآية من حيث الأمر بالأداء هو المرتبط بحقوق العباد لأن المرتبط بحقوق الله تعالى تعرضت له ايات أخرى عديدة ، والقرينه التى تدل على أن حقوق الإنسان هى المعْنيَة في هذه الاية ، قوله تعالى بعد ذلك : (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ، فالحكم بالعدل لايكون إلا في قضية عرضت ليرد حق سُلب أو اغتُصب ، وهذا شأن من شؤون بنى الانسان ملازم لوجوده إلى أن ينتهى وجوده بانتهاء الدنيا ، فلابد من ظالم ومظلوم وباغ ومبغى

عليه ، و من هنا يأتى العدل في صورة حُكمْ ، يصدر من حكم صفته الحكمة التى لا تنثنى ولا تميل ، ثم من قرائن اهتمام الآية خاصة بحديثها عن الإنسان كلمة (بين الناس) ، فإذا ماجاء بعدها مايدل على أن الناس حُكم بينهم بالعدل ، كان ذلك عملا بموعظة جليلة الخطر عظيمة الأثر ، مدحها الله بقوله : (إن الله نعمّا يعظكم به) نعم مايفيدكم به ، ذلك أنه مامن شئ يذهب الغيظ ويجمع الشتات ويقيم المجتمعات على التآخى أكثر من العدل .

● ولهذا كان الأمام العادل ضمن أنواع سبعة فقط من عباد ممتازين ، لا يلفح وجوههم اللهب يوم الحر الأكبر ، حيث استظلوا ببرد الظل الأعظم ذون سواهم ، ثم يختم سبحانه آيته الكريمة بقوله(إن الله كان سميعا بصيرا) ، فهذه الكينونة الملازمة له سبحانه أزلا ودواما ، كينونة اتصاف بكل كمال ، وتنزيه عن كل نقص ، ومنها ماذكره هنا بصيغة المبالغة (سميعا بصيرا) ، فهو سميع لما يقال سرا أو علنا ، بصير بما يعمل جهرا أو خفاء ، وعلى قاعدة أن نهايات الايات لابد من ارتباطها بما يذكر فيها ، فإن رد العباد على الذى أمرهم به في الاية سيكون قولا يدل على الاستعداد للعدل أو عسكه ، وهذا القول إما بصوت أو بهمس ، وهو في الحالين سميع ، ثم ينتقل الأمر من القول إلى العمل ، فإن كان القول طاعة تبعه العمل بالعدل ، وإن كان القول معصية فلاعدل وكان الظلم ، ثم المثوبة أو العقوبه ، فمستحيل أن يأمر الله بشئ ثم يترك أثره هملا ، هذا هو العدل الذى يقضى بحفظ الحقوق ونزاهة إصدار الأحكام ، بصورة ما ترامى الى الاذان شبيه لها . ذلك لأنها من الحكم العدل العظيم أحكم الحاكمين .

فأيهما أنفع للانسان ، حقوق وضعها لنفسه هو طامع أن يسلبها من غيره ، أم حقوق من خالقه لا طمع له فيها لأنه المنزه عن الاحتياج لغيره ؟ .

تحليل الاية الثانية : - يقول الحق المبين :-

● (يا أيها الذين امنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلوٗوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا .)

بدأت الاية بنداء ، فمن المنادي ؟ ، ومن المنادؤن ؟ ، وماهو المطلوب من النداء ؟

المنادى هو أحكم الحاكمين ، والمنادؤن هم المؤمنون به المطيعون له ، ولن يكون ردهم على راحمهم وقد امنوا به إلا لبيك خير المنادين ، فلن يكون نداؤك إلا الخير لنا أجمعين .

● وما هو المطلوب من النداء ؟ أمركم أن تكونوا ملازمين قائمين أبدا بالعدل ، ولهذا بالغت في صورة اللفظ (قوّامين) فالعدل أمر قائم لاينقطع ، وهكذا اجعلوه بينكم لا يخل ميزانه ولا تختل أركانه ، والعدل من أهم مايظهره ويقيمه إذا ما أريد حجبه من المتخاصمين ، بالا نكار أو بليّ اللسان بزخرف الكلام ، هو الشهادة بالواقع بالواقع الصحيح الذى رئى أو سُمع ، (شهداء لله) ، وكلمة شهداء أتت بعدها كلمة (لله) لتؤدى معنيين ، أولهما ، وأنت تشهد سواء كنت مدعوا أو متطوعا ، أن تؤديها وانت مراقب لله ، فاستحضارك مراقبة الله اثناء الشهادة سيجعلك تقول الصدق الذى يظهر الحق ، وثانى المعنيين أن تقصد بهذه الشهادة مثوبة الله ورضاه ، وليس أجرا من أحد المتخاصمين تعطاه ، أو ثناء من الحاكم أو القاضى الذى أعنته بشهادتك على إعلان الحق وخذلان الباطل فهذان المعنيان إذا حضرا الشاهد أثناء شهادته ، كان العدل أصفى وأنقى عندما يستعمل لتؤدى به الحقوق ، ثم تستمر الآية قائلة (ولو على أنفسكم ، أو الوالدين ، والأقربين) مراتب ثلاث ، بدأ بأعلاها سبحانه وانتهى بأدناها . فليس لدى النفس أعز من النفس ، ولو كان غير النفس أبا أو أما ، فإذا ماهيمن الشاهد على نفسه وقتل فيها حب الإيثار الملازم للنفوس عادة ، فيصبح انتصاره في المرتبة الثانية أيسر وأسهل ، ولهذا ذكرت الاية الوالدين بعد النفس (يوم يفر المرء من أخيه و أمه وأبيه) ، فهو مستعد أن يشهد على والديه وقد شهد على ما هو أعز

منهما ، فما بعد روحه (الذى فيه) روح ، وبهذا يكون عند المرتبة الثالثة (والأقربين) أولى بأداء الشهادة بيسر أكثر وسهولة أوفر ، فأى الأقربين أقرب إليه من أبويه ؟ .

● ثم تقول الآية : (إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) ولأنه اختلف إن كان هذا تشريعا محضا أو تشريعا مسببا ، فقد رأينا أن نترك هذا الأمر ونستمر في التحليل المتصل بهذا البحث ، فالغنى مظهر قد يرغب أو يرهب ، والفقر مظهر قد يدعوا إلى ازدراء الفقير أو العطف عليه ، وكلا النوعين إما ظالم أو مظلوم ، وعندئذ يكون الشاهد ناظرا من أعلى إلى هذا كله ، لأنه سيؤدى الشهادة ومعه الحليتان اللتان ذكرناهما آنفا ، مراقبة الله والرغبة في رضاه ، إذًا فيترك أمر الكل إلى من هو بالكل أرحم ، فلا ينحنى أمام رهبة ،ولا يميل أمام رغبة ، فالله أولى وأحق بعباده من أن يتفضل عليهم سواه (إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) ، (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) ، فالهوى هو الغالب وجوده عند الشهادة أو الإقرار بالحق على النفس ، والغالب وجوده أيضا عند الشهادة أو الإقرار بالحق على الوالدين ، ونفس الأمر عند الشهادة أو الإقرار بالحق على الأقربين ، ونفس الأمر عندما نرهب غنيا أو نستضعف فقيرا ولم يزِدْ هذا الهوى خوف من الله ولا رجاء ماعنده ، يكون الهوى قد اتّبع ، وتبعا لذلك يكون العدل قد غاب ، ويكون الظلم قد حضر ، والحق قد أهدر ، وهل يكون اتباع الخاطف من العواطف إلا هذا هوى ــ متبعا وعدلا ضائعا ، لهذا كان النهى القوى في كلام الآية المقدر بهذا المعنى : إحذروا أن تتبعوا الهوى فإن يؤدى بكم إلى أن لاتعدلوا .

(وإن تلوُوا ، أو تعرضوا) ، فالألتواء وهو الميل مع الهوى عن الحق ، من شاهد أو قاض ، أو الإعراض وهو أبعد خطرا وأضر أثرا ، يقع أيضا من شاهد أو قاض ، إن وقع أحدهما أو هما معا من الشهود أو القضاة (فإن الله كان بما تعملون خبيرا) .

● فهو عند أهل المعانى قبل أهل التأويل ليس ختام الآية هذا خبرًا لمجرد العلم به ، وإنما يحمل إنذرا مخيفا لمن لم يطع مافى الاية ، فلوى وأعرض حتى أظهر باطلا وأمات حقا ، لأن صفة الخبرة بالنسبة لله تعالى ليست في حاجة إلى أن تقدم للمؤمنين ليعرفوها فما اعتبروا مؤمنين وما استحقوا أن يناديهم الله بها في أول الآية الآ لان مستلزمات الإيمان جعلتهم عرفوا فيما عرفوا خبرة الله بكل ملكوته وما يجرى فيه (لا يعزب عنه مثال ذرة)، وإنما نهاية الآية تقول للمؤمنين : إذا اتبعتم هواكم بعد أن علمتم أنى خبير لا يخفى علىَّ شئ ، فقد استوجبتم عقاب فاعلى ذلك ، ومبلغ علمى إن شاء الله أن مفسرا واحدا لم يشذ عن معنى ما ذكرناه .

إذا فأسال : أيهما أنفع للإنسان ، هذه الحقوق التى وضعها له خالقه ، وأولاها حراسة قوية تولاها بنفسه سبحانه ، أم تلك التى سماها الإنسان حقوقا وحتى لم يحققها لنفسه وإنما أتبعها هواه ؟ ، الله أكبر ، ومن أحسن من الله حكما ؟ .

وعن آية ثالثة نتحدث : ـ

● فمن عظمة القرآن الذى أنزله الله على خير إنسان صلى الله عليه وسلم نقدم قوله تعالى : (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوَّروا المحراب ، إذا دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها وعزنى في الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ون كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ، وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب) .

الآية الكريمة : بدأت بتقديم مافيها من رواسخ الدعائم القضائية ، لتثبيت حقوق الإنسان على الأرض إلى أن تنتهى الأرض وإنسانها ، دون السماح لكائن أن يغير مما أحقّ الله ورسم ، ولو كان رسولا نبيا كداود أو غيره ، فبدأت

بالترغيب للإصغاء ، وهل أتاك يارسولنا محمدا ، خبر قصة أخيك داود لما امتحناه بقضية حقوقية ليفصل فيها ، ثم يمشى القارئ معى ليجد أن حديثى عن الآية لن يتناول القصة من حيث السرد وحكاية الوقائع ، وماقيل في ذلك من كلام طويل تعرض فيه الكثير للقول المؤلف والرأى المختلف ، وسأفضل الظاهر من ألفاظ الاية لأربط ذلك بموضوع حقوق الإنسان الذى نحن بصدده ، وحتى الحديث في قصة داود عليه السلام ، بالظاهر الكلامى هو أسلم وأبرأ إلى الله من الشطح والغلو الأسطورى المهلك ، فقد أنذر على رضى الله عنه من يخوض في أمر داود بما يحلىّ القصاص من التزويق الحديثى ، بأن يجلده ستين ومائة جلدة .

● إذا فما يعنينى من هذه الواقعة الحقوقية في الآية ، أنها بدأت بقفز المتقاضين من فوق الحائط ، وهو منظر شاذ جدا لا يفعله إلا من يريد أمرا جللا من قتل أو سرقة ، وهذا مادعا داود عليه السلام إلى الفزع لما رآهم يهبطون عليه من سور مسجده وهو في خلوته مع الله ، وأن الفزع هو من تصوُّر شر قد يقع له منهم ، فالمسالم لا يقتحم الأسوار وإنما يأتى من باب الدار ، لكن الذى تأكد بعد ذلك أنهم مسالمون ، بل هم لداود وحكمته وعدله طالبون ، ولهذا كانوا مسرعين إلى طمأنة داود وإزالة مالاحظوا عليه من فزع (قالوا لاتخف) وقدموا أنفسهم إليه زيادة في تهدئة روعه (خصمان ، بغى بعضنا على بعض) .

● تحدثت الاية عن الخصمين بالجمع لأن كلا منهما معه مناصر له - إذًا فالخصومة وطلب الحقوق شىء لاصبر معه ، وأن الخصومات إذا طالت دون فصل ، والحقوق إذا ضاعت دون رد ، فسيتولد منها مخاطر تدمر المجتمعات وتأتى عليها من القواعد ، فالمظلوم لايصبر طويلا وعلقم الظلم يملأ فمه بالمرارة ، فإما أن ينصف سريعا ممن تولوا أمر مجتمعه أو يتولى بنفسه رفع الظلم عن نفسه ورد حقه إليه ولو بصورة ليس فيها نازع ولارادع ، وهذا ماجعلنا نأخذ هذا المعنى من تسور المحراب ، ولم ينتظر حتى يزول المانع من الدخول من الباب ، حيث كان في هذا اليوم ممنوعا لأكثر من سبب ذكرها المفسرون ، فهل قدر الظالمون ما يموج في ضلوع المظلومين ؟ ، ثم بدأ عرض القضية على داود من المتسورين سواء كانوا ملائكة أو بشرا حسبما اختلف المؤولون ، لأن القصد من الواقعة كلها إقرار حق وتثبيت عدل يبقى إلى يوم الساعة ، وبدأ العرض من الطرفين بالطريقة المودبة التى تليق بتقديم القضايا للقضاة ، حيث قالوا مقيمين الاحترام لداود دون أن يرجح أحدهم كفة الحق لنفسه ، حتى يسمعوا الحكم ممن احتكموا إليه (بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق) ولم يقل أحد الخصمين احكمْ لى فالحق لى ، وكل ماقالوه (ولا تشطط) ، ذكروه بعدم الميل بعاطفة ، فقد يكون في أمر أحد المتخاصمين ما يرقق القلب دون الحق ، فيقع الحكم بالتعجل وليس بالتدقق ، وهذا ما يرجح بأن المتسورين للحائط ملائكة ، موجهون بهذه الكلمات المشرّعة من الذى أرسلهم سبحانه ، ثم زادوا (واهدنا إلى سواء الصراط) ، أى احكم بيننا بالحل بالوسط المرضى لقواعد الحق ولو لم يرض المحكوم له أو المحكوم عليه ، وهذا مبدأ رائع لعرض الأمور من غير تهور ولا رعونة ، والقضية هى (إن هذا أخى ، له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها ، وعزنى في الخطاب) .

فهنا ترك داود عليه السلام بداية الكلام للشاكى ، لأنه الأحق بسبب ما يعانيه من ضياع حقه - وهذا مبدأ أخذ منا حتى اليوم - ثم على الشاكى ألا يبدأ شكواه بالغضب والسب لشاكيه ، ولهذا قال رغم تألمه من خصمه (إن هذا أخى) ، ذلك بأن الحقوق بعد أن ترد يجب أن يبقى الود - وهذا مبدأ قرره القرآن أيضا وقد انعدم أو كاد - فالتقاضى الان أصبح يولد أحقادا قد يتقاذفها الورثة ليبقى عداء بعيد الأمد سىء الأثر .

● وعريضة الدعوى المقدمة إلى القاضى داود عليه السلام ، وهى - فيما أعلم - قضية تدريب له كيف يتعلم الفصل في القضايا على أنها أول قضية تعرض عليه ، هى غاية في الغرابة وأشد ماتكون شدا للعاطفة وتأثيرا مُجْنحا إلى الميل ، أحد الخصمين يملك مائة شاة إلا واحدة ، وبلغ به طمعه أن يجعلها تكمل المائة ، والشاة المكملة للمائة

لأجير فقير يعمل عنده يقوم بأمر غنمه مقابل أن تتربى شاته تطعم من طعام غنمه ، ويبدو أن الشاة بورك فيها وأصبحت بحال طيب لفت نظر الغنى صاحب التسعة والتسعين ، فأراد أن يضمها إلى غنمه ، ويجعل صاحب الشاة مجرد أجير ، يعوض عنها بشئ ولا يكون له في الغنم شئ ، ومكنه وضعه أن يضغط على صاحب الشاة ترغيبا أو ترهيبا ، (وعزنى في الخطاب) ، أى خاطبنى بما تأكدت به من أصراره على مايريد ، وأنا أريد أن تبقى شاتى لى

● وسواء كانت صورة الدعوى هكذا حدثت في الواقع ، أو وضعت لضرب المثل للقضيايا الصعبة السريعة التأثير في نفس القاضى - الله أعلم - فإنها قد أخذت الشكل المتوقع ، خصوصا لدى القلوب الحانية التى تستقر بين جنوب الأنبياء صلوات الله عليهم (بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

● ومن هنا كان النطق بالحكم من داود عاجلا وسريعا بسرعة نسبة واحدة إلى تسعة وتسعين (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) ، والعجب أن خنُوَّ داود قد فاض بالحكم لذى النعجة مع أنها لازالت في حوزته ولم تنزع منه بعد ، وألصق جناية الظلم بخصمه لمجرد أن سأله نعجته (لقد ظلمك بسؤال نعجتك) ، فكيف لو أتْبع السؤال بالاستيلاء ؟ ، إنها من حيث الأساس رأفة تليق بنبى صفى ، ولكن في هذا الموضع وهو مقام تمحيص الحقوق ، لا بد أن تقترن الرأفة بالتروى والتأنى ، حتى تدرس القضية بكل المتخاصمين وبكل الشاهدين ، وهذا لم يفعله داود عليه السلام ، ومع أنه قدم حيثيات الحكم الصحيحة لما قال : (وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم) ، فهذا تقرير لأمر يلابس الناس دواما ، خاصة شركاء المادة ، لغلبة سوء الظن على خسْنه ، بأن شريكه ليس كُفئًا له ، أو يحتوى على حظ أكثر من حقه ، ومن هنا يأتى بغى بعضهم على بعض ، ويستمر القرآن في تقدير الأمر يجريه الأمر سبحانه على لسان هذا النبى الكريم ، حيث لم يدْخل في الكثرة التى تبغى على بعضها أولئك الذين أمنوا بربهم ، فراقبوه متبعين ماأحل مجتنبين ما حرم ، ولما كان الوصف الكمّى للباغين هو الكثرة ، فلابد أن يكون العكس هو القلة (إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم) .

بيد أن هذا القول الحق لم يعف داود عليه السلام من نتائج حكمه غير المسدد وسبب عدم تسديده أمران ، أولهما مطاوعته لرقة قلبه لوضع ذى النعجة الواحدة ، خاصة أنه الشاكى ، ولا يغلب على الشعور إلا أن الشاكى هو المعتدى عليه في أى احتكام يقع بين خضمين ، فتعجل عليه السلام با صدار الحكم لصالح الشاكى قبل أن يسمع دفاع لمشكو تجاه شاكيه وهذا أمر لايمكن أن يبيحه الله الذى شدد فرضية العدل في ملكوته ، .

والأمر الثانى الذى جعل الحكم غير مسدد هو - والله أعلم - أن داود عليه السلام وهو يؤدى أول اختبار في الفصل في القضايا ، دفعه الحنان أيضا إلى عدم انتظار توجيه السماء ، فما كان مرسله سبحانه يدعه ليحيد ، فكان عليه وهى نبى من أهل الوحى أن ينتظر حتى تهبط عليه طريقة الفصل في المنازعات لتصبح الركائز المعروضة فقط وقتئذ .

● فكانت نتيجة امتحان داود في نهاية الموضوع هو قوله سبحانه (وظن داود أنما فتناه) ، والظن هنا بمعنى الإدراك والعلم ، وبالصورة التى أعلمه بها ، وليس بخرافات الإسرائيليات التى أترعت بها التفاسير الغثة ، عندما وقع في مصيدتها عشاق الأقاصيص ، (أنما فتناه) امتحناه وماجفيناه ، حيث قبلنا سجدته وغفرنا هفوته وأحسنا أوبته (فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ذلك لأن الدرس أفاض عليه كامل المعرفة بأسرار القضايا وخبايا المشاكل البشرية التى سيظل الإنسان يتخبط فيها بسبب ماديته المتأصلة فيه ، وبعده عن الروحية المتوادة المتسامحة .

● لقد انتفع دادود بالدرس التدريبى العظيم هذا ، فاستحق لما علم منه ربه ذلك بأن يجعله الخليفة العادل في الأرض ، والقاضى المحق الذى لا سبيل معه لميل الهوى (ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) .

وانظر إلى نهاية الاية المنذرة بالعذاب الشديد ، لمن يميل مع الهوى ويضل بتضيع الحقوق ، عندما يحكم أمة أو يفصل في قضية ، فويل له من ناس ليوم الحساب ، عندما يكون يومها حسابا عسيرا كأعسر ما يكون الحساب ، ذلك أنه أؤتمن على شئ هو من أعظم الحرمات عند الله ، وما كانت كذلك ـ وهو أعلم ـ إلا لأنها خير مايتم به الهدوء النفسى والأمان الإنسانى ، فإن لم يحاسب الحاكم أو القاضى نفسه ليوزع الحساب بين من لجأوا اليه أو ألوا إليه بحقة ، إعتبرته الاية ضالا غاويا له العقاب الخاص بالضالين .

● وبعد انتهائى من عرض العجائب الحقوقية لهذه الاية ، وإنذارها من يحيد عن هذه الحقوق بلفتة بصر أن ينال جزاءه ، بالشدة التى ذكرتها كلماتها الرهيبة ، أكان يجوز للإنسان أن يجد لنفسه أقوى وأحكم مما جعله الله ، حقا إن الإنسان لربه لكنود .

لكن الأسى الذى يملأ القلب نكدا ، يأتى من الإنسان الذى ادعى الإيمان ، وراح يثق بحقوق صنعت للغرض والغاية ، وترك قرأنه وقانونه (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك) ، ولكن بعد أن مات صلى الله عليه وسلم ، مافتنّا فقط عن البعض وإنما عن الكل ، فحاق بنا ماذكرت نفس الاية (فإن تولوْا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) ، (وقد كان) وعسى ألا يقع بالبعض الباقى .

ونهى هذا الباب بنصوص من فخرنا العدلى واعتزازنا القضائى ، بما نباهى به الدنيا قاطبة ، نقدمها عددا ونصا بغير تعليق لمن يدخرها .

١ ـ اية من أيات زخر بها كتاب الله العظيم :

● (وضرب الله مثلا رجلين ، أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟) سورة النحل ، اية ٧٦

٢ ـ حدث أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو عند أم سلمة رضى الله عنها ، أن دعا وصيفة لها مرات فلم ترد عليه ، فاستبان الغضب في وجهه ، فخرجت أم سلمة تبحث عنها فوجدتها تلعب فقالت لها : أراك هنا تلعبين ورسول الله يدعوك ! فأقبلت الصبية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى تقول : والذى بعثك بالحق ماسمعتك ، وكان بيد الرسول سواك فقا لها : لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك) رواه الإمام أحمد

٣ ـ أتت امرأة عمر بن الخطاب رضى الله عنه تذكر زوجها عنده فقالت : زوجى من خير أهل الدنيا ، يقوم الليل حتى يصبح ، ويصوم النهار حتى يمسى ، فقال لها عمر : جزاك الله خيرا ، فقد أحسنت الثناء ، فلما ذهبت قال كعب بن مسور رضى الله عنه ، وكان جالسا بجانب عمر : ياأمير المؤمنين ، لقد أبلغتْ إليك في الشكوى ، فقال عمر : ومن اشتكت ؟ ، فقال كعب : اشتكت زوجها ، قال عمر : علىّ بها ، فعادت ومعها زوجها ، فقال عمر لكعب : أقض بينهما ، فقال كعب : أقض وأنت حاضر ، قال له عمر : إنك فطنت إلى مالم أفطن إليه ، فقال كعب وهو يقضى بينهما : إن الله تعالى يقول : (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) ، فعلى زوجها

أن يصوم ثلاثة أيام ويفطر عندها يوما ، ويقوم ثلاث ليال ويبيت عندها ليلة ، .. وتفصيل حكم كعب رضى الله عنه ، إشارة إلى قوله تعالى (فانكحوا) ، أى من حق الزوجة أن تباشر لتعف ، ثم الإنجاب تبعا لذلك إن كان ، ولايجوز تركها في ذلك ولو بنوافل العبادات ، ثم أمر كعب زوجها أن يعطيها يوما بليلة بعد كل ثلاث لتصبح هى الرابعة .

وقد بنى هذا الحكم على افتراض أنه متزوج بأقصى المباح لما قرأ (مثنى وثلاث ورباع) على أنه سيغيب عنها مع زوجاته الثلاث ، كل بحقها المؤقت لها ، وهى الزوجة الرابعة يعطيها الوقت الرابع ، فسرَّ عمر رضى الله عنه من فطانة كعب ومن حسن ماقضى به ، وبعثه قاضيا على البصرة) من (الطرق الحكيمة) لابن القيم .

٤ ـ وكتب عمر بن الخطاب منشورا للناس يقول فيه :

● إني لم أبعث عمّالي ـ وُلاتي ـ ليضربوا جلودكم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، فمن فعل به ذلك فليرفعه إلىَ لأقتص له ، فقال عمرو بن العاص ، : لو أن رجلا أدب بعض رعيته ، أتقَصُّه منه ؟ ، فقال عمر : إى والذى نفسى بيده لأقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصّ من نفسه .) ، المصدر السابق .

٥ ـ وقصة (جبلة بن الأيهم) المشهورة :

● وكان من ذوى الجاه والسلطان في الجاهلية وفي الاسلام ، فقد كان يطوف يوما بالكعبة ورداؤه يجره خلفه ، فوطئ عليه أحد الطائفين من ضعفاء المسلمين ، فاستدار إليه ابن الأيهم ولطمه لطمةً شديدة ، وكان ذلك أيضا في خلافة عمر رضى الله عنه ، فذهب المضروب إلى عمر وشكا إليه ، فاستدعاه عمر وحكم بأن يضربه الرجل إلا أن يصفح ، لكن الرجل أبى الصفح وأصر على أن يقتص ، فقال جبلة لعمر : كيف تسوِّينى به وأنا ملك وهو سوقة ـ أى من عامة الناس ـ فقال رضى الله عنه : إن الإسلام سوى بينكما ، فطلب من عمر أن يمهله ، فأمهله ، فذهب ولم يرجع وإنما فرَّ هاربا إلى بلاد الرومان ، وارتد عن الإسلام إلى نصرانيته ، وبعد مدة أحسّ بالندم ، وعلم بأنه ترك الحق وعاد إلى الباطل ، ثم كتب قصيدة في ذلك ، منها هذه الأبيات .

تنصرتْ الأشراف من عار لطمة	وماكان فيها لوصبرت لها ضرر
تكنَّفنى منها لجاج ونخوة ..	وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى	رجعت إلى الأمر الذى قاله عمر

٦ ـ في (الطرق الحكمية) لابن القيم رحمه الله قوله :

● من له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالها ، وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ، ومجيئها بغاية العدل الذى يسع الخلائق ، وأنه لاعدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح ، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها ، وفرع من فروعها ، وأن من أحاط بمقاصدها وحسن فهمه فيها ، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة ، فإن السياسة نوعان : سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها ، وسياسة عادلة تستخرج الحق من الظالم الفاجر ، فهى من الشريعة ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها .

وفي تاريخ إسلامنا من هذه الأمثلة الشئ الكثير ثم يأتى الإنسان ليضع لنفسه أف له ولما وضع ، وهل ينبئك مثل خبير ؟ .

نظم القرآن

فوق مستويات النقد والتجريح

بقلم الدكتور / على البدرى
الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية

إذا تدبرت قوله تعالى : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »(١) .

أو قوله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »(٢) .

أو قوله عز شأنه : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا . ودواما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر »(٣) .

لعرفت أن هذه الآيات الكريمة وما شاكلها فيما تهدف إليه بمثابة مصابيح ساطعة تضئ للمسلم مسالكه في دياجير الظلام .

وبهذا يعرف المسلم بجلاء أعماق ما يدور في نفوس اليهود والنصارى سواء بقوا على كفرهم أم ارتدوا عنه إلى كفر جديد كالشيوعية مثلاً .

فلا هؤلاء ولا أولئك يقبلون العيش مع المسلمين في سلام .

كلا . إنهم وطنوا أنفسهم على حرب المسلمين جيلاً بعد جيل وصمموا على ألا يقبلوا منا سوى ما لا يكون بإذن الله أبداً . « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » وهذا بالدرجة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . الذى بعثه الله تعالى ليتمم به مكارم الأخلاق فقال له : « وإنك لعلى خلق عظيم »(٤) .

فإذا كان هذا موقف اليهود والنصارى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته .

فلا ينتظر منهم مع أتباعه إلا كل سوء « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

■ ما أحلى عبارات القرآن . إن لها وقعاً في النفس أسمى من كل عبارات تشرحها وأعلى من كل بيان يجلبها . ولهذا فإنى أطلب من كل مسلم أن يتدبر معانى هذه الآيات الكريمة فلعل الله تعالى أن يفتح عليه فتحاً مبيناً . وهو على ما يشاء قدير .

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٧ .

(٢) سورة البقرة آية ١٢٠ .

(٣) سورة آل عمران آية ١١٨ .

(٤) سورة ن آية ٤ .

ولقد ظهر خصوم الإسلام قديماً وفي العصر الحديث هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم ألقاباً علمية في عصرنا هذا ويظهرون للناس خداعاً رهيباً متستراً خلف البحوث العلمية والرغبة في الوصول إلى الحقيقة عن طريق البحث والاستقراء . وهى صورة .. تلبس الذئاب فيها ثياب الحملان !!

وهكذا أطل على الشرق المسلم هذا الثالوث البغيض الاستعمار ، والتبشير ، والاستشراق ، فالاستعمار حاول أن يكسر عقيدة المسلمين عسكرياً . ففشل والحمد لله تعالى فراح يدرب المبشرين والمستشرقين من عتاة الصليبية واليهودية والإلحاد لكى ينالوا من المسلمين منالا في قرآنهم الكريم أو في سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام .

وقد عادوا والحمد لله تعالى بخفى حنين بعد جهود فتاكة مدمرة . نجى الله تعالى منها المسلمين . ولكن القوم لا يتخلون عن حقدهم أبداً . وستبقى حربهم الظاهرة والخفية فيما أرجح ما بقى الفرقدان وإن تقنعت بأقنعة الطب أو التعليم أو السياسة أو الاقتصاد أو غيرها مما يظنونه أقنعة يخدعون بها الناس . ولم تلبث أن كشفت عن وجهها الصفيق !

سيظل القوم يحاربون الله ورسوله إلى آخر الزمان ـ فعلى المسلمين أن يعرفوا ذلك جيداً ! ! وعليهم أن يتأكدوا من قوله عز وجل : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(١) ومن قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(٢) وقوله عز شأنه « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون »(٣) .

لقد افترى اليهود والنصارى والمنافقون قديماً على القرآن الكريم افتراءات يرددها اليوم أحفادهم الجدد في غير حياء .

فقديماً حاولوا التشكيك في اختيار الله تعالى لمفردات قرآنه الكريم وجمال عباراته ! وتناسق تراكيبه ، وإعجاز نظمه الفريدة فقالوا مثلاً : إن جملة « فأكله الذئب »(٤) أحسن منها فافترسه الذئب ، وعللوا ذلك بأن الأكل يشارك فيه الحيوان الإنسان . ولا كذلك الافتراس .

وقالوا : إن النظم القرآنى « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم »(٥) أبلغ منه أن يكون النظم هكذا « امضوا وانطلقوا على آلهتكم » لأن المقام مقام إنزعاج هكذا يهرفون بما لا يعرفون . !!

---

(١) سورة يوسف آية ٢١ .
(٢) سورة الحجر آية ٩ .
(٣) سورة الأنفال آية ٣٦ .
(٤) سورة يوسف آية ١٧ .
(٥) سورة ص آية ٦ .
(٦) سورة الحاقة آية ٢٩ .

وقالوا أيضاً : إن العبارة القرآنية « هلك عنى سلطانيه »(٦) أفضل منها « ذهب عنى سلطانيه » ويعللون ذلك بأن الهلاك في الأعيان والأشخاص .

ويقولون : أنت تقول : هلك زيد ولا تقول هلك جاهه . أو سلطانه . وإنما تقول : ذهب سلطانه وانتهى جاهه .!! هكذا يزعم القوم اللئام .

ثم يمضون في سرد مفترياتهم على نظم القرآن فيقولون :
إن الآية القرآنية « والذين هم للزكاة فاعلون »(١) أبلغ منها « للزكاة مؤدون » .

ولم تقف اعتراضات الخصوم الفجرة عند حد الجمل والتراكيب بل تعدوها إلى أدوات الربط فقالوا : إن مجئ الباء في الآية القرآنية « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم »(٢) ليس في موطنه فلو قيل : ومن يرد فيه إلحاداً لكان أبلغ !! هكذا يتصور الجاهلون الحاقدون !!

ثم إنتقلوا من هذا إلى رمى القرآن الكريم بالتناقض !! وضربوا لذلك مثلاً بقوله تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون » وزعموا أن القرآن هنا يذم المؤمنين فكيف يتفق هذا مع مديحهم قبل هذه الآية مباشرة . بالآية القرآنية : « أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »(٤) .
وهذا في نظر ذوى البصائر العمياء ضرب من التناقض والسير على غير هدى .

ولم يلبث شياطين الإنس أن تنالوا بعض الصور البيانية في القرآن الكريم بالتجريح وهى بالغة حد الروعة والإعجاز . فقالوا : إن الآية القرآنية :
« كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين »(٥) .
وقوله تعالى : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم »(٦)
قالوا إن أدوات التشبيه هنا قد أتبعت بالمشبه به ولم تسبق بالمشبه وهذا على حد مزاعمهم ضرب من الغموض .!! مع أن هذا من بديهيات البيان العربى !
ثم اعترضوا على حذف جواب الشرط في قوله تعالى مثلا:
« ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى »(٧) ونحو هذه الآية .
فزعموا أن هذا تبتير للكلام ! وقطع لأجزائه .
وكما اعترضوا على الحذف فلم يسلم الذكر من اعتراضات المجرمين !! فزعموا أن الحذف وتكرار الذكر كلاهما ليس محموداً . ولا معدوداً في النوع الأفضل من فنون البيان .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٤ .
(٢) سورة الحج آية ٢٥ .
(٣) سورة الأنفال آية ٥ .
(٤) سورة الأنفال آية ٤ .
(٥) سورة الحجر الآيات من ٨٩ ـ ٩١ .
(٦) سورة البقرة آية ١٥١ .
(٧) سورة الرعد آية ٣١ .

■ وعلى هذا فقد اعترضوا على تكرار قوله تعالى في سورة الرحمن : « فبأى آلاء ربكما تكذبان »

واعترضوا أيضاً على تكرار قوله تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين » في سورة المرسلات .

وفات هؤلاء الضعفاء والمهازيل أن يعترضوا أيضاً على تكرار قوله تعالى : في سورة التكاثر : « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » .
كما فاتهم أن يعترضوا على تكرار قوله تعالى : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير »(١) وجهل شياطين الإنس أن التكرار المحمود أحد فنون الأطناب وهو فن بلاغى من علم المعانى به يطابق الكلام مقتضى الحال .

■ هذا وقد اعترض هؤلاء المفترون على الله الكذب . اعترضوا على ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره فقالوا : لو جاء ترتيب القرآن الكريم بحيث تكون أخبار القرون الأولى في سورة .. والحكم والمواعظ والأمثال في سورة أخرى . وأحكام الأفراد والمجتمعات في سورة ثالثة مثلاً وهكذا .. لكان ذلك أحسن ترتيباً . وأيسر حفظاً . وأبلغ من تكرار بعض هذه الأمور في سور كثيرة . ولكان القرآن بهذا موضوعياً !! هذه مختارات من مفتريات شياطين الإنس .. وتلك ألوان من إفتراءات المفترين على حروف وكلمات وجمل ونظم القرآن الكريم .
إنهم لم يتركوا شيئاً بدون افتراءات أبداً !!
ولكن مفترياتهم والحمد لله تعالى لن تصمد أمام شمس الحقيقة أبداً .

إنها والحمد لله تعالى أوهى من بيت العنكبوت قال تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » وقال تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون »(٢)
وسنتناول هذه المفتريات بالدحض والإبطال في إيجاز بإذن الله تعالى على النحو التالى :
إن تفضيلهم لعبارة : « فافترسه الذئب » على العبارة القرآنية « فأكله الذئب » فاسد حقود ذلك لأن الفرْس معناه دق العنق « الفرْس بسكون الراء » .
وإخوة يوسف لم يدعوا على أبيهم أن الذئب قد دق عنقه فقتله !! وانتهى الأمر .
وإلا لطالبهم يعقوب عليه السلام بجسد أخيهم ميتاً .

■ ولكن القوم أرادوا أن يقطعوا على أبيهم المطالبة بجسد يوسف حياً أو ميتاً .
فادعوا أن يوسف الآن في بطون الذئاب وهذا ما لا يؤديه سوى الجملة القرآنية (فأكله الذئب) أما الافتراس فقد تحقق مثلاً في عتبة بن أبى لهب .

(١) سورتى التوبة آية ٧٣ والتحريم الآية ٩
(٢) سورة العنكبوت آية ٤١ .

ذلكم الذى دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : (اللهم سلط عليه كلباً من كلابك !)
ثم كان في تجارة قرشية إلى الشام ، فحذر أبوه القافلة من دعوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وطاف بهم أسد في الطريق فضرب عتبة بيده فأرداه قتيلاً ، وقال الناس يومئذ قد افترسه الأسد ولم يقولوا أكله !!
وإخوة يوسف قد ادعوا على أبيهم أن الذئب قد أكل يوسف تماماً بشحمه ولحمه ، فما أدق عبارة القرآن الكريم وما أحسن نظمه المعجز الأخاذ بالألباب .

■ فأما تفضيل المعترضين امضوا وانطلقوا على (امشوا واصبروا ..) في سورة ص ، فذلك خطأ بين ، لأن المشركين قصدوا الاستمرار على دين آبائهم ، في غير انزعاج ولا انتقال ، وهذا المعنى لا تؤديه إلا الجملة القرآنية وحدها .

لأن المعنى الذى يريدونه ، استمروا على ما أنتم عليه ولا تبالوا بالقرآن الكريم ، واطمئنوا ولا تنزعجوا ، على أنه قد قيل : إن المشى هنا يراد به كثرة العدد ، فالعرب يقولون ، مشى الرجل إذا كثر ولده .

قال شاعرهم : والشاة لا تمشىْ على الهلع ...
أى لا يكثر نتاجها إذا قربت منها الذئاب ، وبهذا نرى أن خصوم القرآن ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون .

فأما اعتراضهم على الاستعارة القرآنية في قوله تعالى : (هلك عنى سلطانيهْ)

فاعتراض متهافت ، لأن الاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة ، ذلك لأن الشئ إذا ذهب فقد يعود أما إذا هلك استحالت عودته ، والمشركون يعلمون أن سلطانهم الفانى لن يعود إليهم أبداً يوم القيامة ، وبالإضافة إلى هذا فقد قيل : إن السلطان هنا بمعنى الحجة والبرهان .

فأما افتراؤهم على الجملة القرآنية « والذين هم للزكاة فاعلون » فساقط عديم الجدوى ، لأن لفظ (فاعلون) أبلغ من (مؤتون أو مؤدون) ونحوهما .

■ فالجملة القرآنية تفيد المبالغة في أداء الزكاة والمواظبة عليها ، حتى تكون سجية لهم ، وهذا مالا يؤديه إلا لفظ (فاعلون) على أنه قيل : إن الزكاة هنا تقابل كل الأعمال الصالحة ، وبذا تكون الكلمة القرآنية أدق من كل كلمة سواها .

أما اعتراضهم على الباء في قوله تعالى : « ومن يرد فيه بإلحاد ... » فإن هذا غير خارج عن سنن العرب في كلامهم ، وإلا لاعترض عليه مشركو مكة ، وهم أرباب الفصاحة وأئمة البيان ، قال الراعى النميرى :

هن الحرائر لا ربات أحمرة   سود المحاجر لا يقرأن بالسور

■ فأدخل الباء على المفعول وذلك غير ممنوع في اللغة .
فأما اعتراضهم على وجود المشبه به بعد كاف التشبيه دون المشبه فباطل أيضاً .

ذلك لأن الله تعالى يشبه حال المسلمين في اختلافهم على الغنائم بحالهم في كراهة القتال في أول الأمر . قال تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون » .

ولا تناقض بين الآية وما قبلها . لأن الثانية توضح معنى قوله تعالى (إن كنتم مؤمنين) وطرفا التشبيه أيضاً في قوله تعالى . كما أرسلنا فيكم رسولا هما . يتم الله نعمته عليكم كما أتمها بأن أرسل فيكم رسولا من أنفسكم .

■ وأما افتراؤهم على حذف جواب الشرط . فإن هذا الحذف أبلغ من الذكر . وتقدير الجواب . لكان هذا القرآن والنفس تذهب في المحذوف كل مذهب . وأما المذكور فليس له سوى هذه الصفة المذكورة .
وصاحب الذوق السليم يدرك بلاغة الحذف في قولك مثلاً لو رأيت الفاروق عمر ... بحذف الجواب فهو أبلغ من ذكره مهما قدرته . فالنفس تذهب في عظمة الفاروق رضى الله عنه كل مذهب . وهكذا الشأن دوما مع حذف جواب الشرط أو غيره .

فأما اعتراضهم على أسلوب التكرار في القرآن الكريم . فإن التكرار في اللغة قسمان محمود ومذموم الثانى عديم القيمة والمعنى . وهو ليس موجوداً في القرآن ... إطلاقاً .

وقد بين الله تعالى لماذا كرر القصص في القرآن الكريم بقوله تعالى : « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون »(١) ـ « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً »(٢) .

فأما ما عابه المفترون من تكرار قوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان . (في سورة الرحمن) . فذلك لتكرار النعم . والخطاب للإنس والجن . فالتكرار لتعدد المتعلق .

■ فأما تكرار قوله تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين » في سورة المرسلات . فلأن السورة قد عرضت لأهوال يوم القيامة بتفصيل ملحوظ وعقب الحديث عن كل هول من أهوالها المتعددة جاء هذا الإنذار للمكذبين بيوم الدين . فهو تكرار لتعدد المتعلق أيضاً .

---

(١) سورة القصص آية ٥١ .

(٢) سورة طه آية ١١٣ .

■ ولقد يتساءل خبيث حقود أو جهول عن سر مجئ قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » (في سورة الرحمن) بعد آيات التهديد والوعيد كمجيئها بعد قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » فهى تهديد بلهيب السعير والدخان المستطير ..

والرد على هذا التساؤل الهين أن الترغيب والترهيب كلاهما من نعم الله تعالى . قال الشاعر :

والحادثات وإن أصابك بؤسها
فهو الذى أنباك كيف نعيمهـا

■ وأما دحض الافتراء الطاعن في القرآن من حيث عدم موضوعيته . فإن توزيع المسائل على النحو الذى جاء في القرآن . من الفروق بينه وبين تآليف البشر . ومن جهة أخرى فيه عظة واعتبار متكرر ! وبهذا تكون استفادة الناس منه أكثر من انفراد السورة بموضوع واحد . وحتى لا تصير السور عرضة للأيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر .

فإن زعم ذئاب البشر أن بعض الناس قد عارضوا القرآن معارضة ناجحة ونقدوه نقداً جوهرياً أثناء نزوله . بيد أن المسلمين قد كتموا هذه المعارضات ومنعوا غيرهم من تسجيلها ! فذلك إهدار للعقول .

وهذا في الحق تساؤل سخيف . فالناس في كل الأزمنة والأمكنة يهتمون بالأخبار المثيرة عامتهم وخاصتهم . فلئن كتم المسلمون هذه المعارضات المزعومة . فلا يعقل أبداً ألا يسجلها المشركون وهم غالبية أهالى المشارق والمغارب .

■ إن ذلك التساؤل لو استسيغ . لجاز لمسوخى الضمائر أن يقولوا بوجود عدة أنبياء بعد خاتم المرسلين عليه السلام ثم يتهمون المسلمين بالقضاء عليهم سراً . ومثل هذه الاقاويل واضحة البطلان بينة الكفران ـ وسيبقى القرآن الكريم على مر العصور كالطود الشامخ . ولن ينال منه اليهود ولا النصارى ولا الشيوعيون منالاً أبداً . بإذن الله تعالى . فهؤلاء يخادعون الله والذين آمنوا . وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون . والقرآن الكريم فوق النقد والتجريح أو المعارضة وما أصدق قوله تعالى :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

★ ● ★

من أبحاث فقه السنة

سنن الفطرة بين المحدثين والفقهاء

لفضيلة الدكتور أحمد على طه ريان / الأستاذ المساعد بكلية الحديث الشريف

« الحلقة الثانية »

هل المراد بغسل الجمعة المشار اليه في بعض أحاديث سنن الفطرة ، والذى عده الحافظ ابن حجر من الخصال الخمسة عشر : هو الغسل المشروع لحضور صلاة الجمعة والذى وردت جملة من الأحاديث تحث عليه وترغب فيه ، وتأمر به كحديث ابن عمر رضى الله عنهما ، قال « سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر فقال : من جاء الجمعة فليغتسل » (١) أم انه اغتسال شرع على كل مسلم سواء وجبت عليه الجمعة أو لم تجب ، أراد حضور الجمعة أو لم يرد ، أى أنه تشريع عام للمسلمين يضع الحد الأدنى الذى لا ينبغى على المسلم تجاوزه ، وهو الاغتسال مرة كل سبعة أيام على الأقل .. وهو ما يشير اليه حديث أبى هريرة : « حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً يغسل فيه رأسه وجسده » رواه مسلم والبخارى واللفظ له (٢) وفي رواية أخرى له : « لله تعالى على كل مسلم حق أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً .. (٣) .

وقد نقل البدر العينى عن الكرمانى قوله : التحقيق ؛ أن الحديث الأول ـ أعنى حديث ابن عمر ـ دلّ على أن الغسل لمن جاء الى الجمعة خاصة .. وهذا الحديث ـ أعنى حديث أبى هريرة ـ عام للمجمع وغيره » .. (٤) .

وذهب بعض الشراح الى أن الغسل المأمور به في حديث أبى هريرة : انما هو الغسل المشروع لحضور الجمعة .. واستدلوا له بما جاء عند النسائى بلفظ : « على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غسل يوم وهو يوم الجمعة » (٥) .. وصححه ابن خزيمة كما روى سعيد بن منصور وابن أبى شيبة من حديث البراء بن عازب مرفوعاً نحوه ولفظه « من الحق على المسلم أن يغتسل يوم الجمعة .. » (٦) .

وأنا أميل الى قول الكرمانى : لأن مشروعية غسل الجمعة قد ثبتت بالأحاديث الكثيرة التى خصت الغسل بمن يحضر الجمعة ..

---

١ ـ صحيح البخارى حـ ٢ ص ١١ طبعة صبيح

(٢) عمدة القارئ حـ ٦ ص ١٩٣

(٣) المرجع السابق

(٤) عمدة القارئ حـ ٦ ص ١٩٣

(٥) سنن النسائى حـ ٣ ص ٩٣ .

(٦) عمدة القارئ حـ ٦ ص ١٩٣ دار احياء التراث .

أما حديث أبى هريرة هذا فهو من باب التشريع العام للمسلمين بضرورة مراعاة النظافة لأجسامهم بالاغتسال مرة كل اسبوع ، ويعتبر هذا هو الحد الأدنى لكل مسلم لا يشرع في حقه أي اغتسال آخر .

وما جاء في بعض الروايات بتقييده بيوم الجمعة : فهو باعتباره عيد المسلمين الاسبوعى ، وللمشاركة في الاغتسال مع المجمّعين في هذا اليوم .. كما أن هذا القول هو الأنسب لاعتبار غسل الجمعة من بين خصال الفطرة : لأن الملاحظ هو عمومية هذه الخصال ومشروعيتها لكل الناس وعدم تقيدها ببعض العبادات .. والقاسم المشترك بينها جميعاً : أمران : النظافة والزينة .

ذهب أهل الظاهر ورواية عن أحمد بن حنبل : الى أن غسل الجمعة واجب .. وقد حكى هذا القول : عن عمر وأبى هريرة وابن عباس وأبى سعيد الخدرى وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود وعمر بن سليم وعطاء وكعب والمسيب بن رافع (١) وقد استدل الظاهرية ومن معهم على الوجوب بعدد من الأدلة : من بينها ما يلى :

أ ـ حديث ابن عمر رضى الله عنهما : (من جاء الى الجمعة فليغتسل) وقد تقدم .

ب ـ حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : (الغسل واجب على كل مسلم محتلم ..) (٢) .

جـ ـ ما جاء في قصة عمر مع عثمان رضى الله عنهما وقد جاء فيها قول عمر لعثمان : « وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل » .. (٣) .

وهناك أدلة أخرى لكنها لا تخرج في جملتها عن مضمون الأدلة السابقة ..

وجه الدلالة : التصريح بالوجوب ثم طلبه بصيغة الأمر المقتضبة للوجوب عند الاطلاق ؛ يفيد أن غسل الجمعة واجب .

وذهب جمهور أهل العلم : الى أن غسل الجمعة سنة ر_ بأنه مستحب ـ والمعنى متقارب .. وقد استدل لهذا الرأى بعدد من الأدلة من أهمها ما يلى :

أ ـ حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فدنا، واستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ..) الحديث .. قال الترمذى : هذا حسن صحيح .. (٤) .

ب ـ حديث سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ، ومن اغتسل فالغسل أفضل » قال الترمذى : حديث سمرة حديث حسن (٥) .

جـ ـ كما استدل له أيضاً بترك عثمان رضى الله عنه للغسل .. اذ لو كان واجباً لما تركه .. قال الشافعى في تقرير هذا الدليل : ومما يدل على أن أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالغسل يوم الجمعة ـ كان ـ على الاختيار لا على الوجوب : حديث عمر حيث قال لعثمان : « والوضوء أيضاً وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالغسل يوم الجمعة » .. فلو علما أن أمره على الوجوب لا على الاختيار : لم يترك عمر عثمان حتى يرده ويقول له : ارجع فاغتسل ، ولما خفى على عثمان ذلك مع علمه .. فدل هذا الحديث : على أن الغسل يوم الجمعة فيه فضل من غير وجوب (٦) وقال الباجى في شرحه على الموطأ تعليقا على هذا الحديث : انما أنكر عليه ما مضى من تركه الغسل ليكون ذلك تنبيهاً له على ما ينبغى أن يفعل في مثل ذلك اليوم عند سعة الوقت ،

---

١ ـ المحلى حـ ٢ ص ١٢ ، ص ١٣ دار الاتحاد العربى للطباعة ..

(٢) صحيح مسلم حـ ٣ ص ٣ . الموطا ص ١٨٦ من المنتقى

(٣) مسلم حـ ٣ ص ٣ .

(٤) جـ ٣ ص ٩ تحفة الأحوذى ومسلم حـ ٣ ص ٨٠

(٥) حـ ٣ ص ٦ . ص ٧ .

(٦) سنن الترمذى حـ ٣ ص ٨ تحفة الأحوذى .

ويقتضى اجماع الصحابة على أن الغسل يوم الجمعة ليس بواجب وجوباً ؛ يعصى تاركه وانما يوصف بالوجوب على معنى التأكيد لحكمه ، ولو كان فيهم من يعتقد وجوبه لسارع الى الى الانكار على عثمان ـ وأمره بالقيام الى الاغتسال (١) ..

ونكتفى بهذا القدر من أدلة الجمهور لغنائها عن غيرها .. بعد أن اتضح منها قوة موقف القائلين بسنية غسل الجمعة ..

وقت الاغتسال للجمعة :

■ يرى الامام مالك : أن وقت الاغتسال ينبغى أن يتصل بالرواح الى الصلاة لحديث ابن عمر المتقدم : « اذا جاء أحدكم الى الجمعة فليغتسل ، أى أراد أن يجئ ، ولأن الغسل شرع للنظافة وازالة الروائح الكريهة التى تلحق بالناس من جراء العمل والمشى في يوم الجمعة ؛ ففى حديث عائشة عند مسلم « كان الناس ينتابون الجمعة من منازلهم من العوالى فيأتون في العباء ويصيبهم الغبار فتخرج منهم الريح ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنسان منهم وهو عندى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو انكم تطهرتم ليومكم هذا .. » (٢) ..

وقولها في الحديث الآخر « كان الناس أهل عمل ولم يكن لهم كفاه ؛ فكانوا يكون لهم تَفَل فقيل لهم لو اغتسلتم يوم الجمعة » (٣) . لذلك قال مالك في الموطأ « من اغتسل يوم الجمعة أول نهاره وهو يريد بذلك غسل الجمعة ، فان ذلك الغسل لا يجزئ عنه حتى يغتسل لرواحه وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث ابن عمر : اذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » (٤) .

وقال الشافعى وأبو حنيفة : إن وقت الاغتسال للجمعة يبدأ من بعد طلوع الفجر لأن الاغتسال لحضور الجمعة فينبغى أن يكون متقدماً عليها ، لكن لا يشترط اتصاله بالرواح ، وقالوا إن حديث ابن عمر لا يفيد شرط الاتصال ؛ لأن معنى اذا جاء أحدكم : أى أراد المجئ أو قصد الشروع في المجئ ، ولأن معظم الأحاديث الواردة في الاغتسال للجمعة لم يرد فيها ما يفيد اتصال الذهاب اليها .

وذهب الظاهرية إلى أن وقت الاغتسال يمتد من طلوع الفجر يوم الجمعة الى نهاية عصرها فيجزئ وقوعه في أى جزء من هذا الوقت ولو بعد صلاة الجمعة ، واستدلوا بالأحاديث التى أطلق فيها الاغتسال في يوم الجمعة كحديث أبى هريرة ؛ وقد تقدمت الاشارة الى بعضها وهو صادق بأى جزء من يوم الجمعة حتى يبقى من قرص الشمس مقدار ما يتم غسله قبل غروب آخره .. وأفضله أن يكون متصلاً بالرواح وهو لازم للحائض والنفساء لزومه لغيرهما .. (٥) .

والواقع أن رأى المالكية هو الظاهر ـ لمن يريد حضور الجمعة ـ لأن الاغتسال لازالة الروائح الكريهة ، والمقصود عدم تأذى الحاضرين المجتمعين لصلاة الجمعة وذلك لا يتأتى بعد اقامة الجمعة .. كما أن الاغتسال في أول اليوم مع وجود الفاصل الكبير بينه وبين الصلاة يفوت الغرض الذى شرع الاغتسال لأجله .. والله أعلم (٦)

كيفية الاغتسال للجمعة وفضيلته :

■ الاغتسال للجمعة لا يختلف في كيفيته عن الاغتسال للجنابة في أركانه وسننه وفضائله :

---

(١) المنتقى جـ ١ ص ١٨٥

(٢) صحيح مسلم جـ ٣ ص ٣ .

(٣) المرجع السابق (٤) المنتقى جـ ١ ص ١٨٦ .

(٥) المحلى جـ ٢ ص ٢٧ . ص ٢٨ .

(٦) سبل السلام جـ ١ ص ٨٦ . ص ٨٧ ونيل الأوطار ، جـ ١ ص ٢٨٠ والفقه على المذاهب الأربعة جـ ١ ص ١٠٢ الطبعة الأولى سنة ١٩٢٨ م .

أما التصريح بكونه مماثلاً لغسل الجنابة ؛ فقد جاء واضحاً في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنه ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقره ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة ، فاذا خرج الامام حضرت الملائكة يستمعون الذكر .. » .. (١)

أما كيفية اغتسال الجنابة المشار اليه في طلب الاغتسال للجمعة في الحديث السابق ؛ فقد ورد كاملاً في حديث عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اغتسل من الجنابة ؛ يبدأ فيغسل يديه ثم يفرغ يمينه على شماله فيغسل فرجه ثم يتوضأ وضوءه للصلاة ثم يأخذ الماء فيدخل أصابعه في أصول الشعر حتى اذا رأى أن قد استبرأ حفن على رأسه ثلاث حفنات ، ثم أفاض على سائر جسده ثم غسل رجليه » (٢)

الحكمة من غسل الجمعة :

■ يستفاد من الأحاديث الواردة في غسل الجمعة ـ وقد سبقت الاشارة الى بعضها ـ الى أن هذا الاغتسال ضرب هام من التشريع العملى في مجال النظافة البدنية لكل مسلم .. وهو يشير الى ما ينبغى سلوكه على المسلمين من الاهتمام بنظافة ثيابهم ومساكنهم وأماكن عملهم وبالجملة ينبغى أن يصل أثره الى كل مظهر من حياتهم الاجتماعية .

كما أن طلب الاغتسال في يوم الجمعة بذاته ما يشير الى ما ينبغى أن يكون لهذا اليوم من الأهمية في حياة المسلمين باعتباره عيدهم الاسبوعى ..

ومن جهة ثالثة : فان الأمر بازالة كل ما يتأذى به المسلمون المجتمعون في المساجد من قذر أو روائح كريهة ؛ دلالة واضحة على اهتمام الاسلام بمشاعر الناس والمحافظة على راحتهم ودفع كل ما يؤذيهم حتى تسود روح الالفة والمودة بينهم .. وبذلك يكون المسلمون قد تحققوا بقوله تعالى (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ..) الاية (٣) ..

الخصلة التاسعة الاستحداد :

■ الاستحداد ـ بالحاء المهملة : استفعال من الحديد والمراد : استعمال الحديد في حلق شعر العانة .. والتعبير بالاستحداد بدل التعبير بحلق : يشير الى أنه لا مانع من التعبير بالكناية عن الامور التى يستحى من التصريح بها .. اذا كان الغرض يفهم من الكناية ، دون حاجة الى التصريح بالشئ .. قال الحافظ ابن حجر : قد وقع التصريح بحلق العانة في بعض طرق الحديث كما جاء عند مسلم ؛ وهذا مما يدفع الى الظن بأن التعبير بالاستحداد قد وقع من بعض الرواة .

والمراد بالعانة : الشعر النابت فوق ذكر الرجل وحواليه وكذلك الشعر النابت حوالى فرج المرأة .

وقال العدوى ـ من علماء المالكية ـ العانة : هى ما فوق العسيب والفرج وما بين الدبر والأنثيين . (٤)

وحكى عن أبى العباس بن سريج : أن العانة : هى الشعر النابت حول حلقة الدبر .. وعلى هذا يستحب حلق جميع ما على القبل والدبر وحولهما .. بل قيل : إزالة الشعر من على الدبر أولى خوفاً من أن يعلق به شئ من

---

١ ـ صحيح مسلم حـ ٣ ص ٤

(٢) صحيح مسلم حـ ١ ص ١٧٤. (٣) سورة الأعراف الآية رقم ٣١ ..

(٤) أنظر تعليق العدوى على شرح أبى الحسن على رسالة ابن أبى زيد القيروانى حـ ٢ ص ٣٤٤ مطبعة السعادة بالقاهرة .

الغائط فلا يمكن ازالته للمستنجى الا بالماء ، وقد يتعذر الحصول عليه ولا يجد لديه إلا الأحجار فيظل متلبساً بالنجاسة .

إلا أن بعض العلماء استبعد شمول لفظ العانة للشعر النابت على الدبر كما يفهم ذلك من قول العدوى السابق ، وقد نقل الحافظ ابن حجر عن ابن العربى القول بعدم مشروعية حلق ما حول الدبر .. كما نقل أيضاً رأى الفاكهى في شرح العمدة : بأنه لا يجوز .. ثم قال : ولم يذكر للمنع مستنداً وأقول : إن مستنده يتلخص في أن لفظ العانة : خاص بما حول القبل ولا يتناول لما حول الدبر . والشعر المأمور بازالته : هو شعر العانة : فيكون المأمور به : هو الشعر النابت على القبل وما حوله فقط ، ولا يتناول الشعر النابت حول الدبر .. ومن هنا قال ابن دقيق العيد : كأن الذى ذهب الى استحباب حلق ما حول الدبر ذكره بطريق القياس .. وقال الشوكانى : ليس هناك دليل على حلق شعر الدبر من فعله صلى الله عليه وسلم ولا من فعل أحد أصحابه (١) ومع ذلك أقول : قد صرح بعض العلماء : بأنه لا بأس من حلق شعر الدبر اذا كان القصد من ذلك التنظيف (٢)

قال النووى : السنة في العانة الحلق لما صرح به الحديث ، فلو نتفها أو قصها أو أزالها بالنورة جاز وكان تاركاً للأفضل وهو الحلق . (٣) .

أقول قول النووى : ان من أزال عانته بالنورة كان تاركاً للأفضل وهو الحلق فيه نظر ؟ .. فقد نقل الحافظ ابن حجر ما أخرجه ابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم (اذا أطلى ولى عانته بيده) ثم قال : رجاله ثقات لكن معل بالارسال وأنكر أحمد صحته .. أقول إنه يتقوىٰ بما أخرجه ابن ماجه متصلاً عن أم سلمة أن النبىٰ صلى الله عليه وسلم كان اذا أطلى بدأ بعورته فطلاها بالنُورة وسائر جسده أهله » (٤) قال الحافظ ابن كثير في كتابه الذى ألفه في الحمام ـ بعد أن ذكر هذا الحديث ـ : هذا اسناد جيد (٥) وأخرج أحمد عن عائشة رضى الله عنها قولها : « أطلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنورة ، فلما فرغ منها قال : يا معشر المسلمين عليكم بالنورة فإنها طلية وطهور ، وإن الله يذهب بها عنكم أوساخكم وأشعاركم (٦) .
وأيضاً روى الإطلاء بالنورة عن جماعة من الصحابة : فرواه الطبرانى عن يعلى بن مرّة الثقفى .. والطبرانى أيضاً بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عمر والبيهقى عن ثوبان والخرائطى عن أبى الدرداء وجماعة من الصحابة وعبد الرزاق عن عائشة .

كما وردت أحاديث قاضية بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتنور .. ولكنها ضعيفة .. قال السيوطى : والأحاديث السابقة ـ اشارة الى الأحاديث المثبتة أقوى سنداً وأكثر عدداً ، وهى أيضاً مثبتة فتقدم .
ويمكن الجمع بأنه صلى الله عليه وسلم كان يتنور تارة ويحلق تارة أخرى .. وقد أوضح القول في هذا الموضوع صاحب نيل الأوطار فمن أراد المزيد فعليه الرجوع اليه (٧) .

---

١ ـ نيل الأوطار حـ ١ ص ١٥٥ فتح البارى جـ ١٢ ص ٤٦٤ ، المجموع حـ ١ ص ٣٤٨ مطبعة العاصمة

٢ ـ حاشية العدوى على أبى الحسن جـ ٢ ص ٣٤٤ مطبعة السعادة .

(٣) المجموع حـ ١ ص ٣٤٨ مطبعة العاصمة

(٤) نيل الأوطار حـ ١ ص ١٥٥

(٥) نيل الأوطار حـ ١ ص ١٥٥

(٦) المرجع السابق

(٧) جـ ١ ص ١٥٥

من يتولى إزالة شعر العانة :

■ يتولى الشخص إزالة عانته بنفسه لما ثبت من تولى الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك بنفسه .. وقد تقدمت الإشارة الى ذلك قريباً .

فإن تعذر ذلك لمرض أو كان الشخص أقطعاً : فان أحد الزوجين يتولى ذلك للآخر لجواز النظر واللمس من كل منهما للآخر وقد صرح بعض العلماء بكراهة تولى ذلك من أحد الزوجين لكن محله اذا كان لغير ضرورة كما أوضحت ذلك في المثال السابق .

ولا يجوز للأجنبى أن يتولى ذلك للرجل الأجنبى عنه كما لا يجوز ذلك للمرأة أن تتولى ذلك للأجنبية عنها . (١)

حكم الاستحداد :

الأصل في الاستحداد : أنه سنة باتفاق الفقهاء وقد عبر البعض عنه بأنه مستحب والخلاف في ذلك يسير وقد حكى النووى أنه قد اختلف فيه بالنسبة للمرأة اذا طلب ذلك منها زوجها على وجهين أصحهما الوجوب (٢) .

أما العدوى فقال بوجوبه بالنسبة للمرأة ولو لم يطلب منها الزوج ذلك لأن في ازالته جمال للمرأة ويجب عليها إزالة كل ما في ازالته جمال لها ولو شعر اللحية ان نبتت لها لحية .. (٣) .

الحكمة من الاستحداد :

■ يعتبر الاستحداد وسيلة من وسائل المحافظة على صحة الجسم وقوته وسلامته لأن ترك الشعر يتكاثر في هذا الجزء من الجسم يسبب كثيراً من الالتهابات الجلدية التى تضر بالجسم وتوهنه .

كما أنه من الوسائل التى تلطف العشرة بين الزوجين وتزرع الالفة والمودة بينهما .. ومن وجهة ثالثة : فان الاستحداد يعدُ وجهاً من أوجه النظافة البدنية التى طلبها الله من خلقه بقوله عز من قائل .. (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد .. الآية .. (٤) .

المدة التى لا ينبغى تجاوزها في الاستحداد :

■ ثبت عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « وقّت في قص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة ألا نترك أكثر من أربعين يوماً » .. (٥) .. وفي رواية أبى داود : « وقّت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحديث » .. ولكن اسنادها ضعيف .. والاعتماد على رواية مسلم فان قوله « وقت لنا » بالبناء للمجهول هى كقول الصحابى أمرنا بكذا ونهينا عن كذا ، وهو مرفوع كقوله .. قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على المذهب الصحيح الذى عليه الجمهور من أهل الحديث والفقه والاصول . (٦) .

---

(١) المجموع جـ ١ ص ٣٤٨ مطبعة العاصمة

(٢) فتح البارى جـ ١٢ ص ٤٦٤ ونيل الأوطار جـ ١ ص ١٥٥.

(٣) حاشية العدوى على أبى الحسن جـ ٢ ص ٣٤٥ مطبعة السعادة .

(٤) سورة الأعراف الآية رقم ٣١ ..

(٥) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٥٤ (٦) المجموع جـ ١ ص ٣٤٦ مطبعة العاصمة

وهذا هو الحد الأقصى الذى لا ينبغى تجاوزه ، أما الوقت الذى ينبغى أن يفعل فيه استحباباً فنقل عن الشافعى وعلماء الشافعية : أن ذلك يكون يوم الجمعة من كل اسبوع كما نقل ذلك عن الباجى والقرطبى من المالكية ، وقد رجحه السيوطى استناداً الى حديث أبى جعفر الباقر الذى سنذكره بعد قليل .

ويرى بعض العلماء أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والضابط في ذلك الطول المتعارف عليه عادة فمن طالت عانته أو أظافره أو طال شعر ابطه فإنه ينبغى عليه إزالته بدون تحديد وقت معين لذلك ، وقد اختار هذا الرأى عدد كبير من أهل العلم (١) ..

أما حديث أبى جعفر الذى رواه البيهقى في سننه الكبرى « كان النبى صلى الله عليه وسلم يستحب أن يأخذ من شاربه وأظافره يوم الجمعة » فقد قال العراقى عنه : إنه مرسل (٢) .. كما أن حديث على بن أبى طالب الذى جاء فيه « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلم أظافره يوم الخميس ثم قال : يا على قص الظفر ونتف الأنف ـ ولعله : الإبط ـ وحلق العانة يوم الخميس والغسل والطيب واللباس يوم الجمعة » فقد قال العراقى عنه : في اسناده من يحتاج الى الكشف عنه من المتأخرين .. أما الحسين بن هارون الضَّبىّ وما بعده فثقات .. .. والله أعلم .. (٣) ..

الخصلة العاشرة : نتف الإبط :

■ الإبط : بكسر الهمزة والباء الموحدة وسكونها وهو المشهور .. ويذكر ويؤنث : يقال تأبط الشئ وضعه تحت إبطه .

قال النووى : السنة : نتفه كما صرح به في الحديث فلو حلق جاز (٤) وعن يونس بن عبد الأعلى قال : دخلت على الشافعى ورجل عنده يحلق إبطه : فقال إنى علمت أن السنة النتف ، ولكن لا أقوى على الوجع (٥)

قال الغزالى : هو في الابتداء موجع ولكنه يسهل على من اعتاده .. قال : والحلق كاف لأن المقصود النظافة .

وقد تعقب بأن الحكمة في نتفه : أنه محل للرائحة الكريهة ، وانما ينشأ ذلك من الوسخ الذى يجتمع بالعرق فيه فيتلبد ويهيج ، فشرع فيه النتف الذى يضعفه فتخف الرائحة به ، بخلاف الحلق فإنه يقوى الشعر ويهيجه فتكثر الرائحة لذلك . (٦) .

قال : ابن دقيق العيد : من نظر الى اللفظ وقف مع النتف ، ومن نظر الى المعنى أجازه بكل مزيل .. لكنه بيَن أن النتف مقصود من جهة المعنى : فذكر نحو ما تقدم : ـ من حيث تأثير النتف في تخفيف الرائحة ـ ثم قال : وهو معنى ظاهر لا يهمل فان مورد النص اذا احتمل معنى مناسباً يحتمل أن يكون مقصوداً في الحكم : لا يترك والذى يقوم مقام النتف في ذلك التنور .. لكنه يرق الجلد فقد يتأذى صاحبه به ولا سيما إن كان جلده رقيقا (٧)

وفي المغنى : إن أزال الشعر بالحلق والنورة جاز ونتفه أفضل لموافقته الخبر .

قال حرب : قلت لاسحاق : نتف الإبط أحب اليك أم بنورة ؟ قال : نتفه إن قدر .. (٨) .

وبالجملة نقول : إن النتف أولى للنص عليه وهذا لمن يقدر عليه أما من لم يقدر عليه فقد أجيز له الحلق أو التنور .. وقد ظهرت في هذه الأيام أنواع كثيرة من المواد المزيلة للشعر مما جعل هذه المسألة أكثر يسراً وسهولة .

---

١ ـ المجموع حـ ١ ص ٣٤٦ مطبعة العاصمة وطرح التثريب جـ ٢ ص ٨٣ والمنتقى حـ ١ ص ١٨٦ وشرح الموطأ للزرقانى حـ ٤ ص ٢٤٨ طبعة ١٣٥٥ هـ تصوير دار الفكر .

(٢) طرح التثريب حـ ٢ ص ٧٩ — (٣) طرح التثريب حـ ٢ ص ٨٠

(٤) المجموع حـ ١ ص ٣٤٨ مطبعة العاصمة — (٥) المجموع حـ ١ ص ٣٤٩ مطبعة العاصمة ..

(٦) فتح البارى جـ ١٢ ص ٤٦٥ — (٧) شرح الموطأ للزرقانى حـ ٤ ص ٢٨٥ طبعة ١٣٥٥ هـ تصوير دار الفكر

(٨) المغنى حـ ١ ص ٦٥ .

ويستحب أن يبدأ بالابط الأيمن لحديث التيامن .. وفيه « كان يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله .. » .

ولا يجوز ترك شعر الابط لأكثر من أربعين يوما لحديث أنس السابق « وقت لنا في قص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الابط وحلق العانة ألا نترك أكثر من أربعين ليلة » وقد تقدم أنه في صحيح مسلم .

حكم نتف الإبط :

■ حكى النووى اتفاق الفقهاء على أن نتف الابط سنة .. وهذا القول لا يختلف كثيرا عن قول العراقى : إنه مستحب إجماعا (١) لتقارب المعنى بين الحكمين ؛ ولكنه يختلف كثيرا عما نقله الحافظ عن ابن العربى : من أن الخصال الخمس الواردة في حديث أبى هريرة : وهى حلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظافر وقص الشارب والختان ؛ واجبة ، معللا ذلك ؛ بأن المرء لو تركها لم تبق صورته على صورة الآدميين فكيف من جملة المسلمين (٢) وقد تقدم بيان ذلك في صدر هذا البحث .. فلو قال النووى اتفق أكثر الفقهاء على سنية نتف الإبط لكان أقرب الى التحقيق .

ويمكن حمل قول ابن العربى بالوجوب ؛ في حق من طال شعره وكثر حتى تفاحش بحيث صار مصدر أذى للمسلمين بما ينبعث عنه من الروائح الكريهة وخصوصا في الأجواء الحارة والأماكن المغلقة .

وعلى ذلك فيكون الأخذ من الشعر والأظافر أولا بأول في حدود الأربعين يوما مستحبا أو سنة ، فاذا تركه أكثر من أربعين يوما حتى طال كثيرا وتفاحش ؛ فيكون الأخذ حينئذ واجبا في حقه والله أعلم .

على أنه يندب غسل اليدين بعد الانتهاء من نتف الابط لازالة ما علق بها من شعر أو رائحة كريهة (٣) .

الخصلة الحادية عشرة : تقليم الأظافر :

■ والتقليم : تفعيل من القلم وهو القطع : يقال قلمة : يعنى قطعه واسم ما قطع منه : القلامة .. ويقال لها أيضاً : المقلومة .. وقد يشدد للكثرة ووقع في بعض الروايات « وقص الأظافر » وقص الظفر : أخذ أعلاه من غير استئصال قال الحافظ ابن حجر : والتقليم أعم .. والأظفار جمع ظفر : بضم الظاء والفاء وسكونها .. والمراد إزالة ما يزيد على ما يلابس رأس الاصبع من الظفر لأن الوسخ يجتمع فيه فيتقذر وقد ينتهى الى حد يمنع من وصول الماء الى ما يجب غسله في الطهارة (٤) .

وقد نقل الحافظ ابن حجر عن البيهقى في شعب الإيمان - من طريق قيس بن حازم قال النبى صلى الله عليه وسلم صلاة فأوهم فيها فسئل فقال مالى لا أوهم ورفغ أحدكم بين ظفره وأنملته ؟ » ثم قال : رجاله ثقات مع ارساله ، وقد وصله الطبرانى من وجه اخر (٥) وقد رواه صاحب المغنى بلفظ « مالى لا أسهو ؟ وأنتم تدخلون علىَّ قلْحاً ورفغ أحدكم بين ظفره وأنملته » .. (٦) .

والرفغ : بضم الراء وبفتحها وسكون الفاء بعدها غين معجمة : يجمع على ارفاغ وهى مغابن الجسد ؛ كالابط ، وما بين الأنثيين ، والفخذين ، وكل موضع يجتمع فيه الوسخ ، فهو من تسمية الشئ باسم ما جاوره ، والتقدير : وسخ رفغ أحدكم .. والمعنى أنكم لا تقلمون أظافركم ثم تحكون بها أرفاغكم فيتعلق بها ما في الأرفاغ من الأوساخ المجتمعة .. قال أبو عبيد : أنكر عليهم طول الأظفار وترك قصها .

١- المجموع جـ ١ ص ٣٤٨ وطرح التثريب جـ ٢ ص ٧٦ والمغنى حـ ١ ص ٦٥ ٢ - فتح البارى حـ ١٢ ص ٤٥٩

(٣) العدوى على أبى الحسن حـ ٢ ص ٣٤٤

(٤) لسان العرب حـ ١٥ ص ٣٩٢ ؛ حرف الميم فصل القاف وأنظر فتح البارى حـ ١٢ ص ٤٦٥ وطرح التثريب حـ ٢ ص ٧٧ وشرح المطأ للزرقانى حـ ٤ ص ٢٨٤

(٥) فتح البارى حـ ١٢ ص ٤٦٥ (٦) المغنى حـ ١ ص ٦٥ .

قال الحافظ ابن حجر بعد ذكر ما تقدم : وفيه إشارة الى الندب الى تنظيف المغابن كلها ويستحب الاستقصاء في ازالتها الى حد لا يدخل منه ضرر على الاصبع .. واستحب أحمد للمسافر أن يبقى منه شيئا لحاجته الى الاستعانة بذلك غالبا .. (١) .

واذا تجمع وسخ تحت الأظفار فان لم يمنع وصول الماء الى ما تحته لقلته صح الوضوء بلا خلاف .. وان منع وصول الماء الى ما تحته : فقال بعض العلماء بعدم صحة الوضوء كما لو كان الوسخ في موضع اخر من أعضاء الوضوء .. وقال البعض الاخر بصحة الوضوء والغسل وانه يعفى عنه للحاجة وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمرهم بتقليم الأظفار وينكر ما تحتها من الوسخ ولم يثبت أنه أمرهم باعادة الصلاة .. (٢) .

ترتيب قص الأظافر :

■ لم يثبت في كيفية قص الأظافر حديث يمكن الاعتماد عليه في ذلك ..

وقد قال الامام الغزالى في الاحياء : لم أر في الكتب خبرا مرويا في ترتيب قلم الأظافر ولكن سمعت أنه روى أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بمسبحة اليمنى وختم بإبهام اليمنى ، وابتدأ في اليسرى بالخنصر الى الابهام .. أى كان القص على الترتيب التالى :

يبدأ بمسبحة اليمنى ثم الوسطى ثم الخنصر ، ثم خنصر اليسرى الى ابهامها ثم إبهام اليمنى .. ثم قال الغزالى : ولما تأملت هذا خطر لى من المعنى ما يدل على أن الرواية فيه صحيحة ثم ذكر لذلك حكمة ؛ قال الحافظ العراقى بعد نقله كلام الغزالى : والذى ذكره حكمة ظاهرة فانه لا شك أن الابتداء باليمنى أولى ، ثم ان أشرف أصابع اليمنى المسبحة ؛ فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشير بها عند الدعاء وفي التشهد .. الخ ما قال(٣) .

وبالرغم من استحسان العراقى لما قاله الغزالى : فقد استهجنه الامام المازرى المالكى - وهو امام في علم الاصول والكلام والفقه - وانتقده بشدة .. وقد عقب النووى على كلام الغزالى والمازرى ، بقوله : إن الذى ذكره الغزالى لا بأس به إلا في تأخير ابهام اليمنى فلا يقبل قوله فيه ، بل يقدم اليمنى بكمالها ثم يشرع في اليسرى ، وأما الحديث الذى ذكره فباطل لا أصل له .. (٤) .

وأما الرجلان فيبدأ بخنصر اليمنى ثم يمر على بقية الأصابع بالترتيب حتى يختم بخنصر اليسرى كما في تخليل الأصابع في الوضوء .. (٥) .

لا بأس من تولى شخص آخر تقليم الأظافر وقص الشوارب :

■ يخير الشخص الذى يريد تقليم أظافره أو قص شواربه ، بين أن يتولى ذلك بنفسه أو يتولاه غيره عنه إذ لا هتك حرمة في ذلك ولا ترك مروءة ولا سيما ممن لا يحسن قص أظافر يده اليمنى ؛ فإن كثيرا من الناس لا يتمكن من قصها بنفسه لعسر استعمال اليسار لديه فإن الأولى في حق مثله أن يتولى ذلك غيره عنه ، لئلا يؤذى يده ، وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ من شارب المغيرة بن شعبة على سواكه .. (٦) .

---

(١) فتح البارى جـ ١٢ ص ٤٦٥ .
(٢) المجموع جـ ١ ص ٣٤٦ مطبعة العاصمة .
(٣) طرح التثريب جـ ٢ ص ٧٨ .
(٤) المجموع جـ ١ ص ٣٤٥ مطبعة العاصمة .
(٥) المرجع السابق .
(٦) السنن الكبرى للبيهقى جـ ١ ص ١٥١ .

استحباب دفن ما أخذ من الأظفار والأشعار :

استحب عدد من الفقهاء دفن ما أخذ من الأظفار والأشعار سواء من العانة أو الابط أو الشارب أو الرأس .. وقد جاء في المغنى : روى الخلال بإسناده عن ميل بنت مشرح الأشعرية قالت رأيت أبى يقلم أظفاره ويدفنها ، ويقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك .. (١) كما جاء فيه أيضا : قال مهنا : سألت أحمد عن الرجل يأخذ من شعره وأظفاره أيدفنه أم يلقيه ؟ قال : يدفنه .. قلت : بلغك فيه شئ ؟ قال : كان ابن عمر يدفنه وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم « انه أمر بدفن الشعر والأظفار وقال : لا يتلاعب به ، سحرة بنى ادم »(٢) ؛ وقال النووى : نقل عن ابن عمر واتفق عليه أصحابنا(٣) ..

استحباب غسل رؤوس الأصابع بعد قص الأظافر :

استحب بعض الفقهاء غسل رؤوس الأصابع بعد قلم الأظفار لما قيل : إن حك الجسم بالأظفار المقلومة قبل غسلها يضر بالجسم .. (٤) ..

حكم تقليم الأظفار :

حكى النووى اتفاق العلماء على أن تقليم الأظفار سنة سواء في ذلك الرجل والمرأة واليدان والرجلان .. وحكى العراقى والمقدسى : الاستحباب (٥) والفرق بين الأمرين يسير .

لكن يعكر دعوى الاتفاق المقول بها من قبل هؤلاء الأعلام ما سبق من قول ابن العربى بالوجوب بالنسبة للخصال الواردة في حديث أبى هريرة رضى الله عنه .. ومن بينها تقليم الأظفار .. وقد ذكرنا فيما سبق مستنده وما قال به بعض العلماء في الرد عليه .

الحكمة من الأمر بقص الأظافر واعتبار ذلك من سنن الفطرة :

١ ـ الظفر القصير مفيد لحك الجسم لكن اذا طال عن حده صار مصدر ايذاء للشخص وايذاء لغيره من المتعاملين معه فيكون الأمر بازالة الظفر الطويل أمرا بازالة أذى عن المسلمين وهو مطلوب في كل وقت وعلى أى حال ..

٢ ـ في ازالته أيضا وقاية عن كثير من الأمراض : لأن الأوساخ التى تتجمع بين الظفر الطويل ونهاية الاصبع تصير مأوى خصبا للجراثيم والميكروبات وهى من أسرع الوسائل فتكا بصحة الانسان .

٣ ـ في ازالة بقايا الغائط بالاستنجاء بواسطة اليد فإنه قد يعلق بها بعض الغائط حيث يدخل بين الظفر ونهاية الاصبع ويصعب استخراجه بالغسل العادى ، فاذاتوضأ الشخص ولم ينتبه لذلك فانه يصلى وهو حامل للنجاسة ..

كما أن رؤوس أصابعه تكون مصدر رائحة كريهة دائما وهو ما يشير اليه الحديث .. (ورفغ أحدكم بين ظفره وأنملته) .. وقد سلفت الاشارة اليه

---

(١) المغنى جـ ١ ص ٦٦ .

(٢) المغنى جـ ١ ص ٦٦ . (٣) المجموع جـ ١ ص ٣٤٩ مطبعة العاصمة . (٤) المفتى جـ ١ ص ٦٥ .

(٥) المجموع جـ ١ ص ٣٤٥ والمنتى جـ ١ ص ٦٥ وطرح التثريب جـ ٢ ص ٧٧ .

الخصلة الثانية عشرة : قص الشارب :

■ الأصل في القص : تتبع الأثر ، وقيده بن سيدة في المحكم : بالليل كما يطلق أيضا على ايراد الخبر تاماً على من لم يحضره ، كما يطلق ثالثاً على قطع شئ من شئ بآلة مخصوصة ، والمراد به هنا : قطع الشعر النابت على الشفة العليا من غير استئصال(١) .

أما الشارب : فهو الشعر النابت على الشفة العليا .. وقد اختلف في جانبيه وهما السبالان : فقيل هما من الشارب ويشرع قصهما معه ، وقيل هما من جملة شعر اللحية فيعفيا ..

وقد ورد في بعض الأحاديث « قص الشوارب » : فقيل : هو من الواحد الذى فرّق وسمى كل جزء منه باسمه من باب المبالغة والتعظيم : فقالوا لكل جانب منه شارباً ثم جمع على شوارب .

وحكى ابن سيده عن بعضهم : من قال : الشاربان أخطأ وإنما الشاربان ما طال من ناحية السبلة .. قال ويسمى السبلة كلها شاربا .. ويؤيده أثر عمر الذى أخرجه مالك : إنه كان اذا غضب فتل شاربه ، والذى يمكن فتله من شعر الشارب : السبال وقد سماه شاربا .. (٢) ..

وقد روت أكثر الأحاديث بلفظ القص كحديث أبى هريرة عند البخارى ومسلم وحديث عائشة وحديث أنس عند مسلم وكذلك حديث بن عمر عند البخارى .. (٣) .

وقد وقع عند مسلم في رواية أبى هريرة بلفظ (جزوا الشوارب) كما وقع عنده وعند البخارى من حديث ابن عمر بلفظ (احفو الشوارب) .. وقد ورد عند البخارى من رواية ابن عمر بلفظ « انهكوا الشوارب » (٤) ..

فانتهت مجموع هذه الروايات إلى أمرين : أحدهما : الأخذ من الشوارب بدون استئصال لها وهى الروايات التى جاءت بلفظ القص أو التقصير .. وثانيها : استئصال الشوارب وهى الروايات التى جاءت بألفاظ الاحفاء والجز والانهاك والتعدد في الروايات المختلفة المعنى الواردة في موضوع الشوارب جعلت العلماء يختلفون في كيفية الأخذ المشروع منها .

كيفية الأخذ من الشوارب وآراء الفقهاء فيها :

■ ذهب الحنفية ومعهم بعض الفقهاء الى أن كيفية الأخذ المشروع في الشوارب هو استئصالها بالحلق .. وذلك لما جاء في كثير من الأحاديث من التعبير بالاحفاء والانهاك والجز ونحوها .. وكل هذه الألفاظ تدل على أن المطلوب المبالغة في الازالة : اذ الاحفاء - بالحاء المهملة والفاء - الاستقصاء في الأخذ ..

كما أن النهك - بالنون والكاف - يدل على المبالغة في الازالة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم للخافضة « أشمى ولا تنهكى » أى لا تبالغى في خفاض المرأة ..

وكذلك لفظ الجز - بالجيم والزاى الثقيلة - فانه يدل على قص الشعر والصوف إلى أن يبلغ الجلد (٥) ..

كما استدل هذا الفريق أيضا : بفعل بعض الصحابة رضى الله عنهم وكذلك عدد من خيار التابعين ..

فقد نقل البخارى في صحيحه عن ابن عمر أنه كان يحفى شاربه حتى ينظر الى بياض الجلد ويأخذ هذين يعنى بين الشارب واللحية .. (٦) ..

---

١ ـ لسان العرب حـ ٢ ص ٣٤١ مادة قصص النهاية لابن الأثير حـ ٤ ص ٧٠ فتح البارى حـ ١٢ ص ٤٥٤

٢ ـ لسان العرب حـ ١ ص ٤٧٢ مادة شرب ؛ فتح البارى حـ ١٢ ص ٤٧١ .

(٣) البخارى جـ ١٢ ص ٤٥٦ على فتح البارى ومسلم جـ ١ ص ١٥٣ .

(٤) فتح البارى جـ ١٢ ص ٤٧٣ ومسلم جـ ١ ص ١٥٣ .

(٥) فتح البارى جـ ١٢ ص ٤٦٨ .   (٦) فتح البارى جـ ١٢ ص ٤٥٤ .

■ وعن ميمون بن مهران عن عبد الله بن عمر قال ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المجوس فقال : « انهم يوفرون سبالهم - جمع سبلة ومعناها الشارب - ويحلقون لحاهم فخالفوهم ، قال : وكان ابن عمر يستعرض سبلته فجزها كما تجز الشاة ويجز البعير »(١) ..

وعن عبيد الله بن أبي رافع قال : رأيت أبا سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله وابن عمر ورافع ابن خديج وأبا أسيد الأنصارى وابن الأكوع وأبا رافع ينهكون شواربهم حتى الحلق .. (٢) ..

وحكى ابن حجر : عن الطبرى من طرق : عن عروة وسالم والقاسم وأبى سلمة أنهم كانوا يحلقون شواربهم . (٣) وقد أخذ بهذا عدد من أهل العلم ، وهو اتجاه المذهب الحنفى حيث يرى الحنفية أن الاحفاء أفضل من التقصير ..

وفي مقابل هذا الفريق كان الامام مالك يرى أن السنة في الشوارب هى التقصير لها وكان ينهى عن الاحفاء وينكره ويفسر الأحاديث التى جاءت بالاحفاء وما في معناه : بأخذ أسفل الشارب والمطلّ على الشفة العليا حتى يبدو بياض هذه الشفة قال ابن القاسم عن مالك : إحفاء الشارب عندى مثلة والمراد بالحديث المبالغة في أخذ الشارب حتى يبدو طرف الشفتين .. وقال أشهب سألت مالكا عمَن يحفى شاربه ، فقال : أرى أن يوجع ضربا ، وقال لمن يحلق شاربه : هذه بدعة ظهرت في الناس ..

وفي الموطأ : قال يحيى : وسمعت مالكا يقول : يؤخذ من الشارب حتى يبدو طرف الشفة وهو الاطار ولا يجزه فيمثل بنفسه .. (٤) .

وقال النووى في المجموع : ثم ضابط قص الشارب : أن يقص حتى يبدو طرف الشفة ولا يحفه من أصله ، هذا مذهبنا .. (٥) ..

وقال العراقى : إن التقصير هو مذهب ما مالك والشافعى .. (٦) .. وتعبير النووى والعراقى وهما من أساطين المذهب الشافعى أكثر تحقيقا عن اتجاه المذهب من غيرهم .. بمعنى أن السنة في الشوارب في المذهب الشافعى : هى التقصير .. وهذا مخالف لما حكاه ابن خويز منداد عن الشافعى أنه كالحنفى يرى الاحفاء (٧)، كما يتنافى مع ما حكاه الطحاوى من أن أصحاب الشافعى كالمزنى والربيع كانوا يحفون ، وما أظنهم إلا أنهم اخذوا ذلك إلا عنه (٨) ..

وأهم ما استند اليه هذا الفريق في القول : بأن السنة في الشوارب هى التقصير : دلالة الأحاديث الكثيرة الواردة بلفظ القص أو التقصير ، والتى أشرنا الى بعضها فيما تقدم .

وأيضا بما روى عن ابن عباس أنه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يقص أو يأخذ من شاربه ، قال : وكان خليل الرحمن إبراهيم يفعله » ، أخرجه الترمذى ، وقال هذا حديث حسن غريب .. (٩) .

وكذلك حديث زيد بن أرقم عند الترمذى أيضا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من لم يأخذ من شاربه فليس منا » .. قال الترمذى عنه : هذا حديث حسن صحيح (١٠) .

■ وقد وضّح حديث المغيرة كيفية الأخذ حيث جاء فيه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا طويل الشارب فدعا بسواك وشفرة فوضع السواك تحت الشارب فقص عليه » .. (١١) .

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى جـ ١ ص ١٥١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) فتح البارى جـ ١ ص ٤٦٩ .

(٤) شرح الزرقانى على الموطأ جـ ٤ ص ٢٨٦ . ص ٢٨٧ وسنن البيهقى جـ ١ ص ١٥١ فتح البارى جـ ١٢ ص ٤٦٨ .

(٥) جـ ١ ص ٣٤٦ .

(٦) طرح التثريب حـ ٢ ص ٧٦ .

(٧) شرح الزرقانى على الموطأ حـ ٤ ص ٢٨٧ .

(٨) فتح البارى حـ ١٢ ص ٤٦٨ .

(٩) تحفة الأحوذى حـ ٨ ص ٤١ .

(١٠) المرجع السابق حـ ٨ ص ٤٢ ص ٤٣ .

(١١) السنن الكبرى للبيهقى حـ ١ ص ١٥١ .

كما يستدل هذا الفريق بفعل بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقد ذكر البيهقى باسناده الى شرحبيل بن مسلم الخولانى .. قال : رأيت خمسة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصون شواربهم ويعفون لحاهم ويصفرونها : أبو أمامة الباهلى وعبد الله ابن بسر وعتبة بن عبد السلمى والحجاج بن عامر الثمالى والمقدام بن معد يكرب الكندى ؛ كانوا يقصون شواربهم مع طرف الشفة .. (١) ..

وأما الإمام أحمد بن حنبل فقد روى الأثرم عنه : أنه كان يحفى شاربه إحفاء شديدا ، وسمعته يسأل عن السنة في إحفاء الشارب ، فقال : يحفى .. وقال حنبل : قيل لأبى عبد الله : ترى للرجل يأخذ شاربه ويحفيه أم كيف يأخذه ؟ قال ان أحفاه فلا بأس وان أخذ قصا فلا بأس . وقال أبو محمد في المغنى : هو مخير بين أن يحفيه وبين أن يقصه .. (٢) ..

مناقشة وجهة الفريق الأول :

نوقشت وجهة الفريق الأول من قبل معارضيه : بأن الاحفاء المذكور في بعض الروايات ليس معناه الاستئصال ، بل المراد به التقصير ، غاية ما في الأمر ؛ أنه يشتد في أخذ الشعر المتدلى من أسفل الشارب حتى يبدو طرف الشفة العليا حتى لا يؤذى الاكل ولا يجتمع فيه الوسخ ..

وقال ابن عبد البر : الإحفاء محتمل لأخذ الكل ، والقص مفسر للمراد والمفسَر مقدم على المجمل .

وقال الحافظ ابن حجر - بعد أن ذكر وجهة هذا الفريق من أحاديث الاحفاء وما ورد عن ابن عمر وغيره - قال : إن كل ذلك محتمل لأن يراد استئصال جميع الشعر النابت على الشفة العليا ومحتمل لأن يراد استئصال ما يلاقى حمرة الشفة من أعلاها ولا يستوعب بقيتها ، نظرا الى المعنى في مشروعية ذلك ؛ وهو مخالفة المجوس والأمن من التشويش على الاكل ؛ وبقاء زهومة المأكول فيه ، وكل ذلك يحصل بما ذكرنا .

ثم ذكر الحافظ بعد ذلك : أن طريقته هذه تجمع مفترق الاخبار الواردة في الموضوع .. ثم يقوى وجهة نظره هذه : بأن الداودى جزم بذلك حين شرح أثر ابن عمر المذكور في الاحفاء .. كما أنه مقتضى تصرف الامام البخارى ؛ لأنه أورد أثر ابن عمر وأورد بعده حديثه وحديث أبى هريرة في قص الشارب فكأنه أشار الى أن ذلك هو المراد من الحديث .. ثم ذكر عن الشعبى : أنه كان يقص شاربه حتى يظهر حرف الشفة العليا ، وما قاربه من أعلاه ، ويأخذ ما يزيد مما فوق ذلك وينزع ما قارب الشفة من جانبى الفم ولا يزيد على ذلك ثم قال : وهذا أعدل ما وقفت عليه من الاثار (٣) .

مناقشة وجهة الفريق الثانى :

كما تعرضت وجهة الفريق الثانى القائل بأن السنة في الشوارب : هى التقصير وأخذ ما طال على الشفتين ؛ الى بعض المناقشات من الفريق الأول ؛ ومن بينها ما يلى :

ان الاحفاء الوارد في كثير من الأحاديث ؛ معناه الاستئصال ؛ وليس هو ما طال على الشفتين ، وتشهد لذلك كتب اللغة كالصحاح والقاموس والكشاف .. كما أن رواية القص لا تنافى الاحفاء لأن القص قد يكون على جهة الاحفاء وقد لا يكون ، ورواية الاحفاء معينة للمراد وأيضا حديث من لم يأخذ من شاربه فليس منا .. لا يعارض رواية الاحفاء لأن فيها زيادة يتعين المصير اليها ولو فرض التعارض من كل وجه لكانت رواية الاحفاء أرجح ؛ لأنها في الصحيحين .. كما أن حديث « أن رسول الله أخذ من شارب المغيرة بن شعبة على سواكه .. » محتمل وهو

---

(١) السنن الكبرى جـ ١ ص ١٥١ .

(٢) فتح البارى جـ ١٢ ص ٤٦٨ نيل الأوطار جـ ١ ص ٣٤٦ مطبعة العاصمة .

(٣) فتح البارى جـ ١٢ ص ٤٦٩ .

وإن صح فإنه لا يقوى على معارضة الأحاديث الصحيحة الواردة في الاحفاء (١) وقد حاول بعض العلماء أن يجمع بين الاحفاء والقص فقال : يقص من أعلاه ويحلق من طرفه (٢)

■ **المختار** : بعد أن استعرضنا اراء الفقهاء ، ومستند كل منهم : تبين لنا أن الاحفاء وإن كان يحتمل التقصير لكنه الى معنى الاستئصال أقرب ، وأن القص وان احتمل أن يكون من قرب جذور الشعر لكنه الى التقصير الوسط أقرب .

إذا وضح هذا : علم أن كلا من التقصير والاحفاء سنة صحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن المرء مخير بين الأمرين من غير تفضيل أحدهما على الاخر .

وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا هو رأى الإمام أحمد الذى أجاب به السائل حينما قال له : ترى للرجل يأخذ شاربه ويحفيه أم كيف يأخذه ؟ قال : إن أحفاه فلا بأس وإن أخذ قصا فلا بأس ..

كما أن الحافظ العراقى : قد نقل حكاية التخيير عن القاضى عياض .. (٣) كما أنه رأى الامام الطبرى : حيث نقل عنه قوله : دلت السنة على الأمرين ولا تعارض ، فإن القص يدل على أخذ البعض والاحفاء على أخذ الكل وكلاهما ثابت فيتخير فيما يشاء .. (٤) .

استحباب البداءة بالجانب الأيمن :

■ يستحب في الأخذ من الشارب أن يبدأ الأخذ بالجانب الأيمن للحديث السابق « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التيامن في كل شئ » ..

وقت الأخذ من الشارب :

■ أما التوقيت في الأخذ من الشارب فيجزى فيه ما قلناه سابقا عن بعض أهل العلم : من أنه يختلف باختلاف الأشخاص ، وأن البعض قد استحب فعله في يوم الجمعة من كل اسبوع ، المهم ألا يتركه لأكثر من أربعين يوما : لحديث أنس السابق « وقت لنا في قص الشارب الحديث .. »

التخيير بين مباشرة الأخذ بنفسه أو يوليه غيره :

■ يجوز في قص الشارب أن يباشر ذلك بنفسه أو يتولاه غيره عنه لحديث المغيرة بن شعبة المتقدم .. اذ لا هتك حرمة في ذلك .. ولا نقص مروءة ..

هل يترك السبالان أو يؤخذ منهما ؟ :

■ اختلف أهل العلم في الأخذ من طرفى الشارب وهما المسميان بالسبالين هل يقصا مع الشارب ، أم يتركا كما يفعله كثير من الناس ؟ ..

---

١ ـ نيل الأوطار حـ ١ ص ١٣٨ ٢ ـ العدوى على أبى الحسن حـ ٢ ص ٣٤٤ ٣ ـ طرح التثريب حـ ٢ ص ٧٧

(٤) فتح البارى حـ ١ ص ٤٦٨ .

نقل عن الغزالى في الاحياء : إنه لا بأس بترك سبالين وهما طرفا الشارب .. فعل ذلك عمر رضى الله عنه وغيره لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غمرة الطعام إذ لا يصل اليه ..

وروى أبو داود من رواية أبى الزبير عن جابر قال : كنا نعفى السبال إلا في حج أو عمرة ..

وكره بعض العلماء بقاء السبال لما فيه من التشبه بالأعاجم بل بالمجوس وأهل الكتاب .

قال العراقى - بعد أن أحكى الرأيين السابقين - : وهذا - اشارة الى الرأى الأخير - أولى بالصواب .. لما رواه ابن حبان في صحيحه : من حديث ابن عمر قال : « ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المجوس ، فقال : إنهم يوفرون سبالهم ويحلقون لحاهم فخالفوهم ، فكان ابن عمر يجز سباله كما تجز الشاه أو البعير » ..

وروى أحمد في مسنده في أثناء حديث لأبى أمامة .. فقلنا يارسول الله : فان أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم ، وخالفوا أهل الكتاب - والعثانين - بالعين المهملة والثاء المثلثة وتكرار النون - جمع عثنون : اللحية (١) ..

حكى الامام النووى الاتفاق على أنه سنة .. وعبر الحافظ العراقى عنه بالاستحباب والأمر بينهما سهل لكن يعكر دعوى الاتفاق هذه ما سبقت الاشارة اليه من قول ابن العربى بالوجوب وما ذهب اليه ابن حزم الظاهرى من أن قص الشارب فرض : أخذا بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر « خالفوا المشركين » .. أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى » .. (٢) حيث جاء الطلب بصيغة الأمر المقتضية للوجوب عند الاطلاق ..

فلو قيل : اتفق أكثر الفقهاء على السنية لكان أقرب للتحقيق وقد علل الشاطبى عدم الوجوب في الامور التى تقتضيها الفطرة السليمة أو مكارم الأخلاق أو محاسن العادات : بأن الشارع قد اكتفى في طلبها بمقتضى الجبلة الطبيعية والوازع الباعث على الفعل .. والدليل على ذلك : أنه لم يأت بنص جازم في طلب الأكل والشرب واللباس الواقى من الحر والبرد والنكاح الذى به بقاء النسل ، وانما جاء ذكر هذه الأشياء في معرض الاباحة أو الندب ، ومن ثم أطلق كثير من العلماء على تلك الأمور : أنها سنن أو مندوب اليها (٣).

١ - في الأخذ من الشارب مخالفة لأهل الكتاب والمجوس وغيرهم من ملل الكفر ..

٢ - ما أشار اليه ابن العربى : من أن الماء النازل من الأنف يتلبد به الشعر لما فيه من اللزوجة ويعسر تنقيته عند غسله في الطهارتين (٤) ..

٣ - يعتبر الأخذ من الشارب ضربا من ضروب المحافظة على الصحة ، وذلك لما يعلق بأطراف الشعر من الغبار والجراثيم السابحة في الهواء فاذا أكل الانسان او شرب انتقلت هذه الجراثيم إلى داخل الفم مع المأكول أو المشروب .

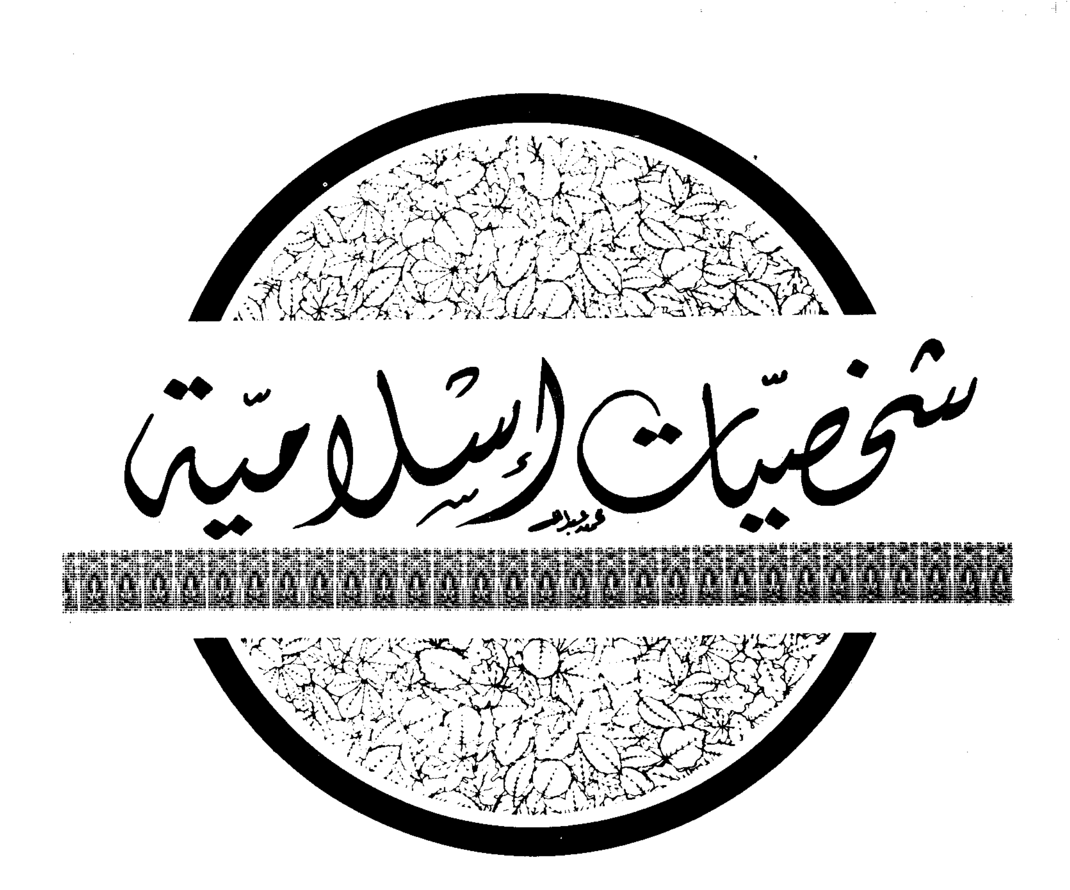
٤ - كما أن فيه أخذا بأسباب الزينة التى أمر الله تعالى بها إذ فيه تزيين لسمت المسلم وتحسين لهيئته وتجميل لمنظره ..

(يتبع)

---

١ - طرح التثريب حـ ٢ ص ٧٧ ٢ - المحلى حـ ٢ ص ٢٩٨ . ص ٢٩٩

(٣) الموافقات حـ ٣ ص ١٣١ . ص ١٣٢ . (٤) فتح البارى حـ ١٢ ص ٤٦٩ .


شخصيّات إسلاميّة

أبو الأعلى المودودي

مؤسس الجماعة الاسلامية في شبه القارة الهندية

لفضيلة الشيخ / محمد شريف الزئبق
المدرس بكلية الدعوة .

في يوم السبت أول ذى القعدة سنة ١٣٩٩ هـ توفى الشيخ أبو الأعلى المودودى فكانت وفاته فاجعة أليمة أصابت المسلمين جميعاً في عالم عامل مجاهد ، وامام فذ ، أثر في الجيل الإسلامى المعاصر تأثيراً عظيماً ، فقد دعا من شبه القارة الهندية الى نهضة اسلامية على أسس علمية متينة ، وأسس في الهند ثم في باكستان الجماعة الاسلامية على مبادئ الاسلام القويمة ، في قالب عصرى سديد .

نشأته :

● ولد المودودى في بلدة (أورنك أباد) باقليم حيدر أباد الركن في الهند ، وكان والده من العلماء الصالحين الذين امتهنوا مهنة المحاماة والدفاع عن المظلومين ، فعنى بتربية ولده وتثقيفه ، فبدأ بتعليمه القران الكريم ، واللغتين العربية والفارسية ، والفقه والحديث ، ولم تمض سنوات حتى كان أبو الأعلى الفتى الصغير قد حصل من العلوم في خمس سنوات ما لم يحصله نظراؤه من الأطفال في ضعف هذه المدة ، وبعد أن استوى عوده ، ونال من الثقافة الاسلامية حظا طيباً . ألحقه أبوه في المدرسة الحكومية وكانت سنه لا تزيد عن احدى عشرة سنة ، فأجرى له اختبار للقبول ، ونجح الى الصف الثامن ، واستمر في المدرسة الى نهاية المرحلة الثانوية .

وحدث أن أصيب والده بمرض أقعده عن العمل فانقطع الى ملازمته وخدمته ، والعناية به ، ولم يلبث أن توفى أبوه ولم يتجاوز السادسة عشرة فكان عليه أن يعتمد بعد الله على نفسه ، فعمل في الصحافة ، وهو بعد فتى غض الإهاب ، واستمر في طلب العلم والمطالعة بعيدا عن الاسلوب التقليدى الذى يسير عليه طلبة العلم في زمنه ، حيث كانوا ينصرفون الى كتب المتون والشروح والتقريرات والمنظومات الفقهية واللغوية :

وكانت هذه الفترة من تاريخ الهند تموج بأحداث خطيرة بعد الحرب العالمية الأولى وما تلاها من أحداث جسام في العالم الاسلامى ، حيث كان الانجليز يحكمون الهند حكما استعماريا غاشما ، وكان المسلمون يتململون ويتألمون حين يجدون أبناءهم مجندين في الجيوش البريطانية التى كانت تتصدى لحرب إخوانهم المسلمين في الدولة العثمانية ، مما كان له رد فعل شديد لدى المسلمين في الهند ، فتنادى زعماؤهم إلى الدفاع عن الخلافة الاسلامية ، وكان الانجليز في الوقت نفسه يشجعون الهندوس ويؤيدون دعوتهم القومية ، وبرز (غاندى) زعيما هندوسيا يقود الشعب الهندى للاستقلال ، وكان قد نشأ في أحضان الانجليز ، فأظهروه زعيما خطيرا يعمل على اقامة دولة في الهند على أساس القومية العلمانية ، ويحاول خداع مسلمى الهند ليسيروا في صفه باسم القومية والتحرير ، ويطلب منهم تناسى تاريخ الهند الاسلامى الذى لم يكن فيه بزعمه غير الحروب والدمار ، وأن الاسلام لم ينتشر الا بالسيف ، مستغلا قيام ملاحدة حزب الاتحاد والترقى في تركيا ، مصطفى كمال وأنصاره - بالغاء

الخلافة سنة ١٣٤٢ هـ ، فكان غاندى يصول ويجول ويدعو المسلمين في الهند الى الانضواء تحت لواء القومية الهندوسية ونبذ دعوة الوحدة الاسلامية لاعادة الخلافة ،..

وكان المودودى يسمع هذه الدعوة الفاجرة من غاندى فتثور نفسه ويغلى الايمان في قلبه ، ويكب على الكتب والمراجع ليرد افتراءات غاندى وغيره من أعداء الاسلام فألف كتابه الأول (الجهاد في سبيل الله) وطبع سنة ١٣٤٧ هـ وسنه لم تتجاوز الخامسة والعشرين .

عمله في الصحافة :

وفي سنة ١٣٥١ هـ أصدر المودوى مجلة (ترجمان القران) وجعلها منبرا للدعوة الإسلامية ، وكان يبدؤها بتفسير القران العظيم باسلوب يحافظ فيه على جوهر المعنى باسلوب عصرى يبلغ به دعوة الاسلام الى معاصريه .

وكان المودودى يشترك في تحرير مجلات اسبوعية منها مجلة (تاج) التى كان يديرها وحده ثم تحولت الى جريدة يومية ، ولما انتقل الى العاصمة (دلهى) التقى برئيس جمعية علماء الهند الشيخ أحمد سعيد ، وأصدرت هذه الجمعية سنة ١٣٥٨ هـ جريدة (مسلم) وعين المودودى مديرا لها ، ولما أغلقتها السلطة الاستعمارية أصدرت الجمعية جريدة أخرى بادارته .

تأسيس الجماعة الاسلامية :

لقد فطن المودودى رحمه الله وهو يبحث موضوع « الجهاد في سبيل الله » الى حقيقة الاسلام ، وأنه لابد له من دولة تقيم شرائعه وأحكامه من العدل بين الناس ، ورعايته فقرائهم ، وهذا يستلزم قيام جميع المؤسسات التى تحتاجها الدولة كالقضاء والجيش والشرطة والبعثات الدبلوماسية وغيرها ، فهو يقول:(الحكومة الاسلامية لا تكون في الحقيقة إلا حكومة مبلغة ومرشدة ، مهمتها اعلاء كلمة الله في الأرض ، وغايتها من الجهاد تغليب الاسلام على الكفر) .

ونظر المودودى فرأى الأغلبية من المسلمين في الهند منقسمة الى فريقين : أحدهما يسير في موكب حزب المؤتمر الهندى تحت زعامة غاندى الذى يدعو الى قومية هندية موحدة ، ويحارب فكرة تقسيم الهند على أساس الدين ، والثانى يؤيد حزب الرابطة الإسلامية بزعامة محمد على جناح ، الذى يدعو الى انشاء دولة باكستان منفصلة عن الهند على أساس القومية الاسلامية .

وكان زعماء الرابطة الاسلامية جماعة مثقفة بثقافة عصرية ، وليس في أذهانهم فكرة واضحة عن النظام الإسلامى الذى تقوم عليه دولة باكستان ، وكان هدفهم هو انشاء دولة مستقلة للمسلمين على أساس (القومية الإسلامية) لا (الفكرة الاسلامية) أو النظام الإسلامى ؛ وقام المودودى بمجابهة هذا التيار الذى كان يلقى تأييد عامة المسلمين بسبب الظروف الصعبة التى كان يعيشها المسلمون في الهند والمذابح الطائفية التى يتعرضون لها في كل مكان .. وقد شرح المودودى فكرته في مجلة ترجمان القران ، وفي المحاضرات التى كان يلقيها في مختلف البلدان عام ١٣٥٨ هـ كقوله : (إن المسلمين ليسوا أمة كالألمان أو الانجليز أو الهندوك تنتمى الى عنصر مخصوص أو تنتسب الى أرض بعينها ، وانما المسلمون حزب ذو فكرة ومبدأ ، لا ينحصرون في أرض أو سلالة ، وعليهم أن يجذبوا الهنادك الى حزبهم العالمى ذى الفكرة السامية والنظرة العالمية الشاملة كما جذبهم أسلافنا من قبل) .

وليس عجيبا أن لا تستوعب الأكثرية من المسلمين هذه الفكرة ، وكان من الطبيعى أن تستهويها نظرية (القومية الاسلامية) بازاء (القومية الهندية) لأن العاملين في الدعوة الاسلامية كانوا لا يملكون الوسائل ، وفي

الوقت نفسه كان عددهم قليلا جدا ، وفي سنة ١٣٥٩ هـ صادق مؤتمر الرابطة الاسلامية على تأسيس (دولة اسلامية مستقلة) وعندئذ رأى المودودى أن الوقت قد حان لينتظم الذين تأثروا بدعوته وأفكاره في سلك جماعة تستعد لمجابهة ما سيعانيه المسلمون في الهند ، وما سيواجهه الإسلام في باكستان ، فاجتمع على دعوته خمسة وسبعون رجلا في مدينة لاهور من مختلف أنحاء البلاد الهندية ، وأسسوا (الجماعة الإسلامية) وانتخبوه أميرا لها وكان ذلك في الثانى من شهر شعبان ١٣٦٠ هـ .

شرعت الجماعة الإسلامية في مهمتها بتعميم الدعوة ونشر فكرة الإسلام ، وكان الأستاذ المودودى رحمه الله لا يزال ينشر اراءه وأفكاره في مجلته ترجمان القران ، ويلقى المحاضرات في الموضوعات الإسلامية أمام طلاب الجامعات وأساتذتها ، وظهر في الجماعة نخبة من المؤلفين ، وقفوا حياتهم ومواهبهم لاستجلاء محاسن الإسلام باسلوب عصرى متين ، وحرصت الجماعة الإسلامية على تربية أعضائها على الأخلاق الإسلامية وحثهم على أداء شهادة الحق قولا وعملا : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

ولم يزد أعضاء الجماعة في مدى ست سنوات (من١٣٦٠ ـ ١٣٦٦ هـ) على ستمائة وخمسة وعشرين عضوا ، إذ كان على من يلتحق بعضوية الجماعة الإسلامية أن يستقيل من وظائف الحكومة الانجليزية المستعمرة ، وإن كان محاميا أن يمتنع عن المرافعة أمام المحاكم التى كانت تحكم بغير ما أنزل الله ، وأن يرفضوا التعامل بالربا والعقود المحرمة الأخرى ، وقد أثبت هؤلاء النفر المؤمنون الذين بايعوا المودودى أنهم جادون في عملهم للإسلام ودعوته .

جهاده وبلاؤه :

وحين انقسمت الهند الى دولتين الهند وباكستان ، ازدادت أعباء (الجماعة الإسلامية) فكان عليها إلى جانب نشر التصور الصحيح للإسلام وإعداد الفرد المسلم وإصلاح المجتمع ، أن تعمل على جعل باكستان دولة اسلامية تطبق الاسلام ، وذلك :

١ ـ بمطالبة الحكومة بوضع الدستور الإسلامى وتطبيق الشريعة الإسلامية ..

٢ ـ إعداد جيل متمسك بتعاليم الإسلام ، مستقيم السلوك يستطيع تحمل مسئوليات النظام الإسلامى .

وقد كان لجهاد الجماعة الإسلامية لوضع الدستور الإسلامى لدولة باكستان أن اصدرت الجمعية التأسيسية (قرار المبادئ) سنة ١٣٦٨ هـ الذى ينص على أن الحاكمية في باكستان ليست إلا لله عز وجل وأن كل ما تتمتع به الدولة من الصلاحيات والسلطات هى وديعة عندها لله سبحانه وتعالى ، وأن الحكومة من واجبها أن تجعل المسلمين يعيشون حياة إسلامية يرتضيها الله ورسوله .

وقد كان من كيد أعداء الإسلام أن الحكومة البريطانية ورثت دولة باكستان الناشئة تحكم القاديانيين وسيطرتهم على جانب من السلطة فكان ظفر الله خان زيرا للخارجية وبعض الضباط القاديانيين يتحكمون في سلاح الطيران .. وكانت للقاديانية دعاية واسعة خبيثة بين ظهرانى المسلمين ، فكتب الأستاذ المودودى (المسألة القاديانية) وبيَن في هذا الكتاب حقيقة القاديانية وخطرها على المسلمين ، وبسبب هذا الكتاب ألقى القبض على الأستاذ المودودى سنة ١٣٧٢ هـ مع عدة مئات من أعضاء الجماعة الاسلامية ، وحوكم المودودى أمام محكمة عسكرية فأصدرت قرارا باعدامه واستقبل المودودى هذا الحكم بطلاقة وجه ورحابة صدر ، ولكن المحكمة عادت فخففت الحكم الى السجن المؤبد ، وبقى المودودى في السجن ثمانية عشر شهرا ، ثم اضطرت الحكومة الى اطلاق سراحه تحت ضغط جماهير الشعب المسلم في باكستان وفي العلم الاسلامى .

وفي سنة ١٣٨٤ هـ قامت الحرب بين الهند وباكستان بسبب عدوان الهند على كشمير فاضطر أيوب خان رئيس الباكستان أن يذهب الى مقر الجماعة الإسلامية في لاهور وأن يصحب المودودى في سيارته الى دار الاذاعة ليوجه خطابا الى الأمة وإلى الجيش كان يذاع على المقاتلين في الجبهة ، وتحقق الانتصار للجيش الباكستانى رغم ضالة عدده وعدته أمام الجيش الهندى .

ولما وصل بوتو وحزبه إلى حكم باكستان سنة ١٣٩٢ هـ لم يستطع أن ينفذ ما كان ينادى به من جعل دستور الدولة اشتراكيا علمانيا رغم أكثريته الساحقة لأن الجماعة الإسلامية والهيئات الدينية الأخرى إستنكرت مشروعه ، وأبت إلا أن يكون الدستور متفقا مع قرار المبادئ ، فرضخ هذا المتغطرس وحزبه لرغبة الشعب المسلم ووضع مادة تصرح بأن دين الدولة الإسلام ، ومصدر التشريع فيها هو الإسلام .

بين المودودى والندوى :

● كان الأستاذ السيد أبو الحسن الندوى قد ألف كتابا في نقد بعض اراء الأستاذ أبى الأعلى المودودى التى وردت في بعض كتبه وخاصة كتابه (المصطلحات الاربعة في القران) ، وقد طبع منذ سنوات باللغة الأردية في الهند ثم طبعت ترجمته باللغة العربية باسم (التفسير السياسى للاسلام) في عام ١٣٩٩ هـ ويقول السيد الندوى ان السيد المودودى قد كتب له في رسالته الأخيرة التى تلقاها منه حين وصله كتابه المذكور الذى جاءت فيه ملاحظاته عليه ، كتب له مرحبا بهذه الملاحظات ، وشكره عليها ، ودعاه الى مراجعة سائر كتاباته ومؤلفاته ، وابداء الملاحظات عنها ، وقال : « اننى لا أستطيع أن أقول انى سأوافق عليها تماما ، ولكنى سأدرسها وأتأمل فيها » ، وقال : « اننى لا أعتبر نفسى فوق مستوى النقد واختلاف وجهات النظر » ..

ومما يذكر أن كلا الرجلين كانا من أعضاء رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ومن أعضاء المجلس الاستشارى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ويشيد السيد الندوى حفظه الله بالسيد المودودى « الذى قامت دعوته على أسس علمية أعمق وأمتن من أسس تقوم عليها دعوات سياسية .. وكانت كتاباته وبحوثه موجهة الى معرفة طبيعة هذه الحضارة الغربية وفلسفتها للحياة ، وتحليلها تحليلا علميا قلما يوجد له نظير في الزمن القريب ، وقد عرض الاسلام ، ونظام حياته ، وأوضاع حضارته وحكمه ، وصياغته للمجتمع والحياة ، وقيادته للركب البشرى والسيرة الإنسانية في اسلوب علمى رصين ، وفي لغة عصرية تتفق مع نفسية الجيل المثقف ومستوى العصر العلمى ويملأ الفراغ في الأدب الاسلامى المعاصر من زمن طويل ، ويقضى حاجة الشباب الطموح إلى مجد الاسلام والمسلمين .. » ويقول الندوى أيضا : « وقد بعثت كتاباته - المودودى - القوية ثم جهوده المتواصلة الرغبة القوية العارمة لقيام حكم اسلامى ونظام اسلامى ومجتمع أفضل في كل بلد إسلامى » .

مؤلفاته :

● نقل الى اللغة العربية من مؤلفاته بضعة وثلاثون كتابا منها : الجهاد في سبيل الله - الإسلام والجاهلية .. - شهادة الحق .. - الدين القيم . - مبادئ الإسلام . - المصطلحات الأربعة في القران .. - نظرية الإسلام الخلقية . - الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية . - تفسير سورة النور . - الحجاب . - موجز تجديد الدين واحيائه . - واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم . - منهج جديد للتعليم والتربية . - أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة . - معضلات الإقتصاد وحلها في الإسلام . - مسألة ملكية الأرض في الإسلام . - نظرية الإسلام وهديه في السياسة والدستور والقانون . - القانون الإسلامى . - نظام الحياة في الإسلام . - واجب الشباب المسلم اليوم . - حاجة الإنسانية إلى جماعة رشيدة . - البعث بعد الموت - الثبوت العقلى للرسالة المحمدية . - نحن والحضارة الغربية . - المسألة القاديانية . - الحضارة الإسلامية : أصولها ومبادئها . - حركة تحديد النسل في ميزان النقد . - تذكرة دعاة الإسلام . - أضواء على حركة التضامن الإسلامى . - بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية . - حدود التشريع الإسلامى ومكانة الاجتهاد فيه . - العدالة الإجتماعية : حقيقتها وسبل تحقيقها . -

وقد حرصت المملكة العربية السعودية على تكريم هذا الإمام المجاهد فمنحته لجنة جائزة الملك فيصل جائزتها للعام الماضى ، فتقبلها شاكرا ووضعها في خدمة الدعوة الإسلامية ، رحمه الله وعوض الأمة الإسلامية عنه خير العوض ، وأجزل مثوبته في دار المقامة عنده .



رجوع الإمام الداعية إلى القبائل

● **كان بين عبد الله وجدالة ثأر لا تزال آثاره موجودة ؛ فهى القبيلة التى منعته من تأدية رسالته ، وهددته بالقتل ، بل لقد حاولت هدم بيته عليه ، مما جعله يفر أمام قوة القوم ، أما اليوم فيستطيع عبد الله أن يُخضع قبيلة جدالة للدين الصحيح ، وأن يجعلها تأتمر بأمره ، معلنة الجهاد ضد كل من يخالف ما يجب أن يكون عليه الناس ؛ ثم يتبعها باقى القبائل .**

رجع عبد الله إلى مركز قيادته في رباط السنغال ، وجمع أشياخ المرابطين ، ليأخذ مشورتهم في أمر القبائل وفي مقدمتهم جدالة ، وذهب إليها ليعرض عليها تعاليمه ومعه جيش المرابطين ، وراحوا يرجونهم أن يعودوا الى الصواب ويرضوا بحكم الإمام عبد الله ، وأن يكونوا عوناً له على رد كيد الطغاة والمشركين وانتهز الجداليون فرصة مسالمة المرابطين ، فأحدقوا بجيش المرابطين يريدون القضاء عليهم ، فقد التفوا حولهم من كل جهة ، وتنبه المرابطون لما سوف يقعون فيه ، ورأوا أنهم أمام عدو من أعداء الدعوة يريد أن يطفئ نور الله ، فسرى فيهم الحماس ، ودوى صوتهم بالتكبير ، وانقضوا على أعدائهم ينكلون بهم ، حتى هزموا شر هزيمة ، فأذعنوا للدعوة ودخلت القبيلة كلها في زمرة المجاهدين .

سار عبد الله إلى قبيلة لمتونة ، وضيق على كل من تأخر منها الخناق ، حتى أذعنوا ، ورضوا بحكم عبد الله ، وبعدها سار الى سوقة فنهاها وحذرها ووعظها ، فامنت بما يدعو إليه ، وعاهدته على الجهاد ، واعلاء كلمة الله ، وحذت حذوها لمطة وجزولة وبهذا أصبحت وجهة القبائل واحدة ، قائمة على مبادئ سامية ، وعقيدة راسخة ، وفهم واع لما يدعو إليه الامام ابن ياسين من نشر للواء العدل ، ورفع لراية الإسلام الصحيح .

● ان في استطاعة عبد الله الان أن يزحف لنصرة المظلوم والوقوف بجانب الضعيف وتهيئة القوم لإصلاح المجتمع ، واتخذ لنفسه حكومة منظمة ، تضم كل من استجاب للدعوة .. فرح الفقهاء فرحا كبيرا وأخذهم الزهو والفخر بنجاح أخ منهم ، واعتبروا أنفسهم مشاركوه في هذا النجاح .. كذلك فقد وصلت كتبهم بالتهنئة طالبين منه الزحف إليهم لانقاذ البلاد من الحكام الطغاة المارقين .

كان في مقدمة من كتب الى ابن ياسين إخوانه من فقهاء (سجلماسة) الغيورين على الدين ، يرغبونه في الوصول إليهم لتخليص البلاد مما تعانيه من الحكام الطغاة الظلمة زناته المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودين ، ولمساعدتهم على القضاء على البدع واقامة العدل واظهار السنة ، وكان الفقهاء قد طلبوا من الأمير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلم يأبه بهم ولم يلتفت الى مطالبهم ..

جمع عبد الله الأشياخ ، وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة ، فقالوا له : « أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله »

زحفت جيوش المرابطين في حشود ضخمة ، ونزلوا بوادى درعة ، وكانت أخبارهم قد وصلت إلى أميرهم مسعود ، فأعد جيشا قوامه أكثر من عشرة الاف للقاء المرابطين ، ففروا من أمامهم وتشتت شملهم وقتل أميرهم مسعود ، وتقدم القوم وراء فلول الزناتيين متجهين نحو سجلماسة ، ولم يتركهم المرابطون ليحصنوا أنفسهم بالمدينة ، بل انقضوا عليهم بالسيوف حتى فرقوا شملهم وتمت الغلبة عليهم ..

تركت جيوش المرابطين حامية في (سجلماسة) واتجهوا الى الصحراء للقضاء على ثورة الزنوج ، وما كانت زناتة تعلم بتحركات القوم حتى انقضوا على الحامية وقتلوها عن اخرها .. وغضب عبد الله غضبا شديدا ورجع إلى زناتة مرة أخرى ، فألحق بهم خسائر فادحة ، وقضى عليها جميعا ، وثبّت أقدام المرابطين في هذه البلاد وانتشرت أخبار ما حدث في جميع أنحاء بلاد المغرب ..

أمر عبد الله بإزالة المنكرات ، ورفع المكوس الجائرة ، وتفريق الأخماس على المرابطين وفقهاء البلاد وتطبيق أحكام الدين ، واختار عاملا من قبيلة لمتونة لحكم سجلماسة ذكر المؤرخون : « أنهم أصلحوا أحوال سجلماسة وغيروا ما فيها من المنكرات وقطعوا المزامير وأحرقوا الديار التى بها بيع الخمور »

أخذ عبد الله رحمه الله الإمام والمعلم يستعد لغزو بلاد السوس وكان ذلك عام ٤٤٨ هـ فغزى بلاد جزولة وماسة فضمها للمرابطين ثم قصد عاصمة السوس مدينة « تارودانت » وكان بها طائفة من الشيعة يقال لها البجلية نسبة إلى مؤسسها عبد الله البجلى الرافضى وكانوا قد قدموا إلى سوس زمن أبى عبد الله الشيعى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وزمن حكم الفاطميين بالمغرب ، ونشروا مذهبهم ، وتوارثوه جيلا بعد جيل ، وكان مذهبهم يتضمن كثيرا من التعاليم المثيرة التى منها أنهم لا يرون الحق إلا ما في أيديهم .

هاجم المرابطون المدينة هجوما عنيفا ثم اقتحموها وقتلوا من الشيعة كل من خالفهم ، حتى اذا استسلم الباقى طلبوا منهم - كما كانت عادة الإمام - أن يسلموا إسلاما جديدا ، ويبايعوا بيعة جديدة ، وقضوا أيضا على تجمعات اليهود بتلك المنطقة واستولوا على سائر نواحيها ، وعين عبد الله لها عاملا من المرابطين ، وأوصاهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واتباع ما جاء به القران والسنة ، واسقاط المغارم والمكوس والإكتفاء بتحصيل الزكاة والأعشار .. (١) .

كان هذا أمرا عجيبا في وسط المغرب الأقصى ، فأين تعلم هذا الرجل العجيب ، إن هذه المبادى الحقة السليمة لم يرها المغرب من قبل ، وما عرف عن الإسلام الصحيح عقيدة ودستورا مطبقا إلا القليل ، وما كان في الأندلس البلاد التى تعلم فيها إلا رسما للإسلام ، إن هذا الرجل تعلم أول ما تعلم على مائدة الإسلام الأولى . فدرس القران ووعاه ، وحفظ السنة إلى درجة الافتاء ، وحرص على أن يعى جيدا ما كان عليه الرسول من تنفيذ للشريعة ، وطريقة العمل بها ، وما كان عليه الخلفاء الراشدون وبخاصة الفترة المجيدة من حياة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .. لقد كان عنده من الإلهام الذى حباه الله به ، والتمسك بتنفيذ أحكام الشريعة ما وصل إلى علمه بكل طريقة حتى يطمئن الى أن الله راض عن عمله .

١ - راجع إن شئت كتابنا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

لقد أراد أن ينفذ ذلك في أكبر بقعة من الأرض ، لذلك فإننا نراه يسابق الريح محتسبا عمله لله وفي سبيل الله ، وطاوعه المغاربة ، وما أحب العمل عند المغاربة إذا تيقنوا أن هذا العمل لله ومن أجل الله .

إن البلاد العريضة التى فتحها كانت تفتح قلبها وعقلها ولسانها لعبد الله تنتظر اشارة منه لتتجه إلى الوجهة التى يريدها الإمام والمعلم .

لم تقف الجبال سدا منيعا ضد نشر الدعوة ، فلقد عبر هو ومن معه من المرابطين جبال الأطلس عازمين على فتح مدينة « اغمات » فمروا على وزده وشفشاوة فأخضعوا من فيها لحكم الإسلام وكذلك سائر منطقة جدميوه ، ثم اتجه الى مدينة « أغمات) وأميرها لقوط بن يوسف المغزاوى فحاصرها المرابطون ، ودافع عنها أميرها دفاعا شديدا ، ولكنه وجد أن لا فائدة من المقاومة وخاف من بأس المرابطين ، ففر مختفيا في الليل ، والتجأ الى « تادلا » تحت حماية بنى يفرن ، ودخل المدينة المرابطون سنة ٤٤٩ هـ وأزالوا ما بها من مناكير ، واستراحوا بها نحو شهرين ، قصدوا بعدها تادلا ودعوا أهلها إلى الدخول في الدعوة فأبى عليهم أمراؤهم من بنى يفرن ، فهاجموهم وقتلوا من خالفهم ، وظفروا بأمير اغمات فقتل ومن معه ..

• • •

الإمام ابن ياسين والبرغواطيون ..

● لم يكن في المغرب أخطر على الدعوة الإسلامية من البرغواطيين وكانوا أقوياء بحيث لم يستطع الحكام والأمراء المغاربة قبل عبد الله أن ينالوا منهم وكلما مرت الأيام ازدادوا قوة وبأسا واستماتة في سبيل نشر مبادئهم الهدامة ضد أصول وقواعد الإسلام ، لهذا فقد كان كل هم الامام هو القضاء على هؤلاء الخلق ..

هذه القبائل التى تسمى « البرغواطية » كانت تدين بمذهب تتنافى تعاليمه مع أحكام الإسلام فقد أسسه رجل يهودى يسمى طريف بن برناط من أعمال شدونة بالأندلس ، كان من جماعة يهودية تقصد الاساءة الى الاسلام بتغيير أصوله منتهزين الفرصة مهما طال الزمن لينفثوا سمومهم ، يوصى بعضهم بعضا حتى اذا الوقت المناسب أعلنوا ذلك .

• • •

ارتحل طريف هذا الى تامسنا ، وتحايل بالمكر والخداع على البربر حتى قدموه على أنفسهم فولوه أمرهم ، وكان متظاهرا بالدين الإسلامى ، فبقى أميرا عليهم الى أن هلك فتولى بعده ابنه صالحا ، وسمى نفسه بصالح المؤمنين ، فتنبأ وشرع لهم ديانة وعهد الى ابنه من بعده بنشر ذلك ، فتناقلت الأجيال أمره الى أن ظهر فيهم يونس وادعى النبوة انتقلت اليه من جده ، واجبر البزبر بالقوة حتى ضلوا واتبعوه قال الشاعر يلومهم على اطاعتهم لهذا المدعى الأفاك .

قفى قبل التفرق فاخبرينا
وقولى واخبرى خبراً يقينا
وهذى أمة هلكوا وضلوا
وخابوا لا سقوا ماء معينا
يقولون النبى أبو غفير
فأخزى الله أم الكاذبينا
ألم تسمع ولم تر لؤم بيت
على آثار خيلهم رنينا

رنين الباكيات بهم ثكالى
وغاوية ومسقطة جنينا
سيعلم أهل تامسنا إذا ما
أتوا يوم القيامة مهطعينا
هنالك يونس وبنو أبيه
يوالينا البوار معظمينا
فليس اليوم يومكم ولكن
ليالى كنتم مستيسرينا (١)

● أما الضلال الذى شرع لهم ، فانهم يقرون بنبوءة صالح بن طريف وأن الكلام الذى ألفه لهم هو من عند الله لا يشكون في ذلك ففرض عليهم صوم رجب وأكل شهر رمضان ، وخمس صلوات بالنهار ومثلها بالليل والوضوء غسل السرة والخاصرتين وغسل الرجلين من الركبتين ، ويتزوج الرجل ما استطاع من النساء ، ويقتل السارق بالاقرار والبينة ، والديك والبيض حرام عندهم ، وأكل الدجاج مكروه ، وليس عندهم أذان ولا اقامة للصلاة ، وقد وضع لهم صالح قرانهم المكون من ثمانية سور أولها سورة أيوب وأخرها يونس ومنها سورة الديك وفرعون والجراد وغير ذلك من الهراء والكذب الذى قصد به الإساءة الى الدين الاسلامى الحنيف .

● ● ●

كان في قلب عبد الله قرح ، فقد مر ببلادهم ، ورأى ما عليه القوم من تبديل وتغيير لمعالم الدين ، واطلع على أحوالهم وأمله ما سمع ، ولم يستطع في ذلك الوقت أن يفعل شيئاً سوى مناقشة لم تفد ولم تنفع فهؤلاء لا يجدى القول معهم .

أما وقد أصبح عبد الله في قوة فأكبر خدمة يؤديها للاسلام هو استئصال هذه الفئة الخارجة .
ذهب إليهم وهو أكثر حماساً وأشد قوة .

كان الأمير على برغواطة في هذا الوقت أبو حفص بن أبى غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح فسار اليهم عبد الله وقائده أبو بكر في جموع المرابطين ودارت معارك ضارية بين الفريقين اشترك فيها عبد الله وكثيراً ما كان داعية الإسلام يشترك في المعارك ولا يرضى بأن يكون المعلم والمفقه للدين وحده ، فكان ينضوى تحت لواء القيادة لينال شرف الجهاد في سبيل الله ، ولا ندرى لماذا كان ينسى نفسه وهو الذى ضرب الأمير والقائد يحيى بن عمر عشرين سوطا لأنه اشترك في القتال على حين كان يجب عليه أن يقف عن كثب يحرض الناس ويرسم لهم الخطة الكفيلة بتحقيق النصر .

● ولكنها الغيرة الشديدة على المسلمين ، فلم يرض عبد الله أن يقف مكتوف اليدين والعدو يعمل السيف في صفوف المرابطين متأسياً بما عرف عن الرعيل الأول من المسلمين ، لقد نزل الى ساحة القتال يحرض الناس ويبشرهم بالجنة والاستشهاد لتكون كلمة الله هى العليا .
كان يعمل سيفه في رقاب تلك الطائفة الضالة الباغية حتى أصيب داعية الاسلام ومحيى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بجروح بالغة قاتلة ولم تمنعه الآلام ولا قرب خروج الروح الطاهرة أن يعجل باجتماع مع أشياخ المرابطين ، ويحثهم على الثبات في القتال ، ويحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرياسة قائلاً رحمه الله :

---

١ ـ مستيسر ، من المياسرة أصحاب ميسر البيان المغرب لا بن عذارى حـ ١ ص ٢٧ ..

« يامعشر المرابطين أنا ميت في يومى هذا ، وأنتم في بلاد عدوكم ، فاياكم أن تحنثوا ـ تجبنوا ـ وتفشلوا وتذهب ريحكم .. كونوا ألفة على الحق ، واخوانا في الله ، وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا .. وإنى ذاهب عنكم ، فانظروا من ترضونه لأمركم يقود جيشكم ويغزو أعداءكم ويقسم ركابكم وأعشاركم » ..

• • •

● ولقى ربه في يومه ودفن بموضع مرتفع في مكان يعرف بكريفلة قريباً من تامسنا وهو بين الرمانى وابن سليمان في طريق الرباط الدار البيضاء في الرابع والعشرين من جمادى الأولى يوم الأحد سنة ٤٥١ هجرية وبنى مسجدا لا يزال حتى الان .

لقد أفاض المؤرخون والفقهاء والعلماء في الثناء على أبى محمد عبد الله بن ياسين في ذكر أعماله وجهاده وإخلاصه يقول الخطيب :

« وكان عبد الله رجلا ورعا سنياً ذكروا أنه غزا السودان في جيش لمتونة ففقدوا الماء وأشرفوا على الهلاك فتوجه عبد الله الى الله ودعا وأمنوا على دعائه ثم قال :

احتفروا تحت رجلى فحفروا فالفوا الماء على مقدار شبر من الأرض ، واستقوا ولم يزل صائماً في بلادهم من يوم دخولها إلى أن توفى ، ولم يقتت إلا من لحوم الصيد » ..

ويقول المؤرخ الاسلامى د . حسن محمود :

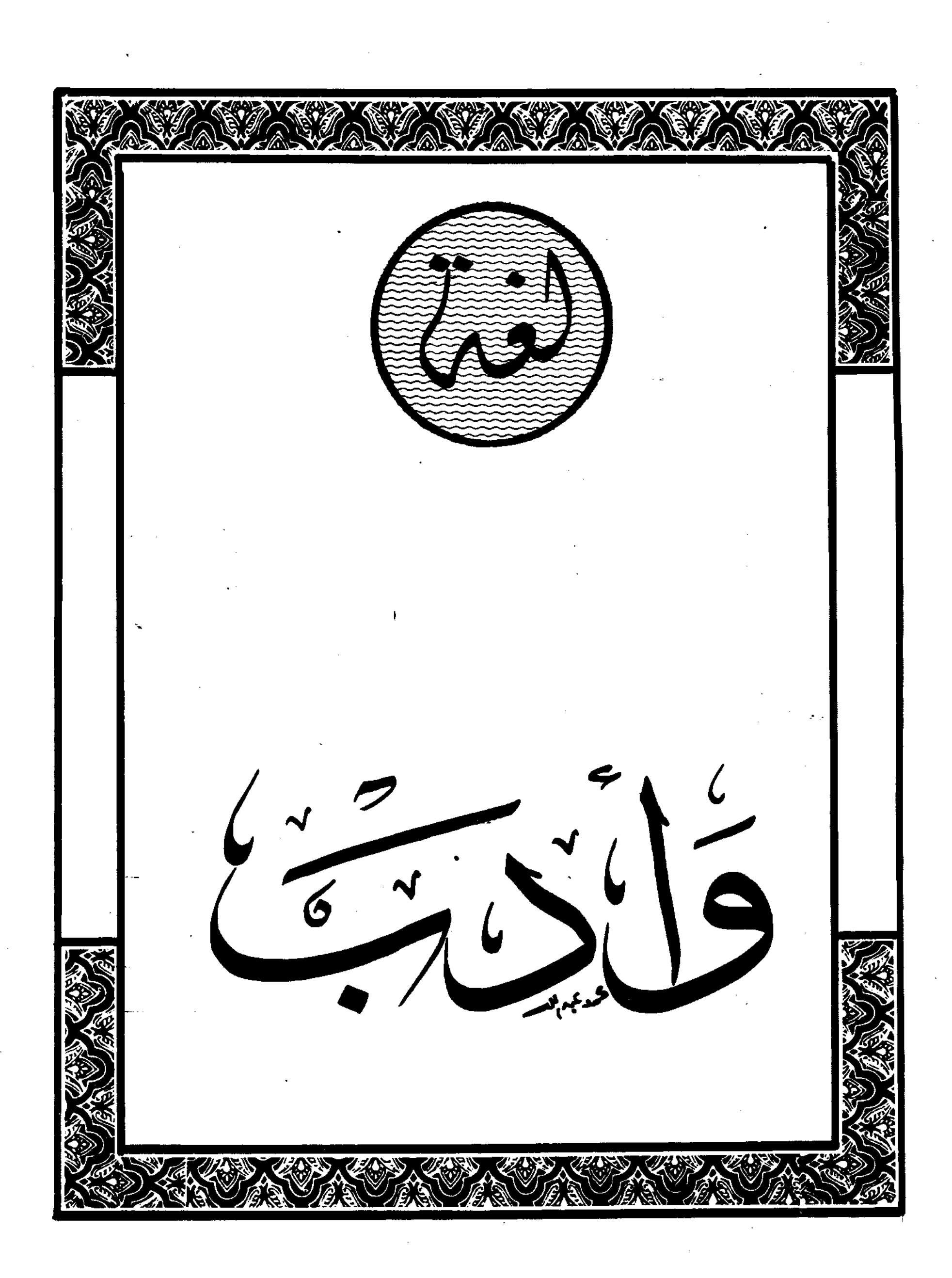
« على أن الجانب السياسى من شخصية عبد الله بن ياسين لم يحجب الجانب العلمى ، وهو جانب الفقيه المعلم اذ لم يكف عبد الله عن أداء رسالته فظل يروى ويحدث ويعلم حتى خلق في الصحراء جواً من العلم والمعرفة لم يألفه الناس من قبل ، اذ لا تثبت أركان الدين إلا بالعلم ولا إسلام صحيح إلا بدراسة حقة لكتاب الله وسنة رسوله ، وقد أدى الى خلق جيل من الفقهاء الصنهاجيين عرفوا بالورع والتقى وانكار الذات ، خلصت نياتهم وزكت نفوسهم ومن أمثلة هؤلاء الفقهاء تلاميذ ابن ياسين لمتاد بن نصير اللمتونى الذى يضرب المثل بفتياه في بلاد الصحراء ومنهم أيضا ميمون بن ياسين الصنهاجى اللمتونى الذى رحل إلى الأندلس محدثا وراوياً بل إن أمراء الملثمين أنفسهم أخذوا من العلم الذى بثه عبد الله بن ياسين بنصيب وافر » ..

رحمه الله ورضى عنه .

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعيه على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .
متفق عليه

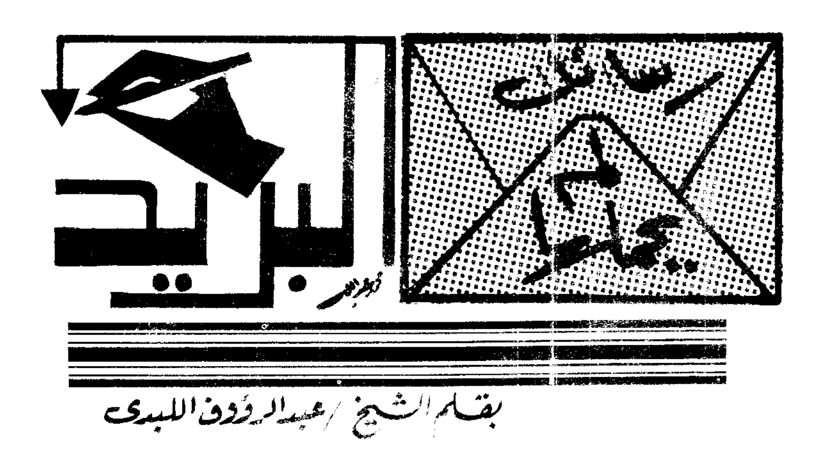
عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » متفق عليه





اللغة
وأدب





بقلم الشيخ / عبد الرؤوف اللبدى

أختى العزيزة « هل » :

■ منذ أزمان بعيدة سحيقة وأنا جدّ متوقة إلى أن أكتب إليك هذه الرسالة ، غير أن السعى الحثيث وراء الدنيا ، والحب الجم لجمع المال ، قد شغلا أختك « همزة الاستفهام » عن أن تكتب إليك هذه الرسالة ·

ولولا خشيتى المبالغة والتفيش لقلت إن الناس جميعاً قد شغلوا بما شغلت به أختك هذه الأيام ، فحب المال قد ألهى الرجال عن أزواجهم وذراريهم ، وصرف العلماء عن كتبهم وقراطيسهم ، وصدّ المدرسين عن الخلوص والإخلاص للدرس والتدريس ·

وقد أكون قد ثبت إلى صوابى بعد هذا الضياع ، ورجعت إلى رشدى بعد هذه الضلالة ، أليس في هذه الرسالة التى أخطها إليك تباشير الصباح ؟؟

أختى العزيزة :

■ أنت تعلمين ما بيننا من صلات رحم ووشائج قربى ، فأنا وأنت أختان في الاستفهام ، ولنا في هذا القبيل أخوات أخر لا ينبغى أن يهملن وينسين ، لقد تبعثرنا في كتب العلم وتوزعتنا أبحاث العلماء ، وأنا أخشى على صلات الرحم أن تتقطع ، وعلى وشائج القربى أن تبلى ، فكان لزاماً أن أتعرف أخبارك وأن أتحسس من الأخوات جميعاً ، وليس هناك طريقة أجدى من هذه الرسائل نتجاذب فيها أطراف الأحاديث ، ونتبادل فيها حقائق العلم والعرفان ·

لقد كان كتاب الله العزيز أعظم صلة تجمعنا وأشرف نسب يضمنا وأعزّ مكان نقيم فيه ، فحرىّ بنا أن تتحدث كل واحدة منا عن أحوالها في هذا الكتاب العظيم ، وعن مواضعها في آيات الله المعجزة ·

■ لقد ذكرنا نحن ـ أدوات الاستفهام ـ في كتاب الله العزيز أكثر من ألف مرة ، وإن شئت الدقة والتحديد فقولى ألفاً وأربعاً وثلاثين ، وأسأل الله تعالى أن أكون قد أصبت في هذا الحساب والإحصاء ، فهو شئ قمت به بدءاً لم أجده في كتاب ولا أعلم أحداً قام به من قبل .

وإذا نظرت إلى عدد ما ذكرنا في كتاب الله العزيز بالقياس إلى عدد آياته التى بلغت ستة آلاف ومئتين وستاً وثلاثين(١) رأيت أن لنا نصيباً موفوراً من الذكر ، ومنزلة عالية بين أساليب البيان .

وهنالك ميادين أخرى كثيرة لنا فيها فضل وإحسان ، ومجالات واسعة لنا فيها هيمنة وسلطان ، فنحن ـ معاشر أدوات الاستفهام ـ يقوم علينا الأدب التمثيلى الذى هو من أصعب أنواع الأدب وأرقاها ، وعلينا تقوم طريقة من أنجح طرق التدريس وهى طريقة الحوار ، والعلماء والقضاة والمحامون والمدرسون وكبار مراسلى الصحف ، هؤلاء ـ وغيرهم كثير ـ لا ينالون النجاح والفوز إلا إذا كانوا ذوى مقدرة فائقة على إنشاء الأسئلة الدقيقة العميقة وحسن الحوار ، ولا أكون متجانفة عن الحق إذا قلت إن معظم ما في هذا العالم من مسائل العلم والمعرفة كان جواباً عن سؤال.

غير أن القرآن الكريم هو الذى أكسبنا هذا الشرف العظيم ، ووهب لنا هذا الفضل الواسع ، فكان حقاً علينا أن نذكر أحوالنا فيه ، وأن نقصر الرسائل على ما أولانا إياه .

أختى العزيزة « هل » :

■ لقد ذكرت أنا ـ همزة الاستفهام ـ في القرآن الكريم أكثر من خمس مئة مرة ، وإن شئت الدقة والتحديد قلت خمس مئة وتسع عشرة مرة ، وأسأل الله تعالى ألا أكون قد أخطأت في العدّ والحساب .

هذا القدر الذى نلته أنا كان كثيراً جداً ـ والحمد لله ـ لم تصلى إليه أنت ولا قاربته أخت أخرى ، ومعاذ الله أن أقول هذا مخيلة واستكباراً ، وإنما هو تحدث بنعمة الله وفضله ، وبيان لما أولانيه من رفعة وعظيم شأن .

وما ينبغى لمثلى أن تكون من هؤلاء الذين يظهرون الفقر وهم أغنياء ، ويعيبون الدنيا وهم ينشقون أزهارها المخضلة ، ويخضمون أوراقها الخضر .

قد تعجبين وتسألين : كيف نلت هذا المقدار من الذكر ، وأنى لى هذا الغنى والوفر ؟!

■ أنا لا أستطيع جواباً حاسماً ، ولكن قد يكون وضعى على حرف واحد جعلنى سهلة على اللسان ، سريعة الحركة والدوران ، ليس في استعمالى كلفة ولا مشقة . فكان من هذا أن جئت على أساليب كثيرة شتى ، ولبست حللاً من البيان حالية مبينة .

■ ومن الأساليب الرائعة المحكمة التى جئت عليها أسلوب الجملة المنفية ، فقد صحبت فيها أحياناً (لم) وأحياناً أخرى (لا) ، وفي قليل من الأحيان وجدتنى مصاحبة (ليس) ٠

ولى مع (لم) هذه النافية الجازمة صور كثيرة منها (ألم تر إلى) جئت على ذلك في القرآن الكريم خمس عشرة مرة ، غير أنى أريد أن أقول شيئاً قبل أن أمضى بعيداً في تفصيل هذه المرات ، ذلك الشئ هو ما قاله ابن هشام الأنصارى في كتابه (مغنى اللبيب) ، وما علقه الدسوقى على ذلك القول في حاشيته ٠

قال ابن هشام(٢) « لا يكون الاستفهام منه تعالى على حقيقته » ٠ وعلق الدسوقى(٣)

« لأن طلب الفهم يقتضى سبق الجهل وهو محال ، فحينئذ يحمل ما ورد فيه على أنه للتقرير أو للتوبيخ أو للإنكار » ٠

■ وقال الزركشى في كتابه البرهان(٤) : « فإن الرب تعالى لا يستفهم خلقه عن شئ ، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشئ » ٠

وأقول أنا بعد هذا : إن الاستفهام منه تعالى يجئ لما تقدم ويجئ أيضاً للتنبيه والتعجيب والتعجب كما في « ألم تر إلى ... » التى جاءت في خمس عشرة آية أذكرها لك مرتبة حسب ورودها في سور القرآن الكريم :

ففى الآية الأولى من هذه الآيات يقول الله تعالى : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » ٠ (الآية ٢٤٣ ـ البقرة) ٠

ولا أخفى عليك أن للعلماء آراء متعددة في المعنى الذى جئت عليه أنا ـ همزة الاستفهام ـ في هذه الآية الكريمة :

ففى تفسير القرطبى (٥) « قوله تعالى (ألم تر) ... والمعنى عند سيبويه تنبّهالى أمر الذين ..)

■ ويقول أبو حيان الأندلسى في تفسير البحر المحيط (٦) : « وهذه همزة الاستفهام دخلت على حرف النفى فصار الكلام تقريراً ، فيمكن أن يكون المخاطب علم بهذه القصة قبل نزول هذه الآية الكريمة ، ويجوز أن يكون لم يعرفها إلا من هذه الآية ومعناه التنبيه والتعجب من هؤلاء » ٠

وقد ذكر الزركشى في كتابه البرهان(٧) أن من ضروب الاستفهام التنبيه ومثل له بآيات منها هذه الآية وقال : « والمعنى في كل ذلك أنظر بفكرك في هذه الأمور وتنبه » ٠

وقال الزمخشرى في تفسيره الكشاف(٨) : « (ألم تر) تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين، وتعجيب من شأنهم ، ويجوز أن يخاطب به من لم ير ولم يسمع لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجب » ٠

وفي تفسير الجلالين(٩) : « (ألم تر) استفهام تعجيب وتشويق إلى استماع ما بعده » ٠

■ ويقول صاحب الفتوحات الإلهية(١٠) معلقاً على قول الجلالين المتقدم : « (قوله تعجيب) أى إيقاع المخاطب في أمر عجيب غريب أى في التعجب منه ، فعلى هذا يستفاد من الآية أن المخاطب لم يسبق له علم بتلك القصة قبل نزول الآية وقيل استفهام تقرير فعليه يكون المخاطب عالماً بالقصة والمقصود تقريره بها ١٠ هـ شيخنا » ٠

ويقول أبو السعود في تفسيره(١١) : « (ألم تر) تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب الأخبار وتعجيب من شأنهم البديع » ٠

ولعلك أيتها الأخت العزيزة تسألين بعد هذا كله وتقولين : وما رأيك أنت في هذه الآراء ، وما الذى تختارين وترجحين ؟

الرأى الذى أختاره وأرجحه هو ما تقدم أن قلته وهو أن الاستفهام هنا للتعجب والتعجيب والتنبيه ، وأما الذين قالوا إنه للتقرير فلست معهم ، فالتقرير يأتى لأحد أمرين(١٢) ٠

■ الأول : « حمل المخاطب على الاعتراف بالأمر الذى استقر عنده من ثبوت شئ أو نفيه كما في قوله تعالى : (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ...) » (الآية ١١٦ ـ المائدة) ٠

■ والثانى : « تثبيت النسبة التى اشتمل عليها الاستفهام في الذهن ، فإن كان المخاطب جاهلاً بها فالأمر ظاهر ، وان كان عالما بها فلزيادة التثبيت ، كما في قوله تعالى (ألم يجدك يتمياً فآوى) ٠ (الآية ٦ ـ الضحى) وكما في قوله تعالى: « أليس الله بكاف لعبده »٠٠(الآية ٣٦ ـ الزمر) » ٠

ولا يبدو لى أن الاستفهام في هذه الآية الكريمة (ألم تر إلى) جاء لأحد هذين الأمرين ٠

أما عدم ظهور الأمر الأول فلأن الاستفهام في هذه الآية الكريمة « ألم تر إلى » ليس فيه حمل للمخاطب على الاعتراف بشئ ، وهذا واضح يدل عليه أن ليس فيها جواب يبين المعترف به ٠

أما الأمر الثانى : وهو أن يكون للتقرير بمعنى تثبيت النسبة في الذهن فمبنىٌ عند من يرون الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم على أن الله تعالى قد أعلمه بهذا من قبل ، أو مبنى على أن

الخطاب لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب الأخبار ، وهذا البناء على كل حال افتراض لا دليل عليه وليس من ورائه كبير فائدة ·

أما من يرى أن الاستفهام هنا في (ألم تر إلى) للتشويق فلست أرى رأيه ، وقد تسألين وتقولين : ولم كان ذلك ؟

■ فأقول : إن هذه المعانى البلاغية التى تخرج إليها أدوات الاستفهام من تشويق وتعجيب وتقرير وإنكار وغير ذلك إنها تخضع للذوق الأدبى الشخصى وليس لها قواعد موضوعة يمكن أن يحتكم إليها ، وبسبب من هذا جاءت الآراء مختلفة في معنى هذا الاستفهام وفي غيره ، غير أن التشويق بخاصة مع خضوعه للذوق الشخصى يعتمد على شئ من المنطق يقتضى أن يكون استفهام التشويق في جملة تامة مستقلة يجئ بعدها المشوق إليه في جملة أو جمل مستقلة أخرى ، كى تتاح للنفس فرصة الانفعال والتشويق إلى ما سيأتى بعد ، وذلك كما في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم · تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » (الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الصف) · وكما في قوله تعالى : « هل أتاك حديث الغاشية · وجوه يومئذ خاشعة » (الآيات من ١ ـ ١٥ من سورة الغاشية) وكما في قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين · إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون » الآيات من ٢٧ إلى ٣٧ من سورة الذاريات) ·

ففى هذه الآيات جاء الاستفهام التشويقى في جملة تامة مستقلة ، ثم جاء المشوق إليه بعد ذلك في جملة أو في جمل أخرى .

■ والذى اخترته من آراء العلماء في معنى الاستفهام في هذه الآية الكريمة أن يكون للتعجب وللتعجيب ، وليس بين التعجب والتعجيب منافاة ولا تعارض ، فالتعجب منظور فيه إلى القائل جل جلاله ، والتعجيب منظور فيه إلى المخاطب ·

ومن الناس من ينكر أن يكون الاستفهام هنا للتعجب ويقول إن الله سبحانه وتعالى لا يعجب من شئ ، وهو يظن أن تعجبه سبحانه وتعالى سيكون كتعجب خلقه ، ولا أدرى من أين جاءه هذا الظن والله سبحانه وتعالى يقول : « ليس كمثله شئ » ، وتعجب الله تعجب يليق بكماله وجلاله ، ولا يمكن أن يكون بينه وبين تعجب غيره مشابهة ما أو مماثلة ·

على أن تعجب الله سبحانه وتعالى ثابت في القرآن الكريم وثابت في السنة المطهرة :

■ ففى القرآن الكريم يقول الله تعالى : « بل عجبت ويسخرون » قرأ حمزة والكسائى عجبتُ بضم التاء ، ورويت هذه القراءة أيضاً عن عبد الله بن مسعود وغيره(١٣) · وظاهر أن المتعجب هو الله سبحانه وتعالى ·

■ وفي السنة المطهرة روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب » حديث حسن(١٤) .

أما الرأى القائل إن الاستفهام في « ألم تر إلى ... » للتنبيه بالمعنى الذى تقدم عن الزركشى وهو (انظر بفكرك في هذا الأمر وتنبه) فحق فيما أراه وصواب . والتنبيه بهذا المعنى يستدعيه التعجيب ويقتضيه ، لأن التعجيب يقوم على أحد أمرين :

إما على الاستحسان والاستعظام والإجلال كما في قوله تعالى : « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً » الآية (٤٥) الفرقان .

وإما على الإنكار والاستهجان والاستغراب كما في قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا إن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً » الآية ٦٠ ـ النساء والحال في كلا الأمرين ببعث على التنبيه بمعنى التأمل والتبصر والاعتبار وهو ما دعا إليه القرآن الكريم في كثير من آياته .

أختى العزيزة « هل » :

■ والآن ـ قد انتهيت من الكتابة إليك بالمعانى التى جئت عليها في هذه الآية الكريمة ـ أريد أن أحدثك بالكلمات التى تلينى في هذه الآية .

لقد دخلت على (لم) النافية الجازمة للفعل المضارع (تر) وعلامة جزم هذا الفعل حذف الألف من آخره ولعلك لم تسمعى من قبل أن هذا الفعل قد قرئ بسكون الراء على توهم أن الراء آخر الكلمة أو على إجراء الوصل مجرى الوقف(١٥) . و (تر) فعل مضارع مسند إلى ضمير المخاطب ، ولكن من يكون هذا المخاطب ؟

من المفسرين من يقول إنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من يجوز أن يكون الخطاب له عليه الصلاة والسلام ولكل أحد ، ويقول التفتازانى : الأوجه عموم الخطاب للدلالة على أن هذه القصة قد بلغت من العجب حيث ينبغى لكل أحد أن يتعجب منها(١٦) .

و (تر) في هذا الاستفهام علمية تتعدى إلى مفعولين ولكنها هنا لم تأخذ مفعوليها ، وعديت بحرف الجر (إلى) لأنها ضمنت معنى ما يتعدى بهذا الحرف ، والمعنى ألم ينته علمك إلى الذين ... (١٧) .

■ ومن العلماء من يقول إنّ (تر) هنا ـ وإن كانت علمية ـ قد استعملت استعمال (تنظر) فتعدت تعديتها للإشارة إلى أن هذا الأمر قد بلغ من الوضوح والظهور والتحقق مبلغ الشئ

المحسوس المشاهد الذى تبصره العينان ولا يمكن إنكاره(١٨) ٠

و (الذين خرجوا من ديارهم) هم الذين كان حالهم عجبا وعبرة ، ولعلك تلاحظين ـ يا أخت ـ أن الآية الكريمة عبرت باسم الموصول ولم تسم جماعة بعينها ، وقالت (من ديارهم) ولم تسم مكاناً معيناً كانت فيه هذه الديار ٠ لقد ترك ذلك كله لأنه لا عبرة فيه ، وإنما العبرة فيما جاء بعد في صلة الموصول وما عطف على هذه الصلة ٠

■ لاحظى كلمة (من ديارهم والدارمن أعزما يملكه إنسان الحاضرة ، وخروجهم منها يدل على عظم ما كانوا فيه من فزع ، وهول ما كانوا فيه من خوف ٠

والتعبير بـ (ألوف) وهى من جموع الكثرة ، وترك التعبير بآلاف وهى من جموع القلة ، يدل على أنهم كانوا كثيرين جداً لا يعلم عدتهم إلا الله ٠

ثم جاءت (حذر الموت) ـ وهى مفعول لأجله ـ تبين سبب الخروج على ماهم عليه من كثرة كاثرة ٠

■ لقد أخرجهم (حذر الموت) من ديارهم : من مسارح الطفولة وملاعب الصبا ، من مجالس السهر والسمر ، ومن مهاجع الأمن والسكينة ٠ أخرجهم منها كالجراد المنتشر يهيمون على وجوههم ، يسوقهم الخوف ويحدوهم الفزع ، وقد غفلوا أو جهلوا أن الموت والحياة بيد الله ، وأن الحذر لا يدفع القدر ، فقال تعالى ليبين ذلك كله : (موتوا) ولعلك ـ يا أخت ـ تحسين ما في هذا الأمر (موتوا) من قوة وجبروت وكبرياء ، فالله هو القوى الجبار المتكبر ، ولعلك تلاحظين أن الآية الكريمة لم تذكر عاقبة هذا الأمر وهى أنهم قد ماتوا ، لأن هذا شئ مفهوم من قوله تعالى (موتوا) فأمر الله تعالى محقق النفاذ لا يتخلف (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) ٠

وقوله تعالى (ثم أحياهم) يدل بـ (ثم) على أن الإحياء لم يجئ سريعاً بعد الإماتة وإنما جاء على فترة من الموت ٠

■ وفي صيغة (أحياهم) وفي جرس حروفها تجد النفس معانى الرحمة والفضل والإحسان ٠ وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى حال هؤلاء الناس الباعثة على التعجب الداعية إلى التدبر والتبصر والاعتبار قال في ختام هذه الآية الكريمة : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » ٠

وأنت تلاحظين أن الجملة الأولى قد أكدت بثلاثة مؤكدات : إن ، واللام ، واسمية الجملة ٠ وجاء هذا التأكيد تعظيماً لشأن هذا الخبر وما اشتمل عليه ، وقد يكون لتنزيل الناس منزلة المنكرين من أجل أن أكثرهم لم يكن من الشاكرين ٠

■ ولا تنسَى أن تتذوقى ما في (ذو فضل) من قوة .، فهذه الذال مع الواو ثم هذه الضاد مع اللام المرنان قد أعطت هذه الصفة جرساً فخماً ضخماً في اللفظ وفي السمع يناسب معناها العظيم .

ويراد بـ (الناس) الناس جميعاً فهى تشمل الذين أماتهم ثم أحياهم وتشمل غيرهم .

وقد يبادر إلى الذهن من قوله تعالى : « إن الله لذو فضل على الناس) أن الناس جميعاً يشكرون لله ذلك الفضل العظيم ، فقال تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » دفعاً لهذا الذى قد يبادر إلى الذهن ويسبق في الظن ، وبياناً لواقع الناس القبيح المعيب الذى قل فيه الشكر والشاكرون .

وفي إعادة لفظ (الناس) مرة ثانية مع أن المقام مقام إضمار زيادة إيضاح وبيان لهؤلاء الذين لا يشكرون ، فزيادة إزراء عليهم وتشنيع .

أختى العزيزة « هـل » :

■ كنت أود أن أحدثك بما جاء في الآيات الأربع عشرة الباقية التى ورد فيها هذا الاستفهام (ألم تر إلى ...) ولكنى خشيت أن تملى من طول الحديث على الرغم من أن طول مثل هذا الحديث لا يمل . سأترك ذلك إلى رسالة قادمة أكتبها إليك إن شاء الله تعالى .
تعالى .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

مراجع ما ورد في هذه الرسالة مرتبة حسب ترتيب الأرقام التى جاءت فيها :

(١) ا ـ الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ٦٧ طبعة الحلبى بمصر .
ب ـ قرآن كريم (بهامشه تفسير الجلالين) الناشر مكتبة الجمهورية العربية لصاحبها عبد الفتاح عبد الحميد ـ بجوار الأزهر / ص ٥٢٤ تحت عنوان خاتمة .

(٢ ، ٣) حاشية الدسوقى على مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى جـ ١ ص ٩ الناشر مطبعة ومكتبة المشهد الحسينى ـ القاهرة .
(٤) البرهان للزركشى جـ ٢ ص ٣٢٧ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الثانية ـ الناشر عيسى البابى الحلبى وشركاؤه .
(٥) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٢٣٠ ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ـ بالقاهرة .
(٦) تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ـ جـ ٢ ص ٢٤٩ ـ طبعة مصورة عن طبعة مولاى السلطان عبد الحفيظ سلطان المغرب ـ الناشر دار الفكر .
(٧) البرهان للزركشى جـ ٢ ص ٣٤٠ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة المتقدم ذكرها

(٨) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٧٧ طبعة الحلبى بمصر ·

(٩) تفسير الجلالين / هامش الفتوحات الإلهية جـ ١ ص ١٩٧ ـ طبعة عيسى البابى الحلبى وشركاؤه بمصر ..

(١٠) الفتوحات الإلهية جـ ١ ص ١٩٧ الطبعة المتقدم ذكرها ·

(١١) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٢٣٧ الناشر مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد بالقاهرة ·

١٢ ـ شروح التلخيص / حاشية الدسوقى ـ جـ ٢ ص ٢٩٤ و ص ٢٩٥ طبعة الحلبى بمصر ·

١٣ ـ تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى جـ ٧ ص ٣٥٤ الطبعة المتقدم ذكرها ·

١٤ ـ العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية / الطبعة الثالثة ـ الناشر محمد عبد المحسن الكتبى بالمدينة المنورة ·

١٥ ـ تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى جـ ٢ ص ٢٤٩ الطبعة المتقدم ذكرها ·

١٦ و ١٧ ـ الفتوحات الإلهية جـ ١ ص ١٩٧ الطبعة المتقدم ذكرها ·

١٨ ـ تفسير المنار لمحمد رشيد رضا جـ ٢ ص ٤٥٧ نسخة مصورة / الناشر دار المعرفة ·

النظام السياسى في الإسلام

التوحيد والرسالة والخلافة هى دعائم ثلاث يقوم عليها بناء نظام الإسلام السياسى ، وليس من الميسور أن نحيط بنظم السياسة الإسلامية بجميع فروعها وشعبها إلا إذا فهمنا هذه المبادىء : التوحيد والرسالة والخلافة حق الفهم ·

«ابو الاعلى المودودى رحمه الله»



الفاعل النحوى والمعنى اللغوى :

■ نعرف أن الفاعل هو الذى قام به الفعل أو وقع منه والمفعول به هو الذى وقع عليه الفعل .

ومعروف كذلك الفرق بين الفاعل والمفعول به من الناحية اللفظية لدى النحاة فالفاعل مرفوع والمفعول به منصوب ، وهذا الفرق اللفظى يستتبع عندهم فرقاً إصطلاحيا في معنى كل جملة فمثلاً إذا قلت :
(تحرك الشجر) لفظة الشجر تعرب فاعلاً نحوياً لكن هذا الإعراب لا يتفق مع المعنى اللغوى الواقعى لكلمة (فاعل) وهو من أوجد الفعل حقيقة وباشر بنفسه إبرازه في الوجود ، لأن (الشجر) لم يفعل شيئا اذ لا دخل له في إيجاد هذا التحرك وجعله حقيقة واقعة بعد أن لم تكن ، وبالاختصار ليس لكلمة (الشجر) عمل إيجابى مطلقا في إحداث التحرك وكل علاقته بالفعل أنه استجاب له فقامت الحركة به ولابسته من غير أن يكون له دخل في إيجاد الحركة ، فأين الفاعل الحقيقى الذى أوجد التحرك وكان السبب الحقيقى في إبرازه للوجود بالطبع ليس في الجملة ما يدل عليه ، أو على شئ ينوب منا به .

■ لكنك إذا قلت حرك الهواء الشجرة تغير الأمر وظهر الفاعل الحقيقى المنشئ للتحرك الذى وقع أثره على المفعول به . وما قيل في (تحرك الشجر) يقال في (تمزقت الورقة) فإعراب الورقة فاعلاً نحوياً لا يوافق المعنى اللغوى لكلمة (فاعل) ولا يوافق الأمر الواقع ، لأن الورقة في الحقيقة لم تفعل شيئاً فلم تمزق نفسها ولا دخل لها في تمزقها ولم تحدث التمزق ولكنها تأثرت بالتمزق حين أصابها ، فأين الفاعل الحقيقى الذى أوجد التمزق لا النحوى ؟ لا وجود له في الجملة ولا دليل يدل عليه ـ لكن إذا قلت مزق الطفل الورقة ظهر الفاعل الحقيقى واتضح من أوجد الفعل بمعناه اللغوى الدقيق .

ومن خلال ما سبق يتضح أن الفاعل النحوى أحياناً لا يكون هو الفاعل الحقيقى وإنما هو المتأثر بالفعل وليس في الجملة ما يدل على الفاعل الحقيقى أو ما ينوب منا به ، وليس فيها تغيير لصورة الفعل يرشد إلى أن ذلك على سبيل النيابة عن الفاعل .

فالأفعال التى وردت على صورة المبنى للمجهول ما بعدها فاعل نحوى في الرأى الشائع الذى ورد صريحاً في كثير من المراجع كالقاموس المحيط في مقدمة (مسألة) وإن لم يتفق على المعنى اللغوى الواقعى لكننا[1] نقول بفاعليته لأنه تأثر بالفعل وما فيه من حدث وإن كان في الواقع ونفس الأمر واقعاً عليه خاصة أن بعض الأفعال الثلاثية الحدث فيها ليس من أفعال الآدميين ولا يتضح إسنادها إلا إذا أدخلت عليها همزة التعدية ولو أردت نسبتها إلى الله تعالى لكانت على (أفعل) . والثلاثى الذى ورد على صورة المبنى للمجهول يدل على الأداء .

رأى ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (٢)

■ وقد قال في شرح الكافية ما يؤيد هذا :
جاء في كلامهم بعض الأفعال على ما لم يسم فاعله ولم يستعمل منه المبنى للفاعل والأغلب في ذلك الأدواء ، ولم يستعمل فاعلها لأنه من المعلوم في غالب العادة إنه هو الله تعالى فحذف للعلم به وتلك الأفعال نحو :

جن ، وسلّ ، وزكم ، وورد ، وحم ، ووعك قال سيبويه[3] . : لو أردت نسبتها إليه تعالى لكان على أفعل نحو أجنة الله ، [4] وأسله الله ، وأورده أى فعل به ذلك ، وذلك لأن فعل المذكور لم يأت منه (فعلته) ولعل ذلك لأنه لما لم يأت من فعل المذكور كجنّ وسل (فعلته) صار كألم ، ووجع وعمى ونحو ذلك من الألام التى بابها فعل (المكسور العين) فصار يعدى إلى المنصوب كما يعدى باب (فعل) وذلك بالنقل إلى (أفعل) المتعدى ..
انتهى كلام الكافية .

رأى ابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (٥) :

■ وقبل ابن الحاجب بمائتى سنة تقريباً نجد ابن سيده يقرر بأن هذه الأفعال منها مالا يستعمل إلا على تلك الصيغة كعنيت بحاجتك ، ومنها ما تكون عليه هذه الصيغة أغلب كزهيت

---

(١) أنظر القاموس المحيط في مقدمته تحت عنوان : (المقصد في بيان الأمور التى اختص بها القاموس) " مصدر فعل " .

(٢) أنظر شرح الكافية جـ ٢ ص ٢٧٢ .
(٣) أنظر سيبويه جـ ١ ص ١٥ .
(٤) يقال جنة وأجنه . . وجن عليه الليل إذا أظلم عليه وستره جنوناً وجناناً وجننت الرجل وأجننته إذا وقفت (أنظر كتاب فعلت وأفعلت للزجاج باب الجيم ص ١٣٥ .

(٥) أنظر المخصص جـ ١٥ ص ٧٢ باب ما جاء من الأفعال على صيغة مالم يسم فاعله .

علينا ، فإن ابن السكيت حكى (زهوت) وابن سيدة يقرر في المخصص نفسه (١) (باب ما جاء (فعل) منه على غير أفعلت) وذلك نحو جنّ وسلّ ، وورد ، (ومعنى ورد حمّ) وكذلك رعد ومرعود ومورد (ومحموم بمعنى واحد ، وقالوا على هذا مجنون ومسلول ومحموم وموررود ، وإنما جاءت هذه الحروف على (جننت) و (سللت) وإن لم يستعمل في الكلام ثم قال : وقال بعضهم رجل محبوب وكان حقه أن يقال في فعله (حببته) فهو محبوب كما يقال : وددته فهو مودود ، والمستعمل (أحببته) وقد قال بعضهم (حببته) قال الشاعر وهو غيلان بن شجاع النهشلى (٢) :

فو الله لـولا تمـره ما حببته ولا كان أدنى من عبيد ومشرق

■ وقد ذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في الكامل(٣) أن أبا جار العطاردى قرأ : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » .. وذكر أن فيه شيئين من المخالفة :

أحدهما : أنه فتح الياء من (يحبكم) ، والآخر أنه أدغم وذكر غير سيبويه أن هذه الأشياء(٤) التى ليست من أفعال الآدميين وقد جاءت على مفعول وفعله مما لم يسم فاعله إذا نسبت الفعل إلى الله عز وجل كان على (أفعل) نحو أجنه الله وأسله وأزكم وأورده ، أى فعل الله به ذلك ، ومما أورده غير سيبويه من هذا النحو : محزون ، ومزكوم ، ومكزوز ، ومقرور .

قال أبو عبيد : وإنما ذلك لأنهم يقولون في هذا كله :
قد (فعل) ثم بنى مفعول على هذا ، قال ولا يقولون حزنه الأمر ويقولون (يحزن) وهذا خلف من نقله وإنما أوردته للتحذير من اعتقاده ، وقد قدمت من كلام سيبويه ما دل على ذلك ، (وحزنه) مقولة كثيرة (أبو عبيد) وكل هذا يقال فيه : مفعول ولا يقال (مفعل) إلا حرف واحد وهو قول عنترة :

ولقد نزلت فلا تظنى غـيره منى بمنزلة المحب المكرم

■ وقال : أزعقه فهو مزعوق على هذا القياس حكاها عن الأموى .. وقال غيره : زعقته بغير ألف فانزعق أى فزع فإذا كان هذا فمزعوق على القياس وأنشد :

تعـلّمن أن عليك سائقا لا مبطئا ولا عنيفا زاعقا
لبّا باعجاز المطى لاحقا (٥)

---

(١) أنظر المخصص السفر ١٤ ص ١٧٦ .
(٢) أنظر اللسان (حبب) .
(٣) أنظر الكامل جـ ١ ص ٣٣٩ باب الرجل من بنى أسد يمدح ابن حيان .
(٤) الملحوظان الفعل (حب)ط معناه الحقيقى مسند لله تعالى : على قول الرسول اللهم : هذ سمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك (لأنه في معرض الحديث عن الحب) .
(٥) اللب : اللازم لها لا يفارقها يقال رجل لبّ وامرأة لبة أى نظيفة قريبة من الناس .

■ ثم قال وقال الفراء (برّ حجّك) فهو مبرور فإذا قالوا : (أبر الله حجك) قالوا بالألف فهو مبرور وقالوا : المبروز من أبرزت وأنشد :

أو مذهب جدد على الواحنّ الناطق المبروز والمختوم

وقالوا : المضعوف من أضعف قال لبيد :

وعالين مضعوفا ودرا سموطه جمان ومرجان يشد المفاصلا

ومن هذا الباب(١) أمرضه الله فهو من المرض ، وآرضه من الأرض وهو الزكام ، وأملاه من الملاءة ، وأضأده من الضؤده وكله الزكام وكل هذا يقال فيه مفعول ولا يقال (مفعل) وكذلك مهموم من أهمه الله تعالى .

رأى ابن جنى المتوفي سنة ٣٩٢ هـ :

■ قال في الخصائص (٢) : وعلة ما جاء من أفعلته فهو مفعول نحو : أجنه فهو مجنون ، وأسله فهو مسلول وبابه أنهم إنما جاءوا به على (فعل) نحو : جن فهو مجنون ، وزكم فهو مزكوم ، وسل فهو مسلول وكذلك بقيته ، فإن قيل لك من بعد : وما بال هذا خالف فيه الفعل مسنداً إلى الفاعل صورته مسند إلى المفعول ، وعادة الاستعمال غير هذا وهو أن يجئ الضربان معاً في عدة واحدة نحو : ضربته وضرب ، وأكرمته وأكرم ، وكذلك مفاد هذا الباب .

قيل أن العرب لما قوى في نفسها أمر المفعول حتى كاد يلحق عندها برتبة الفاعل وحتى قال سيبويه(٣) فيهما : « وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم » خصّوا المفعول إذا أسند الفعل إليه بضربين من الصنعة ، أحدهما تغيير صورة المثال المسند إلى المفعول عن صورته مسند إلى الفاعل والعدّة واحدة وذلك نحو : ضرب زيد وضرب ، وقتل وقتل ، وأكرم وأكرم ، وحرج ودحرج .

والآخر أنهم لم يرضوا ولم يقتنعوا بهذا القدر من التغيير حتى تجاوزوه إلى أن غيروا عدة الحروف مع ضم أوله كما غيروا في الأول الصورة والصيغة وحدها وذلك نحو قولهم : (أحببته وحبَ) وأزكمه وزكم وأضأده وضئد ، وأملأه الله وملىء .

■ قال أبو على (٤) : فهذا يدلك على تمكن المفعول عندهم وتقدم حاله في أنفسهم إذ أفردوه بأن

---

(١) أنظر المزهر جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(٢) أنظر الخصائص جـ ٢ ص .

(٣) أنظر سيبويه جـ ١ ص ١٥ .

(٤) أبو على الفارسى إستاذاً ابن جنى توفى سنة ٣٧٧ هـ .

صاغوا الفعل له صيغة مخالفة لصيغته وهو للفاعل ، وهذا ضرب من تدريج اللغة عندهم(١) ، ألا ترى أنهم لما غيروا الصيغة والعدة واحدة في نحو : ضرب ، وضرب ، وشتم وشتم تدرجوا من ذلك إلى أن غيروا الصيغة مع نقصان العدة نحو : أزكم وزكم وآرضه ، وأرض .

وهذا الموضع هو الذى دعا أبا العباس أحمد بن يحى في كتاب فصيحه أن أفرد له باباً فقال هذا باب (فعل) بضم الفاء نحو قولك عنيت بحاجتك وبقية الباب . إنما غرضه فيه إيراد الأفعال المسندة إلى المفعول ولا تسند إلى الفاعل في اللغة الفصيحة ، ألا تراهم يقولون : (نخى زيد) من النخوة ولا يقال : نخاه كذا ، ويقولون امتقع لونه ، ولا يقولون امتقعه ويقولون : انقطع الرجل ولا انقطع به هكذا فلهذا جاء بهذا الباب أى ليريك أفعالاً خصَت بالإسناد إلى المفعول دون الفاعل كما خصت أفعال بالإسناد إلى الفاعل دون المفعول ، نحو قام زيد وقعد جعفر وذهب محمد ، وانطلق بشر ، ولو كان غرضه أن يريك صورة ما لم يسم فاعله مجملاً غير مفصل على ما ذكرنا لأورد فيه نحو : ضرب وركب ، وطلب ، وقتل ، وأكل ، وسمل ، وأكرم ، وأحسن إليه ، واستقصى عليه ، وهذا يكاد يكون إلى مالا نهاية له ، فاعرف هذا الغرض فإنه أشرف من حفظ مائة ورقة لغة ... إنتهى .

رأى ابن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧ هـ (٢) .

وسبق أن تعرضت لرأى ابن درستويه في هذا المقام حيث يقول :

(عامة أهل اللغة يزعمون أن هذا الباب لا يكون إلا مضموم الأول ، ولم يقولوا : أنه إذا سمى فاعله جاز بغير ضم ، وهذا غلط منهم لأن هذه الأفعال كلها مفتوحة الأوائل في الماضى ، فإذا لم يسم فاعلها فهى كلها مضمومة الأوائل ولم نخص بذلك بعضها دون بعض وقد بينا ذلك بعلته وقياسه فيجوز : عنيت بأمرك وعنانى أمرك ، وشغلت بأمرك وشغلنى أمرك ، وشدهت بأمرك وشدهنى أمرك) .

ولا شك أن ما بعد هذه الأفعال مسند إليها على الفاعلية ، سواء أكان الفعل فاعلاً في الواقع ونفس الأمر ، أم كان المتأثر بالفعل وليس في الجملة ما يدل على الفاعل كالحال مع بعض الأساليب التى يكون الفعل فيها مسنداً حقيقة إلى الله ، ويجئ بعدها الإسم المتأثر بالفعل نظراً لعدم وجود الفاعل الحقيقى خاصة بعض الأفعال جاءت على سمت مخصوص وهو ضم الفاء في غالب استعمالها فيظن بعضهم أنها مبنية للمجهول وملازمة لهذا الشكل نظراً لغلبة استعمال العرب لهذا الشكل ولا يجوز القياس على ما قل وهو ورود الكلمة على ضبط آخر كفتح الفاء مثلاً في الفعل الذى ألزم بعضهم ضم أوله يقول ابن جنى(٣) .

---

(١) لابن جنى بحث في تدريج اللغة جـ ١ ص ٣٤٧ من كتاب الخصائص فانظره .

(٢) أنظر شرح ابن دستوريه على الفصيح ص ٧٨ .

(٣) أنظر الخصائص جـ ١ ص ٣٧٢ .

■ (وإن كانت إحدى اللفظتين أكثر في كلامه من صاحبتها ، فأخلق الحالين به في ذلك أن تكون القليلة في الاستعمال هى المفادة ، والكثيرة هى الأولى الأصلية ، نعم ، وقد يمكن في هذا أن تكون القلّى منهما إنما قلت في استعماله لضعفها في نفسه ، وشذوذها عند قياسه ، وإن كانتا جميعاً لغتين له ولقبيلته وذلك أن من مذهبهم أن يستعملوا من اللغة ما غيره أقوى في القياس منه) .

أو أن ذلك ليس لغة ولكنه صنعة في التدريج وذلك أن يشبه شئ شيئاً من موضع فيمضى

حكمه على حكم

الأول ، ثم يرقى منه إلى غيره فلما وجدوا أن الفعل بضم الفاء أجروه مجرى المبنى للمجهول ، ثم تدرجوا فجعلوه ملازماً للبناء للمجهول حقيقة ... ولكن هذا كما يقول ابن درستويه وابن برَى وكثير من المحققين لا يخرجه عن جواز استعمال حالته الأولى ..

يقول ابن جنى(١) وهذا باب مطرد متقاود وقد كنت ذكرت طرفاً منه في كتابى (شرح تصريف أبى عثمان) غير أن الطريق ما ذكرت لك فكل ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم ولهذا قال من قال في العجاج ورؤبة : انهما قاسا اللغة وتصرفا فيها وأقدما على ما لم يؤت به قبلهما ، وقد كان الفرزدق يلغز بالأبيات ، ويأمر بإلقائها على ابن اسحق(٢) .

رأى ابن برى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ :

■ من المحققين الذين أدلوا برأيهم في هذا الموضوع العلامة ابن برَى وقد أنكر ما وضعه ثعلب في فصيحه من الأفعال الملازمة للبناء للمجهول وقد وضح هذا من خلال انتصاره للعلامة الحريرى مما نسبه إليه ابن الخشاب ولقد خطأ الزجاج المتوفي سنة ٣١٠ هـ ثعلبا في فصيحه وتعقبه باعتراضات عشرة بينما كتاب الفصيح كله عشرون ورقة وقد ذكرت هذه الاعتراضات في معجم الأدباء ترجمة الزجاج ، كما ذكرت أيضاً في الأشباه والنظائر للسيوطى الفن السابع ، وكذلك المزهر النوع التاسع معرفة الفصيح حتى إن ثعلبا كاد ينكر نسبة الفصيح إليه ، ولقد تعصب ابن خالويه لأنه كوفي النزعة فرد على اعتراضات الزجاج وردوده مبسوطة في الأشباه والنظائر الفن السابع جـ ٤ .

ثمرة الخلاف والبحث

■ الملحوظ أن بعض الأساليب في اللغة العربية له علاقة عند صوغه بالفعل المبنى للمعلوم ، فمثلاً أسلوب التعجب لا يصاغ على ما أفعله وأفعل به إلا من الفعل المبنى للمعلوم ، وأسلوب

---

(١) أنظر الخصائص باب في تدريج اللغة جـ ١ ص ٣٤٧ .
(٢) أنظر الخصائص باب في تدريج اللغة جـ ١ ص ٣٦٩ .
يريد عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى من الذين ساهموا في وضع النحو المتوفي سنة ١١٧ هـ .

التفضيل يشترط لتأديته معنى المفاضلة بدون واسطة أن يكون فعله مبنياً للمعلوم .. فإذا كان الفعل مبنياً للمجهول لا يصاغ أسلوب التعجب وأسلوب التفضيل إلا بواسطة ويذكر بعدها مصدر الفعل الذى كان مبنياً للمجهول .

أما الأفعال التى عرفناها قبل وبوب لها اللغو يون أنها ملازمة للمجهول سماعاً فهذه الملازمة فيها الخلاف المذكور عن العلماء سابقاً ، فعلى رأى أبى العباس ثعلب ومن معه أن هذه الأفعال ملازمة للبناء للمجهول ولا يتعجب منها مباشرة بل يتعجب منها بالواسطة ، وكذلك يصاغ أسلوب التفضيل منها بالواسطة ...

وترتب على هذا طرح كثير من أساليب التعجب وأساليب التفضيل من هذا النوع لأنه بدون واسطة فيكون شاذاً لا يقاس عليه فلا يصح أن تقول على مذهب بعضهم ما أزهى كذا ولا يصح أن تقول : هو أزهى من ديك ... وفي هذا تضييق على اللغة العربية .

والتحقيق أن هذه الأفعال المعروفة ببنائها للمجهول دائماً ليست كغيرها من بقية الأفعال الأخرى فهى تبنى حيناً للمعلوم وتارة أخرى تبنى للمجهول على حسب مقتضيات المعنى ودواعى الاستعمال الصحيح ..

وبناء على ذلك أنه يجوز أن يصاغ من مصادر الأفعال مباشرة من غير وسيط (صيغتا التعجب) القياسى وهذه الصياغة قياسية وليست بشاذة ولا مخالفة فيها وكذلك يصاغ من مصادر تلك الأفعال مباشرة من غير واسطة « أفعل التفضيل » وفوق هذا يؤيد فريق من النحاة ومنهم ابن مالك صياغة التعجب من مصدر تلك الأفعال على فرض أنها ملازمة البناء للمجهول أما الأفعال الأخرى التى ليست ملازمة البناء للمجهول فلا يصح التعجب المباشر منها إتفاقاً إذا كانت مبنية للمجهول عند الصياغة للتعجب أو التفضيل .

ويكون قولهم : هو أزهى من ديك ، وقولهم : ما أزهى كذا ، وقولهم : ما أعنى فلاناً بحاجتك ، وهو أعنى بحاجتك من الأساليب القياسية التى يصح أن تحذو حذو فعلها وتنسج على منوالها دون شذوذ كما استعمله سيبويه .

وإليك آراء العلماء :

رأى ابن الحاجب[1] :

(قال في مبحث أفعل التفضيل : وقياسه للفاعل يعنى يقاس لتفضيل الفاعل على غيره في الفعل كأضرب أى ضارب أكثر ضرباً من سائر الضاربين ولا يقال أضرب بمعنى مضروب أكثر

---

(١) أنظر الكافية جـ ٢ ص ٢١٤ مبحث أفعل التفضيل .

مضروبية من سائر المضروبين وإنما كان القياس في الفاعل دون المفعول لأنهم لو جعلوه مشتركاً بين الفاعل والمفعول لكثر الاشتباه لاطراده وأما سائر الألفاظ المشتركة فاغتفر فيها الاشتباه لقلتها لكونها سماعية وأرادوا جعله في أحدهما أظهر دون الآخر فجعلوه في الفاعل قياساً قياساً لكونه أكثر من المفعول إذ لا مفعول إلا وله فاعل في الأغلب ولا ينعكس وإنما قلنا في الأغلب احترازاً من نحو مجنون ومبهوت فلو جعلوه حقيقة في المفعول لبقى اسم الفاعل مع أنه أكثر عرياً عما يطلب فيه من معنى التفضيل إلا بالقرينة لعدم اللفظ الدال عليه حقيقة وقد استعملوه في المفعول أيضاً على غير قياس نحو أغدر وأشهر، وألوم، وأشغل أى أكثر معذورية ومشهورية، وملومية ومشغولية ومنه أعنى في قول سيبويه وهم بشأنه أعنى).

وقال في مبحث التعجب(١) :

■ (ولا يبنى فعل التعجب من المبنى للمفعول لما مر في أفعل التفضيل ويجوز تعليل اقتناع مجيئهما للمفعول بكونهما مأخوذين من فعل المضموم العين كما ذكرنا وهو لازم وربما بنى من المبنى للمفعول إذا أمن التباسه بالفاعل نحو ما أجنه وما أشهره، وما أمقته إلى وما أعجبه إلى، وما أشهاه إلى فيتعدى كما ذكرنا في أفعل التفضيل إلى ما هو فاعل في المعنى بالى أو بعند نحو أحظى عندى وذلك إذا تضمن معنى الحب والبغض قال سيبويه جميع ذلك مبنى على فعل وإن لم يستعمل فكأن أبغضه وأعجبه وأمقته من بغض وعجب ومقت وأن لم يستعمل وأشهاه من شهو كما يقال نعمت اليد يده وقياس التعجب من المبنى للمفعول أن يكون الفعل المبنى له صلة لما المصدرية القائم مقام المتعجب منه بعد).

وقد يتعين أن يرفع أفعل التفضيل نائب الفاعل وذلك بقرينة تحتاج إلى توضيح فالمعروف أن أفعل التفضيل إذا كان مصدر فعل متعد بنفسه دال على الحب أو البغض أو بمعناها فإن تعدى باللام كانت اللام ومجرورها مفعولاً به في المعنى لا في الاصطلاح النحوى نحو المؤمن أحب للدين من الغربى وأبغض للخروج على أحكامه فالتقدير يحب المؤمن الدين ويبغض الخروج على أحكامه وإذا تعدى بالى كانت إلى ومجرورها فاعلاً معنوياً لا نحوياً وما قبل أفعل هو المفعول المعنوى لا النحوى نحو العلم أحب إلى النابغ من متع الحياة فالتقدير يحب النابغ العلم أكثر من متع الحياة وقد يرفع أفعل التفضيل الفاعل الظاهر كما في قولك : ما رأيت رجلاً أكمل في وجهه الاشراق منه في وجه العابد المخلص.

فالإشراق فاعل لأفعل التفضيل والتقدير ما رأيت رجلاً يكمل في وجهه الإشراق فحيث صح إقامة الفعل مقامه صح أن يرفع الفاعل.

■ فإن كان أفعل التفضيل الرافع للظاهر من مادة الحب أو البغض تعين أن يكون مرفوعه نائب فاعل كما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم ما من أيام أحب إلى الله منها الصوم منه في عشر ذى الحجة، وفي رواية أخرى من أيام العشر، فالصوم مرفوع نائب فاعل أحب لأنه بمعنى محبوب من حب الثلاثى ففيه شذوذ لبنائه من المجهول إلا عند من جوزه، مع أمن اللبس وانظر حاشية الخضرى جـ ٢ ص ٥٢ ومثله ما ورد في الأشمونى : لا يكن غيرك أحب إليه الخير منك إليه فالخير نائب فاعل

، فالقرينة هنا أن أفعل من مادة الحب أو البغض قد تعدى بالى وهى ومجرورها فاعل في المعنى فالمرفوع بعده يكون نائب فاعل قال في شرح الكافية جـ ٢ ص ٢٢٠ ٠

« وإن كان الفعل يفهم منه الحب أو البغض تعدى إلى ما هو فاعل في المعنى أى المحب أو المبغض بالى نحو هو أحب إلى وأشهر إلى ، وأعجب إلى وهو أبغض إليك ، وأمقت إليك ، وأكره إليك لأن أفعالها تتعدى إلى المحب والمبغض بإلى أيضاً كقوله تعالى : (وحبب إليكم الإيمان وكره إليكم الكفر) وهذه كلها بمعنى المفعول كأحمد وأشهر وأجن وقد مرانه غير قياس » ٠

رأى يس العيمى والشيخ خالد الأزهرى :

■ قال في التصريح(١) وبعضهم يستثنى من الفعل المبنى للمفعول ما كان ملازماً لصيغة (فعل) بضم أوله وكسر ثانيه نحو :

عنيت بحاجتك ، وزهى علينا بمعنى تكبر فيجيز التعجب منه لعدم اللبس فتقول : ما أعناه بحاجتك ، وما أزهاه علينا وجرى على ذلك ابن مالك وولده بناء على أن علة المنع خوف الالتباس ، وأما من جعل علة المنع التشبيه بأفعال الخلق بجامع أن كلا منها لا كسب للمفعول فيه فينبغى أن لا سيتثنى شيئاً ويؤول ما ورد من ذلك على أن التعجب فيه من فعل مفعول في معنى فعل فاعل لم ينطق به) ٠

قال السيوطى في الأشباه والنظائر(٢) قال في البسيط قياس التفضيل في أفعل أن يكون على الفاعل نحو زيد فاضل وعمرو أفضل منه ، لا على نحو خالد وبكر أفضل منه لأنهم لو فضلوا على الفاعل والمقعول لالتبس التفضيل على الفاعل بالتفضيل على المفعول فلما كان يفضى إلى اللبس كان التفضيل على الفاعل أولى لأنه كالجزء من الفعل والمفضول فضله فكان التفضيل على ما هو فالجزء أولى من التفضيل على الفضلة ٠

وقال في التصريح مبحث التفضيل (٣) :

■ وسمع بناؤه من فعل المفعول كهو أزهى من ديك بنوه من زهى بمعنى تكبر قال في الصحاح لا تتكلم العرب به لا مبنياً للمفعول وإن كان بمعنى الفاعل ، وحكى ابن دريد زها يزهو أى تكبر فعلى ما حكاه ابن دريد لا شذوذ فيه لأنه من المبنى للفاعل ،وقال الصبان(٤) مثل ذلك : وسمع هو أشغل من ذات النحيين بنوه من شغل بالبناء للمفعول وسمع هو أعنى بحاجتك بنوه من عنى بالبناء للمفعول وسمع فيه عنى كرضى بالبناء للفاعل فعلى هذا لا شذوذ فيه ٠

---

(١) أنظر التصريح جـ ٢ ص ٩٣ مبحث التعجب ٠

(٢) أنظر الأشباه والنظائر ص ٢٧٠ مبحث اللبس محذور ٠

(٣) أنظر التصريح جـ ٢ ص ١٠١ ٠

(٤) أنظر الصبان على الأشمونى جـ ٣ ص ٣٣ ٠

■ وقد علق الصبان على هذا بقوله : إنما كان مصوغاً من المبنى للمفعول لأن المراد أنها أكثر مشغولية لا أنها أكثر شغلا لغيرها وإنما كان يصاغ من المبنى للفاعل إذا ناسب المقام ومن مجئ فعله مبنياً للفاعل : شغلتنا أموالنا وأهلونا) فما ذكره الناظم من أن شغل مما لزم البناء غير مسلم . انتهى تعليق الصبان على المثل ..

وقال الأشمونى(١) « وبعضهم يستثنى ما كان ملازما لصيغة فعل نحو عنيت بحاجتك ، وزهى علينا فيجيز ما أعناه بحاجتك ، وما أزهاه علينا » وقال في مبحث التفضيل : (وسمع صوغه من فعل المفعول كهو أزهى من ديك ، وأشغل من ذات النحيين) .

وبالبحث في كتب اللغة وجدت أساليب كثيرة تصحح لنا أن نتوسع فيما ضيقوا حتى تنتهى إلى قياسية كثير مما اعتبروه شاذاً ففى الأمثال للميدانى وأمثال القالى وشرح الألفية والتسهيل فقد سمع عنهم أنهم قالوا : أجن من دقة(٢) (من أجن) ، أزهى من ديك(٣) وأشغل من ذات النحيين(٤) ، وأشهر من الحمر(٥) .

وقال أبو قطيفة :

القصر فالنخل فالجماء بينهما أشهى الى القلب من أبواب جبزون

وأعمر من نسر (من عمر) (٦) .

أعنى في كلام سيبويه مثل به الزمخشرى في المفصل وأقصف من بردقة(٧) أكسى من بصلة (من كسى) وأولع من كذا(٨) ، وأشهر من كذا وردت أمثلة كثيرة منه في أمثال القالى والميدانى .

■ وقد حصر بعض أعضاء مجمع اللغة العربية أكثر من هذا (٩) . فكثرة الأمثلة تجوز القياس عليه ، وقد قال ابن مالك في التسهيل أن فعل التعجب يبنى من فعل المفعول إذا أمن اللبس ، قال المرادى : وذلك مذهبه في أفعل التفضيل ، ولا غرو فهو أوغل علماء العربية في هذا المسلك من قياس

---

(١) أنظر الأشمونى جـ ٣ ص ١٧ ـ ٣٣ .
(٢) أمثال الميدانى .
(٣) أمثال القالى والميدانى .
(٤) أمثال الميدانى والقالى .
(٤) أمثال الميدانى والقالى .
(٥) أمثال الميدانى .
(٦) أمثال الميدانى .
(٧) المرجع السابق .
(٨) شرح التسهيل .
(٩) أنظر البحوث والمحاضرات لمجمع اللغة العربية سنة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ م .

أحد البابين على الآخر ، وقد سبق ابن مالك في هذا الزمخشرى في المفصل وتبعه ابن الحاجب في الكافية وجاء بعدهما ابن مالك في كتبه كلها .. فقد حملوا كلا من بابى التعجب وأفعل التفضيل على الآخر بحيث أنه لا يصاغ أفعل التفضيل إلا مما يصاغ منه فعلا التعجب وكل ما امتنع أن يصاغ منه فعلا التعجب امتنع أن يصاغ منه أفعل التفضيل وما لا فلا وقد جعل الزمخشرى وابن الحاجب التفضيل أصلا لهذا القياس وجعل ابن مالك التعجب أصلاً لهذا القياس والتفضيل فرعا ، والذى درج عليه الزمخشرى وتابعوه من القياس الجارى بين أفعل التفضيل وأفعل في التعجب يكاد يكون أمراً لم يرجع إليه ليتخذ ضابطاً في التعليم والتأليف لتقريب المسائل وطر القواعد وتيسير الحفظ لا غير .. وليس في ذلك من أنواع القياس التى أطنب فيها أبو الفتح ابن جنى في الخصائص فإنها كلها ترجع إلى إعطاء حكم إعرابى ، أو صيغة اشتقاقية للفظ لم يرد في كلام العرب على ذلك الحكم أو تلك الصيغة فيقرر حكم النظير المسموع للنظير غير المسموع الحاقاً به وقياساً عليه .. لأن هناك فوارق بين التعجب والتفضيل تفضى بنا إلى أن قياس أحدهما ليس له مسلك ممهد وإنما هو مجرد قياس شبه كما يقول الأصوليون وهو غير معتبر على أن التحامل بين البابين لم يتبين فيه أصل من فرع .

كثرة الاستعمال اعتمدت في كثير من أبواب العربية :

■ وحيث أن الأساليب التى جاءت من الفعل المبنى للمفعول للدلالة على التعجب أو أفعل التفضيل قد كشفت عن عدد كثير من الأمثلة ولست أدرى كيف خفيت هذه النصوص على كثير من اللغويين والنحاة القدامى حتى رتبوا على وجود نوع وهمى من الأفعال يلازم البناء للمجهول أحكاماً خاصة كمنعهم مجئ صيغتى التعجب من الثلاثى مباشرة وعدم صحته إلا بواسطة ومنعهم صوغ أفعل للتفضيل من مصادرها إلا بالواسطة كذلك ، وقد عثرنا على الأساليب التى توحى بكثرة الاستعمال من هذه الأفعال ، وكثرة الاستعمال قد اعتمدت في كثير من أبواب العربية وهأنذا أسوق طرفاً منها مما جاء في كتاب الأشباه والنظائر للسيوطى(١) فقد عقد باباً تحت هذا العنوان (كثرة الاستعمال اعتمدت في كثير من أبواب العربية :

١ ـ منها حذف الخبر بعد لولا قال ابن يعيش في (شرح المفصل) حذف خبر المبتدأ من قولك : لولا زيد خرج عمرو لكثرة الاستعمال حتى رفض ظهوره ولم يجز استعماله .

٢ ـ وقال صاحب البسيط : إنما اختصت غدوة بالنصب بعد أن دون بكرة وغيرها لكثرة استعمال غدوة معها وكثرة الاستعمال يجوز منه مالا يجوز مع غيره .

٣ ـ وقال ابن جنى : أصل (هلم) عند الخليل (ها) للتنبيه (ولم) أى لَمّ بنا ثم كثر استعمالها فحذفت الألف تخفيفاً .

٤ ـ وفي تذكرة الفارسى : حكى أبو الحسن والفراء أنهم يقولون (أيش لك) قال والقول فيه عندنا أنه أى شئ فخفف الهمزة وألقى الحركة على الياء فتحركت الياء بالكسرة فكرهت الكسرة

---

(١) أنظر الأشباه والنظائر جـ ١ ص ٢٦٦ ـ ٢٧٠ فقد اختصرت ما قاله هنا .

فيها فأسكنت فلحقها التنوين فحذفت لالتقاء الساكنين ، كما أنه لما خفف « هو يرم إخوانه » فحذفت الهمزة وطرح حركتها على الياء كره تحركها بالكسرة فأسكنها وحذفها لالتقائها مع الخاء من الاخوان فالتنوين في (أيش) مثل الخاء في اخوانه ، قال فإن قلت الاسم يبق على حرف واحد قبل إذا كانم ذلك شئ في (ايش) وحسن ذلك أن الإضافة لازمة فصار لزوم الإضافة مشبها له بما في نفس الكلمة حتى حذف منها فقالوا فيم وبم ولم فكذلك (أيش) .

٥ ـ وقال ابن فلاح في المغنى : المصدر الذى يجب إضمار فعله إنما وجب اضماره لكثرة الاستعمال ومعنى كثرة الاستعمال أنه تقرر في أذهانهم أنهم لو استعملوها لكثرة استعمالها فخففوها بالحذف وجعلوا المصدر عوضاً منها .

٦ ـ وقال ابن الدهان في الغرة ذهب الأخفش الى أن ما غير لكثرة استعماله إنما تصورته العرب قبل وضعه وعلمت أنه لابد من استعماله فابتدءوا بتغييره علما بأن لابد من كثرة استعماله الداعية إلى تغييره كما قال :

رأى الامر يفضى الى اخر   فصير اخره أولا

ومن هذه النصوص يتبين أن العرب قد اعتمدت كثرة الاستعمال فلم لا نعتمد كثرة استعمال أفعل التفضيل وصيغتى التعجب من هذه الأفعال التى توهموها ملازمة للبناء للمجهول قياساً يقاس عليه ؟

ففى هذا توسيع لما ضيقه بعضهم وجعله شاذاً لأنهم بنوا حكمهم على وجود نوع وهمى من الأفعال يلازم البناء للمجهول .

■ فهذه الأفعال التى حصرها قدماء اللغويين وحصروها في باب الأفعال الملازمة للبناء للمجهول معظمها يرجع إلى ثلاثى مبنى للمعلوم وإن كان لا يلحظه البعض بسهولة أو لا يطرد فيه ذلك نتيجة للخلط بين الفاعل النحوى والمعنى اللغوى وبعضها لا يسهل تحقيق ذلك فيه لأنه من المعلوم في غالب العادة أنه هو الله تعالى فحذف للعلم به حتى قال سيبويه(١) لو أردت نسبتها إليه تعالى لكان الفعل على (أفعل) نحو أجنه الله أى فعل به ذلك وقال غير سيبويه أن هذه الأفعال التى ليست من أفعال الآدميين وقد جاءت على مفعول وفعله مما لم يسم فاعله إذا نسب الفعل إلى الله عز وجل كان على (أفعل) ... فمجئ الصفة على مفعول دليل قاطع على الجذر الثلاثى للفعل وأنه مبنى للمعلوم جاء على صورة المبنى للمجهول ففى هذا جانب من صواب وفائدة على أن ابن جنى في الخصائص(٢) يعقد بابا في نقض العادة يقول : غير أن ضرباً من اللغة جاءت فيه هذه القضية معكوسة مخالفة فنجد فعل فيها متعدية وأفعل غير متعد وذلك قولهم : أجفل الظليم وجفلته الريح ، وأشفق البعير إذا رفع رأسه وشنقته ، وأنزف البئر إذا ذهب ماؤها ونزفتها وأقشع الغيم وقشعته

---

(١) أنظر سيبويه جـ ١ ص ١٥ .

(٢) أنظر الخصائص جـ ٢ ص ٢١٤ ـ ٢١٧ .

الريح وأنسل ريش الطائر ونسلته ، وأمرت الناقة ومريتها إذا در لبنها ونحو من ذلك نحو ألوت الناقة بذنبها ولوت ذنبها ، وصر الفرس (١) أذنه ، وأصر بأذنه وكبه الله على وجهه ، وكب هو ، وعلوت الوسادة وأعليت عنها ..

■ فهذا نقص عادة الاستعمال لأن فعلت فيه متعد وأفعلت غير متعد ، وعلة ذلك عندى أنه جعل تعدى فعلت وجمود أفعلت كالعوض لفعلت من علية أفعلت لها على التعدى نحو جلس وأجلسته ثم يقول : ونحو من ذلك ما جاء عنهم من أفعلته فهو مفعول وذلك نحو أحببته فهو محبوب وأجنه الله فهو مجنون وأزكم فهو مزكوم ، وأكزه فهو مكزوز(٢) ، وأقره فهو مقرور ، وأرضه فهو مأروض ، وأملأه فهو مملوء وأضأده فهو مضئود(٣) وأحمه الله فهو محموم (من الحمى) وأهمه ـ من الهم ـ فهو مهموم وأزعقته فهو مزعوق أى مذعور .. قالوا وعلة ما جاء من أفعلته فهو مفعول نحو أجنه الله فهو مجنون وبابه أنهم إنما جاءوا به على (فعل) (بضم أو كسر ثانيه) نحو جن فهو مجنون وزكم فهو مزكوم .. الخ(٤) .

فهذا النوع من الأفعال جاء على صورة المبنى للمجهول لأن العرب خصوا المفعول بنوع من العناية حتى قوى في أنفسها وكأنهم أولا غيروا صورة الفعل وهو مسند إلى المفعول عن صورته وهو مسند إلى الفاعل والصورة والصيغة واحدة ثم ترقوا من ذلك وتدرجوا إلى أن غيروا الصيغة فضموا الأول مع نقصان العدد فقالوا أزكم (وزكم) بضم أوله وكسر ثانيه فهذا من باب التدريج في اللغة الذى عناه ابن جنى بقوله (٥) :

(وذلك أن يشبه شئ شيئاً من موضع فيمضى حكمه على حكم الأول ثم يرقى منه إلى غيره) .

■ فأنت تشاهد أن هذه الأفعال بعد هذا التدريج أصبح لها صورتان الصورة الأصلية والصورة المسموعة عن أكثر العرب نتيجة هذا التدرج في الاستعمال والذى يدل على هذا أن المعاجم العربية تشير إلى هذا الأصل الذى أصبح في عالم النسيان عند بعض اللغويين كثعلب ففى القاموس مادة (عناه) الأمر يعنيه ويعنوه عناية بالكسر وعناية بالفتح وعيناً بالضم أهمه وعنى بالضم عناية وعنى كرضى قليل ، وعنى الأمر ... باب (علم يعلم) نزل وحدث ، وقال ابن منظور وشغف بالشئ شغفاً على صيغة ما لم يسم فاعله أولع به ، وشغف بالشئ شغفاً على صيغة الفاعل قلق) وقال : وشغفه يشغفه شغفاً وشغفاً بسكون الغين وفتحها ولذلك (وعك الرجل) ورجل وعك ووعك وموعوك ووعكة كوعده دكه فجاء بالمبنى للمعلوم وإن كان مستعملاً في معنى آخر ، وهزل الرجل والدابة قال في القاموس ، هزل كنصر ويضم وهزل كمنع الخ فلم ترد المادة تحت ضبط واحد وهو ضم الفاء وانظر مادة (زهى علينا) ، وبهت الرجل (وقد شهر في الناس) .

---

(١) سوى أذنه ونصبها للاستماع .

(٢) أصلبه الكزاز وهو تشنج يصيب الإنسان من شدة البرد وتعتريه منه رعده .

(٣) أصابه بالزكام .

(٤) وقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن رأى ابن جنى .

(٥) أنظر الخصائص جـ ١ ص ٣٤٧ ـ ٣٥٦ . جـ ٢ ص ١١٨ .

■ والكثير من الأفعال التى حصرها بعض العلماء تحت عنوان الأفعال الملازمة للبناء للمجهول ترجع إلى الأمور التى ترجع إلى اللغات مثل تعدد صورة المضارع والماضى مع اختلاف الصيغ من فعل ، وفعل ، وفعل مع اتفاق المعنى أو اختلافه ، وقد تابعت أكثر هذهخ الأفعال التى حصرها ابن سيدة في المخصص وثعلب في الفصيح والسيوطى في المزهر في معاجم اللغة فوجدت أنها جاءت على صيغ مختلفة بعضها استعمل كثير والصحيح هو المسموع عن أكثرهم ولكن هذا لا يجعلنا نقفل بعض الأساليب الواردة عن العرب تبعـ لاحكام تتعلق ببعض الصيغ كصيغتى التعجب وصيغة أفعل التفضيل وقد بينت اراء العلماء في هذه الأساليب ، والتحقيق في هذا البحث يجعلنا نضم أصواتنا الى أصوات العلماء الذين يحاولون إيجاد صورة مبنية للمعلوم لهذه الأفعال الملازمة للبناء للمجهول كابن درستويه ومن نحا نحوه واقتدى به الذى يعتد بأصل لهذا الفعل فهى أفعال لها أصول ليست مرفوضة وحيث أنها ليست مرفوضة فيصح مراجعتها إذا احتيج إليها وقد قال السيوطى في الأشباه والنظائر قال ابن جنى « أعلم أن الأصول المنصرف عنها إلى الفرع على ضربين(١) . أحدهما : إذا احتيج إليه أن يراجع والاخر ما لا يمكن مراجعته لأن العرب انصرفت عنه فلم تستعمله » .

■ وهذه الأفعال قد استعمل أصلها الذى رفضه بعض العلماء فمراجعة الأصل لهذه الأفعال قد أثبته ابن القطاع وابن دريد وبعض اللغويين مما رجعت إلى بعضه في القاموس وغيره .. ولو كان أصلها المبنى للمعلوم ممنوعا لنص عليه ابن جنى في مبحث مراعاة الأصول واهمالها ثم يقول ابن جنى(٢) : وإذا جاز أن تراعى الفروع فمراعاة الأصول أولى وأجدر . ولا شك أن المبنى للمجهول فرع عن المبنى للمعلوم فهذه الأفعال ليست ملازمة للمفعول بل هى مفتوحة الأوائل في الماضى فإذا لم يسم فاعلها فهى مضمومة الأوائل بدليل أن الاسم بعدها فاعل في المعنى لأنه هو الذى وقع منه الفعل أو قام ـ وفي نهاية التحقيق في هذا البحث أختم قولى بما قاله ابن درستويه :

(عامة أهل اللغة يزعمون أن هذا الباب لا يكون إلا مضموم الأول ، ولم يقولوا أنه إذا سمى فاعله جاز بغير ضم وهذا غلط منهم لأن هذه الأفعال كلها مفتوحة الأوائل في الماضى فإذا لم يسم فاعلها فهى كلها مضمومة الأوائل ولم يختص بذلك بعضها دون بعض) ، وقال ابن خالويه المتوفي سنة ٣٧٠ هـ في شرح الفصيح بعد أن ذكر هذه الأفعال « ومعناه أن الفعل من هذا الباب لا ينطق به على لفظ ما لم يسم فاعله وعليه فبعض المذكورات فيه نظر والصحيح ما قاله بعضهم أن بعضاً لم يبن قط للفاعل وبعضها بنى له أيضا لكن الفصيح بناؤه للمفعول »(٣) وسبق أن عرفنا نزعته الكوفية ولا شك أن الأخذ بهذه الاراء يؤدى إلى إلغاء الأحكام الخاصة بهذه الأفعال ويبيح في الثلاثى التعجب المباشر وكذلك التفضيل المباشر ويرد لتلك الأفعال اعتبارها وحقها ويجعل شأنها شأن غيرها من باقى الأفعال التى يصح أن تبنى للمعلوم حينا وللمجهول حينا آخر على حسب مقتضيات المعنى .

---

(١) أنظر الخصائص لابن جنى جـ ٢ ص ٣٤٧ باب فيما يراجع من الأصول مما لا يراجع .
(٢) أنظر الخصائص جـ ٢ ص ٣٠٤ .

(٣) أنظر مقدمة القاموس .

ومن ثمرة البحث :

حكم المضارع والأمر من هذه الأفعـال :

لكن ما حكم مضارع هذه الأفعال الملازمة للبناء للمجهول وكذا الأمر منه أيكون ملازماً للبناء للمجهول كالماضى ؟ أم يقتصر منه على ما ورد مسموعاً عن العرب ؟

■ الفيروز أبادى صاحب القاموس يعطينا رأياً قاطعاً حيث يقول في مقدمة القاموس(١) (هل المضارع فيها يأتى كذلك وفعل الأمر كما في قوله تعالى : « فهم على آثارهم يهرعون » ـ أو أن مرجعه إلى السماع ، والظاهر الثانى كما يدل له قول مترجم القاموس (حم الأمر مبنى للمفعول من باب نصر فنقول في المضارع : (يحم) ومثله (جن) ، ونتجت الناقة من باب ضرب فتقول : في المضارع : (تنتج) ، وعقرت المرأة من باب (حسن) فنقول في المضارع : (تعقر) فلينظر في حاشيته الشهاب الخفاجى في الصافات أو شرح أدب الكاتب في باب (المبنى لما لم يسم فاعله صورة) وقد قال الشهاب الخفاجى في حاشيته على البيضاوى في سورة الصافات عند قوله تعالى : « فهم على آثارهم يهرعون » .

الأهراع الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على الا سراع على آثارهم وفيه أشعار بأنهم بادروا إلى ذلك عن غير توقف على نظر وبحث قال الشهابى معقباً على هذا : كأنهم يزعجون أخذه من فعل الأهراع المجهول وقال أيضاً في سورة هود « فهم على آثارهم يهرعون » .
يسرعون إليه كأنهم يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه .

ثم يعقب الشهابى على هذا بقوله : ويهرعون جملة حالية والعامة على قراءته مبيناً للمجهول ، والإهراع الإسراع وقال الهروى هرع ، وأهرع استحث ، وقرأ جماعة يهرعون (بفتح الياء مبنياً للفاعل من هرع وأصله من الهرع وهو الدم الشديد السيلان كأن بعضه يدفع بعضاً فالمعنى على القراءتين يسوقون أو يسوق بعضهم أو يساقون بمعنى يسوقهم كبيرهم فتفسيره بيسرعون بياناً للمراد منه عليهما ، وقوله كأنهم يدفعون على المجهول إشارة إلى أنه استعارة .

ومن خلال رأى الشهابى أن المضارع من هذه الأفعال لا يخضع لصورة الماضى على البناء للمجهول فيجوز أن يبنى للفاعل .
وانظر لقولـه :
والعامة على قراءته مبنياً للمجهول وقراءة بعضهم بفتح الياء ..
كل هذه النصوص ترشدنا إلى المضارع والأمر لا يكون على الصورة الملازمة للمجهول تبعاً للماضى ...

● ● ●

■ والحمد لله من قبل ومن بعد فإذا وقعت على هفوة فسبحان من انفرد بالكمال وتنزّه عن الشريك والمثال ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

غوثاه

لفضيلة الشيخ / عبد الله بن أحمد قادرى . عميد كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية

غوثاه ـ يارب ـ للاسلام غوثاه   فكم من الكيد ـ يا الله ـ يلقاه
وما أقل الألى يحمون حوزته   من العدو الذى ما كلّ مسعاه
هذى يهود طغت في الأرض عاتية   وهم أذل عباد أوجد الله
عاثوا فسادا بأرض الرسل بل فسقوا   في قبلة المصطفى الأولى ومسراه
وللنصارى على الاسلام غارتهم   وكلهم بالغ في الكيد أقصاه
والملحدون وأهل الزيغ ما فتئوا   يهاجمون من الاسلام أعلاه

• • •

قد اغرقوا الجيل في طوفان باطلهم   فصار معبوده ما كان يهواه
وغاية الخلق أضحت عنده عبثا   رضا الإله الذى ما كان أغلاه
هانت عليه علا أجداده فهوى   إلى رذائل من بالكفر والاه
وحاملو العلم للطاغوت قد خضعوا   يحدوهم الخوف ثم المال والجاه

• • •

لكن أسد لهذا الدين قد وقفت   تهدى الحمام لمن يطغى وتهواه
وللفقيد أبى الأعلى الإمام هنا   مضمار سبق على الأقران وافاه
رأى المصائب بالاسلام نازلة   من كل صوب ، وخلق الله قد تاهوا
فشام سيف الهدى في وجه مغتصب   عات ، ومستعبد في الشعب والاه
وقام يدعو الى الاسلام مصطبرا   على أذى القوم معتزا بتقواه

• • •

كان انطلاق الفتى في الفكر مستندا   الى العقيدة (ركن الحق) مبداه

وليس يعدل بالوحيين غيرهما ... ما دام يوجد في الوحيين مبغاه
يرى الأئمة أعلاما ورمز هدى ... يفيد منهم اذا افتى فتاواه
لكنه يكره التقليد مقتفيا ... هدى الاله الذى التقليد ناواه
وكان في فهمه عمق يفوق به ... معاصريه الأولى تاقوا لعليـاه
غاصت مداركه في كل معترك ... من الحياة فكان كالنور انى سرت تلقاه

• • •

ولم يكن في سبيل الله تأخذه ... ملامة الناس ، والرحمن مولاه
كم حاولوا صده عن نشر دعوته ... فما انثنى ، بل تولى أمره الله
قالوا : اسجنوه . فزاد السجن قوته ... قالوا : اقتلوه . فقال : الله القاه

• • •

ربى رجالا على الاسلام تربية ... فيها الدليل على ما الله أولاه
به أحاطوا على حب وتضحية ... كما أحاطت بيعسوب خلاياه
كل الفئات انضوت في ظل دعوته ... على الاخاء الذى الرحمن يرضاه
هذا طبيب ، وذا قاض ، وغيرهما ... من عاملين ، ومن أغناهم الله
وألهب الروح في الأتباع فانطلقوا ... ما في الصواريخ للأتباع أشباه
راحوا يرومون تغييرا لواقعنا ... من الخمول ، ومن ذل الفناه
الى النهوض بهذا الجيل حيث غدا ... هم الفقيد الى أن زار مثواه

• • •

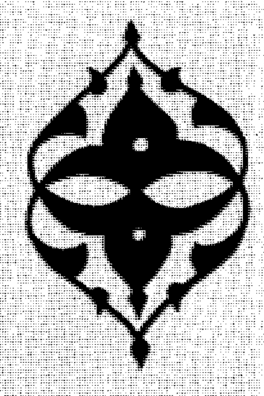
وكان يعلن أن الدين ليس كما ... يراه شيخ الزوايا في زواياه
بل منهج لحياة الناس اجمعهما ... لا يسعدون اذا ما عنه قد تاهوا
وسنة الله أن تعطى خزائنه ... من جد فيها وللكسلان أواه
وغاية السعى في الدنيا اقامته ... نظام حكم على الاسلام مبناه
وغسل أفكار هذا الجيل من درن ... احدى وسائله ، والغرس عقباه
ثم اصطفاء لأفراد وتربية ... فسلكهم في نظام طاب مغزاه
يليه سعى الى اصلاح مجتمع ... يرضى الشريعة ، لا قمع واكراه
والحكم ان فاته الاصلاح كان له ... من الفساد الذى الحكام تهواه

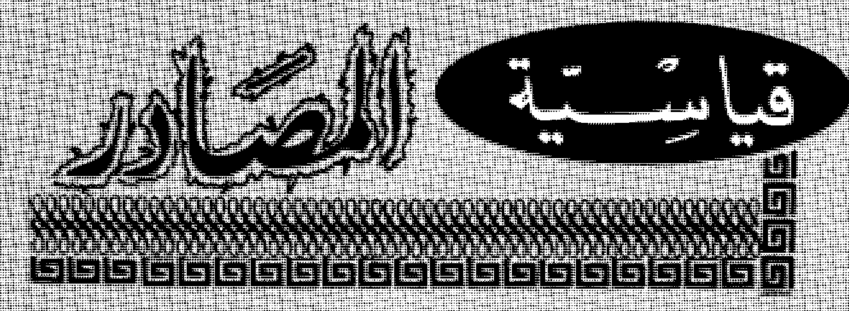
• • •

والجاهلية غزاها بواقعها ... فبان من زيفها ما كان غزاه
والعالم اليوم من عرب ومن عجم ... في الشرق والغرب هذا ليس يخفاه

وصاحب الحقد مدعو لتوبته ... وللرجوع لإرث ما فقدناه
هذي مآثره تحكي محامده ... جيل قوى بوحي الله رواه
وكتبه كلها نور يضئ لنا ... درب الجهاد الذى كنا أضعناه
وقد أبانت لباكستان دعوته ... ان السعادة فيما يشرع الله
وقد رأينا ضياء الحق متجها ... للحكم بالشرع أزكى الله مسعاه
لهفي عليك أبا الأعلى وقد فقدت ... بفقدك الأرض عملاقا خسرناه
لولا التأسي وأمر الصبر ما فتئت ... بالمسلم الحق تجرى الدمع عيناه
والله نسأل أن تغشاه رحمته ... وان يكون بدار الخلد مثواه
وأن يواصل جيش الحق رحلته ... حتى يحقق للاسلام مرماه
تابع طفيل خطى العملاق مرتقيا ... بالصحب فوق ذرا نصر تمناه
وقل لهم : عهدنا ما زال منعقدا ... فتابعونا على عهد عقدناه
وفي ممات رسول الله معتبر ... لن تأسي ، كما الصديق أبداه
غوثاه يارب للاسلام غوثاه ... بركب أمثال شيخ قد فقدناه

• • •





لفضيلة الدكتور/ محمد زين العابدين محسن سلامة
المدرس بكلية الدعوة بالجامعة الإسلامية

من أقسام الكلمة العربية الاسم ، وهو قسمان : جامد ومشتق ·

فالجامد : ما لم يؤخذ من غيره ، فهو قد وضع على صورته الحالية ابتداء ، فليس له أصل يرجع إليه ، وهو إما ذات وإما معنى ·

فالذات : ماتقوم بنفسها ، أى تدل على مجسم محسوس ، وذلك كأسماء الأجناس مثل : رجل ـ جمل ـ شجر ـ بيت ـ والدال على الذات هو اسم العين ·

والمعنى : مايقوم بغيره ، لأنه يدل على شيء معنوي محض ، لا وجود له في غير الذهن ويدركه العقل ، وذلك مثل : النصر ـ الضرب ـ الفتح ـ الفرح ـ والدال على المعنى هو المصدر ، ومنه يكون الاشتقاق ، وقد يجيء من أسماء الأجناس المحسوسة ·

والمشتق : ما أخذ من غيره ودل على ذات وحدث ، فهو يدل على شيئين ، وله أصل ينتسب إليه يقاربه في المعنى ويشاركه في الحروف الأصلية ، كالضارب والمضروب ... الخ

فالمصدر قسم من قسمي الجامد ، إذ هو اسم المعنى الذى هو أحد قسمى الجامد ، إذن فالمصدر جامد ·

وضابطه : هو اسم دال على الحدث ـ أى المعنى المجرد ـ جار على فعله ، فلا دلالة على ذات أو زمان أو مكان أو تذكير أو تأنيث أو مثنى أو جمع أو علمية ، فلا شيء أكثر من هذا المعنى المجرد ، وهذا هو الغالب الأعمَ ، لانه قد يدل على المرة مثل جال **جَوْلَةً** ، قال تعالى (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة)(١) ، أو الهيئة مثل : **جِلْسَةُ** المعتدل مريحة ، قال صلى الله عليه وسلم « إذا قتلتم فأحسنوا **القِتْلَةَ** وإذا ذبحتم فأحسنوا **الذِّبْحَةَ** »(٢) ·

■ **والمراد بالحدث : الذى لا يستقل ، بل يكون معنى قائما بغيره · ومعنى جريانه على الفعل : اشتماله على حروف فعله لفظا مثل : إكرام ، أو تقدير بدون تعويض** مثل : قتال ـ فإن ألف فعل هذا المصدر وهو « قاتل » وإن نقصت منه إلا أنها موجودة تقديرا ، بدليل ظهورها أحيانا مقلوبة ياء لوقوعها بعد الكسرة فيقال : قيتال في نطق لبعض قبائل العرب ـ وهذا لغة أهل اليمن ـ **أو تقديرا مع التعويض** مثل : زنة ، فالتاء عوض عن فاء الفعل وهو وزن ، ومثل : تقديس ، فالتاء عوض عن الدال المكررة في الفعل وهو قدّس ·

(١) الحاقة ١٣

(٢) الترمذى ـ الديات ١٤

(النسائى ـ الضحايا ٢٢ ، ٢٧

■ والمصادر لها أبنية معروفة في علم الصرف ، وهذه الأبنية هل لها قياس مطرد لا تخرج عنه ولا تحيد ، أو هى سماعية المعول فيها على السماع وممنوع الخروج عليه ؟.

اتُّفق على أن مصادر الفعل غير الثلاثى ـ الرباعى والخماسى والسداسى ـ تسير على نظام معين مستقر ، لا يتغير ولا يتبدل ، فلها قاعدة ثابتة قياسية لا تحيد عنها ، فمثلا إذا قيل : كل فعل رباعى على « أفْعل » مصدره « الإفْعال » فإنا نرى جميعها مثل : أكرم ـ أوعد ـ أفاد ـ أعطى ـ لا يخرج مصدرها عن الإفعال ، مع قلب أو حذف وتعويض أو إبدال في بعضها ، وكذا إذا قيل : « تفعّل » مصدره « تفعُّل ».

أما مصادر الفعل الثلاثى فقد اختلف العلماء في قياستها ، وفي معنى هذا القياس على ثلاثة مذاهب.

١ ـ يرى بعض العلماء أن مصادر الثلاثى لم تجْر على أوزان معينة ، بل وردت على أوزان شتى متابينة ، لا ضابط لها ولا قياس يجمعها ، فهى إذن سماعية نتيجة لهذا ، ويجب أن نقف عند المسموع ، فلو وجد فعل وأردنا معرفة مصدره نقف عند نطق العرب فيه ، ولو ورد فعل ولم يعلم كيف نطق العرب بمصدره فلا مصدر له ، ولا يجوز النطق بمصدر له على قياس أمثاله.

ولا يخفى ما يستلزمه هذا من التعويق والتعنت ، والوقوف أما بلوغ اللغة درجة الكمال ، والوفاء بحاجات الإنسان المتجددة ، وتعطيل الكثير من الكلمات التى يجوز لنا أن نحصل عليها بالقياس على أمثالها ، وذلك لكثرة أفعال هذا النوع كثرة يتبعها الكثير من المصادر.

٢ ـ ويرى سيبويه وتبعه الأخفش أن مصدر الثلاثى قياسى ، فله ضوابط يخضع لها ، ولكن هذه الضوابط لا يصح استخدامها قياسيا مطردا قبل الرجوع إلى السماع في مظانّة ، ويجب الاقتصار على المسموع وحده بعد البحث عنه والعثور عليه ، ويوقف عنده ، فإن لم يوجد سماع تستخدم الضوابط والأقيسة للحصول على المصدر ، بمعنى أنه إذا وَرَد فعل وسمع له مصدر أخِذ به ، لأننا مقيدون بالمصدر الذى نطقت به العرب وعرفناه عنهم ، ولا داعى معه لإيجاد مصدر جديد لم تنطق به نصًا ، أما إذا لم يعلم لهذا الفعل مصدر ، فإننا نأتى بمصدره على الوزن الغالب المقرر في أمثاله ، لأن كثرة استعمال بناء أى مصدر لأى فعل مصححة للقياس عليه ، قال سيبويه « ولكن الأكثر يقاس عليه »(١).

وقال بذلك ابن مالك ، وردده الشيخ خالد(٢) والأشمونى(٣) في كتبهم ، وهذا الرأى هو الذى جرى عليه علماء الصرف واعتمدوه في كتبهم.

■ وتطبيقا لهذا الرأى فالفعل مثلا « عَلِمَ » لا يأتى مصدره على « فَعْل » ـ بفتح الفاء وسكون العين ـ فيقال : « عَلْم » كما هو مقتضى قياس أمثاله ـ وهى الفعل الثلاثى المتعدى ـ لأنه قد سمع فيه « عِلْم » ، فيؤخذ بهذا المصدر في هذا الفعل ، بدون قياس على الوزن الغالب وهو « فعْل ».

٣ ـ ويرى الفرّاء أن مصادر الأفعال الثلاثية قياسية ، ومعنى القياس عنده : أنه يجوز القياس على الكثير الشائع ، سواء ورد السماع به أو بخلافه ، أى يسوغ لنا في كل فعل ثلاثى أن نأتى بمصدره على الوزن الغالب في أمثاله ، وإن سمع له مصدره على خلاف هذا الوزن ، لأن ماقيس على كلام العرب فهو من كلامهم ، ويجوز استعمال أى المصدرين شئت ، القياسى أو السماعى إن عرفته.

---

(١) الكتاب ٢ / ٢١٥

(٢) أنظر التصريح ٢ / ٧٣

(٣) انظر حاشية الصبان ٢ / ٣٠٤

■ فمثلا « علم » فعل ثلاثى متعدَ ، وقياس مصدر مثله أن يكون على « فعْل » فلك أن تقول في مصدره « علْم » ـ بفتح العين وسكون اللام ـ وإن كان قد سمع له اخر هو « علْم ـ بكسر العين وسكون اللام ـ ولا يهمل المسموع بل أنت بالخيار في استعمال أحدهما ..

وهنا وقفة مؤيدة لما ذهب إليه الفراء لما يأتى :

١ ـ الفراء إمام كبير له مكانته اللغوية والنحوية ، يقول فيه ثعلب ـ إمام الكوفة في عصره ـ « لولا الفراء ماكانت عربية ، لأنه خلَصها وضبطها(١) » . وقيل فيه « الفراء أمير المؤمنين في النحو . »(٢) وقيل أيضا « لو لم يكن لأهل بغداد من علماء العربية إلا الكسائى والفراء لكان بهما الافتخار على جميع الناس . » (٣) وكذلك افتخر به أهل الكوفة (٤) ، وكذلك قيل فيه « كان ثقة إماما »(٥) وقال فيه الفقيه محمد بن الحسن ـ صاحب أبى حنيفة ـ بعد مناقشة علمية « ما ظننت ادميا يلد مثلك . » (٦) ، وأخيرا قال فيه أستاذه الكسائى ـ رأس المدرسة ومؤسسها « الفراء أحسن عقلا ، وأنفذ فكرا ، وأعلم بما يخرج من رأسه . » (٧) ، وغير ذلك كثير (٨) .

وأمام هذه العقلية التى أخذ صاحبها هذه النعوت ، والتى ورثت علم الكسائى وأصبح امام الكوفيين بعده ـ لاضير ولا تثريب إذا أخذ بمذهبه في قياسية مصدر الثلاثى ، وبخاصة إذا كان في هذا الرأى إفادة اللغة .

٢ ـ ماقال به الفراء مستنبط من أكثر الكلام العربى فصاحة وصحة وشيوعا ، فالعمل بما استنبطه إنما هو تطبيق صحيح على ذلك الكثير المسموع ، ومجاراة سليمة للشائع الوارد عن العرب ، ومحاكاة سائغة لصحيح نطقهم .

■ **وهذا هو معنى القاعدة** ، فهو حكم عام مستنبط من الكثير الوارد عن العرب ، منتزع من الغالب الذى استعملوه ، وعلى ذلك كيف نمتنع عن القياس على ذلك الكثير حين يوجد ما يخالفه في نطق القليل ، وأن نقتصر على ذلك المخالف وحده دون استخدام القياس الذى يجرى على نهج المخالف له ؟ أليس من الأولى أن نعتبره شاذا خارجا عن الكثرة كما نصف الفاعل ؟

٣ ـ قصر القياس على الأفعال التى لم يرد لها مصادر مسموعة ، يقتضينا أن نرجع لكل المظان المختلفة ونطيل البحث ، وذلك حتى نطمئن إلى عدم وجود مصدر سماعى للفعل كى نستبيح استعمال المصدر القياسى ، وفي هذا من الجهد المضنى والوقت الطويل مالا يقدر عليه خاصة الناس ، فكيف الحال مع الذى يطلب تعلم اللغة ؟ ولو أخذنا به قبل استعمال كل مصدر لحملنا أنفسنا مالا نطيق ، ودفعناها دفعا عن الانصراف إلى لغتنا ، حتى مع وجود المعاجم فيه جهد ووقت وبخاصة مع المتعلم ، وليس كل مبتدئ أو شاد في اللغة يملك معاجم أو أحدها ، **يضاف إلى ذلك** ، أن هذا العمل جهد ضائع وعمل مكرر ، فلقد استنفد ثقات الأئمة والعلماء جهدهم في استنباط قواعدهم ، وانتزاع أحكامهم ، من غالب كلام العرب الفصيح ، في دقة وأمانة ، فلا مكان لإيجاب الرجوع إلى المسموع قبل استعمال الضوابط والقواعد ، لأن في الرجوع إضاعة للجهد والوقت ، وتعجيز لغير المتفرغين المشتغلين باللغويات ، وإهمال لرأى الثقات من العلماء المتخصصين المتفرغين ، إهمالا يستحيل معه أن تستقيم أمور ، أو يستقر لها وضع صالح واضح .

فدفعا لهذا يؤخذ بما استنبطه ثقات العلماء ، ويستند إليه ، من غير بحث في كلام عربى ، أو في مرجع لغوى أو غيره ، ولو كان البحث لا يكلفنا جهدا ولا وقتا ، . .

■ وهذا ما درجنا عليه في التعليم والتعلم ، يذكر الفعل وتطبق عليه القاعدة للحصول على مصدره بدون رجوع إلى مظانّ السماع ، تطبيقا لرأى الفراء ، ولم يكن لرأى سيبويه من نصيب سوى السطور التى تكتب تبيانا لرأيه .

١ ـ ٨ إنباه الرواة ٤ / ١ ـ ١٧

٤ ـ لم يقتصر الأمر على الفرّاء بل جاء بعده غيره ممن له مكانته وقال بمثل ذلك .

كابن جنّى فهو القائل « ماقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب » (١) والقائل « ليس كل مايجوز في القياس يخرج به سماع ، فإذا أخذ إنسان على مثالهم وأَمّ مذهبهم لم يجب عليه أن يورد في ذلك سماعا ، ولا أن يرويه رواية . » (٢) .

وقال بقياسية مصدر الثلاثى أيضا الزمخشرى ، ومكانته معروفة . (٣) .

ونقل عن أبى حيان أنه قال : « إنما نبنى المقايس العربية على وجود الكثرة . » (٤) .

■ وعلى ذلك تصاغ مصادر الفعل الثلاثى على النهج الغالب في كلام العرب ، وقد يكون هذا المصدر الذى لم تنطق العرب بلفظه نصا غريبا على الأسماع ، ولكن هذه الغرابة وتلك الوحشة تزولان بالاستعمال .

ولايتحتم استعمال هذا القليل ، بل يعتبر من النادر في كلامهم الذى لا يقاس عليه ، ويسمى : مصادر سماعية ـ مصادر شاذة ـ مصادر قليلة الاستعمال ـ أو غير ذلك من الأسماء الدالة على قلتها وندرتها .

ولذلك نظير في مصادر الأفعال الرباعية التى قال الصرفيون بقياسيتها ، فقد قالوا : فا عل مصدره . « المُفاعلة » و « الفعال » والثانى قليل بالنسبة للأول ، ويتعين تركه فيما فاؤه ياء مثل « ياسر ـ يامن » ـ أخذ بيساره أو بيمينه ـ وتجب فيه « المُفاعلة » فنقول : مَيامنة ومَياسرة ، ويمتنع أن نقول على الوزن : يمان ويسار بكسر الياء فيهما ، لثقل الكسرة على ا الياء في أول الكلمة وشذ ياومة يواما ـ المعاملة بالأيام ـ حكاه ابن سيده وحكى مياومة على القياس (٥) **فنقول في مصدر الثلاثى أيضا** : علم مصدره « علْم » وشذ « علَم » ، على أنه يجوز استعمال هذا المصدر المسموع مع المصدر القياسى ، فمن شاء استعمال المسموع أو القياس فله ماشاء ، فإن استعمال أحدهما مباح ، فورود السماع لا يلغى القياس ، ولا يمنع استخدام القاعدة المخالفة له .

ولعل ماسبق كان في ذهن أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، فلقد أصدر قرارات قياسية مصادر الثلا ثى فقال :
للأفعال الثلاثية مصادر تأتى على أوزان شتى ، منها الكثير المشهور . ومنها القليل المهجور ، فجعل بعض النحويين كثير الورود قياسيا ، وجعل بعضهم جميع المصادر الثلاثية سماعية ، فاختار المجمع المذهب الأول ، وهو مذهب سيبويه والأخفش وابن مالك وكثير ممن تابعهم ، ومنهم الفراء ـ وهو يجيز القياس على جميع المصادر الثلاثية القياسية ولو سمع غيرها من وزن اخر . (٦)

■ ويقول في موطن اخر ، في تكملة مادة لغوية لم تذكر بقيتها ، كإذا لم تذكر من مادة لغوية في المعجمات ونحوها إلا ألفاظها ، كالمصدر أو الفعل أو أحد المشتقات الأخرى .

---

١ . ٢ الخصائص ١ / ٣٦٢ ـ ٣٦٧

(٣) النحو الوافى ٣ / ١٩٠

(٤) الهمع ١ / ٢١٧

(٥) انظر التريح ٢ / ٧٦

(٦) الألفاظ اللغوية خصائصها وأنواعها للأستاذ عبد الحميد حسن ص ٢٦ وما بعدها .

■ وكل ما تقدم جائز ما لم ينص على أن الفعل ممات أو محظور ، وما لم يسمع عن العرب ما يخالفه ، فإن سمع عملنا بالمسموع فقط ، أو عملنا بالمسموع والقياس (١) .

ويقول الأستاذ عبد الحميد حسن في كتابه « الألفاظ اللغوية خصائصها وأنواعها » : فماذا يمنعنا من زيادة أوزان وصيغ نرتضيها في عصرنا وفي عصور قادمه ، مادامت جارية على سمت مانطق به العرب ، ومقيسة على كلامهم (٢) .

ويقول : وإن مجمع اللغة العربية في القاهرة ، قد قطع شوطا محمودا وبذل همة مشكورة في البحث والدرس ، للوصول إلى التوسع في صيغ الأفعال المزيدة ، وصيغ بعض الأسماء والمشتقات ، ووصل في هذا المجال إلى قرارات لها عظيم الأثر في تنمية اللغة وتوسيع أفاقها ، وقد سار في ذلك على السنن اللغوى القويم ، المستمد من الأشباه والنظائر ، ومن الأصول اللغوية التى تساير نمو اللغة واكتمالها (٣) .

ومن هذه القرارات قرار قياسية المصادر الثلاثية على مذهب الفراء السابق ذكره .

* • *

مراجع البحث

١ الكتاب لسيبويه .
٢ الخصائص لابن جنى .
٣ التصريح للشيخ خالد الأزهرى .
٤ همع الهوامع للسيوطى .
٥ شرح ألفية ابن مالك للأشمونى .
٦ إنباه الرواه للقفطى .
٧ تصريف الأسماء للشيخ محمد طنطاوى .
٨ النحو الوافى للأستاذ عباس حسن
٩ الألفاظ اللغوية خصائصها وأنواعها للأستاذ عبد الحميد حسن .
١٠ تصريف الأسماء للدكتور محمد زين العابدين حسن سلامه .

---

(١) المرجع السابق ٢٤ ـ ٢٥
(٢) المرجع السابق ٢٣ .
(٤) المصدر السابق ٢٣ .